دكتور
عبد المنعم إبراهيم الدسوقي الجميعي
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر
بجامعة القاهرة — فرع الفيوم

مصر
في التاريخ الحديث والمعاصر

١٧٩٨ - ١٩٧٣

مع مجموعة بحوث ودراسات

الطبعـة الأولى

١٩٩٢

تاريخ مصر خط متصل قد
يصعد أو يهبط وقد يدور
حول نفسه أو ينحني ولكنه
أبداً .. لا ينقطع


بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

مصر امة عريقة يمتد تاريخها الى ماض موغل فى القدم وقـــــد مر بها على مســـــار ذلك الماضى الطـــويل عصور ازدهار وانحطـــاط فمـــن تقدم حثيث فى مجـــال الفكر والحضارة حينـــا الى جثوم جحافل الطامعين والغزاة على أرضهـــا حينا آخر ، وهى فى كلتا الحـــالتين كانت مصدرا للحياة الفكرية والحضارية . وظلت أوربا حتى أواخـــر القرن الثـــامن عشر تحفظ لمصر الكثير من الاحترام حتى تأمل نفر من السائحين الاوربيين احوالها ، وتعرفوا عـــلى ما تملكها من ضعف فى ظل الحـــكم العثمـــانى وكتبوا عن ذلك مما دفع بعض دول أوربا بخاصـــة فرنســـا الى التفكير فى غزوها

وعلى الرغم من أن الحملة الفرنسية على مصر لم تستمر ســـــوى ثلاث سنوات تقريبا ، فقد كانت لها نتـــائج مهمة جعلت بعض المؤرخين يعدها البداية الحقيقية لتاريخ مصر الحديث [1] ويستندون فى ذلك الى أنها انهت العزلـــة القائمـــة التى عاشـــتها مصر ، واظهـــرت أهميتهـــا كمنطقة استراتيجية هامة بالنســـبة للقوى المتصـــارعة حتى أن بريطانيا اخذت تتحين كل الفـــرص المواتية للاستيلاء على مصر ، هـــذا الى جانب انها كانت نقطـــة التحول الواضحة بين مصر العصور الوسطى ومصـــر الحديثة . وعلى الرغم من فشـــل حملة فريزر ، ومحـــاولات محمد على ابعـــاد مصر عن حلبـــة الصراع الاوربى ، وجعلهـــا ركيزة لدولة قوية خـــاضعة له فقد وقفت له بريطـــانيا بالمرصـــاد وعرقلت مشروعاته ،

---

(1) بداية العصور التاريخية ليســـت واحدة فى كل مكان ، وانمـــا سبقت بعض الاقطار غيرها وتأخر بعضهـــا الآخر ، وان كان البعض يعـــد الفتح العثمانى هو بداية تاريخ العالم العربى الحديث .

واجبرته فى النهـــاية على قبول معاهدة لندن ١٨٤٠ ، ثم اخــذت تتحين الفرص فى عهــد خلفائـــه للسيطرة عـــلى مصر حتى تحقق لها ذلك ، وتمكنت من احتـــلالها فى عـــام ١٨٨٢ ، كما انتهزت فرصـــة قيام الحرب العالمية الاولى وانضمـــام تركيا الى جانب المانيا ، واعلنت حمـــــايتها على مصر .

وللشعب المصرى كفــاح طويل ضد الاستعمار البريطـــانى رغــم أســـاليب القمع والعنف ومناورات السياسة البريطانية ابتداء من تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ الى معاهدة ١٩٣٦ وكانت نظرته منذ ظهـــور حـــركة مصطفى كامل ومحمد فريد واشتعال ثورة ١٩١٩ ان عمـــاد الاستعمـــار فى مصر هو الاحتلال الجـــاثم على صـــدر البلاد وأن محور الحـــل هو الجـــــلاء .

وخلال الحرب العالمية الثانية ازداد التدخل البريطانى فى شـــــئون مصر الداخلية لضمان سياستها الموالية له ، وابرز الأمثلة على هذا التدخل الســـافر كان حادث ٤ فبراير ١٩٤٢ الذى حاصرت فيه القوات البريطانية قصر عابدين وارغمت الملك على تكليف النحاس بتاليف الوزارة .

وفى اعقاب الحرب وانتصـــار الحلفاء شـــهدت مصر العـــديد من القلاقل السياسية ، وزاد الطين بلة ما حدث للجيش المصرى خـــلال حرب فلسطين ١٩٤٨ وتطورت الامور بقيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ وانهيار الملكية وقيام الجمهورية ودخول مصر فى مرحـــلة جديدة من تاريخها ، وحملها لواء الدفاع عن قضـــايا العرب التاريخية وبسبب اتساع هذه الموضوعات وتشعبهـــا وتشابكها فان عمل دراســـة متكاملة عنها فى مجلد واحـــد ليست من الأمور الهينة ولذا اضطررنا الى الاقتضـــاب فى معالجة بعض نواحيها حتى لا يخرج الكتاب عن الحجم المعقول ، وعذرنا فى ذلك ان كل فصل من فصول الكتاب كان من الجائز أن يكون مجلدا قائما بذاته .

يضاف الى ذلك اننا رأينا من المفيد اعادة طبع بعض البحوث والدراسات الخاصة بتاريخ مصر الحديث والتى كانت قد نشرت فى بعض الدوريات العلمية بعد أن تم الاشتراك بها فى ندوات علمية خشية ضياعها فى زحمة التأليف والتواليف التى يزخر بها سوق النشر فافردنا لها فصلا خاصا ، كما أفردنا فصلا لبعض رجالات النهضة المصرية فى العصر الحديث ولنا عظيم الرجاء فى أن نكون قد وفينا تاريخ مصر الحديث والمعاصر بعض حقه .

والله ولى التوفيق

د. عبد المنعم الجميعى

القاهرة — المهندسين اغسطس ١٩٩٢

الفصل الأول

الحملة الفرنسية على مصر والشام

أسبابها — وقائعها — سياسة بونابرت الاسلامية — ثورة القاهرة الأولى — حملة بونابرت على بلاد الشام — الجنرال كليبر يتولى قيادة الحملة بعد نابليون — مينو وقيادة الحملة
نتائج الحملة :

— الآثار والنتائج السياسية
— الآثار والنتائج العلمية .
— الآثار والنتائج الاجتماعية .
— الآثار والنتائج الصحية .
— الآثار الادارية للحملة .



اولا : اسبـــاب الحملة :

تختلف آراء المؤرخين حـــول اسباب الحملة الفرنسية على مصـــر وفيما يلى نعرض لوجهات نظرهم :

١ ـــ رغبة حكومة الادارة فى فرنسا فى التخلص من بونابرت بعـــد انتصاراته الباهرة فى ايطاليا ، وذلك عن طريق ارســـاله فى حملة جديدة تبعـــده عن باريس حتى ينســـاه الشعب الفرنسى ، وقد وجدت فـــى تعيينه لقيـــادة الحملة على مصر فرصة مواتية لتحقيق رغبتها .

٢ ـــ رغبة الفرنسيين الملحة فى انشـــاء مستعمرة لهم فى الشـــرق تعوضهم عن ضياع مستعمراتهم فى أمريكا وكندا والهند وعلى الخصوص انه كان من المتعـــذر عليهم أن ينبذوا فكرة انشاء امبراطورية استعمارية لهم ، وتشـــجيع دى شـــوازيل Choiseul أحد وزراء خـــارجية فرنســـا ، وتاليران Talleyrand عضو المجمع الفرنسى على ذلك .

٣ ـــ معـــاقبة البكوات المماليك المسيطرين على زمام الأمور فـــى مصر والذين اقاموا الصـــلات الودية الوثيقـــة مع الانجليز ، واســـاءوا معاملة التجار الفرنسيين ونهبوهم[١] ، وتشجيع القنصل الفرنسى شارل ميجالون Magallon على ذلك[٢] .

٤ ـــ القضـــاء على سيطرة الانجليز على البحر الأحمر والهند ، والقيـــام بشق برزخ السويس واتخاذ الوسائل اللازمة لضمان استيلاء فرنســـا كليا على البحر الأحمر وامتلاكه .

٥ ـــ المنافسة القديمة بين فرنسا وبريطانيا على التجارة الشرقية، ومحاولة فرنسا الاقتصاص من الانجليز الذين يناصبونها العداء بتقويض نفوذهم فى ممتلكاتهم بالهند ، واجبارهم على عقد الصلح معهـــم بعـــد احتلالهم لمصر .

٦ — توقع انهيار الدولة العثمانية وتقسيم أملاكها بين الدول الكبرى وخشـــية الفرنسيين من أن تسبقهم احـــدى الدول الكبرى فى الاستيلاء على مصر التى يرغبون أن تكون من أملاكهم لما تربطهم بها من صــــلات تجارية قديمـــة (*) .

٧ — رغبة بونابرت فى كسب أكاليل جديدة من الشهرة والمجـــد والتشبه بالاباطرة والقيـــاصرة القدامى أمثال الاسكندر المقدونى ويوليوس قيصر وغيرهما وذلك بتشييد امبراطورية فى الشرق (٣) .

٨ — تنمية علاقات فرنســـا التجـــارية مع الشرق ، وذلك عـــن طريق ارسال حملة للاستيلاء على مصر كى تمكنهم من المحـــافظة عـــلى تجـــارتهم بها وصيانتها وتنميتها وبخاصة وان بريطانيا كانت منـــافسا خطيرا لهم فى مصر ، وان هذه التجـــارة كانت تدر عليهم الأرباح الوفيرة نظرا لانها كانت تنقل البهـــارات والتوابل من الهند الى أوربا (٤) وقد اكد ذلك « تاليران » فى خطابه الموجه الى بونابرت فى سبتمبر ١٧٩٧م بقوله « ان مصر كطريق تجـــارى ستعطينا تجـــارة الهند ، لأن المعـــول فى التجارة على الوقت ، وبالاستيلاء على مصر نستطيع أن نقوم بخمـــس رحلات مقابل ثلاث بالطريق المعتاد حول رأس الرجاء الصالح » .

٩ — التقـــارير المشجعة للقناصل والرحالة الفرنســـيين وخاصة بعد أن كشفت تقـــارير هؤلاء القنـــاصل سواء فى مصر أو استنبـــول حقيقة الأوضاع التى تعـــانى منها الدولة العثمانية كما اكد ذلك كتابات الرحالة الفرنسيين مثل « سفارى » و « فولنى » و « توت » الذين أكدوا قرب انهيـــار الدولة العثمانية ، وان اسراع فرنســـا فى الاستيـــلاء على مصر يخدم المصالح الفرنســـية ، ويحد من طغيان المماليك بها .

ثانيا : وقائع الحمـــلة :

ونتيجـــة لمجمل هذه الأسباب اصـــدرت حكومة الادارة فى ١٢ من ابريل ١٧٩٨م قرارها بوضـــع جيش الشرق تحت قيـــادة بونابـــرت للاستيلاء على مصر . وتحت ستـــار من الكتمان غادر بونابرت بـــاريس فى صباح اليوم الرابع من مايو عام ١٧٩٨م متوجها الى مينـــاء «طولون»

حيث قام بانتقاء القادة والضباط والعلماء والجغرافيين والمهندسين الذين سيصحبونه فى حملته كما اظهر مهارة فائقة فى تجهيز الحملة بكافة المعدات والأدوات العلمية ، وجلب من روما المطبعة العربية واليونانية واحضر معها مجموعة من المتخصصين بصف الحروف العربية وطباعتها ، والى جانب ذلك احضر معه العديد من الكتب الخاصة بمصر وبلاد الشرق للاستفادة منها خلال رحلته(٥) . وقد خرجت الحملة من ميناء طولون متوجهة الى مالطة فى عام ١٢١٣هـ الموافق التاسع من يونيو ١٨٩٨م واستطاع بونابرت الاستيلاء عليها وتأديب فرسانها بحجة انهم لا يقيمون وزنا لأوامر الجمهورية الفرنسية ، وفى صبيحة التاسع عشر من يونيو تحركت الحملة من مالطة الى الاسكندرية ولم تتبع الحملة — خلال ذلك — فى سيرها طريقا مستقيما بل حولت اتجاهها خشية ان يفاجئها الاسطول الانجليزى فى عرض البحر المتوسط فابحرت صوب جزيرة كريت (٦) وهناك علم بونابرت ان الاسطول الانجليزى بقيادة الاميرال « نلسن » Nelson يجد فى البحث عنه ، ونتيجة لذلك بدأت الحملة تأخذ اتجاهها الى الجنوب الشرقى قاصدة الاسكندرية رأسا، وبعد ان بلغتها علم بونابرت ان الاسطول الانجليزى الذى سبقه الى الاسكندرية بثلاثة ايام فقط قد غادرها للبحث عن حملته فى مياه ازمير التركية . ونتيجة لذلك قرر بونابرت انزال جنده فى الحال الى البر خشية ظهور الأسطول الانجليزى مرة ثانية ، وكانت خطته تتركز فى توزيع قواته فى عدة مواقع والاستيلاء على الاسكندرية ودمياط فى وقت واحد ثم التوغل من هذين المركزين الى الدلتا ، والوصول الى القاهرة بأقصى سرعة ولكنه سرعان ما عدل عن هذه الخطة بعد أن وصلته الأخبار عن اقتراب الاسطول الانجليزى من الاسكندرية فأمر بانزال جنوده ومهماته بسرعة والزحف على الاسكندرية واحتلالها . وكانت توصيات بونابرت الى قواته تنحصر فى قوله لهم « أيها الجنود انكم توجهون الآن ضربة مؤلمة الى بريطانيا وانى لمؤمن بالنجاح فيما شرعنا به وسنفنى المماليك الذين اهانوا فرنسا بعد بضعة أيام واعلموا أن الرغبة الأولى للشعب الذى ستعيشون بينه هى « لا اله الا الله محمد رسول الله » فلا تعاكسوهم فى معتقدهم واعلموا ان النهب يحقر الجيش، وان المدينة التى هى الآن امامكم وغدا ستحتلونها قد بناها الاسكندر(٧) » .

وقد قاوم أهل الاسكندرية بقيادة حاكم مدينتهم « محمد كريم » الجيش الفرنسى ودافعوا عن اسوار مدينتهم غير أن هذه المقاومة لم تستمر سوى ساعات قليلة نزلت بعدها القوات الفرنسية الى الاسكندرية فى الثالث من يوليو ١٧٩٨م وكانت الخطوة التالية لهم هى الزحف على القاهرة فأرسل بونابرت حملة للاستيلاء على رشيد ، كما أرسل بعض ضباطه البحريين باسطول صغير من المراكب الخفيفة الى مصب النيل اما باقى الجيش فقد زحف على القاهرة بالطريق الصحراوى ، ولم يكن هذا الزحف نزهة عسكرية بل لقى الفرنسيون فى اثنائه الشدائد والأهوال[٨] وقبل نزول الحملة الى القاهرة وعد بونابرت وهو على ظهر السفينة « أوريان » فى ١٨ من محرم ١٢١٣ الموافق الثانى من يوليو ١٧٩٨م بتأمين الأهالى على ارواحهم واعراضهم واموالهم وشعائرهم الدينية ، كما وعد باحترام شعور اهالى البلاد وعاداتهم ، واكد على احترام الاسلام والمسلمين ، ومصادقة الدولة العثمانية ، وان الفرنسيين ما جاءوا الى مصر الا للاقتصاص من المماليك الخارجين عن طاعة السلطان ، والذين يعذبون الأهالى ويستولون على ارزاقهم .

وقد حدث أول اشتباك كبير بين المماليك والجيش الفرنسى فى « شبراخيت » فى ١٤ من يوليو ، ومع أن المماليك كانوا قد اتخذوا العدة لمقابلة الفرنسيين ، وصمموا على مفاجأتهم قبيل الوصول الى القاهرة فوزعوا الى قسمين الأول برئاسة « ابراهيم بك » وقد ظل مرابطا على الضفة اليمنى للنيل فى بولاق اما القسم الآخر فكان بقيادة مراد بك على الضفة اليسرى وسرعان ما لاحظ « بونابرت » ضعف ترتيبات اعدائه فاعتمد على الحركة السريعة فى مناوراته العسكرية معهم ، ونجح فى اختراق صفوف المماليك حتى ولوا منهزمين ، ولم يستطع مراد بك السيطرة على زمام الأمور فتقهقر بقواته الى القاهرة[٩] ودخل بونابرت الجيزة ، وحينما راى اهراماتها قال لقواته مشيرا باصبعه الى قمم الأهرام « ان اربعين قرنا من الزمان تنظر اليكم » .

وفى ٢٤ من يوليو دخل الفرنسيون القاهرة ، واتخذ بونابرت مقر قيادته العامة فى سراى الألفى بميدان الأزبكية واخذ فى تنظيم شئون الحكم فى مصر[١٠] .

اما عن فلول المماليك فقد انسحبت الى الصعيد حاملة معها نفائسها واموالها وحريمها ، وحذا حذوهم عديدون من كبار المصريين الذين كانوا على سعة من العيش تمكنهم من استئجار الدواب لنقل متاعهم وثرواتهم .

ولكى يقرب بونابرت المصريين منه اعرب عن حسن نواياه تجاههم وتجاه السلطان العثمانى بصفته خليفة للمسلمين ، وبدأ فى استمالتهم وتحريضهم ضد المماليك فعلق منشورا لأهالى القاهرة جاء فيه «اننى ما قدمت اليكم الا لأخلص حقكم من يد الظالمين واننى اكثر من المماليك اعبد الله سبحانه واحترم نبيه والقرآن العظيم » .

كما تظاهر بالاسلام بقوله « ان الفرنساوية هم ايضا مسلمون مخلصون .. والمصريون بأجمعهم ينبغى أن يشكروا الله سبحانه وتعالى لانقضاء دولة المماليك وعليهم أن يقولوا بصوت عال ادام الله اجلال السلطان العثمانى ادام الله اجلال العسكر الفرنساوى ، لعن الله المماليك واصلح حال الأمة المصرية »[11] يضاف الى ذلك أن بونابرت صار ينشر المنشورات التى يطعن فيها على ديانة النصارى ويمدح الاسلام ، واشرك المصريين اشراكا محدودا فى الحكم فألف مجلسا نيابيا كان يحوى عددا كبيرا من رجال الأزهر ، كما شرع فى تنظيم الادارة الأهلية فشكلت الدواوين لمعاونة الحاكم الفرنسى على ادارة شئون البلاد واستتباب الأمور فيها ، ولم تمض ايام قليلة على ذلك حتى وصلت الأخبار الى بونابرت بوقوع كارثة « أبى قير » البحرية وهزيمة الأسطول الفرنسى هناك ، مما كان له اكبر الأثر على اضعاف مركز الحملة فى مصر ، والقضاء على هيبة الفرنسيين فى نفوس الأهالى ، ثم القضاء فى نهاية الأمر على مشروع ارسال الحملة المرتقبة الى الهند يضاف الى ذلك ان تحطيم الأسطول الفرنسى فى « أبى قير » ادى الى قطع المواصلات بين فرنسا وحملتها فى مصر ، واضعاف الروح المعنوية لدى القوات الفرنسية كما ادى الى التجاء الفرنسيين للاعتماد على موارد مصر الداخلية اعتمادا كليا مما ساعد على اثارة الاضطرابات فى الأقاليم وتحريك الثورة فى القاهرة [12] والى جانب ذلك فقد تشجعت

الدولة العثمانية على الانضمام الى بريطانيا والروسيا فى تحالف ضد فرنسا فى يناير من عام ١٧٩٩ [١٣] كما اعلن السلطان سليم الثالث الجهاد الدينى ضد الفرنسيين فى مصر ، وشارك العثمانيون فى الحملات التى أرسلت لطرد الفرنسيين من مصر ، وقاموا بقطع العلاقات مع فرنسا ، والى جانب ذلك فقد ضمنت انجلترا سيادتها على البحار، وعقدت تحالفات عديدة ضد فرنسا مما ادى الى تحرج موقفها .

ثالثا : سياسة بونابرت الاسلامية :

بعد تحطيم الأسطول الفرنسى فى أبى قير اختط بونابرت فى سياسته الداخلية لمصر خطة كانت لحمتها وسداها احترام شعائر أهل البلاد وتقاليدهم قولا وفعلا ثم الاعتماد فى حكومته على جماعة المشايخ والعلماء وهم العنصر الدينى صاحب النفوذ بين طبقات الشعب حتى يتمكن من تسكين الأهالى [١٤] ومن هنا تشعبت جهود بونابرت الاسلامية الى طرق متعددة نذكر منها .

١ — أن الأوامر والمنشورات التى أصدرها بونابرت لجنده ولأهل البلاد تتضمن احترامه العميق للاسلام ولعلماء وائمة المسلمين .

٢ — اشتراك بونابرت فى الاحتفالات الدينية والوطنية فاحتفل فى العشرين من اغسطس عام ١٧٩٨م بالمولد النبوى الشريف ارضاء للمسلمين واستجلابا لمساعدتهم وعن ذكر يذكر الجبرتى فى حوادث الخامس من ربيع الأول ١٢١٣هـ فيقول « سأل صارى عسكر عن المولد النبوى ولماذا لم يعملوه كعادتهم فاعتذر الشيخ البكرى بتعطيل الامور وتوقف الاحوال، فلم يقبل وقال لابد من ذلك ، واعطى له ثلثمائة ريال فرنسى معاونة، وأمر بتعليق تعاليق واحبال وقناديل ، واجتمع الفرنساوية يوم المولد ولعبوا فى ميادينهم وضربوا طبولهم »[١٥] .

وفى أول سبتمبر ١٧٩٨م احتفل بونابرت بتعيين أمير الحج[١٦] ، كما أخذ الفرنسيون أهبتهم للاحتفال بموكب كسوة الكعبة المشرفة ، وفى العاشر من فبراير ١٧٩٩م احتفل الفرنسيون بحلول شهر رمضان المبارك احتفالا ضخما ، وصاروا يترددون على كبراء المصريين ومشايخهم « ويأكلون

معهم فى وقت الانطار ويشاهدون نظامهم وترتيبهم ، ويحذون حذوهم»[١٧] كل ذلك فى محـــاولة لجذب قلوب المصريين اليهم باستمالتهم والتقرب منهم حتى يطمئن الأهالى اليهم .

والى جانب ذلك فقد احتفل الفرنسيون بعيد الأضحى فى ذى الحجة ١٢١٣هـ فضربوا مدافـــع من القلعة عند الشروق وذلك اعلاما بالعيد .

٣ — وفى محاولة من بونابرت لاضعـــاف مركز الدولة العثمانية فى مصر واحيـــاء مركز القاهرة الدينى عمل على اظهار السلطان العثمـــانى بمظهر غير المهتم بالمصلحة الدينية الاسلامية ، والعاجز عن الاضطـــلاع بأعباء مهـــام مناصبه الدينية ، كما قام بعزل القاضى العثمانى فى مصـــر فى يونيو من عام ١٧٩٩م وطـــالب المشايخ باختيار احد المصريين فى هذا المنصب ، ولما اجتمعت كلمة العلماء على اختيـــار الشيخ «أحمد العريشى» الحنفى لتولى القضـــاء البسه بونابرت فروة ثمينة ، كمـــا اصدر منشورا بذلك طبع منه عدة نســـخ الصقت بالأسواق[١٨] .

٤ — المكاتبات التى أرسلها بونابرت الى الأمراء المسلمين فى الحجاز والشـــام والعـــلاقات التى حاول تكوينها معهم تـــدل على محـــــاولته اكتساب مودتهم وعلى ســـبيل المثال فقد عرض بونابرت على الشـــريف غـــالب فى مـــكة بعض الاتفاقات التجاريـــة كما أرســـل عـــدة رســـائل الى بعض أمراء العرب فى مسقط وغيرها يخطب فيها ودهم[١٩] .

٥ — اهتمام بونابرت باقناع المسلمين فى مصر ان الفرنسيين يعتنقون الاســـلام حقيقـــة .

وعلى الرغم من كل ذلك فقد أســـاء المصريون الظن بالفرنســـيين وشككوا فى نياتهم خصوصا وانهم ظلوا يشربون الخمر الذى حرم الاسلام شربه ، كمـــا انهم لم يختتنون وقد أكد الجبرتى هذه الشـــكوك فى نـــوايا الفرنسيين بقوله ان الله أعلم بنواياهم الحقيقية ومقاصـــدهم من تـــلك المجـــاملات .

ونتيجة لذلك تدهورت العلاقات بينهما خصوصا بعد رفض العلماء تعليق شـــارة الثورة الفرنسية — ذات الألوان الثلاثة — على صدورهم

بنـــاء على اوامر بونابرت ، ثم حدثت بعد ذلك ثورة القاهرة الأولى ، ولم يبـــال المشايخ باخمادها مما جعل اســـلوب بونابرت فى التعـــامل معهم يزداد سوءا .

رابعا : ثورة القاهرة الأولى :

وعلى الرغم من محاولات بونابرت المتعددة لاستمالة المصـــريين فقد ظل الأهالى على اعتقـــادهم بأن الفرنسيين انما هم اعداء الدين الاسلامى، والى جـــانب هذا النفور والعداء الدينى كانت هناك العديد من الأسباب نذكر منهـــا :

١ — خروج الفرنسيين ومعهم النســـاء والبنـــات الفرنســـيات مكشوفات الوجوه فى الطرقات ، وشربهم الخمر ، واقامتهم حفلات الرقص علانية وعدم تقيدهم بتعاليم الدين الاسلامى وآدابه .

٢ — هدم بعض الجوامع والمنارات فى بركة الأزبكية لأجل توسيع الطرقات ، واقاموا الحصـــون مما آثار مشاعر المصريين .

٣ — ســـوء الاحوال الاقتصـــادية وتذمر المصريين من ترتيبـــات الفرنسيين الاقتصادية وتنظيماتهم المالية ، وبخاصة بعد اعتماد الفرنسيين على مـــوارد البلاد فى تموين جيشهم نظرا لتدمير الاسطول الفرنسى فى موقعة ابى قير البحرية [٢٠] .

٤ — كتابات احمد باشـــا الجزار الى المصريين واستنهاضهم ضد الفرنسيين ، وحثهم على الثورة .

٥ — فرض بونابرت لضرائب والغرامات على التجار ، واثقـــال كواهلهم بمطالبه ، وتذرعه بشتى الوسائل لجمع الأموال منهم .

ونتيجة لذلك تألفت فى الأزهر لجنة جمعت حولها النـــاقمين على الحكم الفرنسى والكارهين له ، وقد اذاعت هذه اللجنة أن بونابرت انما يريد ارغـــام المسلمين على اعتنـــاق المسيحية كما اعلنت أن جيشـــا من المماليك والعثمانيين ســـوف يحضر قريبـــا الى الشواطىء المصرية لطرد

الفرنسيين ، وقد اشـــترك فى التحريض على الثورة الائمة والمــؤذنون وغيرهم من رجـــال الدين حتى انفجر بركانها فهاجم المصريون القـــوات الفرنســـية وقاموا بعمل المتاريس وقتلوا الكثير من الجند الفرنسيين .

وقد اتخذ بونابرت كافة الاجراءات العسكرية للقضاء على الثـــورة فوزع قواته لاحتلال الازبكية ، كمـــا احتل جزءا من جيشه المرتفعات بين القاهرة والقبة ، واصـــدر أوامره الى قواده بمهاجمة الأزهر ، واطلاق المدافع عليه اذا اقتضى الأمر مما جعل الناس ينادون « ياسلام من هـــذه الآلام ياخفى الألطاف نجنا مما نخاف » (٣١) . وقد استطاع بونـــابرت اخمـــاد الثورة بعد أن فقد حـــوالى الخمسين من جنوده بينمـــا فقـــد الثوار ما يزيد على الألفين وخمسمائة ، وبعدها أرسل عددا من فرسانه بجيادهم فدخلوا الأزهر وحطموا قنـــاديله ونهبوه ، وارتكبوا فيه المعاصى، وانتهكوا حرماته وجعلوه اصطبلا لخيولهم .

وبعد أن التمس العلماء من بونابرت اخراج خيوله من الأزهـــر ، والتوقف عن الضرب اجـــاب ملتمسهم بعد أن اخذ منهم المواثيق على عدم تنشيط حركة الثورة بين الأهالى ضد الفرنسيين ، واتهـــامه لهم بالتقصير فى معالجة الأمور .

وعن نتائج هذه الثورة فقد كانت جد خطيرة وفيما يلى نعرض لها .

١ — غيرت هذه الثورة من سياسة التودد الى الأهالى التى كان يتبعها بونابرت الى سياسة الشـــدة والصرامة مع المصريين ، فعطـــل الديوان لمدة شهرين ، كما شدد فى معاقبة المحرضين على الثورة لدرجـــة وصلت الى حد الاعدام ومصادرة الممتلكات .

٢ — امتداد الاضطرابات الى بقية انحـــاء القطر المصرى فى الوجهين البحرى والقبلى .

٣ — انتهاز النصـــارى والأروام الفرصة ، ومحاولاتهم الايقـــــاع بالمســـــلمين .

٤ — ســـجن الفرنسيين لبعض المشايخ ، وقيام الشيخ السادات بالتشـــفع لهـــم .

خامسا : حملة بونابرت على بلاد الشام ١٧٩٩م :

على الرغم من حرص بونابرت عند خـروجه للحمـلة على مصر بالاحتفـاظ بعلاقات ودية مع الدولة العثمانية فان هزيمة أسـطوله فى أبى قير قد شـجع السلطان العثمانى على اعـلان الحرب عليه وقطـع العلاقات مع فرنسـا مما ادى الى تأزم العلاقات بين الطرفين . وقـد حـاول بونابرت استمـالة بعض أصحـاب النفوذ فى البلدان التى توقع أن تغـزوه منها الجيـوش العثمانيـة فكتب الى عبد الله باشا العظم والى دمشـق ، وكتب الى احمد باشا الجزار رسائل يؤكد فيها انـه لم يكن يوما ما عدوا للمسلمين ، وانه انمـا حضر الى مصر للانتقـام من المماليك وليس لقتـال المسلمين ونفى الشائعات التى تقـول انه يـريد الاستيلاء على بيت المقدس وتهديم الدين المحمدى [٣٢] . غير أن كافة هذه المساعى كان نصيبها الفشل التام خصوصا بعد أن اعلنت الدولة العثمانية الجهـاد الدينى ضد فرنسا .

ونتيجة لذلك وخشـية من مهاجمة العثمانيين وحلفـائهم للقـوات الفرنسـية فى مصر ، قرر بونابرت مبادرة اعدائه بالهجوم والزحف على بـلاد الشـام ، وفى السادس من فبراير ١٧٩٩م بدأت مقدمة الجيـش الفرنسى بالتقدم الى العريش ثم الى غـزة ، وبعدها استولى بونابرت على الرملة ، وضرب نطاق الحصار حول يافا ، وبعد أن استسلمت حامية يافا وقع فى يده أربعـة آلاف أسير فأمر بقتلهم بالرصاص ، وبعدها أباح لجنده تلك المدينة يومين يفعلون فيها وبأهلها ما يشاءون .

وفى الثامن عشر من مارس ١٧٩٩م بدأ بونابرت فى حصار عكا وكان حصارا طويلا شاقا استمر ثلاثة شهور ، وقد صمدت عكا أمام الفرنسيين نتيجـة للاسباب الآتية :

١ ـ مناعة حصون عكا وصمودها أمام قصف المدفعية الفرنسية .

٢ ـ استبسال احمد باشا الجزار ورجاله فى مقاومة الفرنسيين .

٣ ـ مساعدة الأسطول الانجليزى بقيادة « سدنى سميث » مـن البحر لأهالى عكا ، وامدادهم بالسلاح والمئونة .

٤ — انتشار وباء الطاعون بين أفراد الجيش الفرنسى .

ونتيجة لذلك اخفق بونابرت مع عكا على الرغم من الجهود التى بذلها وقد يرجع ذلك الى قلة معدات الحصار التى كان يمتلكها . ولما يئس بونابرت من ذلك قام برفع الحصار عنها والعودة الى مصر فى الخامس عشر من يونيو بعد أن تكبدت قواته خسائر كبيرة . ولكى يخفى بونابرت ما حدث له فى عكا دخل القاهرة فى موكب كبير بسط فيه انتصاراته فى يافا كما أوضح أن سبب رجوعه الى مصر هو ما بلغه من قيام بعض المفسدين بتحريك الفتن والشرور فى غيابه . على أن المقام لم يطل ببونابرت طويلا فى القاهرة حيث جاءته الأخبار عن وصول حملة عثمانية الى مصر ، ونزول الأتراك الى شاطىء أبى قير فى ١٤ يوليو فانتقل بونابرت الى الرحمانية ، واتخذ مقر قيادته بالاسكندرية ، وهناك انقض على القوات العثمانية فى معركة حامية استطاع خلالها هزيمة العثمانيين فى معركة أبى قير واصابة قائدهم بجروح خطيرة[٢٣] ثم عاد بعدها الى القاهرة وهناك علم من الصحف أن فرنسا أصبحت على حافة الهاوية نتيجة لانتصار الدول الأوربية عليها وان واجبه يدعوه الى العودة الى وطنه لانقاذه من اعدائه . ومن هنا قرر العودة السريعة الى فرنسا [٢٤].

وقبل ان يغادر بونابرت مصر اختار الجنرال كليبر Klebere للقيادة حيث كان يرى أنه اكفأ القواد الموجودين مع الحملة فى مصر وانه يستطيع ان يحفظ هذه المستعمرة من الضياع حتى تعقد فرنسا صلحا مشرفا مع أعدائها .

سادسا : الجنرال كليبر يتولى قيادة الحملة بعد نابليون :

غادر بونابرت مصر فى التاسع عشر من أغسطس ، وهو يحس فى أعماقه أن مصير الحملة آيلا للزوال ، لذلك خير كليبر بين أمرين هما :

١ — ابرام الصلح مع العثمانيين حتى ولو كان الجلاء عن مصر واعادتها الى السلطنة العثمانية من شروط الصلح الاساسية .

٢ — ارجاء الخروج من مصر ، أو اخلائها اكبر مدة ممكنة الى أن يتم نهائيا عقد الصلح العام مع أعداء فرنسا[٢٥] .

وقد اقبل كليبر على مهمتــه الجـديدة بكل نشاط ، كما أصــدر فى الثلاثين من اغسطس منشــورا خاطب فيه الجند فأعلن عليهم الأسباب القهرية التى حملت بونابرت على تقرير الرحيل الى فرنسا ، ومناهم بوصول نجــدة قوية لهم من فرنســا عن قريب ، او صلح مظفر يفسح لهم الطريق للعــودة الى بلادهم . ولما احس كليبر بحرج موقفه ، وثقل التبعــة التى القيت على عاتقه خصــوصا وانه لا يمكنه البقــاء فى مصر طويلا بل يجب اخلائها ، والعــودة بجنوده الى فرنسا فقد وطــد عزمه على المفاوضــة من أجل الجــلاء عنها ، وأراد أن يستنــد فى عزمه هذا على أن حــــالة الجيش والادارة قد بلغت درجة من الســوء والارتبــاك تقضى على كل أمل فى البقــاء بمصر ، وان احــوال الحملة فى مصر تزداد سوءا يوما بعد يوم .

ونتيجة لذلك قرر كليبر فتح بــاب المفاوضات مع الصــدر الاعظــم العثمانى « يوسف ضيا باشا » فى السابع عشر من سبتمبر ١٧٩٩م بغرض الوصول الى صلح مع الدولة العثمــانية . وقد تمســك ضيا باشا بعــدم رغبته فى الدخول فى أية مفاوضة الا على اســاس اجلاء الفرنسيين عن مصر من غير قيد أو شرط وقــد كتب اليه كليبر يقــول ان « الصلح اعظم خدمة يمكن أن تؤديها لوطنك ، والفرنسيون لا يخشون أعداءهم .. ولكنهم يعتبرون الحرب القــائمة بينهم وبين البــاب العالى صديقهم التقليــدى حــربا ضد أنفسهم .. ومصر كانت لكم وســتبقى لكم بل هى لكم اليوم أكثر منها بالأمس لأن المماليك قد أقصــوا عن حكمها ولن يحكموها بعد الآن » .

وقد رد الصــدر الأعظم على رســالة كليبر بقوله « ان الفرنسيين اعتدوا على مصر دون ســابق انذار ، واحتلوا هذا البلد التــابع مباشرة للباب العــالى .. أما وقد بدأ من جــانب فرنسا ميل صحيح الى الصداقة القديمة مــع الباب العــالى فان الصدر الأعظم يقبل أن يعفو عنها ، ويعيد جميع الفرنســيين الموجودين فى مصر الى بلادهم آمنين سالمين »[٣٦] .

وعندما علم ســدنى سميث بأمر هذه الاتصــالات قرر مباشرة التدخل فى المفــاوضات ، واعلن أنه من المتعــذر انســحاب الفرنسيين من مصر ، وعودتهم الى وطنهم من غير موافقــة بريطانيا فهى صــــاحبة الســيطرة البحرية والكلمة العليــا ، وان الموقف الســياسى فى أوربا لا يدعوه الى

الرغبة فى السلام مع الفرنسـيين . ونتيجة لذلك ارسل كليبر الى مفاوضيه بمقترحات جديدة تنازل فيها عن اكثر الشروط المقيدة للجلاء عن مصر ، ورحب بتدخل « سيدنى سميث » فى المسألة لاقناعه بأن المفاوضات من المحتمل أن تصبح مقدمة لعقد السلام العام كما اعلن أن تركيا ستستعيد مصر بمجرد عقد الصلح بين فرنسا وبريطانيا والباب العالى ولكن سميث تشدد فى موقفه خصوصا وانه رأى خطورة السماح للجيش الفرنسى بالعـودة الى بلاده بسلاحه ومهماته فى وقت تحارب فيه بلاده فرنسا ، أن هذا الجيش بوجوده فى مصر يكون اقل ضررا من وجوده فى فرنسا خصوصا وان كليبر كان يرى اهمية خروج جيشه من مصر بسلاحه وذخائره وامتعته مع حقه فى العمـل العسكرى فى أى مكان بعد عودته الى فرنسا وخلال هذه الآونة سقطت قلعة العريش فى أيدى العثمانيين ، مما كان له اكبـر الأثـر فى ازدياد رغبـة كليبر فى ابرام الصلح بكل سرعة ممكنة[٢٨] ، ولهذا طلب من مفاوضـيه التساهل فى الأمر وضرورة الاهتمام بالمسائل التالية :

١ — الا تدخل الجيـوش العثمانية او الانجليزية مصر الا عند وصول سـفن النقل الى الموانىء المصرية التى ترحـل منها الحملة وهى السـفن التى ينبغى على الصـدر الأغظم اعدادها وتجهيزها بالمئون .

٢ — يجب اعطـاء التعهدات اللازمة لضمـان ملاحظة تنفيذ المعاهدة والهدنة التى تتبعها ملاحظة دقيقة .

٣ — لا ينبغى أن يقيد حق جيش الحملة عند عودته الى فرنسـا فى العمل ضد كافة الأعداء .

ومعنى ذلك ان كل هموم كليبر قد انحصرت فى مجـرد الجـلاء دون قيد او شرط سـوى اعطـاء الجيش العـائد الى وطنه حرية العمـل فى الميدان الأوربى ، ثم نقل جيشـه على سفن العدو الى بلاده .

وفى هذه الاثنـاء انتقل كليبر من القاهرة الى الصـالحية ، ثم جمع قواته على الحـدود ، وكان غرضـه تأييد المفاوضات من جهـة ثـم الاستعداد لمواجهة الطوارىء من جهة اخرى .

وفى ٢٤ من يناير ١٨٠٠م تم توقيع اتفــاقية العريش وهى تتــألف من مقدمة ، و٢٢ بنــدا تبين كيفية انســحاب الجيش الفرنسى من مصــر بســلاحه وعتاده فى غضــون ثلاثة اشــهر من تاريخ الاتفــاق فتضــمن البند الأول « ان الجيش الفرنســاوى يلزمه ان يتنحى بالاسلحة والعزال بالأمتعة الى الاسكندرية ورشــيد وابو قير لأجــل ان يتوجه ، وينتقــل بالمراكب الى فرنســا ان كان ذلك فى مراكبهم الخاصة بهم ، أم فى تلك التى يقتضى البــاب العالى أن يقدمها لهم »(٢٨) .

أما باقى البنود فقد كان اهمها :

١ — تتوقف العمليات الحربية فى مصر لمــدة ثلاثة اشــهر من توقيع الاتفــاق يقوم البــاب العالى خــلالها باستحضــار السفن اللازمة لنقــل الفرنسيين الى بــلادهم .

٢ — الاتفاق على مواعيد اخلاء المدن والاقاليم المصرية من الجيوش الفرنســية .

٣ — عــدم التعرض للقوات الفرنســية فى اثناء انسحابها ، ووجوب وســائط بين الطرفين ، واخذ الضمــانات اللازمة بذلك .

٤ — الافراج عن المســجونين والمحجوزين من كلا الطرفين ، ورد الأموال والممتلكات العامة لأصحابها .

٥ — عدم التعرض للنصارى الذين ساندوا الفرنسيين .

٦ — تقديم ما يلزم الجيش الفرنسى من الطعام والغذاء خلال فتــرة الانســحاب (٢٩) .

وهكذا فرض الفرنســيون على الجانب العثمانى التزامات معينة فى سبيل الجــلاء عن مصر ، كمــا اشترطوا أن ينسحب الجيش الفــرنسى بكامل أسلحته وامتعته وأن يتوفر له الأمــان خلال عودته الى فرنســا ، يضــاف الى ذلك أن المفــاوض الفرنسى اشترط رعــاية مصالح فرنســا فى ممتلكات الدولة العثمــانية .

وقد وافق بونابرت الذى كان قد تبوأ مركز القنصل الأول فى فرنسا على هذه المعاهدة مقدرا صعوبة موقف كليبر ، والى جانب ذلك كان سرور اهل القاهرة عظيما بعد ذيوع اتفاقية العريش ، وقد وصف الجبرتى ذلك بقوله ان الناس « نظروا للفرنسيين بعين الاحتقار ، وانزلوهم من درجة الاعتبار ، وكشفوا نقاب الحياء معهم بالكلية ، وتطاولوا عليهم بالسب واللعن والسخرية ، ولم يفكروا فى عواقب الأمور ، ولم يتركوا معهم للصلح مكانا حتى أن فقهاء المكاتب كانوا يجمعون الأطفال ويمشون بهم فرقا وطوائف ، وهم يجهرون ويقولون كلاما مقفى بأعلى اصواتهم ، بلعن النصارى واعوانهم وأفراد رؤسائهم »[٣٠] .

وقد بدأ الفرنسيون فى تنفيذ معاهدة العريش عقب ابرامها فنقلوا معداتهم وأمتعتهم الى الاسكندرية ، وبدأوا فى الاستعداد للرحيل بنشاط كما سلموا دمياط ، وعزبة البرج الى الأتراك ووافقوا على وصول الجيش العثمانى الى بلبيس واقترابه من القاهرة [٣١] ولكن الأمور سرعان ما تطورت فى غير صالح الاتفاقية حيث هدمت بريطانيا ثمرات المجهودات التى بذلها المفاوضون ، واعترضت على عودة الجيش الفرنسى بأجمعه دفعة واحدة الى فرنسا لما فى ذلك من الخطر على مصلحة الحلفاء فى الحرب الأوربية الدائرة ضد فرنسا .

وقد يتساءل البعض على السبب الذى دفع الانجليز الى ذلك وهم الذين جاءوا اصلا لمحاصرة الفرنسيين بهدف اخراجهم من مصر .

الواقع انه بجانب ما ذكر حول خطورة السماح لقوات كليبر بالعودة الى فرنسا فى وقت يحارب فيه بونابرت أوربا فان الاسطول البريطانى كان قد اعتقل سفينة فرنسية تحمل رسائل من كليبر الى حكومته يوضح فيها الحالة المؤلمة لجيشه ، وانتشار الأمراض بين أفراده ، وقلة عدده ، ونتيجة لذلك حاول الانجليز انتهاز هذه الفرصة وأصروا على تسليم الفرنسيين المحاصرين فى مصر كأسرى حرب أو بقائهم محصورين بها وممنوعين من الاتصال بفرنسا حتى يفنوا فى هذه البلاد عن آخرهم [٣٢] .

ونتيجة لذلك أوقف كليبر عملية سحب قواته ، وقرر تأجيل اخلاء القاهرة ، كما اعتبر وصول الجيش العثمانى الى مشارف القاهرة عملا عدوانيا ينبغى مقاومته . ولما تمسك العثمانيون بضرورة اخلاء القاهرة ، وتسليم كافة القلاع واخلاء الوجه البحرى بدعوى ان رفض الانجليز للمعاهدة غير ذات اهمية وبداوا فى توزيع المنشورات ضد الفرنسيين اعداء الاسلام قرر كليبر قتالهم ، واوقع بهم هزيمة كبيرة عند هليوبولس اجبرتهم على الفرار وخلال ذلك اشتعلت ثورة القاهرة الثانية (١٨٠٠م) واعمل الاهالى القتل فى الفرنسيين[٣٣] واقاموا المتاريس حول الأزهر ، وشرعوا فى مهاجمة المواقع الفرنسية ، كما امتدت الثورة الى الوجه البحرى ، وقد استخدم كليبر اساليب القمع والتدمير لاخماد هذه الثورة وكان على راس هذه الأساليب احراق احياء القاهرة مما اجبر اهلها على التسليم ، ثم بدا فى الاقتصاص منهم ومن مشايخهم ففرض عليهم الغرامات الباهظة للانفاق منها على جيشه ، كما فرض الغرامات على العديد من مدن الوجه البحرى والى جانب ذلك جمع الديوان ووبخ اعضاءه وأنبهم لاشتراكهم فى الثورة وقد وصف الجبرتى ذلك بقوله « اغلق بينه وبينهم الباب .. فبهتت الجماعة وانتقعت وجوههم ، ونظروا بعضهم الى البعض ، وتحيرت افكارهم .. ولم يزالوا على ذلك الحال الى قرب العصر ، حتى بال اكثرهم فى ثيابه » .

ونتيجة لهذه السياسة القاسية نفرت قلوب الناس من كليبر وازداد سخطهم ضد الفرنسيين ، وادى فى النهاية الى مصرعه على يد سليمان الحلبى ذلك الشاب السورى الذى كان يتلقى العلم فى الأزهر . وقصة ذلك ان كليبر ذهب فى الرابع عشر من يونيو ١٨٠٠م مع المهندس «بروتان» لتفحص اعمال الترميمات الجارية فى مقر القيادة العامة بالازبكية وبينما هما يسيران طلع عليها سليمان الحلبى فى صورة شاب متسول يطلب صدقة ، فاشار اليه كليبر بالرجوع فلم يرجع بحجة ان له حاجة وهو مضطر فى قضائها فلما دنا منه مد اليه يده اليسار كانه يريد تقبيل يده فمد اليه الآخر يده فقبض عليه ، وضربه بخنجر كان قد أعده فى يده اليمنى أربع ضربات متوالية فشق بطنه وسقط كليبر على الأرض مضرجا بدمه ، ولما حاول بروتان مساعدته ضربه سليمان بالخنجر

ثم فــر منزويا فى البستان المجــاور لبيت ســارى العسكر حتى تم القبض عليه [٣٤] .

وقد اظهر الفرنســيون فى اثناء محاكمتهم لســليمان الحلبى قدرا كبيرا من ربــاطة الجاش ، كمــا أصروا على محاكمة سليمان الحلبى وشــركائه محاكمة عــادلة قبل تنفيذ الحــكم فيهم .

وقد وصف الجبرتى ذلك المسلك بقوله « قبضوا عليه — يقصد سليمان — وقرروه ولم يعجلوا بقتله ، وقتل من أخبر عنهم بمجرد الاقرار بعد أن عثروا عليه ، ووجدوا معه آلــة القتل مضمخــة بدم ســارى عسكرهم وأميرهم بل رتبوا حكومة ومحــاكمة ، واحضروا القــاتل ، وكرروا عليه السؤال والاستفهــام مرة بالقول ومرة بالعقوبة ، ثم احضروا من اخبر عنهــم ، وسألوهم على انفــراد ومجتمعين ثم نفذوا الحــكم فيهم بمــا اقتضـــاه التحكيم »[٣٥] حيث صدر فى السادس عشر من يونيو حكم بادانة سليمان الحلبى قاتل كليبر ، وبادانة اربعــة من المشــايخ كشركاء للقــاتل بحجة انهم علموا بنوياه ولم يبلغوا عنها .

مينــو وقيــادة الحملة :

وبوفاة كليبر انتقلت القيادة الى مينو Menou أحد انصــار التجربة الاستعمارية فى مصــر والذى كان يعتقد أن التمســك ببقاء الفرنســيين فى مصر الى النهــاية سيعود على فرنســا باعظم الفوائد ، والذى قطــع فى ســياسته تجاه التقرب من المســلمين شوطا بعيدا حيث اعتنق الاسلام دينــا وسمى نفســه « عبد الله » وعقد قرانه على السيدة زبيــدة بنت السيد محمد البــواب احدى ســيدات البيوت المعروفة فى رشيد ، وأنجب منهــا ابنــا اسماه « سليمان مراد » .

وقد وجد مينــو من بين ضباط الحملة من يشــاطره الآراء حــول البقاء فى مصر والاستقرار فيها [٣٦] .

وبعد أن تمكن مينــو من زمام الأمور كان أمامه أن يختار بين أمــرين هما اما التخــلى عن سياسته الاستعمارية وهى سياسة البقاء فى مصر ، واما الاستمرار عليها .

وقد اوضــح مينو فى ندائه الى جيشه انه اختار المضى فى سياستــه الاستعمارية حتى تأتيه اوامر صريحة فى هذا الشأن من فرنسا واذا كــان الانجليز او العثمــانيون لهم راى آخر فى ذلك الموضـــوع فعليهم مواصــلة سعيهم لدى حكــومة القنصــل الأول فى بــاريس . وقد استرشد مينــو فى سياسته الداخلية طريقة انه صــاحب الحق فى ان ينفرد بصفــة المشرع واختصاصاته الذى يحــق له معالجة امهات المسائل الاقتصادية والاجتماعية فى البــلاد ونتيجــة لذلك وجه عنايتــه فى بدايــة الأمر الى الاصــلاح الادارى ، ومراقبة كل ما يتصــل بتموين جيشـــه ، والضرب على ايــدى المتلاعبين بالأســعار ، وتنظيم ماليــة الحملة ، وضبط وسائل الاشــراف عليها كمــا شكل مجلســا خاصا يضم الرؤســاء العسكريين والمــدنيين للنظر فى شــئون الحملة ، ولكن الأمــور لم تكن فى صــالح مينو حيث جاء النيــل منخفضــا مما زاد من استمرار الضيــق الاقتصادى ، كمــا عمــد الفلاحون بســبب ذلك الى الفرار من قــراهم تخلصــا من دفع الضريبة ، يضــاف الى ذلك ان الحصــار الذى فرضــه الانجليز على الشـــواطىء المصرية ومنعهم لتجــارة الوارد والصــادر قد زاد من ضيق الأهــــالى وتذمرهم من ادارة مينو ، وشكواهم من الضرائب (٣٧) مما ادى الى توقف النشــاط الاقتصادى وتعطيل الانتاج .

وخــلال تلك الفترة تعرض مصير الحملة الفرنسية لمخاطر اتفـــاق الانجليز مع العثمانيين على اخراج الانجليز من مصر عن طريق الحرب بعــد فشلهم فى اقنــاع مينو بالجــلاء على مصر بالطرق الدبلوماسية فقد ارسل العثمانيون والانجليز ثــلاث حملات على مصر لطرد الفرنسيين منهــا تــم توزيعها كالآتى :

١ — قــوات بحرية مشتركة يتم انزالها الى الشواطىء المصــرية

٢ — قوات عثمانية تزحف من يــافا على الحدود الشرقية وتنزل فــى الســـويس .

٣ — قوات انجليزية تأتى من الهند .

ومعنى ذلك أن هذه القــوات سوف تطبق على الجيوش الفرنســية

من الشــمال والشرق والجنوب مما كان له اكبر الاثــر على خطط مينــــو واجراءاته . ومع انه كان فى استطــاعة الفرنســيين تعطيل زحف الجيوش الغــازية الى داخل البــلاد ، فان عجز مينــو ، وعدم درايته بفنـــون القتال ، وفشــل قيادته قد ادى فى النهـــاية الى هزيمة الفرنســيين فـــى معركة « كانوب » الحاســمة تلك المعركة التى قضت على مصــير جيش الشرق فى مصر والتى جــاءت خسارتها فى الحقيقة مؤذنة باجلاء الفرنسيين عن مصــر ، وطردهم منها فى عام ١٨٠١م فقد ســقط من الفرنســـيين فى هذه المعركة حــوالى الالف ، وجرح منهم حــوالى المائة والــف [٣٨] ونتيجة لذلك بدأ الجنود الفرنسيون يرفضــون أوامر قوادهم بعد أن نفــد صبرهم . واستمر الزحف الانجليزى العثمـــانى داخل مصر حيث اقتربوا من أهرامات الجيزة ، ثم بــداوا فى الزحف على القاهرة من الشمال والشرق والجنــوب ، كما قطعوا كل الطرق بينها وبين البلدان المجاورة . ولمـــا ضيقت الجيوش الزاحفة الخنـــاق على القاهرة « عزت الاقوات وشحت زيادة على قلتهـــا وخصوصا الســـمن والجبن والأشيــاء المجــلوبة مـــن الريف »[٣٩] وانتهى الأمر بقـــرار القائد الفرنسى « بليار » بتسليم القاهرة لاستحالة قواته الدفاع عنهــا ، على أن يتم ذلك بعد اتفـــاق مع الانجليز بشأن تقديم كل الوســـائل التى تمكن الفرنسيين من العودة الى بــــلادهم بســـلام .

وقد نصت شروط الاتفـــاق بين الطرفين على ذلك حيث تعهد الانجليز والعثمـــانيون بتقديم كل وســـائل النقل وما يحتـــاج اليه الجيش المنسحب من اغـــذية ومؤن الى جـــانب اعداد السفن الحربية اللازمة لحراســـــة الفرنسيين فى اثنـــاء عودتهم الى بلادهم بطريق البحر المتوسط ، كما تعهدوا أيضــــا بأن يحمل اعضــــاء لجنة العلوم والفنون الفرنسية كل ما لديهم من أوراق متعلقة ببحوثهم واعمـــالهم الى جانب أوراقهم الخاصة وغير ذلك من الأشـــياء التى يملكونها .

وهكذا حصل « بليار » على الشروط التى سبق أن قبلهـــا كليبر فى اتفاقية العريش ، ورفضها الانجليز .

وعلى الرغم من كل ذلك فقد رفض مينو الانسحاب من الاسكندرية

وقرر تحصينها ، ولكن الانجليز شددوا حصارهم عليها ، مما اضطر مينو فى النهاية الى التسليم والجلاء عن مصر فى عام ١٨٠١م وبذلك انطوت صفحة الحملة الفرنسية كمغامرة جريئة وعادت مصر الى حوزة العثمانيين.

نتائج الحملة الفرنسية على مصر :

على الرغم من فشل الحملة من الناحية العسكرية وعلى الرغم من قصر مدتها فقد كان لها آثار عديدة من النواحى السياسية والاقتصادية والعلمية ليست على مصر فحسب بل على البلدان المحيطة بها أيضا فقد خلف الفرنسيون وراءهم آثارا عديدة غيرت من حياة الأهالى ، وشجعتهم على ترك الماضى وتفهم أنماط الحكم الحديثة والانتاج والبحث العلمى ، ومع ذلك فان عدم فهم الفرنسيين لنفسية الشعب المصرى كان السبب الرئيسى فى حدوث العديد من الاضطرابات والثورات ضدهم ، كما كان من أكبر الأسباب فى فشل تجربتهم الاستعمارية فى بلاد الشرق . وعلى الرغم من محاولات الفرنسيين استمالة المسلمين بسياستهم الاسلامية وايهامهم للمصريين بأنهم انما جاءوا الى مصر لتحريرهم من نير البكوات المماليك ، واقامة حكومة عادلة تهتدى بهدى القرآن الكريم وتسترشد بتعاليمه فانهم فوجئوا بثورات القاهرة والأقاليم ضدهم (٤٠) مما دفعهم الى تغيير سياستهم تجاه المصريين واتخاذ العنف وسيلة للتعامل معهم وفيما يلى نعرض لأهم نتائج الحملة .

أولا — الآثار والنتائج السياسية :

١ — وجهت الحملة الأنظار الى أهمية موقع مصر الجغرافى مما جعلها ميدانا للسياسة الدولية ، وبابا لطريق الهند والشرق الأقصى (٤١) ومنذ ذلك الوقت ظهرت المسألة المصرية وأخذت انجلترا تتطلع للاستيلاء على مصر.

٢ — لفتت الحملة أنظار أوربا الى ضعف الدولة العثمانية ، وعدم قدرتها على حماية ولاياتها ، مما شجع على دفع عجلة الهجوم الاستعمارى على البلاد العربية والاسلامية .

٣ — ظهور الصراع بين المماليك والعثمانيين حول السيطرة على زمام الأمور فى مصر مما مهد الطريق لظهور محمد على .

٤ — ظهور الوعى القومى بين المصريين المتمثل فى معارضتهم للاحتلال الفرنسى ، والقيـــام بالثورات ضدهم ، مما كان له أبلغ الأثـــر فى بلـــورة الشخصية المصرية واشتراكها فى معترك الحياة السياســـية بعد خـــروج الحمـــــلة .

٥ — اشراك بونابرت للمصريين فى الحكم عن طريق الدواوين فتـــح امامهم الطريق لادارة شئون بلادهم بأنفسهم وايقظ الشعور الوطنى لديهم .

ثانيا : الآثار والنتائج الاقتصادية :

١ — توقفت التجارة الخارجية بين مصر وعالم البحر المتوسط وتدهورت امـــور مصر الاقتصـــادية نتيجة لحصار الأسطول الانجليزى لشواطئها ، وامتنـــاع ورود التجـــارة او تصـــدير المحصولات الى الخارج .

٢ — ادى تحطيم الاسطول الفرنسى فى ابى قـــير عـــام ١٢١٣هـ الى اعتماد الفرنسيين على موارد مصر الاقتصـــادية اعتمادا كاملا بعد انقطـــاع ســـبل الاتصـــال بينهم وبين فرنســـا ونتيجة لذلك فرضوا الضرائب التى اثقلت كاهل الأهالى مما ساعد على اضطراب أحوال البلاد وزيادة الفوضى.

ثالثا : الآثـــار والنتائج العلمية :

١ — لقد خلفت الحملة الفرنسية آثارا واضحـــة فى ميدان العـــلوم والفنون والتاريخ ويرجع السبب فى ذلك الى قيام العلمـــاء الفرنســـــيين بالعديد من الدراسات لكشف النقـــاب عن تاريخ مصر القديم وآثـــــارها ودراسة مناخهـــا وطبيعة ارضها ونيلها ، وحيوانها ونباتها واجناسهـــــا وعادات شعوبها وغير ذلك وسجلوا كل ما كتبوه فى كتاب ضخم عنوانـــه وصف مصر Descripion De L'Egypte . وهذا الكتـــاب يعتبر وبحـــق من اكبر الموسوعات التى وضعت فى تاريخ مصر وجغرافيتها ووصف أرضها وتربتهـــا ونيلها وترعها وآثـــارها وموارد ثروتهـــا ومناخهـــا وعـــادات اهلهم وتقاليدهم وتجارتهم وزراعتهم وصناعتهم ولا شك فى أن هذا الاثـــر العلمى كان اعظم آثـــار الحملة الفرنسية على مصر ، وابقاها خلودا على مر الدهور والعصور[٤٢] .

٢ — أمر بونابرت بتأسيس المجمع العلمى فى مصر Institut d'Egypte بهدف اشـاعة العلم والعرفان ودراسة المسـائل والأبحاث الطبيعيـة والصناعية والتاريخية الخاصة بمصر ونشرها .

وقد قسم المجمع الى اربعة اقسام هى الرياضيات ، والطبيعيات ، والاقتصاد ، والآداب والفنون وكل قسم يتكون من ١٢ عضوا .

٣ — عرفت مصر الطباعة عن طريق الحملة حيث جلب بونابرت معه الى مصر آلتين للطبـاعة بقيت احداهما بالاسكندرية وكانت تحتوى على ثلاثة مجموعات من الحروف عربية وفرنسية ويونانية وقد عمـل عليهـا المستشرق « مارسيل Marcel » ومعه واحد وثلاثون من المساعدين ، وقد طبع عليها اول كتاب صدر فى مصر وهو « تطبيقات فى العربية الفصحى » أما المطبعة الثانية فكانت بالقاهرة وطبعت عليها جريدة Le Courrier de L'Egypte لوكوريبه دى ليجبت اى « بريد مصر » وكذلك صحيفة Le Décade Egyptien لاديكاد اجبسين اى « العقد المصرى » وهاتان الصحيفتان تعتبران البداية الأولى للصحافة المصرية .

ولقد كان ادخال الطباعة الى مصر بمثابة نهاية لعزلتها عن اوربا [٤٣].

٤ — كان من اهم آثار الحملة العلمية هو اكتشـاف حجر رشـيد الذى فك رموزه العالم الفرنسى « جان فرانسوا شامبليون » Champollin مما أدى الى الكشف عن أصول الكتابة المصرية القديمـة والى انقشـاع الغموض الذى كان يحيط بحياة المصريين القدماء وبتاريخهم وحضارتهم [٤٤].

٥ — دراسة مشروع شـق قناة تصل بين البحرين المتوسط والأحمر.

٦ — كون العلماء الفرنسيون مكتبة كبيرة فى مصر ، كما ترجموا العديد من العلوم الطبيعية والطبية .

رابعا : الآثار والنتائج الاجتماعية :

نتيجة لعدم تعرف الفرنسيين على اخـلاق المصريين وما درجوا عليه

من أساليب الحياة القائمة على التمسك بالتقاليد الاسلامية فان ما استحدثوه من اصلاحات لم يرض عنها المصريون بل اعتبروها من البدع المستهجنة، وازداد الحال سوءا عندما تعمد الأروام والشوام واليهود جرح شعور المسلمين ، والاستهزاء بعاداتهم وتقاليدهم وفيما يلى نعرض لذلك :

١ — ارتكاب الفرنسيين للمعاصى والمخازى جهرة ودون احتشام فكانوا يأكلون ويشربون خلال الصوم وعلى مرأى من المسلمين .

٢ — اعتداء ارزال الفرنسيين على حرمات المسلمين وعدم احترامهم لعاداتهم وتقاليدهم ودينهم مما ادى الى استثارة روح النخوة والشهامة بين الأهالى وثورتهم الجامحة على الفرنسيين ، وجعل اقامة الفرنسيين فى القاهرة غير محتملة .

٣ — الاستهتار بالقيم الاسلامية ، وخروج بعض الفرنسيين مع نسائهم فى الشوارع وهن حاسرات الوجوه لابسات الفستانات والمناديل الحرير الملونة ، ويركبن الخيول والحمير ويسوقونها سوقا عنيفا مع الضحك والقهقهة ومداعبة المكاريه معهم وحرانيش العامة مما اعتبره المصريون فحشا وفجورا .

٤ — قيام الفرنسيين بهدم أبواب الحارات والدروب والأزقة لسهولة الحركة فى الشوارع ، وحرصا على سلامة جنودهم وعدم تحصن الأهالى داخلها كل ذلك ادى الى ازعاج القاهريين وتذمرهم .

٥ — ارغام الفرنسيين للاهالى على اضاءة الشوارع والأسواق والحارات والقناديل ادى الى ازدياد روح التذمر بينهم[٤٥] .

٦ — استعلاء اسافل الشوام والأروام واليهود على المسلمين وانتهازهم استخدام الفرنسيين لهم فى جباية الضرائب فى الاشتطاط فى طلب الأموال والسخرية من المسلمين وايقاعهم شتى المظالم بهم[٤٦] .

٧ — ظهور الطبقة الوسطى المصرية المتمثلة فى العلماء والتجار واختفاء طبقة الحكام العثمانيين والمماليك ساعد على حدوث تغييرات

اجتماعية هامة داخل مصر حيث قام ممثلوا الطبقة الوسطى بدور أساسى فى ادارة شئون بلادهم الداخلية بعد رحيل الفرنسيين .

خامسا : الآثار والنتائج الصحية :

١ — ساعد اهتمام الفرنسيين بالشئون الصحية وانشائهم المستشفيات فى وقف انتشار الأوبئة والأمراض الخطيرة وحافظ على الصحة العامة مما كان له اكبر الأثر على صحة المصريين ، كما أن قيام أطباء الحملة بدراسة مختلف الأمراض والأوبئة المنتشرة فى مصر قد ساعد فى التعرف على كيفية القضاء على هذه الأمراض (٤٧) .

٢ — ساعدت الاجراءات التى اتخذها الفرنسيون للمحافظة على الصحة العامة كارغام الأهالى على نشر امتعتهم وملابسهم على أسطح المنازل وفى أفنائها حتى تقتل الشمس الجراثيم العالقة بها ، وارغامهم على تطهير منازلهم وتنظيفها ورشها وتبخيرها ، ومراقبة تنفيذ الأهالى للارشادات الصحية ، كل ذلك ساعد على وقف انتشار الأوبئة والأمراض الفتاكة ، وقلة الوفيات بها (٤٨) .

٣ — ساعد قيام الفرنسيين بالتشديد على دفن الموتى فى المقابر البعيدة عن المنازل فى وقف انتشار الأمراض والأوبئة وحصرها فى أضيق الحدود (٤٩) .

سادسا : الآثار الادارية للحملة :

١ — عرف المصريون ولأول مرة نظام شهادات الميلاد وذلك بقيد أسماء المواليد فى سجلات خاصة بهم .

٢ — انشاء الارشيفات لحفظ صور الشكاوى والمظالم .

٣ — محاربة التسول والشعوذة ، وتخصيص دار للمتسولين .

٤ — التبليغ عن المرضى فى حالة انتشـــار الأوبئة ، وفرض نظـــام الحجر الصحى .

٥ — انشاء الديوان واختيار أعضائه بالانتخاب[٥٠] .

ومما سبق يتضح الأثـر العميق الذى أحدثه الفرنسيون خـــلال احتلالهم لمصر فى مجالات الحـكم والسياسة والاقتصاد والاجتماع والادارة وغيرها مما كان له أكبر الأثر فى ظهور فكرة تنازع الولاء بين الفكرة الدينيـة القائمة على طـاعة الخليفة العثمانى والفكرة القومية التى تنادى بالتحرر من التبعية العثمانية .

مراجـــع الفصــل الأول

(١) محمد فؤاد شكرى : الحملة الفرنسية وظهور محمد على ، القاهرة، مطبعة المعـــارف ، ١٩٤٢م ص ١٢٥ — ١٢٦ .

(٢) عدد ميجالون فى رســـالة الى الحكومة الفرنسية مزايا الاستيلاء على مصر والسيطرة على البحر الأحمر ، واكد اهمية موقعها الجغــرافى والتجارى بالنسبة لفرنسا .

(*) محمد فؤاد شكرى : الحملة الفرنسية وخروج الفرنسيين من مصر ، القاهرة ، دار الفكر العربى ص ٣٠ .

(٣) فيشر : تاريخ أوربا فى العصر الحديث — ترجمة أحمد نجيب هاشم ووديع الضبع — القاهرة ، دار المعارف ، الطبعة السادسة ص ٥٣ .

(٤) حول هذا الموضوع انظر . طلال المهتار : آثار حملة بونابرت على مصر ، بيروت ، الجامعة اللبنانية ص ١٣ .

(٥) احمد حافظ عوض : فتح مصر الحديث أو نابليون فى مصر ، القاهرة، مطبعة مصر ، ص ٨٣ .

(٦) شكرى : الحملة الفرنسية وظهور محمد على ص ١٣٣ .

(٧) المهتار : المرجع السابق ص ٥٤ .

(٨) شكرى : المرجع السابق ص ١٣٥ .

(٩) حافظ عوض : المرجع السابق ص ١٢٤ .

(١٠) عبد المجيد نعنعى : أوربا فى بعض الأزمنة الحديثة والمعاصرة ١٤٥٣هـ — ١٨٤٨م ، بيروت ، دار النهضة العربية ، ١٩٨٣م ص ٢٨٥ .

(11) Correspondance de l'armée d'Egypte, interceptée par l'escadre de Nelson, Paris An VIII, iv 191 — 2 .

(١٢) شكرى : المرجع السابق ص ١٦٢ .

(١٣) عوض : المرجع السابق ص ١٩٣ .

(١٤) شكرى : المرجع السابق ص ١٦٣ .

(١٥) عبد الرحمن الجبرتى : عجائب الآثار فى التراجم والاخبار ج ٣ حوادث يوم الجمعة خامس ربيع الأول ١٢١٣ هـ .

(١٦) شكرى : المرجع السابق ص ١٦٧ .

(١٧) الجبرتى : المصدر السابق ج ٣ ص ٤٥ — ٥٠ .

(١٨) شكرى : المرجع السابق ص ١٦٩ .

(١٩) احمد السباعى : تاريخ مكة ، مطبوعات نادى مكة الثقـــافى ١٤٠٤هـ ص ٤٩٠ ، واحمد عزت عبد الكريم : البحر الاحمر فى التـــاريخ والسياسة الدولية ، القاهرة ، ١٩٨٠ ص ٣٣٧ .

(٢٠) شكرى : المرجع السابق ص ١٧٦ — ١٧٧ .

(٢١) الجبرتى : المصدر السابق ج ٣ .

(٢٢) شكرى : المرجع السابق ص ١٩٢ .

(٢٣) شكرى : المرجع السابق ص ٢٠٨ .

(٢٤) فشر : تاريخ أوربا فى العصر الحديث ص ٥٤ — ٥٥ .

(٢٥) شكرى : المرجع السابق ص ٢٣٧ .

(٢٦) اميل الخورى وعادل اسماعيل : السياسة الدولية فى الشـــرق العربى من ١٧٨٩م الى ١٩٥٨م ج ١ ، بـــيروت ، دار النشر للســـياسة والتاريخ ، ١٩٥٩ ص ١٣٠ — ١٣٦ .

(٢٧) شكرى : المرجع السابق ص ٢٨٤ .

(٢٨) الجبرتى : المصدر السابق ج ٣ حوادث ١٢١٤ هـ .

(٢٩) الجبرتى : المصدر السابق ج ٣ حوادث ١٢١٤ هـ .

(٣٠) الجبرتى : المصدر السابق .

(٣١) شكرى : المرجع السابق ص ٣٣٠ .

(32) Charles Roux : L'Angleterre et l:Expedition Française en Egypte. Caire 1925, Vol II. 52 .

(٣٣) للتفاصيل انظر الجبرتى : المصدر السابق ج ٣ ص ٩٥ — ٩٦ .

(٣٤) الجبرتى : المصدر السابق ج ٣ حوادث ١٢١٥ هـ ، وشكرى : الحملة الفرنسية وخروج الفرنسيين من مصر ص ٢٢٤ .

(٣٥) الجبرتى : المصدر السابق ، حوادث ٢١ محرم ١٢١٥/١٤ يونية ١٨٠٠م .

(٣٦) شكرى : المرجع السابق ص ١٧٧ .

(٣٧) شكرى : المرجع السابق ص ٢٤٢ ، والجبرتى : عجائب الآثار حـ ٣ ، ص ١٤٥ .

(٣٨) شكرى : المرجع السابق ص ٤٣٨ .

(٣٩) الجبرتى : المصدر السابق حـ ٣ ص ١٩٠ .

(٤٠) شكرى : المرجع السابق ص ٥٩٧ .

(٤١) فيليب حتى وآخران : تاريخ العرب حـ ٣ بيروت ، دار الكشاف ١٣٧٠هـ / ١٩٥١م ، ص ٨٥١ .

(٤٢) شكرى : المرجع السابق ص ٦٥٢ ، والجدير بالذكر أن الأستاذ زهب الشايب قد ترجم جزءا لا بأس به من هذا الكتاب الى العربية .

(٤٣) جون مارلو : تاريخ النهب الاستعمارى لمصر من الحملة الفرنسية الى الاحتلال البريطانى — ترجمة عبد العظيم رمضان — القاهرة الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٧٦ ص ١٥ — ١٦ .

(٤٤) الهيئة العامة للآثار المصرية : شامبليون — الاحتفال بذكرى مرور مائة وخمسين عاما على رموز اللغة الهيروغيلفية ، ١٩٧٢ ، ص ٥ — ٦ .

(٤٥) الجبرتى : المصدر السابق ص ٢٠ .

(٤٦) شكرى : المرجع السابق ص ٥٩١ .

(٤٧) نفسه ص ٥٨٣ .

(48) Charles Roux : op. cit., p. 105 .

(٤٩) الجبرتى : المصدر السابق حوادث ١٦ ربيع الثانى ١٢١٣هـ .

(٥٠) محمود الشرقاوى : مصر فى القرن الثامن عشر جـ ١ ، القاهرة ، الأنجلو المصرية ، ١٩٥٧ ، ص ١٨٥ .

الفصل الثانى

عصر محمد على

١ ــ تمهيد : النزاع على السلطة فى مصر من خروج الحملة الفرنسية حتى تولية محمد على .

٢ ــ مذبحة القلعة .

٣ ــ حروب محمد على فى الجزيرة العربية .

٤ ــ محمد على وفتح السودان .

٥ ــ محمد على وحرب استقلال اليونان .

٦ ــ حروب محمد على فى بلاد الشام .

٧ ــ محمد على وبناء الدولة الحديثة فى مصر .

أولا : محمد على والنهضة التعليمية .

ثانيا : محمد على وتكوين الجيش الحديث .

ثالثا : محمد على والزراعة .

رابعا : محمد على والنهضة الصناعية .

خامسا : محمد على والتطور التجارى .

سادسا : محمد على والاهتمام بالشئون الصحية .

سابعا : تقييم عصر محمد على .



تمهيـــــد

النزاع على الســـلطة فى مصر من خروج الحملة الفرنســـية حتى تولية محمد على .

لما جـــلا الفرنسيون عن مصر بقى بهـــا ثلاث قـــوى متصارعة وهى المماليك والانجليز والعثمانيون ، وكان ضمن افراد القـــوة العثمـــــانية ضابطا صغيرا من ضبـــاط الفرقة الألبـــانية وهو محمد على الذى ظـــل يرقب عن كثب الصراع الذى قام بين هـــذه القوى من اجل الفوز بالسلطة والســـيطرة دون النظر الى مصـــلحة الشعب المصرى الذى ظل يعانى من الفـــوضى والارتبـــاك والاضطراب بدرجة لم يســـبق لها مثيـــل فى تاريخ مصر الحديث اذ تدهورت أحوال البلاد حتى وصلت الى الحضيض فقـــد قـــام المماليك باهـــلاك الحرث والنســـل اينما حلوا ، وقـــــام العثمانيون بالســـطو على محال التجـــارة والتعـــدى على الأشخـــاص وبخـــاصة عندما يتـــأخر صرف رواتب جنـــودهم بسبب افلاس خزانة الـــوالى . وقـــد انتهى الصراع بين القـــوى الثلاث بخروج الانجليـــز من مصر نتيجـــة لعقد صلح اميـــان فى عام ١٨٠٢م بين انجلترا وفرنسا وهولندا وأسبانيا [١] .

وعلى الرغم من انســـحاب الانجليز من مصر ، فقد حاولوا أن تكون لهم ركـــائز بها وبخـــاصة بعد أن شـــعروا بأهمية موقع مصر الجغرافى، ومن هنـــا حاولوا التقـــرب من المماليك فقـــاموا بدعوة الزعيم محمد بك الألفى الى انجلترا واتفقـــوا معه على أن تســـعى الحكومة الانجليـــزية لدى البـــاب العـــالى ليترك الســـلطة له فى مصر فى نظير أن يترك لهم ادارة الاسكندرية والســـواحل المصرية ، ولكن هذه المحـــاولة لم تنجح وبخـــاصة أن عثمـــان البرديسى وبعض زعمـــاء المماليك ومحمـــد على نجحوا فى افشالها .

وبالنســـبة لموقف القوتين المملوكية والعثمـــانية فقد أضعفهمـــــا التنـــازع المستمر بينهمـــا وخلال ذلك وقف محمد على فى صف الشـــعب

المصرى وبخاصة عندما اشتد الأمر بينه وبين الباشا العثمانى ، واخذ يتظاهر بالعطف على الناس والتودد الى مشائخهم ولما ازدادت مخازى ومساوىء الجند الولاة التابعين لوالى ذهب العلماء والمشايخ برئاسة السيد عمر مكرم فى مايو ١٨٠٥م الى بيت محمد على وطالبوه بعزل الوالى العثمانى خورشيد باشا ، ولما سألهم محمد على عمن يريدونه واليا عليهم ؟ قالوا له : لا نرضى الا بك ، وتكون واليا علينا بشروطنا لما نتوسمه فيك من العدالة والخير ، فامتنع أولا ثم رضى ، واحضروا له « كركا » وعليه قفطان ، وقام اليه السيد عمر مكرم والشيخ الشرقاوى فألبساه له « امام قاعة المحكمة » وذلك وقت العصر ، ونادوا بذلك فى تلك الليلة فى المدينة » [٢] .

وفى اعقاب ذلك سار هؤلاء العلماء والمشايخ نحو القلعة لمطالبة الوالى العثمانى بالنزول على الولاية لمحمد على ، وقد رفض خورشيد باشا هذا المطلب بقوله انه معين من قبل السلطان ولا ينزل عن كرسيه بأمر الفلاحين ، واستمر محصورا فى القلعة حتى اضطر السلطان العثمانى أن يقر محمد على واليا على مصر فى يوليو ١٨٠٥ [٣] ويأمر بانهاء ولاية خورشيد باشا بعد حكم استمر ستة أشهر وأربعة عشر يوما [٤] .

وهكذا كانت مبايعة الشعب لمحمد على من الأيام التاريخية المعدودة فى تاريخ الحركة القومية المصرية ، ففيها وضعت مصر لنفسها أساس حريتها واستقلالها ، وفيها اعلنت عن حقها فى تقرير مصيرها، وفيها تجلت سلطة الامة ممثلة فى اشخاص زعمائها وذوى الرأى فيها فى خلع الوالى المعين من قبل السلطان ، واسناد الحكم الى من انتخبه زعماء الشعب ووكلاؤه ، يضاف الى ذلك أن ما حدث لم يكن مقصورا على مجرد انتخاب زعماء الشعب لمحمد على بل كان مقرونا باشتراطهم أن يرجع اليهم فى شئون الدولة فوضعوا بذلك قاعدة الحكم الشورى فى البلاد ، هذا الى جانب انه تم فى دار المحكمة اى فى ساحة العدالة ، فاتخذ معنى الاحتكام الى العدالة والتمسك بالحق [٥] .

وعلى الرغم من وصـــول محمد على الى قمة الســـلطة فى مصـــر فان الطريق أمامه لم يكن ســـهلا فهناك المماليك فى الصعيد يهـــددون مركزه ، وهناك مشـــكلة عدم تمكنه من دفع رواتب جنوده المتأخرة .

وقد نجح محمد على فى تذليل هـــذه المشـــاكل بعد اقناعه للمشايخ بضرورة جمع المـــال اللازم كى يتمكن من وقف اعتـــداءات المماليك على الشعب ، وليمنع تألب الجنـــود عليه وخلال ذلك حدثت محـــاولة لنقل محمد على من ولاية مصر ، فارســـلت الدولة العثمـــانية مرسوما يقضى بتولية موسى باشـــا ولاية مصر ونقل محمد على الى ولاية « سالونيك » .

وقد تظـــاهر محمد على بالقبـــول فى حين تمســـك العلماء والمشايخ به ، وكتبـــوا التماســـا الى السلطان طلبوا فيه ابقـــاء محمد على على ولاية مصر ، وقد وافق الســـلطان على طلبهم بحجـــة أن الخاصة والعامة راضيـــة باحكام محمد على ، وعدله بشـــهادة العلماء واشراف الناس(٦) وصـــدرت الاوامر الشـــاهانية بتثبيت محمد على باشـــا على ولاية مصر مع الايعـــاز اليه أن لا يتعرض للماليك لصـــدور العفو عنهم وخلال ذلك أرسلت انجلترا حملة الى مصر بقيادة الميجور جنرال ماكنـــزى فـــريزر Mackenzie Fraser فى محرم ١٢٢٢هـ/مارس ١٨٠٧م بهدف تخويف الباب العـــالى والضغط عليه للانفصـــال عن فرنســـا والانضمام الى عدوتيها انجلترا وروســـيا هذا بالاضـــافة الى تأييد جمـــاعة الألفى من المماليك الموالين للانجليز(٧) ، وبعد ان وصلت الحمـــلة الى الاسكندرية ســـلمت المدينة دون مقـــاومة تذكر .

وفى التـــاسع والعشرين من مارس اتجه نحو الف واربعمائة جندى انجليزى لاحتـــلال رشيد وتمكنوا من احتلالها بسهولة مما اعطى للانجليز الأمـــان ، وتصوروا أنفسهم وكأنهم فى نزهـــة حربية وبدأوا يلقـــون اسلحتهم وينتشرون فى شـــوارع المدينة ، وبينمـــا هم على هذا الحال أمر حـــاكم رشيد اهـــالى المدينة باطـــلاق النار عليهم « من الأزقـــة والعطف وطيقان البيوت » (٨) ومن فوق اســـطح المنازل فأبيد الكثيرون من افـــراد القـــوة الانجليـــزية ، وســـاد الهرج والمـــرج بينهـــم .

ولما وصــل خبر الحملة الى محمد على اثنــاء تواجده باســـيوط لمحاربة المماليك تلكأ فى اتخــاذ قرار محدد فى بداية الأمر ، ثم مالبث ان اتخذ الأهبــة للسفر ومواجهة الانجليز .

وفى أثناء ذلك ارســل فريزر قوة اخرى الى رشــيد للانتقــام مما اصــاب جنوده من هزيمة ، ولكن هذه القــوة لم تفلح فى تحقيق اهدافها واخذت فى التقهقر الى الاسكندرية .

ولما خرجت قــوات محمد على لمقــاتلة الانجليز وجدت منهم ميــلا الى عقد الصــلح ، فدارت مفــاوضات بين الفريقين واتفق فيهــا على اخــلاء ســبيل الاسرى الانجليز فى مقــابل الجــلاء عن الاسكندرية(٩) ، ونتيجــة لذلك تخلص محمد على من اكبر خطر كان يتهدده ، مما ادى الى تثبيت حكمــه وتمكينه من الاستيــلاء على الاسكندرية التى كانت خارجة عن ســلطته وازدياد تقــدير المصريين له فاصبح عزيز الجانب وصاحب الأمر والنهى فى البــلاد يضــاف الى ذلك علو منزلة محمد على لــدى الســلطان ورجــالات الباب العــالى الذى اصبحوا يقدرونه حــــق قــــدره(١٠) .

وفى اعقاب ذلك راى محمد على ضرورة التخلص من كافة العــوائق التى تحــول بينه وبين الانفراد بالحــكم فعمل على التخلص من زعمــاء الشعب الذين مهــدوا له طريق الوصــول للحكم وذلك عن طريق الوقيعة وبث روح التحــاسد والنفــور بينهم (١١) ، كمــا قام بفرض الضرائب على المصريين دون الرجــوع اليهم ، ولما عارضه السيد عمر مــكرم فى ذلك أمر بنفيه الى دميــاط فى اوائل رجب ١٢٢٤هـ/اغسطس ١٨٠٩(١٢) ثم انقلب على باقى العلمــاء وقضى على قوتهم ، وحطم ارستقراطيتهم ولم يبــق امامه من قوة تنــافسه سوى المماليك ، فبدا يعد العدة للتخلص منهــم .

٢ — مذبحــة القلعــــة :

وبعد أن رحلت الحملة الانجليزية عن مصر اتت المكاتبــات مــن الســلطان العثمــانى الى محمد على بضرورة الاستعــــداد لمقــــاتلة رجالات الدعوة السلفية فى الجزيرة العربية .

وقد بذل محمد على جل جهوده فى تجهيز الحملة ، وبدأ يتفقد امور الاعداد لها ، وبعد أن سافر الى السويس فى أواخر يناير ١٨١١م لتفقد الأعمال التى تعمل فى مرفأها وليشاهد نزول بعض السفن الى البحر اضطر للعودة الى القاهرة مسرعا بعد ان ضبطت مكاتبات بين امراء المماليك فى الوجه القبلى ونظرائهم فى القاهرة للاطاحة به وهدم سلطانه (١٣) لذلك رأى أن المسألة بينه وبين زعماء المماليك أصبحت مسألة مصير وانه يستحيل ان يرسل قواته الى الجزيرة العربية قبل ان يتخلص منهم نهائيا فدبر مذبحة القلعة فى أول مارس ١٨١١م فأذاع انه سيلبى نداء السلطان ويرسل حملة الى الجزيرة العربية ، ودعا الأمراء وكبار العسكر والأعيان للحضور بملابسهم الرسمية للمشاركة فى تقليد ابنه طوسون رياسة الحملة ، فجاءوا الى القلعة راكبين الجياد المطهمة ومرتدين الثياب الحريرية المزركشة وعلى رءوسهم العمائم الضخمة المرصعة بالجواهر وبينما كان أمراء المماليك سائرون وسط الموكب الى « باب العزب » (١٤) بدأ الموكب فى الانحدار من أعلى القلعة وسط ممر وعر تحيط به الصخور من كل جانب وخلال ذلك أمر « صالح قوج » قائد قوات الالبان باغلاق الباب الحديدى الكبير ثم أعطى أوامره لعساكره بتسلق الصخور بعيدا عن الممر الوعر ، والاستعداد لاطلاق النار على المماليك . ولما وصل المماليك الى الباب الحديدى وجدوه مغلقا ، فحاولوا التقهقر الى الخلف ، ولكنهم لم يتمكنوا لضيق الممر ، ولأن خيولهم كانت تسير فى نظام خلف بعضها ، واثناء ذلك انهمرت النيران عليهم من كل جانب ، فارتبكوا وبدأوا يتساقطون من فوق جيادهم وسالت الدماء، واصبحت القلعة ميدانا للذبح والقتل ، وتكدست الجثث فى الممر الضيق وبعدها قطعت رءوس أمراء المماليك ليراها الباشا وسحبت اجسادهم بالحبال ، ولم ينج من هذه المذبحة سوى مملوك واحد هو « أمين بك » الذى كان قد تأخر لظرف طارىء فلم يلحق غير الصف الأخير ولما سمع صرير الباب الحديدى وهو يغلق ودوى الرصاص رجع بجواده الى داخل القلعة واخذ يبحث عن منفذا للهرب فلم يجد امامه الا أسوارا ارتفاعها حوالى عشرين مترا فجرى بجواده الى قمة عالية ثم استنفر

الحصـــان فوثب به فى الهـــاوية التى تحت قدميه فتهشم الجواد ، واصيب امين بـــك باغماء وكســـور ، افاق منها بسرعة وهرب الى اقليم الشرقية ومنها الى خارج مصر (١٥) .

ونتيجـــــة لهذه المذبحة استطاع محمد على ان يتخلص من اربعمائة وسبعين مملوكا من زعمـــاء المماليك .

وبعد هـــذه المذبحة امر محمد على جنوده بسلب قصـــور المماليك وقتل ابنـــائهم والاعتـــداء على نســـائهم كما أمر بادخـــال بعض ابنـــائهم فى خدمته ، وأجرى الارزاق على نســـائهم وزوج بعضهن لضباطه واتباعه، وبذلك قضى محمد على على كل اثر للمماليك فى مصر الى غير رجعة .

وقد برر محمد على هذه المذبحة امام البـــاب العـــالى بأنها كانت ضرورية قبـــل قيامه بالحملة على الجزيرة العربية وبخـــــاصة انه كان يخشى من قيام المماليك بالاطاحة به بعد تحرك قواته الى الحجاز (١٦) .

وعلى اى حـــال فقد اختلف المؤرخون والباحثون فى تقييمهم لهـــذه المذبحة فمنهم من قال انهـــا كانت نقطـــة سوداء فى تاريخ محمد على ذلك الحـــاكم التركى الذى لا يحجم عن اى شىء فى ســـبيل مصلحته واغراضه الشخصـــية ومنهم من قال انهـــا كانت ضرورية لاستقرار البلاد وسلامتها بعد أن عاث المماليك فى ارض مصر فســـادا دون اى رادع او واعز فـــى ضمير أو شرف ، وانه كان لابد من التضحية بهم فى ســـبيل بناء حكومة مستقرة فى مصر وصفوة القول ان مجزرة القضاء على المماليك على الرغم مما فيها من غدر وسفك دماء واخذ البرىء بجريرة المذنب فانها كانت لا مفر منها لمحمد على اذا شاء أن يدعم أركان سلطانه فى مصر .

٣ — حروب محمد على فى الجزيرة العربية :

بعد أن فشـــلت الدولة العثمـــانية فى مواجهة رجالات الدعـــــوة الســـلفية عن طريق ارســـال ولاة الشـــام والعراق لمحـــاربتهم طـــلب السلطان مصطفى الرابع من محمد على والى مصر القيـــام بهذه المهمة على أمل اعـــادة السيادة العثمـــانية على الحجاز ، ويبدو ان محمد على لـــم يكن راغبـــا فى القيام بهذه المهمـــة فى بداية الأمر حيث تذكر الوثائق ان محمد على كان يمـــاطل فى تنفيذها ويتلكأ فى ارســـال هذه الحملة بحجـــة

ســوء احــوال مصر الاقتصادية التى لا تمكنه من الاعداد لهذه الحــرب ورغبة فى قيــام الدولة العثمــانية بامداده بالاخشــاب التى تمكنــه من انشــاء السفن اللازمة لعبــور البحر الأحمر ، وامداده بالذخائر والمهمات التى تمكنــه من خوض المعركة [١٧] ونتيجة لتكرار مطلب الدولة العثمانية، وخشية من أن يستثير محمد على غضب الســلطان العثمانى اضطر الى أن يصــدر اوامره بارســال الحملة تحت قيادة ابنه احمد طوســون .

وفى الثالث من سبتمبر ١٨١١م ابحرت قوات محمد على من السويس الى ينبع ومنهــا اتجهت نحــو المدينة المنورة ، وقد استولت هذه القوات فى طريقها على قريتى « بدر » « والصفراء » الا أن رجالات الدعــوة وقفوا لهــا بالمرصــادعند « الحديدة » وكادوا يقضون عليها مما اضطرها للتراجع الى « ينبع » وقد وصف الجبرتى ذلك بقوله « انهزموا جميعــا وولوا الأدبار وطلبوا جميعا الفرار »[١٨] .

ونتيجــة لتحرج موقف قوات طوســون باشا قام محمد على بتعزيز قــواته ، كما عمل على ضــم بعض القبائل الى صفــه مما ادى فى نهاية الأمر الى نجــاح قوات طوســون فى الوصول الى مكة وجدة .

وفى أواخر عام ١٨١٣م ســافر محمد على الى الحجاز لتولى القيادة بنفســه ، وخلال ذلك منيت قواته بهزيمة منكرة عند بلدة « تربة » بالقرب من الطــائف [١٩] ولكنها سرعان ما استطاعت تحقيق انتصارا كبيرا فى « بسل » [٢٠] .

وخشــية من تطور المــوقف ضد محمد على فى مصر ، وما تــردد حــول هروب نابليون من منفــاه فى « البــا » عاد محمد على الى مصر . ونظــرا لتدهور أحوال قوات محمد على فى الحجاز ونتيجة لفشل طوسون فى الامســاك بزمام الموقف جمع محمد على قــواده ورجال الحكم والسلطة واعرب لهم عن رغبته فى اختيــار قائد جديد للحملة بدلا من طوسون وخلال ذلك أمر ببســط احدى الطنافس الكبيرة فى قصره ووضع فى وسطهــا تفــاحة ، وقال ان الذى يتنــاول التفاحة بيده ، ويقدمها لى دون أن يمس الســجادة أكلفه بقيــادة الحملة ، فأخذ الحاضرون يتطاولون على التفاحة

بلا جـــدوى الى أن جـــاء دور ابراهيم وكان قصير القامة ، فلم يزد على انه تنـــاول طرف الطنفســـة بيده ، وطواها الى انوصل الى التفـــاحة فتنـــاولها واعطاها لأبيه فولاه قيادة الجيش (٢١) وبعد ان وصـــل ابراهيم باشـــا الى بلاد الحجـــاز بدأ فى بنـــاء الحصون ، كما عمل على جـــذب البدو اليه فدفع لهم رواتب منتظمـــة وهدايا مما مكنه من جذب اكبر عدد من القبائل البدويـــة اليه ، وبعد ذلك بدأ فى زحفه صوب نجد وتمكن فى نهـــاية الأمر من الوصول الى الدرعية واســـقاط الدولة السعودية الأولى فى عام ١٢٣٣هـ سبتمبر ١٨١٨ .

وعند تحليلنا لأسباب الصـــدام العســـكرى بين الدولة العثمـــانية والدولة السعودية الأولى يتضح ما يلى :

١ — انه كان هنـــاك سوء فهم للدعـــوة من قبل العثمـــانيين فبعد أن احدثت دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب فزعا لدى مناهضيهـــا حاولوا مقـــاومتها فشـــنوا عليها حربا نفســـية وفكرية لا هوادة فيهـــا بهدف ابعـــاد المســـلمين عنها فذكروا أن رجـــالات الدعوة عطلوا ســـبل الحج الى الحرمين الشريفين والحقيقة ان اتبـــاع الدعوة لم يمنعوا احدا من الحج الا اذ كان مخالفا للطرق الشرعية(٢٢) .

٢ — انه على الرغم من الصـــدام بين العثمانيين واتباع الشـــيخ محمد بن عبد الوهاب فانه لم يعلن أحد من الامراء السعوديين الخروج على دولة الخلافـــة أو اعلان الخلافة على المســـلمين كما ادعى بعض اعـــداء الدعـــوة وجعل السلطان يرسل الجيوش لمحاربتها .

حقيقة لقد بـــايع الشيخ عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب الامـــير محمد بن ســـعود على الامـــارة ، ولكنه لم يبايعه على الخلافة العـــامة للمسلمين والدليل على ذلك أن الأمراء السعوديين ظلوا ينعتون السلاطين العثمـــانيين فى مراسلاتهم بالخلفاء والسلاطين فى الوقت الذى كانوا ينعتون فيه انفســـهم بالتابع المخلص للسلطان (٢٣).

وعلى كل حـــال فقد عم الفرح والســـرور عاصمة الدولة العثمانية بعد سقوط الدرعية (٢٤) كمـــا كافأ السلطان العثمانى ابراهيم باشا على

هذا الانتصـــار بتعينه واليا على الحجاز ، ونتيجة لهذا الانتصار وعـــودة ابراهيم باشا الى القـــاهرة فى ٢٢ صفر ١٢٣٥هـ الموافق ٩ ديسمبر ١٨١٩ بدا محمد على يعد عدته لفتح السودان .

٤ — محمد على وفتح السودان :

اختلف المؤرخون فى اســباب حملة محمد على لفتح السودان وفيما يلى نعرض لأهم هذه الآراء :

١ — اعتقـــاد محمد على بأن ارتبـــاط مصر والســـودان ضرورة هامة لتحقيق بناء دولته الحديثة .

٢ — رغبته فى مطـــاردة بقايا المماليك الفـــارين من مصر الى دنقلة لشـــعوره انهم يمثلون خطرا ضده .

٣ — رغبته فى اكتشـــاف مناجم الذهب والماس والمعادن التى أشيع تواجدها بكثرة فى الســـودان .

٤ — رغبته فى تجنيد السودانيين فى جيشـــه النظامى[٢٥] .

٥ — سعيه الى اكتشاف منابع النيل .

٦ — توسيع نطـــاق المعاملات التجارية بين شطرى الوادى .

٧ — رغبته فى التخلص من بقايا جنوده الألبان والارناؤد وغـــيرهم من الفرق غير النظامية التى كانت تقض مضاجعه ، وتعيق عملية تحديث الجيش التى ينشـــدها ونتيجة لذلك بدا محمد على فى اعداد الحمـــلة فى يونيو ١٨٢٠م وتوغلت قواته فى الســـودان دون أن تجد مقـــاومة تذكر مع أن هذه الحمـــلة لم تحقق أطمـــاع محمد على فى الحصول عـــلى مناجم الذهب ، وفى اتســـاع نطـــاق العمليات التجارية ، وفى تجنيد السودانيين، فقـــد اهتم الباشـــا بتأسيس مدينة الخرطوم عند ملتقى النيـــل الأزرق بالأبيض وادخال الزراعات المصرية الى السودان [٣٦] كما اهتم بارسال البعثـــات العلمية ، واصـــلاح الادارة والغـــاء تجـــارة الرقيق ونشـــر الأمن والحضارة .

٥ — محمد على وحرب استقلال اليونان :

بعد أن قامت الثــورة فى بلاد اليونان ضـــد الحكم العثمـــانى فى ١٨٢١ بتشجيع من الدول الأوربية وبخـــاصة الروسيا ارســـلت الدولة العثمـــانية جيشا بقيـــادة خورشيد باشـــا لقمعها ، ولكنه منى بالفشل مما جعل السلطان محمد الثـــانى يفوض محمد على أمر القضاء عـــلى هذه الثورة فى نظير اضافة باشويتها اليه .

وعلى الرغم من أن بـــلاد اليونان لم تكن مطمعـــا لآمال محمد على فى أى وقت من الأوقـــات فانه حـــاول اقتنـــاص الفرصة ليثبت للعـــالم مدى تعـــاظم قواته العســـكرية وقدرتها على مساندة الســـلطان فـــى ميـــادين القتال .

وفى عام ١٨٢٥ أرسل محمد على قـــواته بقيادة ابراهيم باشـــا الى أرض المورة [٢٧] واستطاعت بعد عدة محاولات النزول الى بلاد اليونان، وضرب الحصـــار على منطقة نفارين Navarine وتمكن من اسقـــاطها ودخـــول قواته اليها فى الثامن عشر من مايو ١٨٢٥ [٢٨] ونتيجـــة لذلك خشيت الحكومات الأوربية من عـــواقب انتصار القوات المصرية ، وبدأت القضـــية اليونانية تستحوذ انتبـــاه الراى العـــام الأوربى ، وبينمـــا كانت الحكومات الأوربية تتهم ابراهيم باشـــا بخرق حرمة قوانين الحرب كان القائد المصرى يصلى اليونانيين نارا حامية ، حتى سقطت مسولنجى Missolonghi فى الثـــامن والعشرين من ابريـــل ١٨٢٦م وفتـــح بذلك الطريق الى اثينا [٢٩] مما جعل الدول الأوربية تتدخل فى الأمر ، فقـــامت اساطيلها بمظـــاهرة بحرية مشـــتركة لايقاف القتـــال واجبار الســـلطان العثمـــانى على اخـــلاء المورة ، وكانت الروسيا اكثر الدول الأوربية رغبة فى التدخل العســـكرى ضد قوات محمد على ، وفى السادس من يـــوليو عام ١٨٢٧م اتفقت انجلترا وفرنســـا والروسيا فى معاهدة عقدت بلنـــدن على فرض هدنة حربيـــة بين الطرفين ، ومع ان ابراهيم باشا احتـــرم الهـــدنة ، فان اليونانيين قاموا باســـتفزاز قواته مما اضطر القـــوات

المصرية الى الرد عليهم ونشـــوب معركة بحـــرية بين اساطيل الـــدول الأوربيـــة والاسطولين المصرى والعثمانى فى العشرين من أكتوبر ١٨٢٧م انتهت بتحطيم الأسطول المصرى النـــاشىء وفقدان حوالى ثـــلاثين الف جندى (٣٠) .

ولما رأى محمد على أنه لا فائدة من اســـتمرار القتال وشعر بالمخاطر التى يمكن أن تسببهـــا الدول الأوربية له تم الاتفـــاق بينه وبين قـــائد الأساطيل الأوربية المتحالفة على سحب قواته من المورة ، وتبادل الاسرى بين الطـــرفين (٣١) ونتيجة لذلك أرســـل محمد على ابنه ابراهيم يأمره بالجـــلاء عن المورة دون انتظـــار لأوامر الســـلطان ، فسحب ابـــراهيم قواته وترك الباب العالى وحيدا مما احرج موقفه .

ومع أن خســـارة مصر كانت فادحة فى هذه الحرب من النـــاحية العسكرية فان مكاســـبها الســـياسية كانت كبـــيرة (٣٢) فقد فاوضـــت الدول الأوربية لأول مرة مصر دون وســـاطة الدولة العثمانية مما اكســـب مصر منزلة معنوية كبيرة ، كما أن هذه الحرب كانت أول حرب يخوضها الجيش المصرى فى أوربا ويثبت من خلالها قدرته على مواجهـــة الموقف ، ويؤكد فيها تمتعـــه بأساليب الحرب الحديثة وفنونها .

وعلى كل حـــال فقد اشـــتد ضيق السلطان من محمد على لتفاوضه مـــع الدول الأوربية دون اذنه ، وســـحب قواته دون الرجوع اليـــه ، كما بدأ محمد على يراجـــع خطته تجـــاه الباب العالى الذى لم يكـــافئه على خدماته رغم تحطيم اسطوله ولم يمنحه ســـوى حكم جزيرة كريت مما جعـــله يفكر جديا فى الاستيلاء على بـــلاد الشام وتوسيع رقعـــة أملاكه على حساب الدولة العثمانية .

٦ — حروب محمد على فى بلاد الشام :

من المعروف أن بلاد الشـــام كانت مطمح انظـــار محمد على منـــذ حروبه فى الجزيرة العربية فقد طلب من الســـلطان اضافة منصب ايـــالة الشـــام الى منصب والى مصر مبررا ذلك بامكانية الحصول على الاخشاب وجمع الجنـــود من هناك ولكن طلبه كان مصيره الاهمال . ولما قـــامت

حرب المورة كرر محمد على طلبه بحجة تعويضه عما تكبده الجيش المصرى من خسائر فى هذه الحرب ، ونظرا لرفض السلطان لهذا الطلب للمرة الثانية حاول محمد على ضم هذه البلاد بالقوة مستغلا فى ذلك انهماك الدول الأوربية فى مسائلها الداخلية وانشغال الدولة العثمانية بالثورات الداخلية وحروبها المتعددة التى خرجت منها منهوكة القوى .

وقد تزرع محمد على فى ذلك بنزاعه مع عبد الله باشا الجزار والى صيدا الذى رفض تسليم آلاف الفلاحين المصريين اللاجئين اليه(٣٤) . وعدم وفائه بدين عليه ، وابتزازه لأموال بعض التجار المصريين واستيلائه على تجارتهم فى بلاد الشام (٣٥) ومن هنا قام بارسال حملته لتأديبه فارسل طلائع جيشه الى عكا فى ١٤ من أكتوبر ١٨٣١م فاستولت فى طريقها على يافا وحيفا دون مقاومة تذكر وفى الثامن من ديسمبر من نفس العام ضربت الحملة المصرية حصارها حول عكا وارسل ابراهيم باشا انذارا الى واليها يطالبه فيه بتسليم قلعة المدينة حقنا للدماء ، ونتيجة لرفض عبد الله باشا لهذا الانذار أمر ابراهيم باشا بضرب عكا بالقنابل من جميع الجهات (٣٦) .

ونظرا لفشل المحاولات التى بذلتها السلطنة العثمانية لتسوية المشكلة طلب السلطان من والى حلب اعداد العدة لمحاربة محمد على مما ادى الى تحرج الموقف وجعل ابراهيم باشا يتحرك بجزء كبير من قواته لمواجهة الجيوش العثمانية قبل وصولها الى عكا ، وقد نجح ابراهيم باشا خلال حروبه مع القوات العثمانية فى انتزاع طرابلس منهم وتعقبهم فى حمص وهزيمتهم فى سهل الزراعة مما أوقع الاضطراب فى صفوفهم والجاهم الى الفرار (٣٧) وبعدها واصل ابراهيم باشا حصاره لعكا حتى سقطت قلعتها فى السابع والعشرين من مايو ١٨٣٢(٣٨) وكان ذلك بداية لانتصارات ساحقة لقوات ابراهيم باشا حتى تم له الاستيلاء على بلاد الشام كلها والوصول الى الحدود الفاصلة بين المتحدثين بالعربية والمتكلمين بالتركية فقد تقدمت القوات المصرية بسرعة هائلة داخل بلاد الشام واحتلت دمشق وانزلت الهزائم بالجيش العثمانى بالقرب من حمص وواصل ابراهيم باشا تقدمه فدخل حلب ثم التقى مع القائد العثمانى حسين باشا فى معركة فاصلة عند مضيق

بيـــلان والحق به الهزيمة [٣٩] وبعدها تقدمت قواته داخل الاناضــــــول وهزمت القـــوات العثمانية فى « قونية » فى نوفمبر ١٨٣٢م ثم مضى ابراهيم باشـــا فى زحفـــه تجـــاه كوتاهيه فوصلها فى الثالث من فبراير ١٨٣٣م واصبح الطريق الى الآستانة مفتوحـــا امامه مما أزعج الدول الكبـــرى فأبدت روسيـــا قلقها من هذهالانتصارات كمـــا ابدت استعدادها لمساندة الدولة العثمـــانية ولما ترددت الأخبـــار بأن القـــوات الروسية قد ابحرت لنجدة الســـلطان العثمانى محمود انزعجت انجلترا وفرنســـا التى وجدتا أن تدخل روسيـــا يمثل خطرا كبيرا يهدد التوازن العـــام فى اوربا ، ورأت الدولتـــان وجـــوب اتخاذ اجراء سريع للحيلولة دون وصـــول النفـــوذ الروسى الى الآستانة فقابل قنصـــلا انجلترا وفرنسا فى مصر محمدا عليـــا ونصحـــاه بضرورة وقف زحف جيوشـــه والتفاهم مع السلطان . كمـــا اوضحت الحكومة البريطانية لمحمد على اصرارها على ضمان اســـتمرار كيـــان الدولة العثمانية وعدم تفككه [٤٠] مما جعل محمد على يرســـل الى ابراهيم باشـــا أمرا بان يتوقف زحفـــه حيثما كان » وانتهى الأمر بصلح كوتاهية الذى نـــزل فيه الســـلطان لمحمد على عن كريت وسورية ماعدا اطنـــة وبعد قبـــول الســـلطان العثمانى لصـــلح كوتاهية فى مايو ١٨٣٣ بدأت آمال محمد على فى تكوين دولة مســـتقلة تمتد حـــدودها الى أقصى بلاد الشـــام شمالا تبدو واضحـــة للعيـــان ، خصـــوصا وان امتـــلاك الشـــام يحميـــه من تربص الســـلطان به ، ويســـتر جنـــاحه الأيمن ، ويمنحه السيـــادة على بيت المقدس حصن الأديـــان الثلاثة ، ويعطيـــه دمشـــق احـــدى المدن العامرة بالثقافة الاسلامية ، كمـــا يوفر له معظم حاجياته الاقتصـــادية [٤١] .

ولما فاتح محمد على الدول الكبرى بشأن تطلعاته هذه عارضتـــه انجلترا اشـــد المعارضة ، وحذرته من عواقب هذه الخطـــوة وهـــددته باستخدام القـــوة ضده اذا تمسك برأيه [٤٢] وقـــد اســـتغلت الـــدولة العثمـــانية ذلك الموقف ، وبدأت فى استفزاز محمد على والتحرش بقواته المرابطة فى بلاد الشـــام ، وترقب الفرصة الســـانحة للانتقام منـــه . ولما كانت الحرب واقعـــة لا محالة بين الطرفين فقد بدأت القوات العثمانية تستفز القـــوات المصرية ، وتغير على مواقعها ، كما بدأ محمد على يطالب

السـلطان محمود الثـانى بأن يكون حكم مصر والشـام وراثيا فى ذريته مما أغضب السـلطان ، وجعله يسرع باعـلان الحـرب عليـه فبعثت الدولة العثمانية الى بـلاد الشـام جيشا كبيرا فى عام ١٢٥٥هـ تحت قيادة حـافظ باشـا وذلك لمقاتلة القـوات المصرية وطردها من هناك ، ونتيجة لذلك زحف ابراهيم باشـا بقواته حيث تجمع الجيشـان بالقرب مـن سـهل « نزيب » وهنـاك تم الاشتباك بينهمـا فى الحادى عشر من ربيع الثانى ١٢٥٥ هـ الموافق الرابع والعشرين من يونيو ١٨٣٩م فى معـركة حـامية انتهت بهزيمة القـوات العثمانية ، وفتحت أبواب عاصمة الخلافة على مصراعيهـا لاستقبـال الجيوش المصرية المنتصرة ، مما أزعج الدول الأوربية ودفعهـا الى التدخل بكل ثقلهـا فى المسألة لانقـاذ الدولـة العثمـانية من السـقوط حتى لا يتعاظم نفوذ محمد على الى الحد الذى يضعف نفـوذها فى المنطقة ، وقد تزعمت انجلترا هذه الحـركة ضـد محمد على وطلبت من السـلطان العثمانى الا يبرم اى اتفـاق مع محمد على ما لم توافق عليه الدول الكبرى [٤٣] . وفى أعقاب ذلك بدات انجلترا وفرنسـا تعمـلان على ايجاد المصـاعب أمام قوات محمد على فى بلاد الشـام فشجعت الأهالى على العصيان وامدوهم بالسـلاح للوقـوف ضـدها [٤٤] وفى أعقـاب ذلـك بـدات انجلتـرا فى التشـاور مـع الدول الأوربيـة بهـدف العمـل عـلى اخضـاع محمـد على للسلطان وانتهى الأمـر بعقـد معـاهدة لنـدن فى الخـامس عشـر مـن يوليو ١٨٤٠ والتى تضـمنت أن يعـرض السـلطان عـلى محمد على حكومة مصر وراثيـة له ولابنائهمن بعـده ، وحـكم عكا طوال حياته ، ويحرمه من السـيطرة على الجزيرة العربيـة ، وسورية ، وكريت فى نظـير أن يكون له الاستقلال الداخلى بمصر فى ظـل قيود معينة مثل دفع الأمـوال المربوطة على مصر للآستانة سـنويا وعدم تمثيـل مصر فى الخـارج وتحديد الجيش والأسطـول وسـلطة منح الألقاب وصك النقـود ، فاذا لم يقبل هذه الشروط فى مدة عشرة ايـام تنقص من حقوقه ولايـة عكا ، واذا تأخر عشـرة ايام اخرى ولم يقبل ما عرض عليه فللسلطان

الحـــق فى اتخـــاذ اى طريق تشير به عليه مصــــالحه الخاصة ونتيجـــة لرفض محمد على لهذه الشروط فى الأيــــام العشرة الأولى ضــــاعت منــــه ولاية عكا ، ولما بدا العد التنـــازلى للأيام العشرة الثانية ، ولم يجد محمد على المســــاندة من فرنسا او غيرها قبل شروط الدول الكبرى[٤٥] ، وعلى اثر ذلك صدر فرمان ١٨٤١ وأهم شروطه .

١ — ان يعطى محمد على ولاية مصر وتكون وراثية فى أسرته .

٢ — ان يتولى حكم مصر بعد وفاة محمد على اكبر افـــراد اسرته ســــنا .

٣ — تحجيم عدد الجيش المصرى بحيث لا يزيد عن ١٨ ألف جندى.

٤ — قيام مصربدفع مبالغ سنوية للدولة العثمانية مقـــدارها ٣٢٠ ألف جنيـــه .

ومما سبق يتضح ان هذه التســـوية لم تكن اجراء داخليــــا بين السلطان ومحمد على وانمــــا كانت تســـوية دولية نجحت الدول الكبرى فيها فى تحطيم آمال محمد على فعـــادت مصر الى حدودها القديمة باضافة السودان اليها ، كما اهملت مشروعات محمد على الاقتصادية والعمرانية.

٧ — محمد على وبناء الدولة الحديثة فى مصر :

اختلف المؤرخون فى تقـــدير اعمال محمد على بين مـــادح وقــــادح فمنهم من راى فيه الرجل الذى أسس مصر الحديثة ، وجعل منهـــا بلدا يسير فى ركب الحضارة والمدنية بعد ان كانت عبارة عن ضيعة تـــــابعة للدولة العثمــــانية يتعرض اهلها لأفدح الأعبــــاء وأشـــد المظالم . ومنهم من نظر اليه بمنظـــار أســـود قاتم وحط من قيمة جهوده واصلاحاته وراى فيه الرجل المســـتبد الذى استأثر بكل السلطات من أجل مصــــلحته ، ومصلحة اسرته الشخصية وتحقيقا لأهدافها .

وحين تختلف الآراء حول شخصــــية معينة ، فلا يجد المؤرخ مناصا من الرجوع الى كتابات المعاصرين لهذه الشخصية حتى يتعرف منها على

حقـــائق الأمور ، ويستقى منها المعلومات التى تســـاعد على الوصـــول الى الحقيقة ومن هنا فقد اعتمدنا على جل المصـــادر التى عاصر اصحابها فترة حـــكم محمد على ، لتروى لنـــا احوال مصر فى تلك الفترة بمثاليهـــا ومشاربها دون اى تحامل او محـــاباه .

وقد اتضح لنا منها ان محمد على اقبل على اصـــلاح احوال مصر التعليمية والعسكرية والاقتصادية ، وغيرها وبذل كل الجهود من اجـــل تحقيق ذلك لاعتقاده ان مصر ليست الا ملكا خاصا له ولاسرته وفيما يلى نعرض لذلك ،

أولا — محمد على والنهضة التعليمية :

على الرغم من أن محمد على لم يتعلم القراءة والكتابة الا بعـــد أن تجـــاوز الأربعين من عمره ، وبالرغم من أن التعليم فى مصر قبل عهـــده كان قد انزوى فى اروقة الأزهر وصحـــون بعض المساجد وابنية الكتاتيب واقتصر على اتقـــان الأحكام الشرعية والاعتقادية [٤٦] فقد وجه محمد على جل اهتمامه الى التعليم فى مصر بكافة مراحـــله متبعا فى ذلك احدث نظم التعليم الأوربية فى ذلك الوقت حيث أيقن أن بنـــاء الدولة الحـــديثة التى ينشـــدها يحتاج الى جيش قوى لا تكتمل كفاءته الا على الأســـــاليب الحربية الحديثة التى تقوم على العلم والمعرفة ، وبنـــاء الدولة الحديثـــة التى ينشدها يحتاج الى أعداد من المهندسين والاطباء والمعلمين والمترجمين ونتيجة لذلك رأى محمد على ضرورة تـــأسيس المدارس المتخصصة للوفاء باحتياجات حكومته من المتخصصين وتوفير متطلباتها من الموظفين كما قام بايفاد البعثات العلمية فى مختلف التخصصات الى الخارج[٤٧] وامر بترجمة العديد من الكتب الأجنبية الى التركية والعربية فى قسم ملحق بمكتبة بالقلعة ليسهل الافادة منها[٤٨] . وبهذه الوسـائل الثلاث حاول محمد على أن ينقل الغـــرب الى مصر ليحقق أهدافه فى بنـــاء الدولـــة الحديثـــة . ولكنه لم يحـــاول أن ينقـــل مصـــر الى الغرب بل احتفظ لها بتراثها وتقاليدها الشرقيـــة وان كان قـــد مزجهـــا بحضـــارة الغـــرب وعلومه ، وبذلك أوصـــل حاضرها بغابرها واقـــام النهضـــة المصرية الحـــديثة على أسس مزجت بين التطور فى العالمين الشرقى والغربى [٤٩] .

والجدير بالذكر ان التعليم الحديث وجد من المصريين اعراضا فى بداية الأمر ، وبخاصة أن التلاميذ كانوا يعيشون فى المدارس بعيدا عن اهلهم[٥٠] ولكن ذلك لم يستمر طويلا فبعد ان رأى الأهالى أن خريجى هذه المدارس يتقلدون المناصب الحكومية ويتقاضون المرتبات الكبيرة ، ويرتدون الملابس الجيدة اقبلوا على تعليم أولادهم .

فيما يلى نعرض لمراحل تطور التعليم الحديث فى عصر محمد على :

المرحلة الأولى ١٨١١ — ١٨٣٦م :

بدأ محمد على فى هذه المرحلة بانشاء المدارس العالية والخاصة والمدارس الحربية وكذلك المدارس الابتدائية[٥١] التى وصل عددها خلال هذه المرحلة سبعة وستين مدرسة [٥٢] وفى هذه المرحلة أيضا قام محمد على بارسال البعثات العلمية الى أوربا وبخاصة ايطاليا وفرنسا [٥٣] .

والمتتبع لحركة تطور التعليم خلال تلك الفترة يلاحظ ما يلى :

١ — ان المدارس كانت تابعة لديوان الجهادية وكان الغرض الأساسى منها حربيا بالدرجة الأولى .

٢ — ان نظام التعليم لم يكن مركزيا ، بحيث كان كل مدير مدرسة يضع اللوائح التى يراها مناسبة لمدرسته .

٣ — اهتمام الحكومة بتخريج الموظفين بغض النظر عن جنسياتهم جعل العنصر المصرى بين الطلاب ضعيفا .

٤ — سيطرة النفوذ الايطالى الثقافى على هذه المرحلة حيث كانت الايطالية هى أولى اللغات التى درست بالمدارس المصرية ، وكانت أولى البعثات الى أوربا توفد الى ايطاليا .

٥ — قيام الاجانب بالتدريس فى هذه المدارس [٥٤] .

المرحلة الثانية ١٨٣٦ — ١٨٤١م :

بدأ التعليم فى هذه المرحلة يصبح اكثر تنظيما حيث اصبح هنـــاك ترابطا اكثر بين المدارس ، كمـــا عاد الكثير من طـــلاب البعثات للمشاركة فى تنظيم التعليم ببلادهم والعمل فى المصـــالح والدواوين الحكومية ، والى جـــانب ذلك فقد رأى محمد على فصل تبعية دور العلم عن ديوان الجهادية، وتشـــكيل لجنة فنية لتنظيم أمور التعليم حتى يتحقق له التنظيم الجيـــد ، وهى ما اطلق عليها فيما بعد « ديوان المدارس » وقد قامت هذه اللجنـــة بوضـــع لائحة لكل مرحلة من مراحل التعليم فبالنسبة للتعـــليم الابتـــدائى اقتصرت مدة الدراســـة فيه على ثلاث سنوات وحصر الغرض منه فى امرين همـــا :

١ — نشر التعليم بين الأهالى .

٢ — اعداد التلاميذ للمدارس التجهيزية .

وبالنسبة للمرحلة التجهيزية فقد انحصر الغرض منها فى أمرين :

١ — توسيع درجة التعليم بين خريجى المدارس الابتدائية .

٢ — اعداد الطـــلاب للمدارس الخصوصية التى يكون الغرض منهـــا اعداد الموظفين للادارات والمصـــالح الحكومية المختلفة وكان عدد المدارس التجهيزية فى ذلك الوقت مدرستين واحدة فى القاهرة واخرى فى الاسكندرية ومدة الدراسة بها اربع سنوات [٥٥] .

أما عن المدارس الخصوصية والتى كان الهدف منها تكوين كوادر مهنية خاصة فسنعرض لأهمها :

أولا : المـــدارس الطبيـــة :

مدرسة الطب البشرى :

انشئت فى عام ١٢٤٢هـ/١٨٢٧م لتخريج اطبـــاء من ابناء البلاد وكان معظم اساتذتها من الفرنســـيين والايطاليين [٥٦] وكان المترجمون ينقـــلون

دروس هؤلاء الأســاتذة الى اللغة العربيــة حتى يفهمها الطــلاب ، والى جــانب ذلك قام المترجمون بترجمــة بعض كتب الطب الى العربيــة وكان باكورة ذلك كتاب القول الصريح فى علم التشريح .

مدرسة الصــيدلة :

انشــئت فى عام ١٢٤٥هـ/١٨٣٠م وكان كل طلبتهــا من المصريين ، وكانت فرعا من فروع مدرسة الطب .

مدرسة الــولادة :

انشئت فى عام ١٢٤٧هـ/١٨٣٢م ، وقد التحق بها فى السنوات الأولى من حياتها الحبشــيات والسودانيات ثم انضــم اليهــا المصريات ، وكانت طالبات هذه المدرســة يدرســن العلوم الطبية المختلفة وبخــاصة ما كتب فى فن التوليد (٥٧) .

مدرسة الطب البيطرى :

التحقت بمدرســة الطب البشرى فى عام ١٢٤٦هـ/١٨٣١م وكان معظم اساتذتها من مدرســة الطب البشرى ، وقد ترجمت فى هذه المدرسة العديد من كتب الطب البيطرى والى جــانب هذه المدرسة الطبيــة كانت هنــاك مدرسة المارستان ، والمدرسة التجهيزية للطب (٥٨) .

ثانيا : المدارس الزراعيــة :

تأسست فى عصر محمد على العديد من المدارس المتخصصة فى فنــون الزراعة كان أولها «الدرسخانة الملكية» التى انشئت فى عام ١٢٤٥هـ/١٨٣٠م وكان تلاميذها يدرسون المــواد الزراعيــة الى جــانب اللغتين العربيــة والفارسية ، ومدرســة الزراعة بشــبرا الخيمــة التى انشــئت فى عــام ١٢٤٨هـ/١٨٣٣م والتى كان يقوم بالتدريس فيها المبعوثون الزراعيون الذين عادوا من أوربا ، ومدرسة الزراعة بنبروه التى انشئت فى عام ١٢٥١هـ/١٨٣٦ وكان طــلابها جميعا من المصريين (٥٩) .

ثالثا : المدارس الهندسية والصناعية والفنية :

أ — المدارس الهندسية :

بلغ عدد المدارس الهندسية التى امر محمد على بانشائها خمس مدارس كان اولها مدرسة المهندسخانة التى انشئت فى عام ١٢٣١هـ/١٨١٥م بعد ان راى محمد على قابلية لدى ابناء مصر للدراسة فى هذا المجال ومما يروى عن ذلك حادثة وقعت فى عام ١٢٣١هـ مفادها « ان شخصا من ابناء البلد يسمى حسين جلبى عجوة ابتكر بفكره صورة دائرة وهى التى يدقون بها الأرز ، وعمل لها مثالا من الصفيح تدور بأسهل طريقة بحيث ان الآلة المعتادة اذا كانت تدور بأربعة اثوار ، فيدير هذه ثوران ، وقدم ذلك المثال الى الباشا ، فاعجبه وانعم عليه بدراهم ، وأمره بالمسير الى دمياط ، ويبنى بها دائرة ويهندسها برايه ومعرفته .. وراج امره بسبب ذلك » [٦٠] .

وبعد أن راى محمد على ذلك قال ان فى اولاد مصر نجابة وقابلية للمعارف وأمر ببناء مكتب بحوش السراية لتعليم ابناء البلد قواعد الحساب والهندسة وعلم المقاييس والمقادير ، وفى عام ١٢٣٥هـ/١٨١٩م أمر محمد على بانشاء مدرسة تسمى المهندسخانة .

أما عن اطول مدارس الهندسة عمرا فقد افتتحت فى المحرم ١٢٥٠هـ/١٨٣٤م فى بولاق ، ونظمت على مثال مدرسة الهندسة بباريس، وقد نجحت هذه المدرسة فى تخريج اجيالا من المتخصصين الذين اعتمدت عليهم مصر فى نهضتها [٦١] .

ب — المدارس الصناعية :

انشئت المدارس الصناعية فى عهد محمد على لتعليم الشبان المصريين أصول الصناعة واهم هذه المدارس :

١ — مدرسة الكيماء :

وقد انشئت فى عام ١٢٤٧هـ/١٨٣١م بمصر القديمة وكان طلابها يتعلمون فيها الصناعات الكيماوية .

٢ — مدرسة المعـــادن :

وقد انشئت فى عام ١٢٥٠هـ/١٨٣٤م .

٣ — مدرسة العمليات أو الفنون والصنائع :

وقد انشئت فى عام ١٢٥٢هـ/١٨٣٧م وكانت تعنى فى دراستها بالناحية العملية وقد حولت فى عام ١٨٤٤م الى ورشة صناعية (٦٢) .

جـ — المدارس العلمية والفنية :

لما كان محمد على فى حـــاجة الى اعداد كبيرة من المثقفين لمساعدته فى تنفيذ قيـــام الدولة الحديثة فقد بـــادر بانشـــاء عدد من المـــدارس التى يمكن أن تحقق له هذا الغرض ومن أهمها :

١ — مدرسة الادارة الملكية :

وقد انشـــئت فى عام ١٢٥٠هـ/١٨٤٣م وكان طلابها يدرسون فيهـــا المحاسبة ومبادىء الهندسة واللغة الفرنســـية والجغرافيا ومبادىء الترجمة.

٢ — مدرسة التاريخ والجغرافيا :

وقد انشـــئت فى عام ١٢٥٠هـ وكان القصـــد من انشـــائها تخـــريج مدرسين للتاريخ والجغرافيا فى المدارس العسكرية .

٣ — مدرسة الألســـن :

نتيجة لاعتمـــاد الحركة العلمية فى عصر محمد على اعتمادا كليا على الترجمـــة ، ونظرا لرغبة البـــاشا فى التعرف على تراجم القـــواد والملوك الســـابقين ليفيد من خبرتهم وتجـــاربهم ويتجنب اخطاءهم (٦٢) فقد أمـــر محمد على بانشـــاء مدرسة الألســـن فى أوائل عام ١٢٥١هـ/١٨٣٥م بهدف تحقيق غرضين همـــا :

١ — اعداد مترجمين فى مختلف العلوم والفنون .

٢ — اعداد مدرســـين للغة الفرنسية للتدريس فى المدارس التجهيزية والخصوصية .

وقد تولى رفاعة الطهطاوى ادارة هذه المدرسة اثر عودته من فرنسا واستطـــاع بهمته أن يحقق أهدافهـــا لدرجة أن هذه المدرسة استطـــاعت تخريج العـــديد من المترجمين الذين ترجموا عصارة الفكر الأوربى للمصريين، وكانوا كما وصفهم على باشا مبارك «أطروفة مصرهم وتحفة عصرهم»[٦٤] .

ولمـــا ظهر للباشا ما لهذه المدرسة من فوائد ذات تأثير كبير فى الحركة الثقـــافية العـــامة ظل يعمل على تنميتها كما زودها بمجموعة عجيبة مـــن المترجمين فيهم اليونانى والتركى والسورى .

ومن أشـــهر المترجمين الذين عملوا بهذه المدرسة المترجم الســـورى انطون رفائيل زاخوره الذى ترجم كتاب « الأمير فى علم التاريخ والســـياسة والتدبير » للمؤلف الايطـــالى نيقولا ميكافيللى من الايطاليـــة الى العربيـــة حتى يتعرف محمد على على ما يتضمنـــه هذا الكتاب الذى ســـمع عنه ثناء متعددا من بعض الأوربيين [٦٥] ، والذى يعد ايضـــا صاحب الســـبق فى ميدان الترجمة فى تاريخ مصر الحديث فهو صـــاحب أول كتاب ترجـــم عن الفرنســـية الى العربية وطبع فى عهد الحمـــلة الفرنسية وهـــو رســـالة « ديجينت » عن مرض الجـــدرى ، وهو ايضا صاحب أول كتاب ترجم عن الفرنسية وطبـــع فى مطبعة بولاق فى عصر محمد على ، هذا الى جـــانب قيامه بوضع قاموس ايطـــالى عربى .

واحمد عاصم افندى الذى ترجم كتاب مظهـــر التقديس بزوال دولة الفرنسيس للجبرتى من العربية الى التركيـــة وقد عاشت هذه المدرســـة نحو الخمسة عشر عاما اخرجت ابانهـــا الانتـــاج العلمى الوفير ، ولكن الأمور لم تســـتمر طويلا على هذا المنـــوال فبعد وفاة محمد على ، وتولية عباس الأول الحـــكم اندثرت أحوال هـــذه المدرسة وساءت أمورها ثم الغيت فى نوفمبر ١٨٤٩ [٦٦] وأبعد مديرها رفاعة الطهطاوى الى السودان ليشرف على مدرسة ابتدائية فى الخرطوم .

والجدير بالذكر أن (محمد على) لم يغفل الاهتمام بالطباعة باعتبارها أهم وســـائل نشر المعرفة فارســـل نقولا مســـابكى الى ايطـــاليا ١٨١٦ للتخصص فى فن الطبـــاعة ، وقام بانشـــاء مطبعة بولاق الاميرية وجهزها

بكل لوازم الطبـــاعة الحديثة ، واختـــار من علماء الأزهر طـــائفة للقيـــام بتصحيح مطبوعاتها .

والى جـــانب ذلك فقد أصبح ببعض المدارس العـــالية مطابع خاصة فكان لكل من مدرسة المدفعية بطره ومدرسة الطب بأبى زعبـــل ومدرســـة المهندسخانة ببولاق مطبعة تتولى طبع الكتب الخاصة بها وكان بالقلعة أيضا مطبعة تقـــوم من وقت لآخر بطبع الكتب (٦٧) .

المرحلة الثالثة من ١٨٤١ الى نهاية عصر محمد على :

بعد أن تمت التسوية بين محمد على والدولة العثمانية عام ١٨٤٠/١٨٤١ وبـــدأ عهـــد الاستقرار السياسى وتحجيم اعداد القـــوات المصرية اخـــذ محمد على فى تسريح العـــديد من جنوده ، كمـــا اغلقت العديد من المصانع المخصصـــة لخدمة الأغراض العســـكرية على حين استمرت المـــدارس فى تخريج الموظفين اللازمين للحكومة ، ونتيجة لذلك تم اعـــادة النظر فى نظام التعليم ، وشـــكلت لجنة لبحث هذه الأوضـــاع فى ضوء الأوضاع السياسية والاقتصادية الجديدة فقامت بوضـــع لوائح جـــديدة للتعليم انخفضـــت بموجبها اعداد المدرس الابتدائية فأصبحت مدرسة واحدة بالقـــاهرة واربع بالأقـــاليم ، أما عن المدارس التجهيزية والخصوصـــية فقـــد ظلت كما هى وان انقص عدد طلابها وبخاصة أن حاجة الحكومة الى الموظفين قد خفت حـــدتها (٦٨) .

ومما ســـبق يتضح أن محمدا عليا اوجد نظاما جديدا من التعليم فى مصر يختلف عن النظـــام التعليمى الذى كان ســـائدا بها قبل ذلك وذلك بهدف ســـد حاجة الحكومة من الموظفين ومـــد الجيـــش والادارات والـــدواوين باحتياجاتهم من الضبـــاط والموظفين ويتضح ان محمدا عليا اهتم بالتعـــليم العـــالى فى بـــادىء الأمر لانه لم يكن مرتاحا الى ســـيطرة الاجـــانب على التعليم ويريد التعجيـــل باحـــلال المصريين محلهم فارســـل البعثـــات الى أوربا ولما عـــاد طلابها حلوا محل معظم الاجانب يضاف الى ذلك ان التعليم كان يتصف بالصبغـــة الحربية ســـواء فى نظـــام الحياة فى المدارس أو فى طريقة جمع التلاميذ لهـــا او فى تبعية المدارس لديوان الجهـــادية مما ادى

الى نفور الاهـــالى من التعليم فى أول الأمر وامتناعهم عن ارســـال أولادهم الى المدارس كما يتضح ان الحكومة المصرية كانت تعتنى بالتلاميذ وتهيىء لهم السبل الكفيلة لمســاعدتهم على اتمام الدراسة من النواحى المادية والصحية وغـــير ذلــك .

ثانيا : محمد على وتكوين الجيش الحديث :

عندما وصـــل محمد على الى اريكـــة الحـــكم فى مصر كان جيشــه من الألبـــان والشراكسة والأرمن الذين كانت تنتشر الفـــوضى بين صفوفهم، ولما كان هذا الجيش لا يمكن محمدا عليا من بنـــاء الدولة الحديثة ولا يحقق له آمـــاله العريضة الواسعة التى ينشدها ، فقد رأى ضرورة التخلص من النظـــام العســـكرى القديم ، وبنـــاء جيش حديث عن طريق الاستعـــانة بالخبراء الأوربيين . ولم يكن تكوين هذا الجيش الحديث بالأمر الهين فقـــد صادف الباشا فى طريقه صعابا عديدة نذكر منها :

١ — معارضـــة الباشا فى محاولاته الاولى فى اغسطس ١٨١٥ عندما أعرب لجنـــوده عن رغبته فى تدريب احدى الفرق العســـكرية على النظم الحديثة ، وقيـــام بعض الجنود بالتمرد عليه وتآمرهم للاطاحة به (٦٩) .

٢ — وقوف بعض العلمـــاء بجـــانب الجنود الألبان ضد رغبة محمد على فى تحديث جيشـــه بحجة القضاء على بدعة النظـــام الجديد وترديدهم للحديث الشريف « كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضـــلالة فى النـــار » .

ونتيجـــة لذلك بدأ محمد على يصطنع الحذر فى معالجة الموقف فأخـــذ ينتحل المعـــاذير لتفريق الجند (٧٠) عن طريق ارســـال بعضهم على صورة نجدات لجيوشـــه فى شبه الجزيرة العربية والســـودان وابعـــاد البعض الآخر عن القـــاهرة بحجة حمـــاية الثغور الواقعة على البحر المتوسط حتى توطد سلطـــانه وفى عام ١٨١٩ بادر محمد على بجلب عدد من الســـودانيين لاحلالهم مكان جنـــوده من الألبـــان وغيرهم ، وعهد بتدريبهم الى ابراهيم اغا أحد قواده ، ولكن هـــذه المحاولة لم تفلح لذلك رأى محمد على أن يتجـــه صـــوب أوربا للاستعـــانة بالضباط المدربين على الطرق العسكرية الحديثة

فى بنــــاء جيشــــه ، وقد ســــاعده على ذلك انتهــاء الحروب النابليونية فى أوربا ، ورغبــــة بعض الضبــــاط الفرنســــيين الخدمة فى بلاد أخرى ، وقــــد اختـــار محمد على الكولونيل سيف Seves ليشــــغل منصب المعلم الرسمى لنظــــامه الجديد وفى حـــوالى عام ١٨٢٠ بدأ محمد على فى انشاء المـــدارس العسكرية لتلقين قواته الأصــــول العسكرية الحديثة وفيما يلى نعرض لاهم هذه المدارس .

١ ــ مدرسة المشاة العسكرية :

وقد انشئت فى عام ١٨٢٠ ووضعت تحت ادارة الكولونيل سيف واختار محمد على طلابها من ابناء المماليك ومن أفراد اسرته ليكونوا النواة الأولى من ضــــباطه وكان مكان هذه المدرســــة بالقلعة ثم انتقل الى اسوان حتى يبتعد الطــــلاب عن القاهرة ومؤثراتها من ناحيــــة ولتكون قريبة من السودان التى كان يتوقع أن تكون من مراكز التجنيد الأساسية لجيش محمد على .

وقد لقى الكولونيل سيف متــــاعب جمة خلال تدريب طــــلاب هــــذه المدرسة خصـــوصا وانهم لم يتعـــودوا على الطــــاعة المطلقة لرؤســــائهم كما انهم لم يعتــــادوا أن يتعلموا فنــــون الحرب على ايدى النصــــارى[٧١] ومع ذلك فقد ســــاعد الكولونيل سيف مؤازرة محمد على له فى تخطى هــــذه الصعـــاب وبعد ثلاث سنوات من التدريب الشــــاق تم تخريج مجموعة من الضبــــاط وصـــل عددهم حوالى ستة آلاف ضابط والى جـــانب ذلك اهتم محمد على بتدريب الجنــــود فى هذه المدرســــة وتعليمهم ، ولما كان من غــــير المعقـــول ان يختار هؤلاء الجنود من الألبــــان فقد فكر فى تجنيد السودانيين وعهد الى ابنــــه اســــماعيل أن يجمع له حشــــودا من الجنود الســــودانيين لتدريبهم على النظــــام الحديث ، ولكن هذه المحاولة لم تنجح لأسباب عديدة منها انتشــــار الأمراض بين هؤلاء الجنــــود ، ونفورهم من أعباء الخــــدمة العسكرية النظامية مما اضطر محمد على الى تجنيد الفلاحين من اهـل مصر فى جيشــــه الجديد [٧٢] وانشاء الثكنــــات لتمرينهم فى فرشوط واسوان وبنى عــــدى .

وقــــد وجد محمد على فى بــــداية الأمر مصاعب جمة فى تجنيد المصريين

خصوصــا وانهم لم يتعــودوا عــلى الخدمــة العسـكرية قبــل عصره لذلك قابل الفلاحــون الانتظــام فى ســلك الجنديــة مكــرهين كمــا قــام بعضهم بســمل عيون أولادهم او بتر اصــابعهم حتى يتم اعفاؤهم من التجنيد ممــا دفع محمد على الى أن يصــدر أوامره بالقاء الأمهــات اللاتى يقمن بهذا العمل فى النهر عقابا لهن(٧٣) ، وبمرور الوقت الف المصريون الجنديــة ، وبداوا يعتزون بالانتساب اليها ، واتسعت دائرة تجنيدهم .

٢ ـــ مدرسة اركان الحــرب :

تاسست فى اكتوبر من عام ١٨٢٥ بهدف تخريج ضبــاط أركان الحرب وتنظيم التشــكيلات الفنية لفرق المشــاة .

٣ ـــ مدرسة البيادة (المشاة) :

وقد انشئت فى عام ١٨٣٢ وظلت قائمة الى نهاية عصر محمــد على حتى الغاها عباس الاول .

٤ ـــ مدرسة الســوارى :

وقد انشئت فى الجيزة عام ١٢٤٦هـ/١٨٣٠م وكان معظم تلاميذها مــن الاتراك والمماليك وقد نظمت هذه المدرسة على غــرار المدارس الحــربية الفرنسية ، واستمرت فى عصر محمد على حتى الغاها عباس الأول .

٥ ـــ مدرسة الطوبجية (المدفعية) :

وقد انشئت فى طره عام ١٢٤٧هـ/١٨٣١م وكانت مواد الدراسة فيها هى المواد الحربية بالاضــافة الى اللغات الأجنبية .

والجدير بالذكر ان محمدا عليا استعــان فى بداية الأمــر بالأســاتذة الأجانب للقيام بالتدريس فى المدارس ، والعمل فى الادارات الحكومية وتدريب الجيش .

ومع أن نظــام التعليم فى هذه المدارس كان اقتباسا من نظم التعــليم الأوربية (٧٤) فان القســط الأكبر من اليوم الدراسى كان يخصص لتحفيظ القرآن الكريم ، وتدريس العلوم الدينية ، واللغات الشرقية .

يضـــاف الى ذلك أن (محمد على) أسس فى باريس مدرسة خاصـــة فى عام ١٨٤٤م لطلبة البعثة المصرية كى يتعلمون فيهـــا العـــلوم الحربيـــة وغيرها على نمط المدارس العليا بفرنسا ، وكانت هذه المدرسة تحت رئاسة وزير الحربية الفرنسية(٧٥) .

هذا عن تطـــور الجيش المصرى البرى وتنظيمه ، أما عن البحـــرية فى عصر محمد على فانه لم يكن فى مصر قبيـــل عصر محمد على وحتى أواخر عام ١٨٠٩ أى ســـفن حربية ، وأن محمـــد على لم يشـــرع فى الاهتمـــام بالبحرية الا بعد تكليفه بخـــوض حروب الحجـــاز ، ولرغبته أيضا فى تدعيم صلاته بدول العـــالم ، وتيســـير تصدير المنتجات المصرية اليها . ونتيجـــة لذلك أمر محمد على ببنـــاء بحرية مصرية فى البحر الأحمر مستغلا فى ذلـــك وجـــود ترســـانة فى بولاق كان قد انشأها الفرنســـيون اثناء تواجـــدهم فى مصر وقد جمع محمد على فى هذه الترســـانة العمال المهرة ، واستقدم صنـــاعا من أوربا كما جلب الاخشـــاب من آســـيا الصغرى وكذلك أقام الباشـــا عدة منشئات فى السويس ليجرى فى مينائها تركيب أجزاء الســـفن بعد أن يتم نقلهـــا من بولاق على ظهـــور الجمال ، وهكذا لم تكد تنقضى عدة شـــهور حتى كانت ترسانة بولاق قد انجزت صنع قطع اسطـــول صغـــير نقلت الى الســـويس (٧٦) ، كما استمرت فى انشـــاء « المـــراكب الكبـــار والصغار التى تسرح فى النيل من قبلى الى بحرى ومن بحرى الى قبلى »(٧٦) .

وفى شهر اغسطس ١٨١١ تجمع فى مينـــاء السويس ثلاث وســـتون سفينـــة متعددة الأنواع والأشـــكال استطاع محمد على عن طريقها نقـــل الجنـــود والمهمات العسكرية الى الحجاز والاستيلاء على مناطقها الساحلية لتكون ارتكازا لعملياته الحربية بشبه الجزيرة العربية (٧٨) ، كمـــا كان لهذا الأســـطول الفضـــل فى تطهير البحر الأحمر من القراصـــنة الـــذين كانوا يهاجمون الســـفن ، وفى امتداد النفوذ المصرى على شواطىء البحر الأحمر.

ولم يقتصر اهتمام محمد على بالبحر الأحمـــر فحســـب بل امتد الى البحر المتوسط ، وبخاصة انه الواجهة المطلة على أوربا ، فاهتم بالاسكندرية لتكون القاعدة الرئيسية لاسطوله بالبحر المتوسط ، وعهد الى شـــاكر

افندى الاسكندرانى والى الحاج عمر بادارة ترسانة الاسكندرية كما انشأ محمد على ادارة خاصة للاساطيل المصرية وجعل اسماعيل جبل طارق أمير البحار الأول [٧٩] أول رئيس لها . وقد كان للبحرية المصرية فى البحر المتوسط دور فعال فى معاونة الجيش المصرى خلال حروبه فى بلاد اليونان ، وبعد أن قضى على هذه البحرية فى موقعة نفارين البحرية اعتزم محمد على انشاء اسطول جديد ، ووجه جل اهتمامه الى بناء ترسانة جديدة بالاسكندرية واستعان فى بنائها بالمهندس البحرى المسيو سريزى Cerisy وذلك فى عام ١٨٢٩ [٨٠] وقد تم بناء هذه الترسانة فى عام ١٨٣١ كما تم انشاء بارجة حربية ذات مائة مدفع ، وصارت ترسانة الاسكندرية من أعظم المنشئات البحرية ، كما كانت معهدا لتدريب الشبان المصريين فن بناء السفن وترميمها ولما استولى محمد على على السودان وانشأ مدينة الخرطوم عند ملتقى النيل الأبيض بالنيل الأزرق وجعلها العاصمة شيد فيها ترسانة كبيرة لبناء السفن النيلية والى جانب ذلك اهتم محمد على بالأسطول التجارى فقام بانشاء السفن التجارية لتكون الواسطة لنقل منتجاته من الموانىء المصرية الى الموانى الأجنبية .

ولتمكين ابناء مصر من فنون البحار وبناء السفن على النمط الحديث استعان محمد على بالضباط الفرنسيين فى انشاء المدارس البحرية لتدريب البحارة المصريين على السفن الحربية ، وتعليمهم فنون البحرية كما اوفد البعثات العلمية الى أوربا للتخصص فى أعمال البحرية وهندسة بناء السفن ، وليحلوا محل الفنيين الأجانب فى ترسانة الاسكندرية بعد انتهاء دراستهم .

ولتنظيم أمور البحرية المصرية والاشراف على قوات الاسطول وتدريباتها انشأ محمد على ديوانا للبحرية ونتيجة لهذا المجهودات برز دور الأسطول المصرى فى حروب الشام ، فقد حاصر الأسطول المصرى عكا لمدة ستة شهور حتى سقطت عنوة فى ٢٧ مايو ١٨٣٢ [٨١] كما تمكن هذا الاسطول من تعقب الأسطول العثمانى ومنعه من تقديم المساعدات للقوات العثمانية بالشام ، وانتهى الأمر بتسليم قائد الأسطول العثمانى

أحمد باشــا فوزى اســطوله المكون من خمس وعشرين سفينة الى محمد على واستمرت حــالة الأسطول المصرى فى الازدهار حتى عقدت معــاهدة لندن ١٨٤٠ التى حرمت محمد على من بنــاء السفن الحربية دون اذن من البــاب العــالى .

ومما ســبق يتضح أن محمدا عليا قد اهتم بالبحرية المصرية منــذ ان شرع فى حروب الجزيرة العربية وحــرب المورة تلبية لطلب الســلطان ، ورغم تحطيم الأســطول المصرى فى بــلاد اليونان فقد تمكن محمد على من بنــاء اســطول جديد استطاع به منــازلة الدولة العثمانية خلال حروب الشــام ، ولكن تدخل الدول الأوربية فى النزاع بين السلطان ومحمد على انتهى بالاتفــاق على تحجيم قدرات محمد على العسكرية وتحديد قوة مصر البــرية والبحــرية .

محمد على والزراعة :

بعد أن تولى محمد على حــكم مصر احدث انقــلابا زراعيا كان من أهم مظــاهره الغــاء نظام الالتزام(٨٢) والاستيلاء على الأراضى واعتبارها ملكا للحكومة وتأجيرها للفلاحين ونتيجة لذلك أصبحت علاقة الفلاحين مرتبطة مبــاشرة بالحكومة (٨٣) كما انتقل محمد على الى الأراضى الموقــوفة على المســاجد ومؤسســـات الخير فألغى أوقافها وضمها الى املاك الحكومة(٨٤)

وقد الزم محمد على الفــلاحين ، باتبــاع الأساليب الحديثة فى الزراعة مما أدى الى ترقيــة اســاليب الزراعة وزيادة الانتــاج ، وادخال العديد من الزراعات الجديدة كما ســاعدت مشروعات محمد على الخاصة بحفــر الترع واقامة الجســور على سهوله رى الأراضى الــزراعية .

والى جانب ذلك قــام محمد على بتوزيع الأراضى البور على الأعيــان وأعفــاها من الضرائب لتشجيعهم على استصــلاحها وقد ســميت هــذه الأراضى « أبعاديات » ، كمــا خص أفراد اسرته بأراضى سميت «جفالك» أو شفالك واعفاها من الضرائب .

وفى عام ١٨١٣م قــام محمد على بمســح الأراضى الزراعية وحصرها

وفرض ضرائب ثابتة عليها سنويا وسمى ذلك بالتآريع ، وتعد دفاتر التآريع التى أمر محمد على بانشائها المصدر الأساسى الذى تحدد فيه مساحة أطيان مصر ، ومساحة الأراضى المستعملة للمنافع العمومية فعرف كل فلاح الضرائب المقررة عليه [٨٥] ، كما أعفى بمقتضاها مشايخ البلاد من دفع الضرائب عن خمسة أفدنة من كل مائة فدان من زمام البلد الذى يعيشون فيه نظير خدماتهم للحكومة ، واستضافة من يحضر اليهم من موظفيها ، وقد سميت هذه الأراضى « مسموح المشايخ » أو « مسموح المصطبة » [٨٦] .

وبعد أن فرض محمد على نظام الاحتكار فى عام ١٨١٦م الزم الفلاحين بزراعة المحاصيل الزراعية التى رأى انها ستحقق له مكاسب ضخمة ، وقيد حريتهم فى تصريف محصولاتهم وقام بشرائها منهم بالثمن الذى تحدده الحكومة .

وعلى الرغم من أن سياسة الاحتكار قد حققت لمحمد على أرباحا طائلة ساعدته فى تمويل نفقاته العسكرية والبحرية فان هذا النظام قد حرم المزارعين من التصرف فى ثمرة كدهم ومن الحصول على الربح المناسب لحاصلاتهم كما جعلهم عرضة لمظالم موظفى الشئون وتلاعبهم فى الكيل والميزان ورفع اسعار احتياجاتهم الضرورية مما أدى الى زيادة تكاليف معيشتهم .

محمد على والنهضة الصناعية :

عندما تولى محمد على حكم مصر كانت الصناعة الموروثة عن المماليك بدائية ولا تفى باحتياجات البلاد ، ومن هنا اقتضى النظام الاقتصادى الذى ادخله محمد على احتكار معظم الصناعات القائمة فى البلاد ، والاكثار من انشاء المصانع .

فقد احتكر صناعة الحصر وعمل الأوانى الفخارية ومصانع النسيج .

كما انشأ العديد من المصانع لكى تغنيه عن المصنوعات الأجنبية ، وتمكنه من الاعتماد عليها فى تسليح جيشه [٨٧] وقد جلب محمد على الصناع والمهندسين والخبراء من الخارج لتدريب العمال المصريين ،

وجلب الآلات من اوربا بكميات كبيرة كما قام بتشغيل آلاف العمال من المصريين فى هذه المصانع والجدير بالذكر ان المصريين نظروا الى تلك المصانع كما ينظر الانسان الى كارثة نزلت بساحته ، فقد اعتبروها سجونا اكثر منها اداة من ادوات الانتاج ، وابتعدوا عن العمل بها لفترة، وبخاصة انهم كانوا يفضلون العمل فى الحقول الطليقة على جو المصانع وادارتها السيئة مما اضطر الباشا الى استخدام القوة لاجبارهم على العمل بالمصانع .

واهم المصانع التى شيدت فى عصر محمد على كانت مصانع للغزل والنسيج ، ومصنع للجوخ ببولاق ومصنع للحرير فى الخرنفش ، ومصنع للحبال ، ومصنع لنسج الصوف ، ومصنع للطرابيش ، ومصنع لنسج الكتان ، ومصنع لسبك الحديد ببولاق ، ومصانع لالواح النحاس ، ومصانع للسكر ، ومصانع للنيلة ، ومصانع للصابون ، ودبغ الجلود، والزجاج والصينى ، ومعاصر الزيوت وغيرها[٨٨] .

وقد اهتم محمد على بهذه المصانع اهتماما كبيرا ووضع بعضها تحت اشراف ديوان الجهادية والبعض الآخر تحت اشراف الخزينة مباشرة ، بيد أن هذه المصانع تطلبت عمالا مدربين وأموالا طائلة ، مما جعلها تتعرض لخسائر كبيرة ، وبخاصة فى سنواتها الأولى ، ثم تغيرت الأمور بعد انتظام ادارة هذه المصانع واستطاع الباشا أن يجنى بعض الفائدة ، كما استطاع تصدير منتوجاته الصناعية الخاصة بالغزل والنسيج الى بعض ثغور ايطاليا وسورية والأناضول وبيع ما تبقى منها داخل مدن وقرى مصر[٨٩] .

وبعد ان نجح محمد على فى تشغيل مصانعه بدأ يحتكر بعض الصناعات التى يعمل بها الاهالى فعلى سبيل المثال احتكر صناعة الأقمشة ، ومنع الأهالى من تشغيل انوال الغزل والدوبارة[٩٠] .

ومع ان هذه المصانع كانت موضع عناية محمد على فى حياته ، فقد اغلق بعضها فى أواخر عصره وبخاصة بعد معاهدة لندن ١٨٤٠/١٨٤١ ، كما اغلق البعض الآخر فى عصر حفيدة عباس الأول بسبب ضعف

الرقابة عليها ، وعدم توفر المواد الخـــام اللازمة لتشـــغيلها مثل الفحــم والحديد ، وان استيرادها من الخارج يكلف البلاد نفقات كبيرة [٩١] .

خامسا : محمد على والتطور التجارى :

كانت التجارة موردا ثابتا من الموارد الأســـاسية لحكومة محمد على ، فقد استطاع أن يقبض بكلتا يديـــه على الحـــركة التجارية فى الداخـــل والخـــارج عن طريق استخدامه لأســـلوب الاحتكار التجارى ، ففى الداخل ســـيطر على محاصيل البـــلاد الزراعية بأكملها عن طريق اجبار الفـــلاحين على أن يبيعـــوا للحكومة محصـــولات الأراضى التى يزرعونها بالأثمان التى تحـــددها لهم ، واذا أراد الفـــلاح أى شىء منها لغـــذائه ففى استطـــاعته أن يشـــترى من الحكومة بالاثمـــان التى تحددها هى أيضا [٩٢] .

وقد نجم عن ذلك ارتفاع أسعار الحاجيات والمواد الغذائية وعـــانى الفقراء بؤســـا من جرائه أما فى الخـــارج فقد صـــار التجـــار الأجـــانب لا يستطيعون التعـــامل سوى مع شـــخص واحد هو الباشا نفسه وبذلك سيطر محمد على منذ بداية حكمه على التجـــارة الخارجية سيطرة تـــامة وكان القطن هو أهم الســـلع فى التجـــارة الخارجية ويليه فى الأهمية القمح لذلك اهتم محمد على بهذين المحصـــولين ، فادخل القطن الطويل التيلة محل القصـــير التيلة ، كمـــا عمل على تنشـــيط زراعة القمح وزيادتها مما أدى الى فتح آفـــاق جديدة للتجارة المصرية فى الأسواق الأوربية وزيادة أرباح محمد على زيادة طـــائلة .

وقد عمم محمد على نظـــام الاحتكار فى كل ممتلكاته ففى الســـودان احتكرت الحكومة جميع محصـــولات البلاد ومنتجاتها وكادت تنفـــرد بشراء الصمغ وســـن الفيل والجلود وغيرها وفى ســـوريا قام الباشا بتطبيق نظام الاحتكـــار على محصـــول الحرير مما أدى الى شكوى الأهالى من هـــذا النظـــام .

وفى كريت أراد محمد على أن يسيطر على تجـــارة الزيت يضـــاف الى ذلك أن رغبتـــه فى الافـــادة من تجارة الشرق دفعته الى الرغبة فى الاستيلاء على اليمن والسيطرة على تجارة البن بها .

ولتنشــيط العملية التجارية اهتم محمد على بالطرق البرية والبحرية ، فبدأ طريق الســويس البرى يســترد مكانته القديمة .

كما بدأت الاسكندرية تزدهر وبخــاصة بعد حفر ترعة المحمودية(٩٣) التى ربطتها بالنيل ، وزاد نقل البضائع منها الى داخل البلاد مما ادى الى تقاطر التجار اليها من مختلف انحاء أوربا .

يضاف الى ذلك قيام محمد على باصــلاح مرفأ بولاق وغيره من الموانى المصرية ، وانشاؤه مجلســا تجاريا مؤلفا من المصريين والأجــانب للحــكم فى القضــايا التجــارية .

وقد هدف محمد على فى ان يكون الميزان التجارى فى صــالحه وذلك عن طريق زيــادة الصادرات المصرية على الواردات ، كما عمــل على أن تقوم البــلاد بانتاج حاجتها من الســلع لتكتفى بمصنوعاتها ومنتجاتها فى ســد مطالبها فلا يكون هناك حــاجة للشراء من الخارج .

وقد فرض محمد على نظام الضرائب الجمركية على تجارة الصــادر والوارد ، مما ضايق انجلترا ، ودفعها للضغط على الباب العالى وتوقيع المعاهدة الانجليزية العثمانية فى التاسع من اغسطس ١٨٣٨ والتى أدت فى النهاية الى اضعاف نظام الاحتكار فى ممتلكات الباشا والغاء هذا النظــام فى النهاية(٩٤) ، ومن ثم ركود الحركة التجارية فى الفترة الأخيرة من حكم محمد عــلى .

ومما سبق يتضح ان تجارة مصر الخارجية ازدهرت فى عصر محمد على اكثر من العصر الذى سبق وصوله الى اريكة الحكم فى مصر بشــكل ملحوظ ولكن حروبه مع الدولة العثمانية ، وموقف انجلترا المناوىء له قد أديا فى النهاية اضمحلال هذه التجارة وركودها .

سادسا : محمد على والاهتمام بالشؤن الصحيــة :

لمــا كانت مصر تعانى من انتشار الأوبئة واشتداد وطأتها وخاصــة الرمد والدوسنطاريا والجدرى والطاعون والكوليرا ، فقد اهتم محمد على

بالشئون الصحية اهتماما كبيرا وكانت الوسائل التى لجأ اليها تشتمل على نوعين اما وقائية كالحجر الصحى ، واما علاجية كالاعتماد على معاونة الأطباء الأجانب امثال « كلوت بك » و « جيطانى بك » فى بحث شئون الصحة العامة واتخاذ ما يلزم لمكافحة هذه الأمراض ، وكذلك انشاء مدرسة الطب ، واستحضار الكتب الطبية والادوية واقامة المستشفيات وايفاد البعوث الطبية الى الخارج ، وتشجيع الأطباء والهيئات العلمية التى تفد الى مصر لمزاولة مهنة الطب[٩٥] .

كما قام محمد على بمطاردة المشعوذين والدجالين وادعياء الطب ، وكتاب الأحجبة الذين انتشروا فى البلاد .

وكذلك كان من اثر عناية محمد على بالصحة انه اصدر امرا بانشاء مارستان بأبى زعبل ، كما انشأ المدارس الطبية والمستشفيات ومجلس الصحة العمومية وعمل على ردم البرك والمستنقعات وهدم الأكواخ القذرة وقفل مدابغ الجلود من وسط المدينة .

سابعا : تقييم عصر محمد على :

وهكذا يتضح أن محمد عليا قد نجح فى توطيد دعائم النهضة المصرية الحديثة حيث ارسى دعائم النهضة التعليمية الحديثة ، ووضع قواعد النهضة الاقتصادية ، وانشأ الحكومة المركزية بأنظمتها التى لم تعرفها مصر قبل عهده ، وبنى الجيش والأسطول بهدف الاحتفاظ بمصر وتقويتها ، والقدرة على الدفاع عنها ، وحاول اقامة دولة قوية تمتد حدودها من جبال طوروس شمالا الى اقاصى السودان جنوبا ومع ذلك فان من مثالبه انه لم يؤمن بالحركة الشعبية التى مهدت له الوصول الى حكم مصر ، فقام بشل حركة رجال الدين فى كبح جماح الطبقة الحاكمة ، ونجح فى اشاعة روح الفرقة والنفور بينها[٩٦] . وقصر المناصب العليا على الارستقراطية العثمانية كما انه قام باضعاف شأن طبقتى الحرفيين والتجار بعد تنفيذه لنظام الاحتكار مما ادى فى نهاية الأمر الى تغلغل الراسمالية الأجنبية داخل

البلاد ، وعدم القدرة فى السيطرة عليها ، وتزايد ارتباط المسألة المصريــة بعجلة المؤثرات والدسائس التى كانت تحكيها أوربا .

يضاف الى ذلك فانه يمكن القول اذا كان الشعب المصرى قد عانى من الارهاق والمظالم المتعددة فى عصر محمد على ، فان هذه المظالم اذا قيست بالعصر الذى سبقه فاننا نجدها أخف وطأة .

وعلى كل حال فقد توفى محمد على فى الثــانى من أغسطس ١٨٤٩ وخلفه حفيده عباس الأول فى الحكم .

مراجــع الفصــل الثــانى

(١) للتفاصيل انظر عبد الرحمن الرافعى : تاريخ الحركة القوميـــة وتطور نظام الحكم فى مصر حـ ٢ ، القاهرة ، مطبعة النهضة ، الطبعـــة الأولى ١٣٤٨هـ ١٩٢٩م ص ٢٢٨ .

(٢) الجبرتى : عجائب الآثار فى التراجم والأخبار حـ ٣ ص ٣٥٠ .

٣ — عن تفاصيل وصول محمد على كرسى الحكم فى مصر انظر :
Dodwell, H : The Founder of Modern Egypt, A Study of Muhammad Ali, Cambride, 1932 .

(٤) محمد فؤاد شكرى : مصر فى مطلع القرن التاسع عشر حـ ١ ، القاهرة ١٩٥٨ ص ٣٣٤ .

(٥) الرافعى : المرجع السابق حـ ٢ ص ٣٧٠ — ٣٧١ .

(٦) الجبرتى : المصدر السابق حـ ٤ ، المطبعة الشرفية ١٣٢٢ هـ ص ١٩ .

(٧) شكرى : المرجع السابق حـ ٢ ص ٥٨٢ .

(٨) الجبرتى : المصدر السابق حـ ٤ ص ٤٩ .

(٩) للتفاصيل انظر :
Dodwel, H : op. cit., p. 25 — 26 .

(١٠) كريم ثابت : محمد على ، القاهرة ، مطبعة المعارف ، ١٩٤٣ ، ص ٥٣ .

(١١) للتفاصيل انظر : الجبرتى : المصدر السابق حـ ٤ ص ٦٩ .

(١٢) نفســـه ص ٢٠٦ .

(١٣) شكرى : المرجع السابق حـ ٣ ص ١٣٠٨ .

(١٤) بنى بالقلعة بعد الفتح العثمانى لمصر .

للتفاصيل انظر بول كازانوفا : تاريخ ووصف قلعة القاهرة — ترجمة أحمد دراج — القاهرة ، الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٧٤ ص ١٨٦ .

(١٥) عن تفاصيل ذلك انظر :

عبد الرحمن الرافعى : المرجع السابق حـ ٣ ص ١٠١ — ١٠٨ .

(١٦) دار الوثائق القومية : سجلات عابدين ، سجل رقم (١) وثيقة رقم (٤٠) رسالة من محمد على الى الصدر الأعظم بتاريخ ٢٠ من ربيــع الأول ١٢٢٦هـ / ٩ أبريل ١٨١١م .

(١٧) دار الوثائق القومية بالقلعة : دفتر تركى رقم (١) ترجمــة الوثيقة رقم ٢٣ بتاريخ ١٦ ذى الحجة ١٢٢٤هـ رسالة من محمد على الى الدولة العليـــة .

(١٨) الجبرتى : المصـــدر الســـابق حـ ٤ ص ١٤٦ تحت عنـــوان « واستهل شهر ذى الحجة ١٢٢٦ هـ » .

(١٩) لتفاصيل ذلك انظر مقالنا بمجلة العرب عدد شعبان ١٤١٠هـ تحت عنوان « امراة عربية تقود الكفاح دفاعا عن الدعوة السلفية » .

(٢٠) بلدة واقعة بين الطائف وتربة ، وقد استطاعت قـــوات محمد محمد على احتلالها فى ٢٨ محرم ١٢٣٠هـ / ١٠ يناير ١٨١٥ بعد معـــركة عنيفة مع قوات الأمير فيصل بن سعود : للتفاصيل انظر الرافعى : عصر محمد عـــلى ص ١١٢ .

(٢١) داود بركا ت: البطل الفاتح ابراهيم وفتحه الشـــام ١٨٣٢ ، القاهرة ، المطبعة الرحمانية ص ٣ — ٤ .

(٢٢) للتفاصيل انظر بحثنا المعنون دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب فى كتابات الجبرتى ، مجلة جامعة الامام بن سعود الاسلامية العدد الأول ١٤٠٩هـ ص ٣١٠ — ٣١١ ، وانظر أيضا الجبرتى : المصدر الســـابق حـ ٤ ، ص ٥٤ .

(٢٣) احمد الشوابكة : حركة الجامعة الاسلامية ، الأردن ، مكتبة المنار ، الطبعة الأولى ١٤٠٤ ص ١٧ .

(٢٤) محافظ بحر برا — محفظة رقم ٦ وثيقة رقم ١٢ ، رســـالة من أحمد أديب كتخدا الصدارة العثمانية الى محمد على .

(٢٥) محمد فؤاد شكرى وآخران : بناء دولة مصر محمد على : القاهرة ، دار الفكر العربى ١٣٦٧هـ / ١٩٤٨م ص ١٥١ .

(٢٦) عبد الرحمن زكى : التاريخ الحربى لعصر محمد على الكبير ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٥٠ ص ٩٥ — ١٤٦ .

(٢٧) عن مدى حجم هذه القوات انظر : بيير كرابيتس : ابراهيم باشا — ترجمة محمد بدران ، القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٣٧ ص ٧٠ .

(٢٨) تاريخ البحرية المصرية ص ٦٣٥ — ٦٣٧ .

(٢٩) كرابيتس : المرجع السابق ص ٨١ .

(٣٠) تاريخ البحرية المصرية ص ٦٤٦ .

(٣١) عن نص شروط هذا الاتفاق انظر :

Dodwell, H. : op. cit., p. 22 .

(٣٢) الرافعى : المرجع السابق ﺣ ٣ ص ٢٢٩ .

(٣٣) عبد الرحمن زكى : المرجع السابق ص ٣٧٦ .

(34) Dodwell, H. : op. cit., p. 108 .

(٣٥) أسد رستم : المحفوظات الملكية المصرية — بيان بوثائق الشام المجلد الأول ١٢١٥ — ١٢٤٧ﻫ / ١٨١٠ — ١٨٣٢م بيروت ١٩٤٠ ص ١٢١ .

(٣٦) داود بركات : المرجع السابق ص ٧ ، ٩ .

(٣٧) سليمان عز الدين : ابراهيم باشا فى سورية ، بيروت ١٩٢٩ ص ٧٦ .

(٣٨) محافظ عابدين : محفظة رقم ٢٣٤ ترجمة الوثيقة التركية رقم ١٥١ بتاريخ ٣٠ ذى الحجة ١٢٤٧ﻫ ، وانظر ايضا كتابنا الجيش المصرى وفتح عكا — دراسة فى ضوء وثائق عابدين .

(٣٩) جورج انطونيوس : يقظة العرب — ترجمة على حيدر الركابى ، دمشق ، ١٩٤٦ ، ص ١٣ .

(٤٠) كريم ثابت : المرجع السابق ص ٢٠٤ .

(٤١) عبد الرحمن زكى : المرجع السابق ص ٣٧٦ .

(٤٢) بيير كرابيتس : المرجع السابق — ص ٢٣١ .

(٤٣) محمد فريد : البهجة التوفيقية فى تاريخ مؤسس العائلة الخديوية القاهرة ، مطبعة بولاق ص ١٤١ .

(٤٤) محافظ عابدين : محفظة رقم ٢٥٩ ترجمة الوثيقة التركية ١٦٤ — ١ بتاريخ ١١ من ربيع الآخر ١٢٥٦هـ ، وانظر ايضـــا كتابنا « ثورات الدروز والموارنة ضد حكم محمد على فى بلاد الشام » .

(٤٥) محمد بديع شريف وآخرون : دراسات تاريخية فى النهضة العربية الحديثـــة ص ٥٧١ .

(٤٦) رفاعة الطهطاوى : منـــاهج الألباب المصريـــة فى مباهج الآداب العصرية ، القاهرة ، مطبعة الرغائب ، ١٢٣٠هـ ص ٣٧٢ .

(٤٧) احمد عزت عبد الكريم : تاريخ التعـــليم فى عصر محمد عـــلى ص ٣١ — ٣٦ وللتفاصيل انظر : عمر طوسون : البعثات العلمية فى عهـــد محمد على ثم فى عهدى عباس الأول وسعيد ، الاسكندرية ، مطبعة صـــلاح الدين ١٩٣٤م ، ومن الشخصيات الفذة التى اشتركت فى هذه البعثات رفاعه الطهطاوى الذى رافق اربعين طالبا من طلبة البعثة الى باريس عام ١٨٢٦ ليكون اماما لهم ثم فتحت باريس له عالمـــا جديدا .

(٤٨) كان كتاب الأمير لمكيافللى Machiavelli من أوائل الكتب التى امر محمد على بترجمتها : وقد قام بترجمته مترجم ســـورى هو الأب انطون رفائيل زاخورة راهبة .

(٤٩) جمال الدين الشيال : تاريخ الترجمة والحركة الثقافية فى عصر محمد على القاهرة ، دار الفكر العربى ، ١٩٥١ ص ١٠ .

(٥٠) عن تفاصيل ذلك انظر عزت عبـــد الكريم : المرجـــع السابق ص ٣٧ .

(٥١) كانت هذه المدارس تسمى المبتديان وهى جمع مبتدىء فالألف والنون علامة الجمع فى التركية .

(٥٢) عزت عبد الكريم : المرجع السابق ص ٨٢ — ٨٤ .

(٥٣) كان محمد على شديد الاهتمام بأعضاء البعثات يتتبع احـــوالهم ويتقصى اخبارهم ، يرسل اليهم الخطـــابات يحثهم فيها عـــلى الدراســـة والمواظبـــة .

انظر : رفاعة الطهطاوى : تخليص الابريز ص ١٥١ .

(٥٤) الشيال : المرجع السابق ص ٩ .

(٥٥) عزت عبد الكريم : المرجع السابق ص ٩٣ — ١٠٣ .

(٥٦) للتفاصيل انظر : كلو تبك : لمحة عامـــة الى مصر حـ ٢ — ترجمة محمد مسعود ، القاهرة — مطبعة أبى المهول ص ٦٢٧ — ٦٢٨ ، وانظر ايضـــا :

Bowring : Report on Egypt and Candia, London 1840 p. 140.

(٥٧) كلوت بك : المرجع السابق حـ ٢ ص ٦٣٧ .

(٥٨) للتفاصيل انظر : احمد عزت عبد الكريم : المرجـــع الســـابق ص ٩٦ — ١٠٣ .

(٥٩) امين سامى : تقويم النيل وعصر محمد على حـ ٢ ، القاهرة دار الكتب المصرية ، ١٣٤٦هـ / ١٩٢٨م ص ٤٧٢ — ٤٧٣ .

(٦٠) الجبرتى : المصدر السابق جـ ٤ ص ٢٧٢ .

(٦١) عزت عبد الكريم : المرجع السابق ص ٣٦٧ — ٣٦٨ .

(٦٢) جمال الدين الشيال : المرجع السابق ص ٢٨ .

(٦٣) ذكر محمد على فى حديث له مع الدكتور بورنـــج Bowring بأن أحد من يثق فيهم من الأوربيين نصحـــه بأنه اذا أراد ان يصبـــح رجلا عظيمـــا فيجب عليه قراءة التاريخ ليتعلم منه فنون الحكم

Bowring : Report on Egypt and Candia p. 145 .

(٦٤) الخطط التوفيقية جـ ٣ ص ٥٤ — ٥٥ .

(٦٥) لا يزال هذا الكتاب مخطوطا فى دار الكتب المصرية تحت رقم ٤٣٥ .

(٦٦) الشيال : المرجع السابق ص ٤٤ .

(٦٧) عزت عبد الكريم : المرجع السابق ص ٤٧٨ — ٤٧٩ .

(٦٨) عزت عبد الكريم : المرجع السابق صفحات ١٢٣ — ١٢٤ ، ١٢٩ .

(٦٩) لتفاصيل ذلك انظر الجبرتى : المصـــدر السابق : حـــوادث ٢٥ شعبان ١٢٣١ هـ .

(٧٠) محمد فؤاد شكرى وآخران : المرجع السابق ص ١٤٩ .

(٧١) الرافعى : عصر محمد على ، القاهرة ، الطبعـــة الثالثـــة ص ٣٨٠ .

(٧٢) شكرى : المرجع السابق ص ١٥١ .

(٧٣) عزت عبد الكريم : المرجع السابق ص ٣٧ .

(٧٤) الرافعى : المرجع السابق ص ٤٦٤ .

(٧٥) عن تفاصيل ذلك انظر عمر طوسون : البعثات العلمية فى عهد محمد على ثم فى عهد عباس الأول وسعيد ص ١٧٥ وما بعدها .

(٧٦) شكرى : المرجع السابق ص ١٢١ .

(٧٧) الجبرتى : المصدر السابق ج ٤ القاهرة ، المطبعة الشرفيــة ١٣٢٢ هـ ص ١٠٩ .

(٧٨) نخبة من أساتذة جامعة الاسكندرية : تاريخ البحرية المصرية فى العصر الحديث ، الاهرام التجارية ، ١٩٧٠ ص ٦١٠ .

(٧٩) قائد بحرى برز اسمه فى تاريخ البحرية المصرية للتفــاصيل انظر : جميل خانكى : تاريخ البحرية المصرية ، القاهرة ، السلاح الملكى، ١٩٤٨ ص ٤٢٧ .

(٨٠) الرافعى : المرجع السابق ص ٤٢٧ .

(٨١) للتفاصيل انظر كتابنا الجيش المصرى وفتح عكا .

(٨٢) عن تفاصيل ذلك النظام انظر :

Gibb and Bowen : Islamic Society and the West. pp. 172 - 173 .

ومن المعروف أن الملتزم كان يلتزم بجبــاية الضرائب من الاهــالى فى نظير أن يدفع للحكومة المال المحــدد لسنة واحدة مقدما عن دائــرة التزامه ثم يصبـــح حر التصرف فى دائرة التزامه فيستبد بالفلاحين كمــا يشـــاء ، وقد الغى محمد على هذا النظـــام وقــام بتعــويض الملتزمين باقطاعهم « اطيان الوسية » .

(٨٣) محمد أحمد الحته : تاريخ الزراعة المصرية فى عهد محمد على الكبير ، القــاهرة ، دار المعارف ١٩٥٠ ص ١٠٥ .

(٨٤) كريم ثابت : المرجع السابق ص ٨١ .

(٨٥) تراوحت الضريبة على الفدان ما بين أربعة قروش ونصــف على الاقــل وتسعة واربعون على الاكثر ثم عدلت هذه الضرائب بعــد ذلك بغرض زيادتهــا .

(٨٦) الرافعى : عصر محمد على ص ٦٣٦ — ٦٣٧ .

(٨٧) على الجـريتلى : تاريـخ الصنـاعة فى مصر ، القـاهرة ، دار المعارف ، ١٩٥٢ ص ٣٥ .

(٨٨) للتفاصيل انظر : شكرى : المرجع السابق ص ٨١ — ٨٤ .

(٨٩) الرافعى : عصر محمد على ص ٥٩٧ .

(٩٠) امين عفيفى مصطفى : تاريخ مصر الاقتصادى والمالى ، القاهرة الانجلو المصرية ، ١٩٥١ ص ٨٩ .

(٩١) امين عفيفى : المرجع السابق ص ٩٥ .

(٩٢) محمد فؤاد شكرى وآخران : المرجع السابق ص ٤٧ .

(٩٣) نسبة الى السلطان محمد الثانى .

(٩٤) شكرى : المرجع السابق ص ٥٨ — ٥٩ .

(٩٥) شكرى : المرجع السابق ص ٨٨ .

(٩٦) للتفاصيل انظر الجبرتى : المصدر السابق ج ٤ ص ٦٩ .

الفصل الثالث

عصر خلفاء محمد على

- ❊ عصر عباس الأول ١٨٤٨ — ١٨٥٤
- ❊ عصر سـعيد ١٨٥٤ — ١٨٦٣
- ❊ عصر اسماعيل ١٨٦٣ — ١٨٧٩

عباس باشا وعصره ١٨٤٨ ـ ١٨٥٤

نص فرمان الوراثة فى أسرة محمد على أن وراثة العرش تكون لأكبر أفراد سلالة محمد على ، ومع أن مؤسس الأسرة كان يرغب فى أن يتولى ابنه ابراهيم الحكم من بعده فقد توفى ابراهيم فى حياة ابيه[١] مما أدى الى انتقال حكم مصر الى عباس باشا حفيد محمد على[٢] فى ٢٤ نوفمبـــر ١٨٤٨ . ويعتبر عصر عباس الأول عهد رجعية ففيه أوقفت حركة التقدم والنهضة التى تبناها محمد على ولهذا يجمع مؤرخو عصره عـــلى وصفه بالجمود والرجعية والاستبداد والتقلب .

فيرى كرابيتس ان عصر عبـــاس كان « مزيجا من الجهل والجبن والتعصب » وان عباسا كان « كثير التقلب متأخرا رجعيا ، يكره الأساليب الأوربية وكل ما هو غربى »[٣] ، ويرى انجلو ساماركو Sammarco أن أكثر ما تتسم به ادارة عباس هو العداء الوحشى للحضارة الأوربيـــة وكرهه الشديد لانجازات جده محمد على[٤] .

ويرى الرافعى انه كان مشاذا وفيه ميـــل الى القسوة ، وســـوء الظن بالناس والعزلة[٥] .

والى جـــانب ذلك فقد وصف الدكتور عزت عبد الكريم ســـيرته فى الاصلاح الداخلى بأنها كانت فشلا متصلا[٦] .

وعلى اى حال فقد كان عباس الأول يفضل ان يعيش فى عزلة عن الناس ، ولا يرغب فى أن يراه أحد ، لذلك كان يقيم فى قصور حصينة بعيدة عن الأنظار فى الصحراء أو فى سواحل البحر وحوله العديد من عبيـــده ومجموعة من الوحوش الضارية التى كان يلهو بجمعها وترويضها[٧] فقـــد بنى قصرا بالعباسية وكانت اذ ذاك فى جوف الصحراء ، وقصورا أخرى فى أماكن نائيـــة[٨] .

وقد انتشرت الجاسوسية فى عهده انتشارا كبيرا لدرجة ان الشخص كان لا يأمن على نفسه حتى من اقرب المقربين اليه ، وخاصة وأن النفى الى السودان كان من الأمور المألوفة فى ذلك الوقت[٩] .

والى جانب ذلك فقد فرض عباس باشا القيود على الأجانب المقيمين فى مصر وتخلص ممن كان يعمل منهم فى المصالح والمؤسسات الحكومية وأغلق معظم المدارس الخصوصية ومنها مدرسة الألسن ونقل أساتذتها الى السودان ، واستدعى معظم أعضاء البعثات الذين كانوا يتلقون العلم فى الخارج كما اغلق المصانع والمعامل بحجة الاقتصاد فى النفقات ، وساءت حالة الجيش والبحرية ومعظم شئون العمران .

أما عن أهم أعماله التى تحققت خلال حكمه فكانت اصلاح الطريق بين القاهرة والسويس ، ومد السكة الحديدية من الاسكندرية الى القاهرة فى عام ١٨٥٢ ، هذا الى جانب اهتمامه بالأمن وقطع دابر قطاع الطرق والأشقياء ، والاهتمام ببناء الاستحكامات الحربية وانشاء الطرق الحربية ، ومد الخطوط التلغرافية .

كما وضع حجر الأساس الأول لمسجد السيدة زينب بالقاهرة [١٠] وفى عهده أشترك الجيش المصرى فى حرب القرم التى أبلى المصريون فيها بلاء حسنا ، واستطاعوا صد هجمات الروس .

ومما يذكره التاريخ لعباس الأول انه لم يفتح على مصر أبواب التدخل الأجنبى ، ولم يمد يده للاستدانة منهم كما فعل سلفيه سعيد واسماعيل بعد ذلك .

ولم يستمر حكم عباس الأول طويلا حيث لم يزد على خمس سنوات . وتتعدد الأقاويل حول وفاة عباس الأول وان كان الراى الشائع هو أن أحد أقربائه[١١] أرسل اليه من الأستانة اثنين من عبيده انقضا عليه هو نائم وخنقاه فى شوال ١٢٧٠هـ / ١٤ من يوليو ١٨٥٤ وبعدها تلقى « ألفى بك » محافظ القاهرة دعوة فجائية للاسراع ليلا الى قصر بنها الكائن على بعد عشرين ميلا من القاهرة ، حيث وقع الحادث . فأصدر أوامر

مشددة بالا يذيع احد خبر وفاة عباس . كما أمر باحضار المركبة الرسمية الى مدخل القصر الخاص ووضع فيها بمساعدة رئيس الخصيان جثة الميت جالسة كما يجلس الحى ، وجلس هو مواجها لها بحسب العادة . ثم سارت بهما المركبة عشرين ميلا الى القاهرة يحيط بهما الحرس بالأبهة المعتادة ووصلا الى القاهرة دون أن يدرى احد بالحقيقة ، ولم يكن ذلك مستغربا اذا تذكرنا أن عباسا اعتاد ان يسير فى طريقة لا يلتفت يمنه ولا يسره . ولما وصل الموكب الى القلعة أمر « الفى بك » بتصويب مدافعها الى مدينة القاهرة ، وكانت تحرسها حامية قوية ، ثم أعلن الحقيقة للأهالى وقال انه سوف ينادى بالبرنس الهامى نجل عباس حاكما على مصر ، ولم يعبء بحقوق سعيد باشا[١٢] ، ولما كان الهامى وقتذاك فى أوربا ، فقد تم استدعاؤه لتولى الحكم .

ونظرا لأن فرمان الوراثة يحتم أن يتولى امور الحكم سعيد باشا ابن محمد على وليس الأمير الهامى الابن الأكبر لعباس باشا فان الفشل ما لبث أن أحاط بهذه الفكرة وخاصة وان ممثل انجلترا فى مصر قد تدخل فى الأمر ونصح بتنصيب الوارث الشرعى بلا ابطاء .

ومما سبق يتضح أن مصر فى عصر عباس الأول قد تردى بها الحال الى درجات سحيقة من السوء ، ويكفى أن نذكر أن عباسا قضى على مشروعات محمد على الاصلاحية الا ما ندر ، وان عصره تميز بالقسوة وايقاع الظلم بالأهالى حتى جاء عصر سعيد باشا فتغيرت الأمور الى حد كبير .

سعيد باشا وعصره ١٨٥٤ ـ ١٨٦٣م

اشـــتهر ســـعيد باشـــا ابن محمد على برحابه الصدر والعطف على الأوربيين كما امتاز بقدر كبير من النشاط والمهارة والقـــدرة عـــلى ادارة البلاد وكثيرا ما اقتبس عـــادات الأوربيين وآدابهم الا انه كان يفضـــل عادة تعدد الأزواج على الاقتصار على زوجة واحدة وكان يتكلم الفرنسية بطلاقة ، ومن رفاق صباه فردينان ديلسبس(١٣) .

والى جانب ذلك يتميز عصر سعيد بظهور وطنية جديرة بأن نعتبرها من بواكير الحركة القومية فى تاريخ مصر الحديث ، وساعد على ذلك ميول سعيد الوطنية ورغبته فى تحرير المصريين من المظالم الواقعة على كواهلهم وتخفيف عبء الضرائب المفروضة عليهم ، وتشجيعهم على تقلد المناصب الكبرى سواء فى الجيش او فى الادارة وعن ذلك يذكر احمـــد عرابى وهو أحد شهود العيان فى ذلك الوقت أن نزعة سعيد باشا الوطنية برزت فى خطبة له القاها فى حفل جمع كثيرا من كبراء القوم حيث قال « وحيث اننى أعتبر نفسى مصريا فوجب على ان أربى ابناء هذا الشعب واهذبه تهذيبا حتى أجعله صالحا لأن يخدم بلاده خدمة صحيحة نافعة ، ويستغنى بنفسه عن الأجانب وقد وطدت نفسى على ابراز هذا الراى من الفكر الى العمل » ويقول عرابى « لمـــا انتهت الخطبة خرج المدعوون من الأمـــراء والعظماء غاضبين حانقين مشدوهين مما سمعوا ، وأما المصريون فخرجوا ووجوههم تتهال فرحا استبشارا »(١٥) .

وقد بذل سعيد باشا جهودا ملحوظة لاصـــلاح احـــوال الفلاحين فسمح لهم بحق الملكية العقارية للأراضى الزراعية ، واصدر لهذا الغرض قانونه المعروف باللائحة السعيدية(١٦) ، كما الغى نظام احتكار الحاصلات الزراعية فصار للفلاح حرية التصرف فى حاصلاته وحرية اختيار انـــواع المزروعات التى يرغب فى زراعتها وخفف عن الأهالى عبء الضرائب واعفاهم من المتأخرات القديمة عليهم ، واهتم بتطهير ترعة المحمودية ، وانشأ الخطوط التلغرافية ، ومد الخط الحديدى بين القاهرة والسويس واهتم بترقيـــة شئون الجيش ، وقلل مدة الخدمة العسكرية ثم عممها بين كافة الشبان

بحيث يذهب الى الجندية ابناء المشـــايخ والعمد واقاربهم كســـائر ابناء الفلاحين ، وكان سعيد باشا ميالا الى ترقية الضباط المصريين واعطائهم حقهم فى التقدم وفى عهده ارتقى انكثيرون منهم الى الرتب العسكرية العالية ومن هؤلاء احمد عرابى . كما وجه سعيد باشا جـــل اهتمامه الى ترقيـــة شأن الأسطول المصرى ، ولكن الدول الأوربية وقفت حجر عثرة امامـــه مما ادى الى اضمحلال البحرية المصرية فى عهده[١٧] .

وفى عهده اشتركت مصر فى حربين هما حرب القرم التى استمرت بعد وفاة عباس الأول ، وارسل سعيد باشا نجـــدات الى الجيش المصرى خلالها حتى تم انتصار الدولة العثمانية على الروسيا وابرام معاهدة الصلح فى عام ١٨٥٦ فى مؤتمر باريس الذى سلمت فيه الروسيا بمطالب العثمانيين ، أما عن الحرب الثانية فكانت حرب المكسيك وموضوعها انه نتيجة لاصرار نابليون الثالث على عدم الجلاء عن المكسيك بعد صدور مبدأ مونرو ، كان الصعوبة التى تواجهه هى ان جنوده لا يستطيعون احتمال جو المكسيك حيث كانت الحمى الصفراء تحصدهم حصدا ، ونتيجـــة لذلك سعى لدى صديقه سعيد باشا بأن يقدم القوات اللازمـــة لحـــرب المكسيك . وبعد موافقة سعيد باشا على اشراك مصر فى هذه الحرب التى ليس لها فيها لا ناقة ولا جمل ، غادرت حملة مؤلفة من اربعمائة وخمسين جنديا[١٨] مينـــاء الاسكندرية فى ٢٨ ديسمبر ١٨٦٢ على ظهر بارجة حربيـــة فرنسية الى المكسيك ، وقد ابلت هذه القوات بلاء حســـنا حتى فنى معظم رجالها ، واضطر الجيش الفرنسى الى الجلاء عن المكسيك .

وهكذا ورط سعيد باشا بلاده فى حرب طاحنة فى بلاد نائية ليس فيها مصلحة على الاطلاق اذ لم يكن معقولا أن بلاد المكسيك تهم مصر بأى شكل من الأشـــكال .

وعلى كل حال فقد عاد من تبقى من هـــذه المجموعـــة الى مصر فى مايو ١٨٦٧ حيث كان الخديو اسماعيل قد تولى زمام الأمور ومما يؤخذ على سعيد باشا ثقته المفرطة بالأجانب بحيث لم يكن يقوى على أن يخالف لهم رأيا أو يرد لهم طلبا مما شجع على فتح الثغرات أمام التدخل الأجنبى وكانت أهم هذه الثغرات امتياز قناة السيوس والاستدانة من البيـــوت المـــالية الأوربيـــة .

ويرجع موضوع امتياز قناة السويس الى ان سعيد باشا كان مولعا بأكل المكرونة ، وانه اثناء تواجده بفرنسا لاتمام تعليمه التقى بالشاب فرديناند دلسبس واستحكمت عرى المودة بينهما وخاصة وان كل منهما كان مغرما بالتهام قصاع المكرونة .

وخلال ذلك لم يخطر ببال دلسبس ان صداقته للأمير سعيد ستحدث انقلابا هاما فى طرق التجارة العالمية ، ولكن الفرصة واتته بعد أن علم بوفاة عباس باشا وارتقاء سعيد العرش ، فأرسل الى صديقه سعيد يهنئه بارتقاء العرش ، فاستدعاه الى مصر فوصل الى الاسكندرية فى الخامس من نوفمبر ١٨٥٤م وفى جيبه مذكرة توضيحية عن فكرته لحفر قناة السويس[١٩] ، وقد قابله الباشا بحفاوة كبيرة ثم اصطحبه معه فى رحلة من الاسكندرية الى الصحراء الغربية كان يقودها بصحبة جيش مؤلف من عشرة آلاف جندى[٢٠] وفى هذه المرحلة بدأ جنود سعيد باشا يتمرنون على اطلاق النار على أهداف تبعد حوالى خمسمائة متر ، ولكن لم يستطيع احد منهم اصابة الهدف وعندئذ اخذ ديلسبس يشرح لهم الأخطاء التى أبعدتهم عن تسديد الهدف فاستهوى لب سعيد بحديثه .

ولما طلب منه سعيد باشا اثبات مهارته اصاب رميته ، والى جانب ذلك استطاع دلسبس اثبات مهارته فى الفروسية أمام الباشا مما زاد من اعجابه بشجاعته ، وقد انتهز دلسبس هذه الفرصة وبسط عليه مشروعه ، فوافق عليه ووعد بمساندته وتحقيقه ، ووقع على مرسوم الامتياز اللازم لهذا المشروع فى ٣٠ نوفمبر ١٨٥٤[٢١] ، والذى يقضى بمنح دلسبس امتياز شركة عامة لحفر قناة السويس واستثمارها لمدة ٩٩ سنة ابتداء من تاريخ افتتاحها وقد صدر المرسوم بالكلمات الآتية « حيث ان صديقنا المسيو فرديناند ديلسبس قد وجه نظرنا الى الفائدة التى سوف تعود على مصر من توصيل البحر الأبيض المتوسط بالبحر الأحمر بترعة مائية تستطيع السفن اجتيازها ، ولما كان حضرته قد أعلمنا بأن فى الامكان انشاء شركة مالية لهذا الغرض يكون أعضاؤها رجالا ماليين من جميع الأمم ، فقد نظرنا الى الاقتراح الذى عرضه صديقنا بعين العطف وخولناه بموجب هذه الوثيقة السلطة التامة لتأليف شركة عامة لخرق برزخ السويس»[٢٢] .

والجدير بالذكر ان هذا المشروع لم يكتمل فى عهد سعيد بل انتهى فى عهد اسماعيل[٢٣] .

أما عن لجوء سعيد باشا الى الاستدانة من البنوك الأوربية فانه نظرا لأن سعيد باشا كان يميل الى الانفاق والتبذير على قصوره ، ومعيشته الخاصة ، فقد ارهق ميزانية البلاد ، واضطر فى النهاية الى الالتجاء للمرابين الأوربيين والاقتراض منهم مما أدى الى نذير من الكوارث والأحداث السياسية التى اصابت البلاد فيما بعد وادت الى فتح باب التدخل الأجنبى .

ومع أن الآراء قد اختلفت فى احصاء ديون سعيد باشا ، فان الراى الراجح ان القروض الثابتة قد وصلت الى ٣٠٠ر٢٩٢ر٣ جنيها استرلينيا . وقد استمر سعيد باشا فى الحكم حوالى ثمان سنوات وتسعة أشهر حتى ادركته المنية وله من العمر اثنتان واربعون عاما[٢٤] .

وهكذا توفى سعيد بعد ان أورث خلفه شعبا موثق اليدين والقدمين بمشروع ترعة السويس وبلادا الى الجنوب كانت النخاسة فيها رائجة ، وسياسة خارجية قد أملتها باريس ، وديونا تكاد تبهظ عاتق البلاد ، وياليت ذلك النزيف قد توقف بوفاة سعيد ، بل استمر وزداد فى عصر خلفه اسماعيل .

عصر اسماعيل ١٨٦٣ ــ ١٨٧٩

ارتقى اسماعيل باشا بن ابراهيم بن محمد على عرش مصر فى الثامن عشر من يناير ١٨٦٣ وهو فى الثالثة والثلاثين من عمره[٢٥] ، ويعد بذلك الحاكم الخامس من أسرة محمد على لمصر .

وقد اختلف المؤرخون وشهود العيان فى حكمهم عليه وعلى عصره فمنهم من حكم عليه أحكاما قاسية أمثال ملنر وكرومر وكولفن والجود ودى فريسينية وزيتلند وغيرهم فوصفه ملنر Milner بأنه المثل الكامل للتبذير وأعظم من عرف فى التاريخ بالسفه مع عدم الاكتراث بالعواقب مما أدى الى الاندفاع بالبلاد فى طريق الخراب اندفاعا سريعا وبأنه « لم تكن له مبادىء يصدر عنها أفعاله بل كانت له اعمال جنونية تمتاز

بأنها تشبه فى ضخامتها الاهرامات أو معبد الكرنك »[٣٦] ووصف زيتلند Zetland حكمه بأنه كان مليئا بالشرور والمساوىء[٣٧] .

وقال عن فارمان انه فتح الباب على مصراعيه للأجانب وعقد قروضا فاحشة مع البيوت المالية الأجنبية[٣٨] ومنهم من أنصفه ووصفه بحب العمل والنشاط فقال المستر ليون قنصل الولايات المتحدة والذى اقام سنوات عديدة بمصر « ان الخديوى رجلا كثير العمل يشرف على كل كبيرة وصغيرة وانه كان يستيقظ مبكرا فى الصباح ويسهر على شئون الدولة[٣٩] ، وقال القاضى الأمريكى كرابيتس انه عمل علـى تحسـين احـوال الفـلاح المصرى[٣٠] وعمل على محاربة النخاسـة ، وحبب الأوربيين فى سـكنى الديار المصرية ، وقال جون مارلو انه كان يجهد نفسه عادة فى العمل فيعقد المقابلات مع رجال المـال ، ويتفاوض مع الدبلوماسيين ويرسل التعليمات الى رجاله لجباية الأموال من الفلاحين ، وانه كان يعتبر الحفلات والولائم عملا من أعمال العلاقات العامة بالدرجة الاولى للحصول على تأييد أوربا فى مفاوضاته مع الدولة العثمانية من أجل مزيد من الاستقلال[٣١] .

والى جانب ذلك فهناك من قال انه كان لاسماعيل باشـا طبيعتين متناقضتين ، فهو وان لم يكن كسولا فقد كان محبا للتـرف والانغماس فى الملذات .

ولتوضيح هذه الآراء واثبات مدى صحتها من عدمه سنعرض لعصر اسماعيل بما فيه من مثالب ومشارب وسنخص بالذكر علاقته مع الدولـة العثمانية ومع الدول الأوربية ، وأحوال مصر العمرانية والعلمية فى عصره والأزمة المـالية وما أعقبها من تطورات .

اولا — اسماعيل والدولة العثمانيـة :

بعد ان تولى اسماعيل أريكة الحكم فى مصر حاول توسـيع نطـاق استقلالها عن الدولة العثمانية ، وازالة القيود التى فرضتها معاهدة لندن ١٨٤٠ وفرمان ١٨٤١ . وذلك عن طريق قوة المـال وليس قوة السيف كما فعل جده محمد على ، وقد استغل اسماعيل فى ذلك ضيق أحـوال الدولة العثمانية المـالية ورغبة السلطان فى الحصول على الأموال مراح

ينفق مئات الالوف من الجنيهات فى الآستانة عن طريق مندوبه ابراهام بك الأرمنى ليحصل على الفرمانات التى تحقق رغبته فى توسيع نطاق الاستقلال وتغيير نظام الوراثة لصالح أولاده ويقوم بسد أبواب الدسائس ضده هناك[٣٢] كما بدا بالتودد الى السلطان عبد العزيز ورجال حكومته بزيارته للآستانة لتقديم فروض الولاء ودعوته الى السلطان بزيارة مصر[٣٣] .

وقد استغل اسماعيل فرصة زيارة السلطان لمصر فى ابريل ١٨٦٣ ، وحاول الحصول على مزايا جديدة لحكمه ولما كان يدرك أن الحكومة العثمانية لا تصدر فرمانا الا فى مقابل الأموا ل الطائلة والهدايا غمر السلطان وحاشيته بالهدايا والتحف الفاخرة حتى ملأ بها سفينة بأكملها ، ثم دارت بعد ذلك مفاوضات سرية بينه وبين السلطان حول تعديل نظام توارث العرش فى مصر بحيث يؤول العرش لأكبر أنجاله بدلا من اكبر أفراد الأسرة العلوية ، وقد اشترط السلطان العثمانى زيادة الأموال المخصصة للاستانة من ٤٠٠ ألف جنيه عثمانى الى ٧٥٠ الفا مقابل هذا التعديل ، وبعد أن رحب الباشا بذلك الشرط صدر فرمان ١٢ محرم ١٢٨٣هـ / ٢٧ مايو ١٨٦٦ القاضى يجعل ولاية مصر وملحقاتها وراثية فى أكبر أبناء الوالى الجالس على العرش ونص الفرمان على امكانية زيادة عدد الجيش الى ٣٠ الف رجل ، وتشكيل مجلس وصاية ، واقرار حق الحكومة المصرية فى سك النقود ، ومنح الرتب المدنية لغاية الرتبة الثانية[٣٤] .

وقد تبع ذلك صدور ارادة سلطانية فى الخامس من صفر ١٢٨٤هـ الموافق الثامن من يونيو ١٨٦٧ بالانعام على اسماعيل باشا وخلفائه بلقب خديو[٣٥] حتى يتميز مقامه عن مقام سائر الولاة العثمانيين ، ويعد اسماعيل باشا أول وال عثمانى ينال هذا اللقب . وقد منح هذا الفرمان خديو مصر حق اعلان التنظيمات الخاصة بادارة البلاد ، وعقد الاتفاقيات مع الدول الأجنبية بشأن الجمارك والبريد والنقل وغيرها على الا تتخذ طابع المعاهدات الدولية وهذا يعنى منح مصر حقوقا كاملة فى التفاوض الاقتصادى فى الدول الأجنبية[٣٦] .

ولم تستمر علاقة الخديو بالدولة العثمانية على هذا النحو من الود والصفاء طويلا فسرعان ما اعتراها الفتور والعداء خاصة فى عامى

١٨٦٩ — ١٨٧٠ ذلك ان دعوة اسماعيل لملوك أوربا بمناسبة افتتـاح قناة السويس قد اقلقت الباب العالى الذى كان يخشى من جنوح اسماعيل نحو الاستقلال[٣٧] ولكن ذلك لم يستمر طويلا حيث نجحت هدايا اسماعيل الى استنبول فى تقريب وجهات النظر بين الطرفين . ولما ازدادت حاجـة الخديو الى معاضدة الدولة له قصد الأسـتانة فى صيف ١٨٧٢ بصحبـة اسماعيل صديق وزير المـالية ونوبار باشا وزير الخارجية ، وخلال ذلك تمكن اسماعيل من استصدار فرمان سلطانى يخوله صراحة حق الاستدانة من الخارج ، وقد شجعه الحصول على هذا الفرمان القيام بزيارة ثانيـة للآستانة فى صيف ١٨٧٣ حصل خلالها على فرمان جامع للمزايا التى نالتها مصر منذ عصر محمد على الى عهده .

وقد صدر هذا الفرمان الجامع فى الثامن من يونيو ١٨٧٣م وبمقتضاه حصلت مصر على حقوقها الكاملة فى الاستقلال التام باعتبارها دولة وليست مجرد ولاية ، واكد استمرار سلطة الخديوى على سواكن ومصوع وحقه فى عقد المعاهدات والاتفاقيات فى المجال الاقتصادى ، زيادة عدد الجيش ، ومنح الترقيات حتى رتبة عقيد[٣٨] .

ثانيا — اسماعيل والدول الأوربيـة :

انحصرت سياسة الخديو تجاه الدول الاوربية فى العمل على كسب رضاها واظهار حسن النوايا تجاهها فسعى الى كسب ود فرنسا بهدف معاضدتها له ومساندتها لسياسته كما سعى للوفاق مع بريطانيا التى لم تكن مرتاحة لتغلغل النفوذ الفرنسى فى مصر فى عهد سعيد[٣٩] واتجه الى الولايات المتحدة للاستفادة من خبراتها العسكرية فى تنظيم جيشه وتدريبه .

وقد ادت هذه السياسة الى تعاظم النفوذ الأوربى فى البلاد ، وفتح أبوابها على مصراعيها لتغلغل الأجانب فى مرافقها ، كما ادت فى النهاية الى شل سلطة الخديو وتصدع بناء الاستقلال المـالى والسياسى الذى حققته مصر منذ عصر محمد على[٤٠] .

ثالثا — أحوال مصر العمرانية والعلمية فى عصر اسماعيل :

صاحب عصر الخديو اسماعيل جهودا كبيرة فى الأعمال العمرانيـــة والعلمية فانتعشت حـــركة البناء فى القاهرة والاســـكندرية ، وازدهرت النهضة العلمية والفنية والزراعيـــة والصناعية وغيرها وفيما يلى نعرض لذلك :

١ — النهضـــة العمرانيـــة :

انتعشت حركة البناءفىالقاهرة والاسكندرية ففى الاسكندرية ظهرت فى الرمل شرقى المدينة ضاحية جميلة مليئة بالحدائق يسكنها كبار المضاربين فى القطن من الأوربيين بصفة خاصة ، وفى القاهرة ظهر حى كبير آخر على الطراز الأوربى وهو حى الاسماعيلية ويقع بين حديقة الأزبكية والنيــل ، وكان يتكون من منازل خاصة ذات حدائق كبيرة ، ومن فنادق ومحـــلات ومكاتب على جانبى شوارع واسعة ممهدة مزروعة تحف بها الاشجار ، وكانت الحكومة تشجع حركة البناء هذه بمنح سخية من الأرض للأفراد الذين يتعهدون بتجديدها بشكل مناسب ، كما بنيت قصور كبيرة مثل قصر عابدين ، وقصر النيــل والجــزيرة كذلك بنيت دار الأوبرا عــلى الطراز الفرنسى[٤١] .

٢ — تطور الحيـــاة النيابيـــة :

كون اسماعيل مجلسا لشورى النـــواب فى مصر حتى يعطى للعالم الأوربى صورة عن رغبته فى مسايرة الحياة البرلمـــانية فى أوربا .

ومع أن ممثلى المجـــلس لم تكن لديهم الصلاحيات والحصـــانة التى تؤهلهم للتعبير عن شئون مواطنيهم فقد بدأ المجلس يتحدث عن حدود سلطة الخديو ، وحدود سلطة نوبار ، ويتألم للتدخل الأجنبى فى شئون البـــلاد ويتطرق الى أهمية السيادة الاسمية للدولة العثمانية على مصر .

وقد ساير الخديو هذه التيارات الوطنية ، واستطاع ان يحولها ضد التدخل الأجنبى فى شئون البلاد فى بعض الأوقات[٤٢] .

٣ – النهضـــة العلميـــة والأدبيـــة :

تميز عصر اسماعيل على قصره بتعدد نواحيه ، وتنوع اتجاهاتــه ، فأخذت النهضة العلمية والأدبية تتفتح وتزدهر ، كما حفــلت بجمهرة من الأدباء والكتاب والصحفيين ، وفيما يلى نعرض لذلك :

(أ) التعـــليم :

نال التعليم فى عصر اسماعيل اهتماما كبيرا وخاصة أنه تولى الحكم ومعظم المدارس التى أنشأها محمد على كانت مغلقة ، فأعاد اليها النشاط ، واعاد تأليف ديوان المدارس كما وجه همته الى انشاء العديد من المدارس والتى من أبرزها مدرسة الحقوق ومدرسة دار العلوم[٤٣] وكان عماد هذه النهضة وراسها المدبر على باشا مبارك ، ومن ابرز الأعمال التى اسندت الى على مبارك فى عصر اسماعيل كانت نظارة القنـــاطر الخيرية ووزارة المعارف والأشغال والأوقاف ، أما عن أجل المنشئات الذى ساهم فيهـا على مبارك بفكره وعلمه فكانت دار الكتب فى عام ١٨٧٠ وفتحها أمام طلاب العلم والمعرفة ، وانشاء دار العلوم فى عام ١٨٧٢ لتخريج أساتذة للغـــة العربيـــة ، وانشاء مجلة روضة المدارس .

(ب) الصحافـــــة :

ارتكزت الصحافة المصرية حتى نهاية عصر سعيد فى جريدة الوقائع المصرية ، ثم اخذت الصحافة الشـــعبية تخطو خطـــواتها الأولى بوصول اسماعيل الى أريكة الخديوية فأنشأ الدكتور محمد عـــلى البقلى والشيخ ابراهيم الدسوقى مجلة اليعسوب الطبية فى عام ١٨٦٥ ، وانشأ الشاعر عبد الله أبو السعود جريدة وادى النيل الأدبية السياسية الاخباريـــة فى عام ١٨٦٧ ، وأنشأ ابراهيم المويلحى ومحمد عثمان جلال جريدة « نزهة الأفكار » فى عام ١٨٦٩ ، وفى عام ١٨٧٠ ظهـــرت روضـــة المدارس التى انشأها على باشا مبارك .

وانشأ الأديب اللبنانى سليم الحموى « الكوكب الشرقى » فى عام ١٨٧٣ ومجلة « الاسكندرية » فى عام ١٨٧٨ .

كما صدرت جريدة الاهرام فى عام ١٨٧٦ وفى عام ١٨٧٧ ظهرت جريدة الوطن ، وجريدة مصر و فىعام ١٨٧٨ انشأ اديب اسحق وسليم النقاش جريدة التجارة ، و فىنفس هذا العام ظهرت مجلة « ابو نضارة » ليعقوب صنوع اليهودى المصرى والتى كان يسميها احيانا بأسماء مختلفــة مثــل « أبو زمارة » و « أبو صفارة » و « الحــاوى » يضاف الى ذلك انــه كان يصدر فى عصر اسماعيل عــدة صحف أجنبية فى مقدمتها « الفــار السـكندرى Le Phared Aexandrie التى انشئت بالاسكندرية فى عام ١٨٧٤ وجريدة البروجريه اجبسيان Le Progrés Egyptien وغيرهــا .

وهكذا يتضح تطور الحركة الصحفية فى عصر اسماعيل بشكل كبير ، مما كان لها اكبر الاثر فى تنوير الراى العام المصرى ، وتحضــيره لمرحـلة جديدة خصوصا وان المصريين بداوا يتكلمون بصراحة فى شئون بلادهم .

وفى عهد اسماعيل أيضــا تقدمت الطباعــة ، وتأسست الجمعيات العلمية والأدبية وتزايد عــددها ، ونشط الأدب والشعر وحــركة التأليف والترجمة والنشر هذا الى جانب تأسيس مجلس شورى النواب فى عــام ١٨٦٦ ، كل ذلك كان له أثره فى تقدم الحياة الاجتماعيــة والسياســية والوطنيــة(٤٤) .

(د) النهضــة الفنيــة :

اهتم الخديو اسماعيل بالحياة الفنية فى مصر اهتماما بالغا وبخاصة التمثيل والموسيقى والغناء . وفيما يلى نعرض لذلك :

اولا — التمثيــل :

أمر الخديو بانشــاء أول مسرح بالقاهرة وهو المسرح الكوميــدى بالأزبكية فى عام ١٨٦٨ وبنى دار الاوبرا فى عام ١٨٦٩ لمناسبة الاحتفــال بافتتــاح قناة السويس(٤٥) والتى مثــلت عليها أوبرا عــايدة للموسيقى الايطالى « فردى » ثم أمر بانشاء مسرح زيزينيا بالاسكندرية وقد ساعد على انعكاس هذه النهضة وفود العديد من الفــرق المسرحيــة والممثين

الشوام من سورية الى مصر وبخاصة فرق « يوسف خياط » و « سليم النقاش » و « اديب اسحق » التى مثلت العديد من المسرحيات على مسرح زيزينيا .

ثانيا — الموسيقى والغناء :

نظرا لرغبة الخديو فى سماع الطرب وحب المسرات ولميل المجتمع المصرى الى روح الطرب والمرح فقد سرت روح التجديد فى الموسيقى والغناء . ومن اشهر المطربين فى ذلك الوقت عبده الحمولى الذى اخذت شهرته تنتشر فى كافة الأوساط وخاصة بعد ان ابتكر اساليب جديدة فى الغناء اتفقت مع روح عصره مما جعله ينال اعجاب اهل الفن وعشاق الطرب ، وبعد أن وصلت شهرته الى الخديو اسماعيل الحقه بمعيته ، واتخذه نديمه فى حفلاته واغدق عليه الهبات ، ومن اشهر الموسيقيين ايضا فى ذلك الوقت « محمد العقاد » عازف القانون الذى حاكى عبده الحمولى فى انغامه الموسيقية ، ومن اشهر المطربات « الماس » التى تزوج بها عبده الحمولى ومنعها من الغناء فى المجالس ، مما جعله يستهدف غضب الخديو اذ طلب يوما أن تحضر « الماس » الى قصره وتغنى فيه فرفض عبده أن تذهب مما اغضب الخديو وجعله يأمر باحضارها بالقوة لولا توسط الشيخ « على الليثى » شاعر الخديو فى الأمر وانتهاء الأزمة بعدول الخديو عن طلبه[٤٦] .

وهكذا يتضح مدى اهتمام الخديو اسماعيل بالتمثيل والموسيقى ، مما كان له اثره فى النهضة الفنية التى تعيشها مصر الآن .

رابعا — النهضة الزراعية والصناعية :

وجه اسماعيل جل اهتمامه على انماء ثروة مصر الزراعية بتوفير وسائل الرى ، ففى عهده شقت ترع جديدة مثل ترعة الابراهيمية فى الصعيد والاسماعيلية فى شرق الدلتا واصلحت حوالى مائة واثنتى عشرة ترعة[٤٧] ، وفى عهده اتسعت رقعة الأرض الزراعية وزاد محصول القطن الى ثلاثة أو أربعة أمثال ما كان عليه ، وكان معظمه يصدر الى الخارج وساعد على ذلك قيام الحرب الأهلية الأمريكية وتأثر زراعة القطن فى

الولايات الجنوبية فى امريكا نظرا لتوقف الاهالى عن الزراعـــة وحمـــلهم السلاح واغلاق موانى التصدير ، مما اسفر عن توقف تصـــدير القطن الأمريكى للعالم وارتفاع ثمن القطن المصرى بشكل كبير مما جعل الخديـــو يأمر بزراعة القطن فى كل بقعة من وادى النيل واهمال زراعة الســـكر والحبـــوب .

وظلت الأمور على ذلك بين عامى ١٨٦٣ — ١٨٦٥ ثم بـــدا الموقف يتغير تماما فى عام ١٨٦٦ حيث بدأ القطن الامريكى ينزل الى الاســـواق العالميـــة ، وكان من نتيجة ذلك هبوط اسعار القطن المصرى وتعـــرض اقتصاد البلاد لكساد كبير(٤٨) تزعزع رخاء مصر على اثره ، ولكى يتلافى الخديو الخسائر الهائلة التى بدأت تلحق ببلاده وجه اهتمامه الى الاكثار من زراعة قصب السكر ، وخاصة فى املاكه بالوجه القبلى(٤٩) ، كما قام بانشاء مصانع للسكر واستورد آلات باهظة الثمن لذلك ، ولكن هـــذا المشروع اهمل ولم يكلل بالنجاح(٥٠) .

يضاف الى ذلك أن التوسع الهائل فى زراعة القطن والسكر قد تم على حساب المزروعات الأخرى لدرجة ان اصبحت مصر تعتمد فى مواردها الغذائية على البلدان الأخرى .

خامسا — النظـــام القضـــائى :

ان ولايـــة القضاء ركن من أركان السيادة الأهلية لكل بلد مستقل ، ولكن اعترض تطبيق ذلك فى مصر ما منحه سلاطين آل عثمان لرعايا الدول الأوربية من امتيازات واعفاءات واسعة ، وقد صـــارت هذه الامتيازات عبئا ثقيلا على البلاد وخاصة بعد ان انتابها الضعف وطغت سلطة الاجانب على سيادة الحكومة وانتزع القناصل سلطة الحكم فيما يقترف رعاياهم على الجرائم التى تقع على الوطنيين(٥١) فكانت هناك ست عشرة محكمة قنصلية تطبق ستة عشر تشريعا مختلفا . وقد اغتصبت هذه المحاكم سلطة الحكم على الحكومة المصرية فى القضايا التى يرفعها رعاياها عليها وعـــلى الأهالى ، واصبحت تمثل دولة حقيقية داخل الدولة .

وتفصيل ذلك هو أن مصر كانت من البلاد التى تتمتع الدول الأجنبية فيها بامتيازات خاصة ، فكان الأجانب لا يحاكمون بمقتضى القانون المصرى [٥٢] فمثلا اذا باع انجليزى بضاعة لأسبانى فى مصر وحدث بينهما نزاع لا يقيم الانجليزى قضية فى محكمة مصر استصدارا لحكم يؤيد حقه بل كان يقيمها فى القنصلية الأسبانية مما ادى الى بث الاضطراب فى المعاملات التجارية داخل مصر ، واتهام الناس للحكومة بالضعف والخطأ ، والتفريط فى حقوقهم ، وبعد ان تولى اسماعيل الحكم عقد نيته على اصلاح ذلك الخلل ؛ باعادة تنظيم القضاء المصرى ذلك عن طريق نقل سلطة المحاكم القنصلية الى قضاء دولى ، والى اصدار قانون متناسق يطبق فى البلاد [٥٣] .

وفى عام ١٨٦٩ رفع نوبار باشا تقريرا الى اللجنة الدولية يقوم على ثلاث أفكار رئيسية هى ، تحرير الحياة المدنية للمواطنين أو الأوربيين من كل فكرة طائفية ، وانشاء جهاز قضائى وطنى نزيه ، قادر على تشكيل محاكم ذات سلطة قوية ، ثم تنظيم قضائى كامل يضم دوائر تحاكم الوطنيين بجانب دوائر تحاكم الأجانب .

وقد استمرت المفاوضات بين مصر والدول الأوربية عدة سنوات ثم انتهت فى عام ١٨٧٥ بانشاء المحاكم المختلطة على اساس تخويلها سلطة الفصل فى جميع المنازعات ، وكان غالبية القضاة فى هذه المحاكم من الأجانب وقد أوضح اللورد كرومر اختصاص هذه المحاكم بقوله انها تفصل فى القضايا والمنازعات المدنية والتجارية بين الأوربيين وبعضهم من جهة وبين الأوربيين والمصريين من جهة أخرى [٥٤] .

وعلى الرغم من أن اسماعيل حاول بانشاء القضاء المختلط اصلاح أمور القضاء فانه أفقد مصر استقلالها التشريعى ، واصبح بمثابة اعتداء على السيادة الأهلية وعلى الاستقلال القومى للبلاد ، وكان ضررها كبيرا على الشعب المصرى ولا سيما الفلاحين حيث ساعدت على استغلال الأجانب للبلاد بطريقة قانونية ، وكانت مظهرا من مظاهر الوصاية الأجنبية التى تعددت أشكالها فى مصر [٥٥] .

سادسا — تكوين امبراطورية مصرية فى افريقيا :

راودت الخديو اسماعيل افكار وطموحات حول تكوين امبراطوريـــة مصرية فى افريقية ، وتوسيع رقعة السودان المصرى ومد النفوذ المصرى بصفة فعالة جنوبا من النيل الأبيض الى البحيرات العظمى بهدف ضم حوض النيل بأكمله داخل الأراضى المصرية ، وفى عهده تم ضم سواكن ومصوع الى أملاك مصر ، والحقت المقاطعات الاستوائية بالحكومة المصرية ، ووصـــل النفوذ المصرى الى سواحل بلاد الصومال والحبشة ، وتمكنت هذه المناطق من الانفتاح على الحضارة الحديثة . وخلال ذلك وقع الخديو مع بريطانيا معاهدة اتفق بمقتضاها على قطع دابر النخاسة وتجارة الرقيق فى ممتلكات مصر الأفريقيـــة(٥٦) .

كما اتجه الى الولايات المتحدة لتدريب ضباطه وتكوين الجغرافيين والمهندسين والمستكشفين(٥٧) .

غير ان الفشل كان نهاية ذلك العمل الكبير الذى بلغ ذروته بـــين عامى ١٨٧٢ — ١٨٧٩ ، فلم تستطع هذه الامبراطورية الجديدة أن تستمر طويلا . ويرى أغلب المؤرخين أن سبب ذلك يعود الى أن اسماعيل عهد بأمور فتوحاته الأفريقية للأجانب أمثال « بيكر » و « جوردون » بمعنى انها كانت اجنبية عند القمة ، ومصرية عند القاع مما أفقدها استمراريتها وعلى اى حال فقد جاء عزل اسماعيل ليضع حدا لأية سياسة افريقيـــة فعالة من جانب مصر(٥٨) .

سابعا : اسماعيل والأزمة المالية والتدخل الاجنبى :

تعاظم امر الديون على مصر فى عصر اسماعيل نتيجة لبذخه والمبالغ التى أنفقها فى التشييد والبناء ، واندفاعه السريع الى الاستدانة فكان اذا أراد عملا جنح الى الاقتراض دون ان يبالى بعواقب ذلك لدرجة أن ازدادت الديـــون من ٣٫٢٩٣٫٠٠٠ فى أوائل عهـــده الى حـــوالى ٩١ مليـــونا من الجنيهات (٥٩) فى عام ١٨٧٦ فأصبحت حملا ثقيلا على الخـــزينة المصرية وعلى اهالى البلاد ، ونتيجة لتوقف البيوت المـــالية عن اقراض الخديو وذلك لعدم وفائه بسداد أقساط الديون ابتدع اسماعيل طريقة يستطيع

الحصول بها على الأموال من الأهالى فاصدر « لائحة المقابلة » فى ٣٠ من اغسطس ١٨٧١ والتى تقضى بأن تنزل الحكومة لملاك الاراضى الزراعية عن نصف الضريبة المفروضة على اطيانهم بصفة دائمة اذا دفعوا للحكومة ستة أمثال هذه الضريبة مقدما [٦٠] .

ونتيجة لفشل الخديو فى تسديد اقساط الديون ، وتوقفه عن سداد سندات الخزانة المستحقة ، وظهور شبح افلاس مصر ، تدخلت الدول الأوربية فى شئون البلاد بحجة المحافظة على أموال رعاياها من أصحاب الديون .

وفيما يلى نعرض لأهم مظاهر التدخل الأجنبى فى مصر خلال هـــذه الفترة .

١ — بعثة كيف Cave

هى لجنة انجليزية برئاسة الخبير المالى البريطانى « ستيفن كيف » وانحصرت مهمتها فى دراسة أحوال مصر المالية وكتابة تقرير عنها [٦١] وقد اقترحت البعثة كشرط أساسى لاصلاح أحوال مصر المالية أن تصبح الحكومة المصرية تحت المشورة الأوربية ، وأن يكون هناك جهاز للرقابة عليها تحت اشراف موظف انجليزى ، وأن يحترم الخديو ما تصدره هذه اللجنة من قرارات ولا يعقد أية قروض قبل الحصول على موافقتها .

وعند دراسة هذه الاقتراحات يتضح أن اللجنة ابتعدت عن مهمتها الأساسية وهى دراسة أحوال مصر المالية واقتراح السبل الكفيلة باصلاحها الى محاولتها لتمهيد السبيل للتدخل الانجليزى فى شئون مصر ، مما جعل فرنسا تحاول اللحاق بانجلترا فى ذلك المجال حتى لا تنفـــرد الحكومـــة الانجليزية بذلك .

ولمـــا سارت الضائقة المـــالية فى طريقها وعجزت الحكـومة عن الوفاء بالتزاماتها أصدر الخديوى مرسوما فى ١٦ ابريل ١٨٧٦ بتأجيل دفع السندات والأقساط المستحقة على الحكومة ، وتحت ضغوط الدائنين وافق الخديو على انشاء صندوق الدين [٦٢] .

٢ ــ صندوق الدين العمومى :

اصدر الخديو اسماعيل مرسوما فى الثانى من مايو ١٨٧٦ بانشــاء صندوق الدين العمومى ، بهدف جمع المبالغ المخصصة للديون من المصــالح الحكومية وتسديد اقساط الديون وما يستحق عليها من فوائد .

وقد تولى ادارة هذا الصندوق موظفون أوربيون تم ترشيحهم من قبل الدول الدائنة ثم صدق الخديو على تعيينهم .

وقد نص المرسوم الصادر بانشاء هذا الصــندوق على أن تختص المحاكم المختلطة بالنظــر فى القضايا التى يرى صندوق الدين اقامتهــا ضد الحكومة (٦٣) .

وكانت الديون المصرية قسمين دين الحكومة ودين الدائرة السنية ثم ضمت الى دين واحد قدره ٩١ مليون جنيه سمى بالدين الموحد بفائدة ٧ بالمائة . ولمــا راى الخديو اسماعيل أن توحيد الدين على هذه الصورة لا يمكن الحكومة من سداده أصدر امرا بأن تصدر الحكومة المصرية سندات عليها بمبلغ ١٧ مليون جنيه فى نظير رهن السكك الحديدية وميناء الاسكندرية، وان تكون فائدته خمسة بالمائة وسماه الدين الممتاز .

ونتيجة لعدم اقتناع الدول صاحبة الديون بهذه الاجراءات تشــكلت لجنة مالية مختلطة لمراقبة حساب الحكومة وهى التى اطلق عليها بعثــة جوشن وجوبير .

بعثة جوشن وجوبير :

عرضت بريطانيا على فرنسا تنسيق موقفيهما ازاء الأزمة المالية فى مصر واتفقتا على ارسال مندوبين لبحث هذه المسألة ، فأوفدت بريطانيــا جوشن Goschen وانتدبت فرنســا جوبير Jiubert مندوبــا عن الدائنين الفرنســيين ليشــترك مع المندوب الانجليزى فى عرض مطالب الدائنين على الخديو . وقد حضر جوشن الى مصر فى اكتوبر ١٨٧٦ ثم تبعه جوبير وطلبا الى اسماعيل فرض الرقابة الثنــائية على المــالية المصرية وجعل السكك الحديدية وميناء الاسكندرية تحت ادارة لجنة مختلطة ، وقد

وافق الخديو اسماعيل على هذا المطلب فى ١٨ من نوفمبر ١٨٧٦ [٦٤] كما اضطر بعد ذلك الى التنازل عن املاكه الخاصة واملاك اسرته للحكومة وهى التى تعرف باملاك الدومين .

بعد ان ازداد التدخل الأجنبى فى شئون مصر المـالية رأى اسماعيل ان يجعل حكومته شورية فشكل مجلسا للنظار برئاسة نوبار باشا ووافق على تعيين وزيرين اوربيين فى هذه الوزارة احدهما انجليزى للمالية وهو المستر ولسن والآخر فرنسى للاشغال العمومية وهو المسيو بلينير ، واثناء اجتماعات هذه الوزارة عمل نوبار الى انقاص عدد الجيش ، واحاله عدد كبير من الضباط الى الاستيداع بحجة الاقتصاد مما ادى الى فصل بعض الضباط والجنود دون حصولهم على رواتبهم المتأخرة ، وقد ادى ذلك الى قيام حوالى ٤٠٠ ضابط بمظاهرة امام نظارة المالية فى ١٨ فبـراير ١٨٧٩ اهانوا خلالها نوبار باشا رئيس النظار والمستر ولسن وانقلبت الأمـور الى ما يشبه الثورة لولا ان اقبل اسماعيل باشا ، وقام بتهدئة الجنـود ووعدهم بصرف مستحقاتهم وطالبهم بالانصراف ، وأعلن انه لن يكون مسئولا بعد ذلك عن الأمن والنظام اذا لم يعزل نوبار ونتيجة لما حدث استقالت وزارة نوبار فشكل الخديو مجلسا آخر للنظار برئاسة ابنه محمد تـوفيق ولما فشل هذا المجلس فى مواجهة الموقف ، شكل الخديو وزارة جـديدة برئاسة شريف باشا ، وأخرج منها الوزيرين الأوربيين مما ادى الى غضب انجلترا وفرنسا والاتفاق على عزله .

ففى ١٩ يونيو وبناء على تعليمات اللورد سالسبورى تم تبليغ الخديو بما يأتى :

« اتفقت الحكومتان الفرنسية والانجليزية على الاشارة على سموكم رسميا بالنزول عن العرش ، ومغادرة القطر المصرى فـاذا قبلتم هـذه المشورة عملت حكومتانا معا على تقرير مخصصات كافية لسموكم ، ولا يحدث خلل فى نظام وراثة العرش فهو ينتقل بمقتضاه الى البرنس توفيق ؛ ويجب الا نخفى عن سموكم أن رفضكم للتنحى واجبـاركم بذلك وزارتى لندن وباريس على التوجه بالطلب الى السلطان رأسا يحلهما من وعدهما

لكم بالمخصصات ومن المحافظة على وراثـــة العــرش لمصلحة البــرنس تــوفيق » [٦٥] .

ولمـــا عرض هذا الانذار على الخديو رفضه بحجة انه لا يستطيع التخلى عن حكم مصر الا بأوامر من السلطان ، ونتيجة لضــــغوط الــدول الأوربية على السلطان العثمانى صدرت أوامر السلطان بعزل اســماعيل وتوليه ابنه توفيق مكانه وذلك فى ٢٦ يونيو ١٨٧٩ فغادر الخديو المعزول مصر الى نابولى عن طريق الاسكندرية وانتهت به الأمور الى الاقامة فى الآستانة حتى توفى فى السادس من مارس ١٨٩٥ .

تقييم عصر اســماعيل

وهكذا يتضح ان أحوال مصر فى عصر اسماعيل كانت ابعد ما تكون عن الاستقرار حيث تفاقمت الازمة المالية [٦٦] واتخذت شكلا سياســـيا بسبب اسراف الخديو اسماعيل ، وانفاقه أموالا طائلة سواء فى مشروعاته وبذخه أو لارضاء الدول الأوربية والسلطان ، كما تحملت الخزانة المصرية نفقات باهظة فى سبيل تسوية النزاع الخاص بمشروع القناة ومحـــاولات الخديو ارضاء السلطان ورشوة رجاله مقابل فرمان الوراثة ومنحه لقب خديو كما انفق على حفلات افتتاح القناة مليونا واربعمائة الف جنيه [٦٧] .

زد على ذلك فشل مشروعاته الاقتصادية بعد توقف الحرب الأهلية الأمريكية وانخفاض اسعار القطن وما واكب ذلك من انتشار حالات الافلاس فاضطر الى أن يستدين بشروط باهظة [٦٨] ففتح الباب عــلى مصراعيه للاجانب وعقد قروضا واتفاقات مع البيوت المـــالية الأجنبية [٦٩] التى تآمرت على سلب الخديو ارادته وتسابقت فى اغرائه على عقد قروض جديدة بفوائد فاحشة مما ادى الى زيادة التدخل الأوربى فى شئون البلاد الداخلية خصوصا بعد أن وافق على تأسيس صندوق الدين والمراقبة الثنائية وعلى أن يشترك فى الوزارة التى الفها نوبار عام ١٨٧٨ وزيران أجنبيان انجليزى للمالية وفرنسى للاشغال ، كما انتشرت فى عهده عمليات التهريب التى يقوم بها الاجانب بصورة كبيرة [٧٠] ، مما ساعد على خراب البلاد وفســـــاد احوالها [٧١] ، حيث ساءت احوال الفلاحين واشتد الظلم فى جمع الضرائب،

لدرجة ان بلغ البؤس بالفلاحين انهم كانوا ينزلون عن أطيانهم فرارا من الضرائب ، ونتيجة لافلاس خزائن الحكومة حرم الموظفون من صرف مرتباتهم ثمانية عشر شهرا ، كما أحيل الفان وخمسون ضابطا الى الاستيداع توفيرا للنفقات (٧٢) ، واضطر الخديو الى بيع اسهم قناة السويس ، وابتدع قانون المقابلة .

ونتيجة لاستحكام الازمة راى الوطنيون التخلص من الخديو الذى لا يحسن تصريف أمور البلاد فتألف الحزب الوطنى للدفاع عن حقوق الأمة (٧٣) ، وجعلوا مركزهم مدينة حلوان ، ونشروا عدة منشورات اشاروا فيها على الحكومة بمراعاة مصلحة البلاد .

وفى هذا الجو المشوب بالقلق والتوتر تم عزل الخديو اسماعيل واحلال ابنه توفيق محله ، قد استقبلت البلاد هذا النبأ بالابتهاج وعم الناس السرور لحدوث مثل هذا الأمر الخطير دون وقوع اختلال يعكر صفو الأمن فى البلاد .

مراجـــع الفصـــل الثالث

(١) توفى ابراهيم باشا فى ابريل ١٨٤٧ على حين توفى محمد على فى الثانى من اغسطس ١٨٤٩ .

(٢) هو ابن طوسون بن محمد على ، وكان اكبر افراد اسرة محمـد على سنا وبالتالى احقهم بولاية الحكم بعد ابراهيم باشا .

(٣) بيير كرابيتس : اسماعيل المفترى عليه — ترجمة فـؤاد صروف — القاهرة ، دار النشر الحديث ص ١٢ .

(4) Sammarco : Précis de Histore d'Egypte, IV, p. 4 .

(٥) انظر عصر اسماعيل حـ ١ ، الطبعة الأولى ١٣٥١هـ — ١٩٣٢م ص ١٠ .

(٦) انظر : تاريخ التعليم فى عصر عباس وسعيد ص ٥ — ٦ .

(٧) كرابيتس : المرجـــع السابق ص ١٣ .

(٨) انظر على سبيل المثال . على مبارك : الخطط التوفيقية لمصر القاهرة ومدنها حـ ٧ ص ٦٣ .

(٩) من ابرز الأمثلة على ذلك انـــه أبعد رفاعـــة الطهطـــاوى الى الخرطوم ليكون السودان منفى له .

(١٠) جرجى زيدان : تاريخ مصر الحديث حـ ٢ ، القاهرة ، مطبعة الهلال ١٩٢٥ ص ٢٠٢ .

(١١) تردد ان الأمير نازلى هانم عمة عباس باشا هى التى ائتمرت به نتيجة لأنه حاول قتلها ، واضطرها للرحيل الى الاستانة .

(١٢) كرابيتس : المرجع السابق ص ١٣ .

(١٣) كرابيتس : المرجع السابق ص ١٤ .

(١٤) الرافعى : المرجع السابق ص ٢٣ .

(١٥) أحمد عـــرابى : كشف الســـتار عن سر الأسرار — جـ ١ ص ٧ — ٨ .

(١٦) للتفاصيل عن هذه اللائحة انظر : فيليب جلاد : قاموس الادارة والقضا . الاسكندرية ، المجلد الاول ص ١١٨ .

(١٧) الرافعى : المرجع السابق ص ٢٥ — ٣٤ ٠

(١٨) كرابييتس : المرجع السابق ص ٢٧ على حين يذكر الرافعى أن عددهم ١٢٠٠ مقاتل وان معظمهم فى السودانيين ٠

انظر : عصر اسماعيل ص ٤٠ ٠

(١٩) كرابييتس : المرجع السابق ص ١٥ — ١٦ ٠

(٢٠) الرافعى : المرجع السابق ص ٥٩ ٠

(٢١) كرابييتس : المرجع السابق ص ٥٩ ٠

(٢١) كرابييتس : المرجع السابق ص ١٧ — ١٨ ٠

(٢٢) كرابييتس : المرجع السابق ص ٢١ ٠

(٢٣) عن تفاصيل ذلك انظر الفصل الخاص بانجازات مصر الحضارية ٠

(٢٤) الرافعى : المرجع السابق ص ٧١ ٠

(٢٥) كان قبل ذلك فى عزلة تامة عن أمور الدولة خصوصا وان عمه سعيد باشا لم يكن يشجعه على ذلك ٠

(26) Milner : England in Egypt, London p. 176, 263

(27) Zetland : Lord Cromer, London 1933 p. 72 .

(28) Farman, E : Egypt and Its Betrayal .

(29) Leon : The Khedive's Egypt, London 1877 .

(٣٠) انظر اسماعيل المفترى عليه ص ٥٨ ٠

(٣١) جون مارلو : تاريخ النهب الاستعمارى لمصر من الحملة الفرنسية الى الاحتلال البريطانى ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٦ ص ١٥٥ ٠

(٣٢) جورج يانج : تاريخ مصر من عهد المماليك الى نهاية حكم اسماعيل ، ص ١٠ ٠

(٣٣) الرافعى : عصر اسماعيل حـ ١ ، القاهرة، مطبعة النهضة ، الطبعة الأولى ١٣٥١هـ / ١٩٣٢م ص ٧٨ ٠

(٣٤) للتفاصيل انظر قاموس الادارة والقضاء حـ ٦ ص ٧٣٠ ٠

(٣٥) هذا اللقب نعت فارسى مشتق من كلمة « خيفا » وهى اسم فارسى من أسماء الله يعنى « ربانى » أو الهى ولما كان الأتراك والمصريون لا يعرفون الفارسية فقد كان لهذا اللقب الجديد سحر خاص مشتق مما يحيط به من خفاء معناه ، فرضى عنه السلطان لأنه اقتنع أنه لا يعنى شيئا ، وسر به الباشا لأنه اقتنع بأنه يعنى كل شىء .

بيير كرابيتس : اسماعيل المفترى عليه ص ١٤٨ .

(36) A, Sammarco : Said et Ismaïl p. 209 — 210 .

(٣٧) للتفاصيل انظر اسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار حـ ٢ القاهرة ، ١٣١٢هـ ص ١٩٩ ، ومحمود فهمى باشا : البحر الزاخر فى تاريخ العالم وأخبار الأوائل والأواخر القاهرة ١٣١٢هـ حـ ١ ، ص ١٩٩ .

(٣٨) عن نص هذا الفرمان : انظر الوقائع المصرية العدد ٥١٧ فى ١٧ من يوليو ١٨٧٣ .

(٣٩) لتفاصيل ذلك انظر جورج جندى : اسماعيل كما تصوره الوثائق الرسمية ص ٤٨ .

(٤٠) الرافعى : المرجع السابق ص ٧٦ .

(٤١) مارلو : المرجع السابق ص ١٥٢ — ١٥٣ .

(٤٢) أحمد عبد الرحيم مصطفى : الخديو اسماعيل وعلاقته بالباب العالى رسالة ماجستير ، مكتبة جامعة القاهرة ص ١٤٦ .

(٤٣) الرافعى : المرجع السابق حـ ١ ص ٢٠٨ — ٢٠٩ ولمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع انظر امين سامى : التعليم فى مصر ، وعلى مبارك : الخطط التوفيقية .

(٤٤) الرافعى : المرجع السابق حـ ١ ص ٢٥٦ — ٢٦٨ .

(٤٥) الرافعى : المرجع السابق حـ ١ ص ٢٩٩ وجرجى زيدان تاريخ مصر الحديث حـ ٢ ص ٢٠٨ .

(٤٦) الرافعى : المرجع السابق حـ ١ ص ٣٠٠ — ٣٠٢ .

(47) Mac Coan : Egypt as it is p. 246 .

(٤٨) كرابيتس : المرجع السابق ص ١٣٢ — ١٣٣ .

(٤٩) الرافعى : المرجع السابق حـ ٢ ص ١٠ — ١١ .

(٥٠) كرابيتس : المرجع السابق ص ١٣١ .

(٥١) الرافعى : المرجع السابق حـ ٢ ، ص ٢٨٥ .

(٥٢) اصدر سعيد باشا مرسوما فى عام ١٨٥٧ جعل الأجانب فى مأمن تام من أحكام المحاكم المصرية .

A. Sammarco : Said et Ismail, p. 273 .

(٥٣) كرابيتس : المرجع السابق ص ١٩٤ — ١٩٥ .

(54) Lord Lioyd : Egypt Since Cromer London 1933 Vol 1 p. 17 .

(٥٥) الرافعى : المرجع السابق حـ ٢ ص ٣٠٠ .

(٥٦) اسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار حـ ٢ القاهرة ، المطبعة الأميرية ببولاق ، ١٣١٤ هـ ص ٣٤٨ .

(٥٧) من ابرز الادلة على ذلك بعثة الجنرال ستون فى عام ١٨٧٠ .

(٥٨) انور عبد الملك : نهضة مصر ، القاهرة ، الهيئة العامة للكتاب ١٩٨٣ ص ٢٧١ .

(٥٩) انفق منها الخديو ١٦ مليون جنيه خلال حفر قناة السويس .

(٦٠) احمد شفيق : حوليات مصر السياسية حـ ١ القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٩٢٦ ، ص ٩ .

(٦١) حول نص هذا التقرير انظر :

Blue Book : Egypt No. 7 (1876) Report by Mr, Cave on the Financial Condition of Egypt .

(٦٢) الرافعى : المرجع السابق حـ ٢ ص ٦٨ .

(٦٣) فيليب جلاد : قاموس الادارة والقضا ، حـ ٢ ، ص ١٤٤ .

(٦٤) عبد العزيز الشناوى : الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها حـ ٤ ، القاهرة ، الانجلو المصرية ، ١٩٨٦ ص ٢٠٦٨ ، د. عبد الرحمن الرافعى : المرجع السابق حـ ٢ ص ٧٣ .

(٦٥) كرابيتس : المرجع السابق ص ٢٥٣ وايضا :

Cromer : Modern Egypt Vol 1 p. 135 .

(66) Hansard's Parliamentary Debats Vol 231, 28 July 1876 p. 635 .

(٦٧) المجلة التاريخية المصرية المجلد السادس ١٩٥٧ مقال للدكتور عبد العزيز الشناوى تحت عنوان « ما تكلفته مصر فى انشاء قناة السويس » ص ١٥٣ .

(٦٨) أحمد شفيق : حوليات مصر السياسية حـ ١ ، القاهرة ، مطبعة شفيق باشا ١٩٢٦ ص ٩ .

للتفاصيل انظر :

(69) Farman, E : Egypt and its Betrayal U. S. A., 1908 .

(٧٠) دار المحفوظات العمومية بالقلعة : دفتر كوبيا عموم خفر السواحل صفحة ٦٤ وما بعدها .

(٧١) دار الوثائق : أوراق خاصة بالسيد جمال الدين الأفغانى .

(٧٢) اسماعيل الأيوبى : تاريخ مصر فى عهد الخديو اسماعيل المجلد الثانى ١٨٦٣ — ١٨٧٩ ، القاهرة ، دار الكتب المصرية ١٩٢٣ ص ٤٧٠ .

(٧٣) انظر عبد المنعم الجميعى : عبد الله النديم ودوره فى الحركة السياسية والاجتماعية ، القاهرة ، دار الكتب الجامعى ، ١٩٨٠ ص ٣٠ — ٣١ .

الفصل الرابع

الثورة العرابية والاحتلال الانجليزى لمصر

- أحوال مصر قبيل قيام الثورة العرابية .
- حادث قصر النيل .
- مظاهرة عابدين ٩ سبتمبر ١٨٨١ ونتائجها .
- العرابيون ووزارة شريف باشا .
- وزارة البارودى وانتصار الثورة .
- مؤامرة الجراكسة .
- العرابيون والتدخل الأجنبى .
- بعثة درويش باشا .
- العرابيون ومذبحة الاسكندرية .
- مؤتمر الآستانة .
- ضرب الاسكندرية .
- التعاطف الوطنى والاسلامى ضد الانجليز .
- منشور السلطان بعزل عرابى .
- معركة التل الكبير .
- محاولات الدفاع عن القاهرة والتسليم .

الثـورة العرابيـة

احوال مصر قبيل قيام الثورة العرابية :

كانت مصر فى عصر الخديو اسماعيل ابعد ما تكون عن الاستقرار فسياسته أدت الى ارتباك أحوالها المالية ذلك أن اسراف الخديو المتزايد سواء فى محاولاته ارضاء السلطان العثمانى ورشوة رجاله كى يحصل على فرمان تصدره الدولة العثمانية بتعديل فرمان الوراثة ومنحه لقب خديو مصر او فى محاولاته تعديل شروط حفر القناة ، ثم ما انفقه على افتتاح القناة من مبالغ تصل الى مليون واربعمائة ألف جنيه ، ويضاف الى ذلك فشل مشروعات الخديو الاقتصادية بعد توقف الحرب الأهلية الأمريكية وانخفاض اسعار القطن وما واكب ذلك من انتشار حالات الافلاس الأمر الذى جعل الخديو يستدين بشروط باهظة وهو ما فتح الباب على مصراعيه للاجانب وأدى الى زيادة التدخل الأوربى فى شئون مصر [1] .

كل هذه الأحداث ادت الى اضطراب الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية فى البلاد ، وفى تلك الفترة وفد اليها الداعية الاسلامى الكبير جمال الدين الافغانى فكانت الفرصة مهيأة له لكى ينشر افكاره الثورية والاصلاحية فلعب دورا بارزا فى ايقاظ الوعى الوطنى واستطاع ان يبث مبادئه الاصلاحية فى نفوس المصريين فى وقت كانت جذوة الوطنية تتقد فى نفوسهم ، فأعطى دفعة قوية للحركة الوطنية المصرية ، وبعث فى نفوس قادتها الأمل فى امكان تغيير الأوضاع فى مصر .

ولكى تنتشر روح الثورة بين اكبر عدد من الأهالى فى مصر شجع جمال الدين الأفغانى على انشاء الصحف لتكوين رأى عام يقف فى وجه الظلم والتدخل الأجنبى ، وقد ادى هذا كله الى تعبير بعض الوطنيين عن تذمرهم مما تعانيه البلاد ، فألفوا فى ابريل عام ١٨٧٩ جمعية سرية

أطلق عليها جمعية حلوان بهـدف الحد من سيطرة الأجانب ونفوذهم فى الحكومة ، وقد ضمت شريف باشا واسماعيل راغب ومحمـد سـلطان وغـيرهم .

واذا كانت احوال البلاد بصفة عامة سيئة ، فان احـوال الجيش بصفة خاصة كانت اكثر سوءا ، فالأجانب خصوصا الشراكسة كانت لهم الأولوية فى الترقى على المصريين ، ويستأثرون بالنفوذ فى كافة اسـلحة الجيش وقيادته رغم افتقارهم الى الخبـرة والكفاية فى التدريب ، وقـد ظهر ذلك واضحا فى الحملة التى ارسلها الخديو اسماعيل الى الحبشـة لتوسيع املاك مصر الافريقية هناك ، ونتيجة لمـا احس به المصريـون فى أثناء هذه الحملة من سوء معاملة الضباط الشراكسة لهم ، وضياع دمـاء المصريين رخيصة بسبب اخطاء هؤلاء القـادة فى ادارة العمليات الحربية انتاب الضباط الوطنيين السخط ، وزاد من تذمرهم أن الخديو اسـماعيل لم يحاسـب الضباط الشراكسـة على اهمالهم الذى أدى الى هـزيمة الجيش المصرى فى الحبشـة ، وقد دفع ذلك الضباط الوطنيين الى تاليف جمعية سرية هدفها التخلص من الطبقة الجركسية المسيطرة على أمـور الجيش ، وفتح باب الترقى أمام المصريين وعـزل الخـديو اسـماعيل وتوليه البرنس حليم مكانه ، وقـد عرفت هذه الجمعيـة السرية باسـم جمعية مصر الفتاة ويبدو انها اسست خلال السنوات من ١٨٧٦ الى سنة ١٨٧٨ (٢) ، وقد اسس هذه الجمعية على الروبى الذى كان يعمل رئيسا لفرع المهمات خلال الحملة على الحبشة ثم انضم احمد عرابى الى هـذه الجمعية ولم يلبث ان اصبح عضوا بارزا فيها ، وكان لسـان حال هـذه الجمعية جريدة « ابو نظارة » التى كان يحررها يعقـوب صنوع . وقـد اتصل العسكريون فى جمعية مصر الفتاة بجمعية حلوان لتوحيد الصفوف والبحث عن الطرق الموصلة لاصلاح البلاد .

ولمـا قامت وزارة نوبار فى عام ١٨٧٩ باحـالة الفين وخمسـين ضابطا ومنهم أحمد عرابى الى الاستيداع توفيرا للنفقات دون أن تصرف لهم شيئا من رواتبهم المتأخرة تذمر الضباط وكتبوا عريضـتين احـداها لمجلس النظار ، والأخرى للخديو أعربوا فيهما عن سوء أحوالهم لعـدم

صرف رواتبهم مـــدة ثمانية عشرة شـــهرا ، واستيائهم الشـــديد بسبب ذلك ، كما عقد حوالى ٦٠٠ ضابط اجتماعا فى ثكنات الجيش بالعباســـية يوم ١٨ فبراير ١٨٧٩ خرجوا على اثره فى مظاهرة عسكرية اشترك فيها طلاب المدارس العسكرية ، وبعض الجنود وثلاثـــة من اعضـــاء مجلس شورى النـــواب وذهبوا الى مقر وزارة المـــالية يتقدمهم البكباشى لطيف سليم وتربصوا لنوبار باشا وويلسون عند خروجهما من وزارة المـــالية وقابلوهما بالاهانة والاعتـــداء ، وســـجنوهما فى مبنى نظارة المـــالية ، ولمـــا ابلغ الخديو بثـــورة الضباط توجه الى مكان الحادث ، ونجح فى تهدئة الموقف ولولا تدخله فى الوقت المناســـب لتفاقمت الأزمـــة [٣] ، وقد ترتب على هذه المظاهـــرة ان ســـقطت الوزارة الأوربية فى ١٩ فبـــراير ١٨٧٩ وفيها تخلص الخديو من نوبار .

وهكذا اثبتت مظاهـــرة ١٨ فبراير ١٨٧٩ قدرة رجال الجيش على تســـيير الأحداث وامكانية وقف تغلغل النفـــوذ الأجنبى فى البلاد والوقوف فى وجه المظالم التى يتعرضون لها .

واسفر الاتصـــال بين تنظيم الجيش وجمعيـــة حلـــوان عن تأليف الحزب الوطنى . وقـــد نشر اعضاء هذا الحزب عدة منشورات اشـــاروا فيها على الحكومة بمراعاة مصالح البلاد ، واعترضـــوا على الدين الممتاز واختصاصه [٤] ، ومع أن الخديو اسماعيل لم يكن مستريحا لافكار هذا الحزب الا أنه اضطر الى غض الطرف عنه بسبب الشعور المعادى من جانب الأوربيين للخديو .

ولمـــا ضاقت الدول الأوربية بسياســـة الخديو اســـماعيل حاولت اقناعه بالتنازل عن العرش ، ولكنه ماطل فى الـــرد على طلبهم بحجـــة احالة المسألة على الســـلطان وانتظـــار أوامـــره عندئذ ضغطت الدول الأوربية على الســـلطان فى الاستانة لكى يصدر أمرا بعزل اسماعيل فوافق على طلبهم ، وبذلك انتهى حكم اســـماعيل بعـــد أن رزحت مصر خلاله تحت وطأة الظلم والاستبداد ، وتولى توفيق الحـــكم فى ٢٦ يونية ١٨٧٩ فى جو مشحون بالمصاعب فالخزانة خاوية ، والجيش مختل النظـــام ،

والأهالى ساخطون لما أصابهم من مظالم يضـــاف الى ذلك أن الخديـــو توفيق لم يكن بالرجل الذى يستطيع مواجهة كل هذه المخاطر .

حادث قصر النيل (أول فبراير ١٨٨١) :

ولما كانت الفروق الطبقية والميل الى التعصب الجنسى واضـــحين فى صفوف الجيش نظرا لتعصب عثمان رفقى ناظر الجهادية لأبناء جلدته من الشراكسة واستخفافه بالعنصر الوطنى فكانت الوظائف الهامة والرتب والنياشين تعطى للضباط الشراكسة وغيرهم (٥) بينما حرم منها الضباط المصريون كما أن عثمـــان رفقى أخرج معظم الضـــباط المصريين فى الجيش الى المعاش قبل السن القانونى كما كلف بعضهم بأعمال بعيدة عن الجندية مثل حفر الترع ومباشرة الأعمال الزراعية فى أراضى الخديو يضاف الى ذلك أنه سن قانون للقرعة العسكرية يمنع بمقتضاه الترقى من تحت السلاح الى رتبة الضباط مما يعوق ترقى الجنود المصريين العاملين فى الآلايات تحت السلاح ، ويجعلهم أنفارا تحت تسلط الضباط من الأتراك والشراكسة .

وقد دفعت كل هذه المظالم الضباط الوطنيين الى التذمر (٦) فكتبـــوا عريضة وقعوا عليها وسلمها كل من « أحمد عرابى كولـــونيل الفـــرقة الرابعة للبيادة ، وعبد العال بك حشيش كولـــونيل الفـــرقة السادســـة للبيـــادة » الى رياض باشـــا رئيس مجلس النظـــار فى ينايـــر ١٨٨١ يطالبـــون فيهـــا بوقف المحســـوبية والظلم ، وأن يكون وزير الحـــربية مصـــريا .

ولمـــا أحس رياض بخطورة الموقف قام باستدعاء عـــرابى وعبد العال حشيش ، فحضرا يصحبهما « على بك فهمى كولونيل الفرقة الأولى من البيادة » فأخذ فى توجيه النصائح لهم موضحا خطورة ما يترتب عليـــه عرض شكواهم من مخاطـــر ، ولكن الضـــباط تمسكوا بموقفهم فعـــرض رياض باشا المسألة على مجلس النظـــار الذى عقد بقصر عـــابدين تحت رئاســـة الخديو ، فقرر المجلس القبض على الضباط الثلاثة وإحالتهم الى مجلس عسكرى غير عادى يشكل لمحاكمتهم بمقتضى القوانين العسكرية (٧) وأخفى الأمر على الضباط .

ولمـــا استدعى الضباط الثلاثة لوزارة الحــربية بحجــة المداولة فى بعض الترتيبات التى كانت تعد لموكب كان سيصـــاحب احدى الأميرات بمناسبة زواجهـــا احســـوا بأن هناك مكيدة مبيتة لهم ، فأخذوا حذرهم ، وقبل انتقالهم الى الوزارة تركوا تعليمات لضـــباطهم بالتوجه الى مقـــر الوزارة لانقاذهم اذا لم يعودوا فى ظرف ساعتين (٨) .

وقد تحقق ما توقعه القادة الثلاثة فعنــد وصولهم الى مبنى الوزارة تم اعتقـــالهم ثم انعقـــد مجلس فى وزارة الحـــربية لمحاكمتهم ، وتحددت المحاكمة فى اليوم نفسـه (أول فبراير ١٨٨١) الســـاعة الثانيـــة عشر الا ربعـــا وقـــد عقد هذا المجلس تحت رئاسة الجنرال استون وعضوية كل من ابراهيم باشا ولارمى باشا وبلونز باشـــا واللواء خورشيد عاكف باشا واللواء محمد رضا باشـــا واللواء متقـــاعد نجم الدين باشـــــا ، وبينما كانت جلسة المحاكمة منعقدة اقتحمت الفرقة الأولى مشاة بقيـــادة البكباشى محمد عبيد مبنى الوزارة ، واحدثوا فيها ضجة ودخلوا الحجرة التى كانت تجـــرى فيها المحاكمة ، وعاملوا عثمان رفقى وزيـــر الحـــربية معاملة ســـيئة . وكادوا يفتكون به لولا انه هـــرب من أحدى النـــوافذ واختفى فى أحد المخازن ، كما دمر الضباط الوطنيين بعض اثاث الـــوزارة واطلقـــوا سراح الضـــباط المحجوزين بالقـــوة ثم ســـاروا بعـــد ذلك فى مظاهرة عسكرية الى قصر الخديـــو مطالبين بعزل وزيـــر الحربية والنظر فى شـــكواهم الخاصـــة بوضعهم على قدم المساواة مع الضباط الشراكسة فى الترقية ، ولمـــا احس الخديو بعـــدم جدوى المقاومة خصوصا وانه لم يكن لديه فى الجيش فرقة يمكن الاعتماد عليها رضخ للامـــر الواقع وعـــزل عثمان رفقى وبذلك نجح العرابيون فى فـــرض ارادتهم ، وخضع الخديو لمطالبهم ، وتأكدت زعامة عـــرابى على الجيش بعد أن نجح فى بث روح التضامن والاقدام بين الضباط مما كان له أكبر الأثر فى تطور الأحداث ، فقـــد احس الخديـــو بخطـــورة الموقف فحـــاول تســـكينه واكتســـاب ثقة العسكرين فعين محمـــود ســـامى البارودى وزيرا للحـــربية ، كما دعـــا الضباط من رتبـــة البكباشى الى رتبـــة فـــريق ، والقى فيهم خطابا فى حضـــور وزيـــر الحـــربية أوضح فيه حبه للعسكرية وعفـــوه عما حـــدث فى قصر النيل ، ونصـــحهم بأهمية التمســـك بقوانين الجهـــادية ،

وعدم الخروج عن حدود وظائفهم والاجتهاد فى اداء واجبـــاتهم العسكرية ، ولمـــا انتهى الاجتماع أعطى الخديو للبارودى التعليمات بانتقليل من نفوذ عرابى وزملائه ، ولكن البارودى لم ينفذ تعليمات الخديو بل قام بالاتحاد الكامل مع العرابيين ، وطالب بزيادة مرتبات الضباط والعساكر لعـــدم تناسبها مع لوازم المعيشة (٩) فأجيب الى طلبه كما اعلنت قوانين عادلة للجيش تعد بالمساواة للجميع .

ورغم هذا النجاح السريع الذى حققه الضباط الوطنيين فانهم لـــم يطمئنوا الى الخديو خصوصـــا بعد انتشار الشائعات بانه ينتظر الفرصة المناسبة للتخلص منهم نتيجة لما أفقدوه له من هيبة ، وان رياض باشـــا أيضـــا ينتظر اى فرصـــة للانتقام منهم لذلك زادوا من احتيـــاطات الأمن الخاصـــة منهم وبوجه خاص بعد الدســـائس والمؤامرات التى تعرضوا لهـــا .

ولمـــا كان الشـــعب المصرى يرزح تحت المظـــالم التى لا تقل عن المظـــالم التى كان يعانى منهـــا رجال الجيش فقـــد بارك حركة الضباط حيث وجد فيها تنفيسا عن آلامه ، وتقـــديرا لآماله فى التخلص من ربقـــة التـــدخل الأجنبى ، كما أصبح عـــرابى وزملاؤه موضـــع اعجاب الأمة وتقديرها وتـــردد اسمه على أفواه الناس كأول فلاح مصرى يقف فى وجه الطغيان ويعبر عن آمال الشـــعب وآلامه فلم تمض عـــدة اسابيع على حادث قصر النيل حتى انهالت عـــرائض الفلاحين من جميع أنحاء البلاد على عرابى يبثون اليه شكواهم وما يقـــع عليهم من مظالم ففتح عـــرابى قلبه للجميع كما وجدت الطبقـــة المصرية المثقفة والتى تنشـــد الحيـــاة الدستورية انها لو اتحدت مع الحركة الوطنية فى الجيش لعجلت بوضـــع حد فاصل لشقاء البلاد ولأنقذت الوطن من التغلغل الأجنبى ، ونتيجـــة لتزايد شـــعبية عـــرابى أشـــار عليه عبد الله النـــديم الذى انضـــم الى العسكريين ووقف بجانبهم بطبـــع منشور يطلب فيه من الشعب أن ينيبه — أى عرابى — فى المطالبة بحقوقه والتحدث باســـمه فيما يتعلق بشـــئون البلاد (١٠) فوافق عرابى وقام النديم بتوزيع هـــذا المنشور فى كافة انحاء البلاد كما أخذ يبث الأفكار الثورية بين مشـــايخ العربان وعمـــد البـــلاد وأعيانهـــا وعلمائهـــا وتجارها وكافة الأهـــالى استجلابا لمساعدتهم (١١) ثم

اخذ فى جمع التوقيعات منهم ودعاهم الى نصرة عرابى ، واخــذ يعلمهم فوائد الحرية ومعانى الدستور .

وبعد أن جمع النديم توقيعات الأهالى عاد الى القاهــرة ، ومعــه التوكيلات التى وقع عليها النـــاس بانابة عــرابى فى الدفاع عن حقوقهم ففرح بها عرابى وشدت من ازره ، وكان لها اثــرا كبيرا فى تقوية العزائم وعلى اثر ذلك جاءت الوفود من الاقاليم الى القاهرة لمبايعة عــرابى على تخليصهم من الظلم الذى ضيق عليهم حياتهم وافســدها واســتقبل عرابى هذه الوفود فى منزله الذى كان يمتلأ بالنـــاس يوميــا ، وأخــذ ينشــر آراءه بينهم ، وبذلك تضامن الشعب مع الجيش من أجل الاصلاح وأصبح عرابى نائبا عن الأمة المصرية يتحدث باسمها ويدافع عن حقوقها .

مظاهــرة عابدين ٩ سبتمبر ١٨٨١ ونتائجها :

ولمــا برزت خطورة العرابيين وخصوصــا بعد ان تكاتف الشــعب معهم احس الخديو بالخطــر على مركزه ، ورأى ضرورة الســيطرة على الجيش فأقال البارودى من نظارة الحــربية فى ١٣ أغســطس ١٨٨١ ، وعين مكانه صهره داود يكن وطلب منه الحــد من نشاط الوطنيين داخل صــفوف الجيش فقــام وزير الحــربية الجــديد بفرض الرقابــة على العــرابيين وملاحقتهم بالجواسيس ، كما حاول تشتيت شملهم فأصــدر أوامره بنقل الفرقة الثالثة المشاة التى يقودها عــرابى من القاهــرة الى الأسكندرية والآلاى السودانى الذى يقوده عبد العال حلمى الى دميــاط ، ونظرا للخطورة التى تترتب على تشتيت شمل الجيش توقف عرابى وصاحبه عن اطاعة الأوامر وأرسل خطابا الى وزير الحربية وضح له فيه أن صدور الأوامر بنقله يعنى تشتيت القوات العسكرية بغرض الانتقام منه وانــه وزملاءه لا يستطيعون تسليم انفسهم للموت ، ولذلك ستحتشد قواته فى ميدان عابدين الساعة الثالثة والنصف من مساء يوم ٩ سبتمبر لعــرض مطالبها ، وانهى عــرابى خطابه بأن وزير الحربية لن يجــد أى فــرقة عسكرية تتقدم لاطاعة أوامره .

وكان نبأ احتشاد العرابيين بقواتهم فى عابدين مفاجأة للخديو حيث

كان قبل الحادث بيوم فى زيارة لطنطا مع بعض وزرائه ، ولـم يتـوقع تطور الموقف الى هذا الحد .

ولما علم الخديو بتصميم العرابيين على التجمع أمام قصر عابدين أخذ رأى المستر كولفن Colvin المراقب المالى الانجليزى فيما يجب عمله فنصحه باستدعاء القوات الموالية له ، واستدعاء البوليس الحربى الى ميدان عابدين وقيادة هذه القوات واعتقال عرابى عند اقترابه من الميدان ، ولكن الخديو رفض النصيحة على اساس أن المدفعية وسلاح الفرسان مع عرابى ، وقد يطلقون النار ، ولكن المستر كوكسن شجعه وأوضح له بأنه اذا لم تكن لديه الشجاعة لاتخاذ المبادرة فستكون العواقب وخيمة .

وقد ذهب الخديو مع المستر كولفن وبعض الوزراء والضباط الموالين له الى قصر عابدين حيث اقسمت له فرقة الحراسة يمين الولاء ثم ذهب للقلعة حيث حدث نفس الشىء ، ولكن اتضح لهم أن الفرقة الموجودة بالقلعة كانت تعطى اشارات لفرقة عرابى فى العباسية قبل وصولهم وحاول الخديو الذهاب الى ثكنات العباسية ، ولكن الساعة كانت قد اقتربت من الثالثة والنصف وهو الموعد الذى حدده عرابى للاحتشاد فى عابدين فحثه كولفن على الرجوع الى ميدان عابدين آخذا معه فرقة القلعة ، وعند وصوله للميدان يضع نفسه على رأس تلك الفرقة وفرقة الحراسة والبوليس الحربى ، ولكن الخديو ذهب الى العباسية ، وكانت الساعة حوالى الرابعة فوجد أن عرابى سار بفرقته الى ميدان عابدين فتبعوه ودخل الخديو القصر من باب جانبى ، وتجمعت قوات العرابيين فى ميدان عابدين فى مظاهرة عسكرية قوامها أربعة آلاف ضابط وجندى تصحبهم فرسانهم ومدفعياتهم على النحو التالى : ثلاثة فرق مشاة فى الجوانب الأربعة للميدان، والمدفعية وقوة الفرسان ومجموعة من الضباط حول عرابى فى الوسط ، كما ازدحمت ساحة عابدين بجماهير المواطنين ، وامتلأت نوافذ البيوت المجاورة للسراى وأسطحها بالمتفرجين .

ونزل الخديو من القصر وتقدم الى الميدان بناء على نصيحة المستر كولفن وكان عرابى راكبا حصانه فطلب منه الخديو أن ينزل من على جواده

ففعل وتقدم عرابى مع بعض ضباطه الى الخديو الذى طلب منه ان يغمد سيفه فأطاع عرابى الأمر (١٢) وسأل الخديو عرابى عن اسباب حضـوره بالجيش فأجاب عرابى « جئنا يا مولاى لنعرض عليك طلبات الأمة وطلبات الجيش وكلها طلبات عادلة » فسأل الخديو « وما هى هذه الطلبات ؟ » فأجاب عرابى بأنها « اسقاط وزارة رياض المستبدة وتشكيل مجلس للنواب على النسق الأوربى وزيادة عدد الجيش الى القدر المعين فى الفـرمانات السلطانية والتصديق على القوانين العسكرية » فقال له الخديـو « كل هذه الطلبات لا حق لكم فيها وأنا ورثت ملك هذه البلاد عن آبائى وأجدادى وما أنتم الا عبيد احساننا » فرد عرابى « لقد خلقنا الله أحرارا ولم يخلقنا تراثا وعقارا ، فوالله الذى لا اله الا هو اننا لا نورث ولا نستعبد بعـد هذا اليوم » (١٣) .

ولـما أوضح الخديو لعرابى أن مطالبه ليست من اختصاص رجـال الجيش كان رد عرابى « لست أطلبه وأنا عسكرى الصفة بل انـا نائب هذه الأمة الواقفة » (١٤) ، وهذا يعنى أن عرابى وقف فى ساحة عابدين مستندا فى تقديم مطالبه الى الخديو على التوكيلات التى أرسلها له الشعب ليكون متحدثا باسمه ، وممثلا للأمة المصرية كلها ينطق باسمها ويعبر عن ارادتها عن طريق الجيش الذى اجتمع ليفرض بقوة السلاح مطالب الشعب المصرى فى الحرية والعدالة على الخديو ، ثم تطورت مطالب العرابيين وهى المسـاواة بين الضباط المصريين والشراكسة ، بتغيير شكل الحكومة من نظام استبدادى الى نظام دستورى .

ولـما تحرج الموقف بالنسبة للخـديو وخصوصـا بعـد أن رفض عـرابى أن تترك قواته ساحة عابدين الا بعـد أن تجاب مطالبه نصـح المستر كولفن الخديو بالعودة الى القصر ، وأن يترك له مهمـة التحدث مع عرابى وزملائه ففعل ، وقام كولفن بشرح خطـورة الموقف للعرابيين ، وأخذ يحثهم عـلى سحب قواتهم ، ولـما لم ينجح فى محـاولاته اقتـرح على الخـديو أن يقـوم بابلاغ الضـباط انـه على اتصـال بالبـاب العالى لعـرض مطالبهم ، ويجب عليهم التفرق حتى يصـل الـرد من القسطنطينية ، ووافق الخـديو على الاقتراح وذهب القنصل الانجليزى المستر كوكسن وأخبـر عرابى بذلك فكان رد عـرابى أنه سيبقى وقواته

فى الميدان الى ان يصل الرد ، وانهم لن يعترفوا بالخديو حتى يصل مندوب من الباب العالى لتسوية هذه المسائل ، فابلغ كوكسن الخديو بالأمر ، واوضح له ان الطلب الذى يعطيه الضباط اهمية حقيقية هو عزل الوزارة ، وبعد اجتماع قصير بين الخديو ورياض خول الخديو المستر كوكسن اخبار عرابى بانه وافق على تغيير الوزارة على ان تبقى النقاط الاخرى التى طلبها الضباط معلقة الى ان يصل الرد من الباب العالى ، وقد وافق عرابى على ذلك وعزل رياض باشا ، ولما عرض على عرابى تعيين حيدر باشا او اسماعيل ايوب رئيسا للوزارة رفض كليهما ، وطلب تعيين شريف باشا لثقة العسكريين فيه ، فوافق الخديو ، ودعا شريف الى تاليف وزارة جديدة فقبلها بعد أن اشترط نقل الفرق العسكرية التى اشتركت فى المظاهرة خارج القاهرة ، وقد وافق العرابيون على طلب شريف ، وغادر عرابى وجنوده ساحة عابدين تصحبهم نشوة النصر .

ولما شرع شريف باشا فى اختيار النظار طلب منه العسكريون تعيين محمود سامى البارودى ناظرا للجهادية فلم يرق له طلبهم ، واخبرهم بأنه « ترك الجهادية لنفسه » ، لكنهم أصروا على طلبهم مما اضطر شريف باشا الى اختياره .

وهكذا انتصرت الأمة بواسطة جيشها ، ونالت مطلبها بعد أن قبل الخديو مطالب العرابيين .

ولكى ينقذ الخديو موقفه المتدهور أرسل الى السلطان العثمانى يبلغه بتطورات الموقف وتعاظم نفوذ العرابيين ، ويطلب منه « ارسال قوة عسكرية يبلغ تعدادها عشرين طابورا على وجه السرعة على أن تكون قيادتها منوطة به خاصة ، ولكن السلطان أهمل طلبه خصوصا وان انجلترا حاولت منع تركيا من استغلال الموقف للتدخل فى شئون مصر فطلبت من مندوبها فى الآستانة اقناع السلطان بذلك ، وقد استعاض السلطان عن ارسال قوات عسكرية بارسال بعثة لتقصى الحقائق فى مصر برئاسة على نظامى باشا .

وقد وصل الوفد الى القاهرة فى ٦ أكتوبر ١٨٨١ ، وزار آلاى قصر النيل الذى كان تحت قيادة طلبة عصمت ، والقى نظـامى باشا خطابـه بالتركية ترجمه البارودى للضباط ، وردا عـلى الخطاب اعلن طلبـة عصمت انه نيابة عن الضباط والجنـود يعـرب عن اعترافـه بسيادة السلطان على مصر وتأييده لسلطة الخديو .

وقد غادر الوفد القاهرة الى الاسـكندرية فى ١٨ أكتوبر ١٨٨١ .

والجدير بالذكر أن انجلترا وفرنسـا استاءتا من حضـور الوفـد العثمانى الى مصر عـلى غير اتفاق معهما واعتبرتاه تدخل فى شـئون مصر الداخلية ، كما انتهز السـير ادوارد مالت القنصـل الانجـليزى الفرصة لكى تبسط بلاده نفوذها على مصر فطلب من حكومتـه ارسـال بارجة حربيـة الى مياه الاسكندرية فأجابته الى طلبه كما اتفقت الحكومة الفرنسـية على أن ترسل هى الأخـرى بارجة على أن تغادر البارجتان الاسكندرية حين مبارحة الوفد العثمانى مصر ، وفعـلا حدث ذلك حيث غادرت البارجتان ميناء الاسكندرية فى ٢٠ أكتوبر ١٨٨١ أى غداة سفر الوفد العثمانى .

ومما سبق يتضح أن موقف الدولة العثمانية كان قائما عـلى أهمية تثبيت السيادة التركية على مصر دون الاهتمام بمصالح مصر ومصيرها .

العرابيون ووزارة شريف باشا :

واستقرت الأمـور فى البـلاد وخصوصا بعد أن وافق العسكريون عـلى طلب شريف باشـا بالتنحى عن مسرح السياسـة والعـودة الى معسكراتهم فنقل آلاى عبد العال حلمى الى دمياط ، وآلاى عـرابى الى راس الوادى بالشرقية وذلك استجابة لطلب شريف باشا .

ومع أن شريف حـاول تشتيت شمل الجيش حتى يبعده عن التدخل فى السياسة ويزيل الصفة التى اكتسبها عرابى بأنه نائب عن الأمة فقد خاب تقديره لأن خروج عـرابى من القاهرة الى راس الوادى لم يفقده شعبيته ، ولم يبعده عن قيـادة الحـركة الوطنيـة فقـد تجمـع حوله

الفلاحون وتردد عليه الأهـالى والعربـان الذين وجدوا فيه متنفسـا لآمالهم والمدافـع عن حقوقهم ، وتسـابق أعيـان الشرقيـة وفلاحوها للاحتفاء به ، وكانت مواكب عرابى كالمظاهرات الوطنيـة ، كما أصبحت الشرقية مجالا خصبا لنشر المبـادىء الوطنيـة فى نفـوس عمد البـلاد ومشايخ العربان .

ولم يكد شريف باشا يسمع بأخبار الاستقبالات الشعبية التى تحيط بعرابى والعرابيين فى الشرقية حتى ضاق ذرعا وازداد حنقا على عرابى فاستدعاه الى القاهرة ليبعده عن الفلاحين ، وحتى يتيسر له — كما يذكر — « اعطاؤه النصائح فى كل وقت »(١٨) ونتيجة لاصرار البارودى واستحسان باقى النظار لرأيه اضطر شريف الى تعيين عرابى وكيلا لنظارة الجهادية ، كما عرض عليه رتبة اللواء ، ولكنه رفضها حتى يبقى الآلاى فى عهدته .

وهكذا سار العرابيون من نصر الى نصر ، يحدوهم الأمل فى تحرير بلادهم من ربقة الظلم الداخلى والتدخل الخارجى .

وبعد أن تمت انتخابات مجلس النواب افتتح الخديو المجلس بالقاء خطبة العرش .

وعين سلطان باشا رئيسا للمجلس لمدة خمس سـنوات ابتداء من ٧ فبراير ١٨٨٢ ، وسـارت حكومـة شريف تؤدى وظيفتها بطريقـة ديمقراطية فأفسحت صدرها للنقد والملاحظة ، وكادت تستتر لها الأمـور وتتمكن الحياة الدستورية من السـير فى الطريق السليم لولا أن ذلك لم يوافق هوى كل من انجلترا وفرنسا لأن مصر متى أصبحت فى يد أبنائها لابد أن تعيد النظر فى الامتيازات الأجنبية ، وتوقف مد التدخـل الأوربى فراحت الدولتان تدبران لافساد الموقف فافتعلت سلسـلة من الأزمـات لعرقلة الأمور ، وبدأ تدخلهما يظهر بصورة سافرة ، فلما اجتمـع مجلس النـواب فى ٢٦ ديسـمبر ١٨٨١(١٩) بـدأ فى ترتيب لائحتـه الداخليـة ومناقشتها ، وفى أثناء مناقشة اللائحة وقع خـلاف بين النواب والوزراء حول سلطة المجلس فى اقرار الميزانيـة ، وأثناء بحث هذا الخـلاف طلب المراقبان الماليان الحد من سلطة البرلمـان فى تقرير الميزانية بحجة أن ذلك

من اختصاصها وأن ميـــول المجلس عدائية نحـــو الجـــانب الأوربى فى الحكومة ، ولبث روح الشقاق بين نواب الأمـــة والخديو ارســـلت كل من انجلترا وفرنســـا فى ٧ ينـــاير ١٨٨٢ مذكرة مشتركة الى الخديو تتضمن تأييد الدولتين له بكل الوسائل للتغلب عـــلى الصعوبات التى تواجهه[٢٠] حيث انهما اتفقتا على بذل الجهود المشتركة لمقاومة كل اسباب المشـــاكل الداخلية والخارجية التى تهدد النظام القائم فى مصر ، وقد قوبلت هـــذه المذكرة بثورة عارمة ادت الى تكاتف الجيش والوطنيين ومجلس النواب ضد انجلترا وفرنسا ومـــع ان الحكومة رفضت المذكرة فـــان الخـــديو قبلها بالشكر والعرفان مما كان له أبعد الأثـــر فى تطور الحوادث فقـــد نجحت انجلترا وفرنســـا بذلك فى زيادة الهوة والانقسام بين العرابيين والخديو ولم يكتفيا بذلك بل ارسلتا مذكرة مشتركة اخرى فى ١٨٨٢/١/٢٦ تؤيدان ما طلبه المراقبان الماليان فى ان مجلس النواب ليس من حقه الاقتراع على الميزانيـــة .

ولما احس شريف باشا بخطورة الموقف ، والضغط الأوروبى تقدم بقانون تاسيس المجلس الذى تضمن منع النواب من الاشراف على الميزانية مما اثار ثائرة اعضـــاء المجلس ، فرفضـــوا هذا القانون واصروا على ضرورة اشراف المجلس على الميزانية واخذ الاعراض عن شريف يتمـــكن من نفوسهم ، وطالب البارودى النواب بضرورة الاطلاع على الميزانية ، ومناقشتها وعزل شريف باشا اذا لم يوافق على ذلك .

والواضح انه كان يوجد داخـــل مجـــلس النـــواب اتجاهان أحدهما دستورى معتدل وعلى راسه شريف باشا والآخر دستورى ثورى يستند على العسكريين .

ولما زاد التدخل الأوربى فى شئون مصر برز دور العناصر الدستورية الثورية فحين تدخل قنصلا انجلترا وفرنسا فى الأمر رفض مجلس النواب تدخلهما ، وارسل النواب لجنة الى الخـــديو مطالبين بالاشراف عـــلى الميزانية أو استعفاء الوزارة فثارت ثائرة شريف باشا واضطر الى الاستقالة مما ادى الى انتقال مقاليد الأمور الى الحزب العسكرى وأنصاره .

وهكذا تطورت الأمور الى درجة التحدى الواضح بين العناصر الوطنية

التى تريد وقف النفوذ الأجنبى وبين الدول الأوربية التى لم تكن تسمح بقبول الوضع الذى مكن الوطنيين من ادارة شئون بلادهم .

وزارة البارودى وانتصار ارادة الثورة :

وبعد استقالة وزارة شريف باشا جمع البارودى الضباط والنواب فى قشلاق عابدين ، وطلب منهم تعيينه رئيسا لمجلس النظار خلفا لشريف ، فذهب النواب الى الخديو وطالبوا بتعيينه فوافق على طلبهم ، وكلف محمود سامى البارودى بتشكيل الوزارة على أن تحال اليه نظارة الداخلية كما أمر الخديو بتعيين عرابى وزيرا للحربية فى الوزارة الجديدة .

وقد استهلت وزارة البارودى عهدها بأن جعلت من حق مجلس النواب النظر فى الميزانية والاشراف على احوال البلاد المالية مع تعهدها باحترام الارتباطات الدولية والالتزامات المالية المرتبطة بالديون ، كما كونت مجلس شورى الحكومة لرفع الاستبداد الادارى عن الشعب[٣١] وللمساعدة فى تجهيز القوانين واللوائح الادارية وهكذا استطاع العرابيون السيطرة على زمام الموقف وانحد من سلطة الخديو الذى أصبح لا حول له ولا قوة وسارت الحركة الوطنية يحدوها الرغبة فى السير بالبلاد الى بر الأمان ، ولكن تطورات الأحداث أعاقت حركتهم .

مؤامرة الجراكسة :

وقام عرابى بتمصير الجيش باحالة عدد كبير من الضباط الأتراك والشراكسة على الاستيداع واصدار قوانين فى صالح الوطنيين ، وترقية حوالى ٥٦٠ ضابطا منهم ، فأحدث ذلك ضجر بين الجراكسة وزاد من ضجرهم أن عرابى ادخلهم ضمن تشكيل الآلاى المقترح ارساله الى السودان للحد من انتشار الثورة المهدية فتآمروا على اغتيال زعماء الثورة وقد علم عرابى بهذه المؤامرة عن طريق شخص يدعى راشد نور فقبض على المتآمرين ومنهم عثمان رفقى وعقد لهم مجلسا عسكريا برئاسة على الروبى لمحاكمتهم وقد أصدر هذا المجلس أحكامه بنفى أربعين من المتهمين الى أقاصى السودان مدى الحياة وتجريدهم من الرتب العسكرية والنياشين[٣٢] ولكن القنصلين الانجليزى والفرنسى أوعزا الى الخديو

بعدم التصديق على هذه الأحكام ، فوافق الخديو على طلب القنصلين بحجة أن الأحكام صادرة على الأربعين ضابط على سياق واحد ولا يصح ان تكون جنحة الجميع مثل بعضهم بل لابد من التفاوت وأصدر أمرا بتخفيف العقوبة الى مغادرة المتهمين للبلاد ، والغاء بقية الأحكام مما اثار حنق العرابيين على الخديو الى حد أن البارودى دخل ثائرا على الخديو ، وطلب منه اصدار أمر يقضى بنفى المحكوم عليهم ، ومحو أسمائهم من دفاتر العسكرية والا فانه لن يكون « آمنا على نفسه ولا على مسند حكومته ، ولا على حياة الأوربيين الموجودين بالقطر المصرى » كما هدده بأنه ستحدث مجزرة كبيرة لن ينفع الخديو فيها القناصل ولا الدول الأجنبية ، ولكن الخديو أصر على رأيه وفى نفس الوقت عرض الأمر على السلطان العثمانى ، وطلب منه ارسال هيئة تحقيق تركية تحت رئاسة مشير لاعادة التحقيق مما زاد من سخط العرابيين على الخديو خصوصا وأنهم اعتبروا أن عرض الأمر على السلطان بمثابة تنازل عن الامتيازات التى نالتها مصر فى استقلالها بشئونها الداخلية فطلب محمود سامى البارودى بصفته رئيسا للنظار دعوة البرلمان للتشاور فى هذا الأمر منكرا على الخديو حق العفو ، ولكن الخديو رفض دعوة المجلس مما دفع البارودى الى دعوته بدون أمر الخديو[٣٣] مخالفا بذلك المادة التاسعة من الدستور التى تنص على أنه « اذا مست الحاجة الى تكرار اجتماع المجلس فى غير مدته المعتادة فيكون ذلك بمقتضى أمر يصدر من الحضرة الخديوية تتقرر فيه مدة ذلك الاجتماع »[٣٤] . وقد تم الاجتماع بمنزل محمد سلطان باشا رئيس المجلس ، وحضره معظم النواب وكثير من رجال الجيش ، وقد القى عرابى خطبة طلب فيها خلع الخديو ولكن سلطان باشا رفض ذلك بقوة وطالب بتأييد الخديو ولم يستطع العرابيون رغم تهديدهم لسلطان باشا ومحاصرة منزله بما يقرب من الفى عسكرى الحصول على موافقة المجلس ، وقد انتهز الخديو هذه الفرصة واستطاع احداث انقسام بين أعضاء البرلمان فأغرى محمد سلطان باشا رئيس المجلس وستة آخرين بالانضمام اليه ، ومع ذلك قرر المجلس مؤازرة الوزارة كما قرر بأغلبية ٤٥ ضد ٣٠ صوتا بأنه اذا استمر الخديو فى الاستماع الى النصائح الأجنبية فلابد من خلعه ومحاكمته ، وبذلك وقف النواب مع الجيش تساندهم الوزارة ضد الخديو مما زاد من مشاكله .

واشتدت الأزمة بين العرابيين والخديو ، وتدخل النواب ورجال الدين للتوفيق بين الطرفين فطلبوا من الخديو ابقاء الوزارة حلا للاشكال ، وبعد مشاورات وافق على طلبهم ، وذهب الوزراء اليه اعلنوا ولائهم التام له .

والجدير بالذكر ان العرابيين كانوا ينقسمون الى متطرفين امثال طلبة عصمت وعبد العال حلمى ومحمد عبيد وعبد الله النديم ، ومعتدلين امثال البارودى وعبد السلام المويلحى اما عرابى فكان يحتل المركز الوسط ، وفى حين كان يزج المتطرفين بعرابى الى مواقف خطيرة كان المعتدلون يحاولون تهدئة الموقف .

العرابيون والتدخل الأجنبى :

وقد سارت الأمور بما لا يعطى مجالا لأى تدخل اجنبى ، وضمن عرابى مسئولية حفظ النظام وصيانة الأمن ، ولكن انجلترا وفرنسا ما ان وصلت اساطيلهما الحربية الى الاسكندرية حتى تقدمتا بمذكرة مشتركة اخرى فى ١٨٨٢/٥/٢٥ تطلبان فيها اسقاط وزارة محمود سامى البارودى ، وابعاد احمد عرابى من مصر ، وتحديد اقامة على فهمى وعبد العال حلمى فى الريف .

وقد رفضت وزارة البارودى هذه المذكرة كما رفضتها الأمة كلها ، وارسلت التلغرافات لتأييد الوزارة الوطنية ، ومع ذلك فقد وافق عليها الخديو ، وطلب من النظار قبولها منعا لحدث ارتباكات سياسية وسفك دماء ولكنهم اعترضوا على ذلك ، وقدم محمود سامى البارودى استقالته فى ٢٦ مايو احتجاجا على التدخل الاجنبى وقبول الخديو له ، فقبلها الخديو بناء على نصيحة انجلترا وفرنسا ، وتولى امور الجيش بنفسه . وقد ادى هذا الاستفزاز من الخديو للعرابيين الى تذمر كبار الضباط الوطنيين فأظهر طلبه عصمت العصيان وقال للخديو « انه بالاصالة عن نفسه وبالنيابة عن اخوانه بالجهادية لا يقبلوا ذلك » وانهم يرفضون المذكرة المقدمة من انجلترا وفرنسا ولا يقبلون عز ل عرابى عن نظارة الجهادية ثم خرج طلبة عصمت غاضبا ومعه على فهمى ويعقوب سامى وبعض الضباط ومع ذلك فقد اصر الخديو على رايه واصدر

اوامره الى العسكريين بالتزام ثكناتهم والى المديرين بعدم تنفيذ الاوامر التى كانت وزارة البارودى قد ابلغتهم بها بعد ان اصبحت مستقيلة ، واخذ رجال الجيش من انصار عرابى فى عمل محاضر ضد الخديو(٢٥) كما اعلن الضباط انهم لن يقبلوا ناظرا للجهادية غــير عرابى باشـــا وارسل كبار الضباط وافراد الآلايات وقائمقامات البوليس والمستحفظين بالاســـكندرية تلغرافات الى الخديو بأنه اذا لم يعد عرابى الى وظيفته فلن يكونوا مسئولين عن الأمن فى المدينة ، وحدد بعضهم مهلة اثنى عشر ساعة لعودة عرابى الى وظيفتـــه . كما وردت التلغرافات من كافـــة طبقات الشعب تؤيـد العرابيين فى موقفهم الوطنى واراد قناصل الدول الأجنبية ضمان حمايـــة رعاياهم فاجتمعوا بعرابى والزموه مسئولية حماية الأوربيين فأجابهم عرابى بأنه لم يعد له صفة رســـمية تمكنه من تحقيق مطالبهم ، ولكنـــه بصفته الشخصية كمواطن يؤكد لهم حماية الأجانب . واجتمع عرابى برجال الجيش وهدد بمحاصرة سراى الاسماعيلية اذا لم يصدر له امرا بابقائه فى نظارة الحربية كما طلب من رجال الجيش الا يتصرفوا الا بناء عــلى تعليماته ، ولا يفعلوا شيئا الا بأوامره ، ويذكر الخديو توفيق فى رساله له الى الباب العالى أن عرابى وان كان قد استقال (لفظا) فانه لم يتخل عن القيادة ، وهو يتابع اصدار المنشورات الى العساكر حيث يضمنها تعليماته كما أن الضباط والعساكر يأبون سواه للجهادية .

والواقع أن عرابى لم يكن خلال هذه الأزمة على اتصال بالجيش فقط بل أيضا بالوطنيين من غير العسكريين ويبدو ذلك واضحا من خطـــاب لعرابى يذكر فيه انه وان كان قد استعفى من نظارة الجهادية فانـــه لم يستعف من رئاسة الحزب الوطنى وقـــد حاول سلطان باشـــا وبعض النواب حسم الخلاف فذهبوا الى الخديو وطلبوا منه ان يظل عرابى ناظرا للحربية فرفض فالتحمت طبقات الشعب وخرج علماء الأزهـــر والمشـــايخ والنواب والاعيان ومجموعة من التجار واصحاب الحرف الى الخديـــو ، وطلبوا أن يستمر عرابى فى نظارة الجهادية حفظا للامن تسكينا للاضطراب ، وانه « فى حالة عدم قبول ملتمسهم سيحصـــل قتل عام » وتحت هذا الضغط الشعبى اضطر الخديو الى اعادة عرابى ناظرا للجهادية والبحرية والاكتفاء به ليدير شئون البلاد مع وكلاء الوزارات المختلفة(٢٦) بمعنى انه رغم عودة

عرابى فان مصر ظلت بدون مجلس وزراء ، واستمر هــذا الوضـــع لمدة ٢١ يوما مما يدفعنا الى التساءل عن سبب ذلك ولمــاذا لم يكلف الخديو احد بتشكيل الوزارة مع انه اعاد عرابى الى نظارة الجهادية .

الواقع أن الخديو توفيق طلب من شريف باشا تشــكيل الوزارة ، ولكن شريف اشترط تعيين عمر لطفى محــافظ الاسكندرية ناظرا للجهادية ولمــا رفض رجال العسكرية ذلك واصروا على بقاء عرابى تأخر تشكيل الوزارة .

بعثـــة درويش باشـــا :

ونتيجة لتطور الأحداث حاول السلطان العثمـــانى استغلال الموقف بهدف عودة سلطانه المتدهـــور فى مصر وتثبيت السيادة التركية عليهــا فأرسل بعثة الى مصر وصلت اليها فى ٧ يونية ١٨٨٢ تحت رئاسة درويش باشا لتقصى حقائق الأمور والتحقيق فى امر الخلاف بين الخديو والوزارة فأرسل كل من الخديو وعرابى مندوبين لاستقبال البعثة فى الاسكندرية فكان ذو الفقار باشا ينوب عن الخديو ، ويعقوب ســـامى ينـــوب عن عرابى ولمــا حضر درويش باشا الى القاهرة اســـتقبله الشـــعب فى الطريق بشعارات يمدحون فيها عرابى ويخفضون من شأن الخديو وكان يشجعهم على ذلك حسن موسى العقاد ويعطيهم النقود ، ولم يعترض مأمور ضبطية مصر على ذلك[٢٧] .

وكانت خطـــة درويش باشـــا الاستفادة من الخــلاف بين الخديو والعرابيين وكان العثمانيون يرون فى استفحال أمر الوطنيين على الخديو فائدة لهم آملين من ذلك بقاء مصر تحت حوزتهم ، ورغبة فى أن يؤدى هذا الانقسام الى تثبيت مركزالسلطان اظهر درويش باشا لكل طرف انه معه ولمــا اتضحت نواياه بعد ذلك اعلن انضمامه الى الخديو علانيـــة ، ومع ذلك فقد ظل مركز العرابيين قويا وخصوصا أن الأمة كانت تقف صفا واحدا خلف عرابى مما ضايق الخديو وحاول زعزعة الثقة فى العرابيين وخصوصا أمام الدول الأوروبية ، قد تم له ما أراد بقيام مذبحة الاسكندرية .

العرابيون ومذبحـــة الاسكندرية :

حاول الخديو ان يحرج مركز العرابيين خصوصا بعد ان تعهد عرابى بمسئولية حفظ الأمن والنظام ، وذلك باحداث شغب وفوضى مما يزعزع الثقة فى النفوس ، وخصوصا الجاليات الأوروبية مما يؤدى الى التدخـل الأوروبى بحجة أن الحكومة غير قادرة على حماية أرواح الأجانب فسعى بواسطة بعض أتباعه الى احداث شغب فى القاهرة « الى حد ان الوزارة احتاطت لمنع الفتنة » .

واستدعى الخديو ابراهيم بك توفيق مدير البحـــيرة ، وطلب اليـــه أن يجمع مشايخ قبائل البدو ، ويحضرهم اليه ففعل ثم اوعز الى المديـــر أن يأمرهم بحشد ٣٠٠٠ بدوى ، واحضـــارهم الى العاصمة عن طريق الجيزة ليحدثوا فتنة فى البلد ولكن تعـــذر ذلك ، ولمـــا فشل الخـــديو فى مسعاه أرسل برقية الى عمر لطفى محافظ الاسكندرية جاء فيها ما يـــلى « قد ضمن عرابى أمر الأمن العام ، ونشر ذلك فى الصحف ، وجعل نفسه مسئولا لدى القناصل ،واذا نجح فى ضمانه هذا وثقت به الدول وصغر شأننا ، أما الآن واساطيل الدول فى ميـــاه الاسكندرية وعقـــول الناس متهيجة ، فوقوع الخلاف بين الأوربيين وغيرهم آمر محتمل ، فاختر لنفسك اما خدمة عرابى فى ضمانه أو خدمتنا » .

ويذكر تيودور روزشتين أنه استتبع هـــذه البرقية مفاوضات اخرى جرت على يد ابن عم الخديو الأمير حيدر باشا الذى تنقل عدة مـــرات بين القاهرة والاسكندرية حاملا رسائل المتآمرين كما سافر عمـــر لطفى الى القاهرة فى ٩ يونية ليقف على خطة المؤامرة . وقـــد طلب الخديو منـــه احداث شغب فى المدينة حتى يكون ذلك وسيلة الى افشال تعهد عرابى وتوجيه اللوم عليه ، وهكذا دبرت مذبحة الاسكندرية ، وقد بدأت الحوادث فى يوم الأحد ١١ يونية ١٨٨٢ فى الساعة الثانية ظهرا على اثر مشـــاجرة فردية بين مالطى من اتباع الانجليز وبين مكارى مصرى بسبب خلاف على أجر حمار كان الأول قد استأجره من الثانى وتطور الأمر بينهما الى حـــد أن المالطى طعن المصرى بسكين[٢٨] فجرحه وتجمـــع الناس ، وتدخـــل جاويش مصرى من قسم اللبان ضد المالطى ، كما انتصر للمالطى احـــد

ابناء جلدته ، وفى اثر ذلك كثرت الغوغاء وعلت الضوضاء وسلت الخناجر وجردت المدى من الاغماد ، واشتعل الموقف وتطور الأمر الى حد ضرب بعض الأجانب للاهالى بالرصاص من نوافذ واسطح المنازل وامتدت المشاجرات حتى عمت ارجاء الثغر فهجم الرعاع على المارة واصحاب الدكاكين واخذوا يسطون على كل اجنبى وجدوه فى طريقهم كائنا ما كان ويوسعونه ضربا بالعصى والهراوات كما انتشروا فى الشوارع وانبثوا فى احياء الأوروبيين منادين بالجهاد وساعد على ذلك القلق والاضطراب اللذان استوليا على اهالى الاسكندرية نتيجة للشائعات حول تواجد الاسطول المشترك فى مياه الاسكندرية واستمر القتال نحو خمس ساعات لم يستطع احد خلالها السيطرة على زمامه الا بعد تدخل القوات العسكرية المرسلة بأمر عرابى والواقع انه لولا تدخل عرابى فى الوقت المناسب لانتهى الشغب بمجزرة عنيفة اودت بحياة الأوروبيين .

ان اصابع الاتهام تشير الى أن مدبرى هذه المذبحة هم عمر لطفى محافظ الاسكندرية بالاتفاق مع الخديو والسيد قنديل مأمور الضبطية فى حى اللبان بالاسكندرية وعبد الله النديم خطيب الثورة العرابية والانجليز وفيما يلى نعرض للتهم الموجهة الى كل هؤلاء ، ووجهات النظر المختلفة حولها .

ان اتهام عمر لطفى بالتحريض على هذه المذبحة (٢٩) امر له ما يبرره وفيما يلى نعرض لذلك .

١ — ذكر محمد رشيد رضا ان الشيخ محمد عبده قال « كنت فى الاسكندرية فسمعت الناس اجمع يقولون أن المحافظ عمر لطفى سمح بانتشار الفتنة الى هذا الحد لانه كان مقيما فى البلد ، ولم يصدر أمرا بتوقيفها ، ولم يذهب الى مكان الفتنة . ولم يطلب مساعدة العسكر النظامى مع انهم كانوا على مقربة منه واجمع الناس على أن عمله هذا موعز به من الخديو » حيث كان جميع مستخدمى المعية فى ثانى يوم الحادثة فى غاية الفرح والسرور لما حدث ساخرين من التزام عرابى بالمحافظة على الأمن العام كما ذكر الشيخ محمد عبده فى مذكراته عن الثورة العرابية أن عمر لطفى كان بالقرب من زيزينيا « فسأله سائل

كيف تكون هنا ، والمذابح على خطوات منك فقال لست بقائد ، وهـذا لا يعنينى فسـأله لم لا تحضر بلباسك الرسمى على حصانك شاهرا سيفك فى خمسين من العساكر وبذلك ينتهى الأمر فأجابه انصرف ليس هذا من شأنك » ويتفق برودلى مع الشيخ محمد عبده فى أن عمر لطفى لم يعط الأوامر بوقف المذبحة [٣٠] كما يتفق معه جون مارلو فى أن عمر لطفى لم يذهب الى مكان الحادث فى الوقت المناسب [٣١] .

٢ — ان عمـر لطفى حرض بعض الناس على الاشتراك فى المذبحة ، وشجعهم على ذلك كما أنه اشار على رجال البوليس بعـدم التدخل بل وطلب من أحد البدو اطلاق الرصاص على كل اوربى كان يقف فى شباك وبيده مسدس وذلك لزيادة اشعال الموقف .

٣ — ان عمر لطفى جلب الى الاسكندرية عصبة من البدو المستأجرين وسلحها بالنبابيت ، كما أمـر رجال البوليس فى السر بأن يشهدوا مـا سيجرى ولا يتعرضوا .

٤ — ان عمر لطفى استحوذ على محل التلغراف بالاسكندرية ليكون على اتصال بالخديو ولم يخبر سليمان سامى قائد الحامية بشىء الا بعد مضى الساعة الرابعة ، وقد أمره بأن يقود جنده عزلا من السلاح .

٥ — ان عمر لطفى طلب انزال عساكر انجليزية الى الميناء لعجـز عرابى عن الأمن .

٦ — ان عمر لطفى بحكم وظيفته كمحافظ للاسكندرية وقت الفتنـة كان مسنودا اليه ملاحظة أشغال الضبطية والدائرة البلدية بالاسـكندرية وهذه الوظيفة كانت تابعة رأسا للخديو ، ومع ذلك فانه لم يسـأل عن الأحداث التى وقعت بالمدينة بل أعفى من مسئوليتها وأوعز اليه الخديو أن يستعفى بدعوى المرض .

٦ — ان الخديو أمر بتعيين عمر لطفى وزير للحربية والبحرية جزاء لخـدماته .

وكما أن اتهام عمر لطفى بالاشتراك فى تدبيـر المذبحـة أمـر له ما يبرره فان التهم قوية ايضا ضد السيد قنديل مأمور ضبطية الاسكندرية لأن رجال الشرطة التابعين له تراخوا فى اتخاذ الاجـراءات الكفيلة وقت الفتنة بل كانوا يحثون الأهالى على الشغب ، وقدمـوا النبابيت والعصى لأولاد البلد ولم يتدخلـوا لحمايـة الاوربيين بل أن بعض الأوربيين الذين ذهبـوا الى الضبطية للاحتمـاء بهـا قتلوا داخلها أو طردوا منها ليقتلهم الرعاع كما انه قد ألقى من على سطح ضبطية الاسكندرية الى الشـارع عصى ونبابيت لاستعمالها فى الضرب واشعال الموقف ، واشـترك بعض رجال الشرطة فى القتل والاعتداء ويثبت ذلك الفحص الـذى قام به بعض أطباء القنصليات الاجنبية فى مصر على جثث القتلى أن هؤلاء قد قتلـوا أما باطلاق الرصاص عليهم أو بآلات حادة جارحة كالسكين ، ومن ناحية اخرى فان السيد قنديل الذى كان متكفلا بتوفير الأمن فى المدينة تمارض ؛ واحتجب وقت المذبحة ولم يتحرك من منزله بحجة اصابته بشلل نصفى مع أن هذا لم يثبت بشهادة الأطباء الذين كشفوا عليه ابان محاكمته ، كما أن الطبيب مصطفى النجدى الذى زاره يوم احتجابه ذكر أنه كان يمكنه الخروج من منزله لانه لم يصب بشلل كما ادعى ، ولما اخبر بالواقعة وكان لابسا ثياب النوم ، ومضجعا على مرقده مشروح الصدر فلم يجب المعاونين مطلقا ، ومن لهجة حديثه كان يظهر رضاه عما حدث بل ويذكـر البعض أنه أعطى أوامره بقتل الأوربيين .

أما عن النديم فقد اتهم بأنه شجع المشاغبين على المذبحة ، وأنـه كان السبب المباشر فى توتر النفوس بالاسكندرية لخطبه المؤثرة التى ألقاها قبل المذبحة واجتماعه بشبانها ، وتأثيره عليهم بخطبه المهيجة [٣٢] وتحريضه لهم على الفتك بالأجانب مما دفع الأوربيين الى الاستعداد للـدفاع عن انفسهم عند الحاجة ، وذكر عمر لطفى فى تقريره أمام قومسيون التحقيق فى ٣ اكتـوبر ٨٨٢ أن النديم هيج وحـرك أفكار « الأهـالى » بالخطب والدسائس التى اعقبت مقتله ١١ يونية مما كان له أبلغ الأثر فى أذهـان العامة ، ولا سيما من الشبان الذين ضمهم اليه ، وجعلهم آلة فى انجاز أغراضه ، فأدام التردد اليهم ، والجامعة عليهم حتى انقاد له الكثير ورغم التنبيه بمغادرة الاسكندرية وعدم العودة اليها عاد وعمل ما عملـه من

الخطابة فى الجهة المعروفة بالأنفوشى . ثم ذهب ولم نشعر به الا فى اليوم الثانى ، وقد أعقب ذلك المذبحة وانهى عمر لطفى تقريره باتهام النديم وغيره من العرابيين بأنهم كانوا سبب هذه الحادثة ويؤكد ما ذكره عمر لطفى التقارير الانجليزية الخاصة بمذبحة الاسكندرية اذ يتضح منها أن هــذا الحادث كان نتيجة لخطة مدبرة من قبل العرابيين وأن حسن موسى العقاد كان قد ذهب الى الاسكندرية موفدا من قبل العرابيين قبل الحادث بيوم ، وغادرها ليلة الحادث .

وذكر الياس ملحمة الشامى أن خطب النديم كانت « تهيج الأفكار ، وتحرض المصريين ضد الأوربيين والأتراك » ، كما كان يحث الشبان على حمل السلاح وتعلم استعماله حتى استجاب له بعضهم ، وتوجهــوا الى معسكر راس التين للتدريب .

وذكر محمد تامى أثناء استجوابه أن النديم كان يحضر الى الاسكندرية ويلقى فيها خطب ضد الحضرة الخديوية وضد الأوربيين .

وذكر ابراهيم الناضورى أثناء استجوابه عن حادثة الاسكندرية أن الخطب المهيجة التى كان يلقيها النديم ، وخصوصا الخطبة الأخيرة التــى ألقاها على شاطىء البحر بجهة السيالة ، والتى كانت قبل الحادثة بيومين كان لها أكبر الأثر فى هذه الحوادث [٣٣] ، ويتفق مع هــذا القول محمد طاهر ، ويزيد عليه أن موضوع هذه الخطب هى « مصر للمصريين » وأن السلطنة ايضا كانت للمصريين قديما وليست لأحد من الأوربيين أو الترك ويذكر احمد سلامة أنه قد بلغه قبل الواقعة بيومين أن نديم ألقى خطبا فى جهة الأنفوشى هيج فيها الأهالى وحرضهم على قتل الأوربيين وحثهم على الحرب وحفظ الوطن .

وذكر جون مارلو أن مذبحة الاسكندرية كانت النتيجة التلقائية للدعاية المضادة للاوربيين والمسيحيين [٣٤] ويؤكد على حلمى بك وكان من كبــار الضباط فى محضر استجوابه ان عبد الله النديم أخبره قبل الحادث بيوم أنه سيحدث بالاسكندرية أمر خطير ، وهذه هى نص روايته « انى قبل حصول المذبحة بيوم واحد قابلت عبد الله النديم فى وقت الصباح بمصر فسألته فى

اى وقت حضرت من الاسكندرية فقال حضرت منها ليلة امس لأشغال مهمة وانى متوجه اليها فى هذا اليوم بعد الظهر فقلت له لماذا هذه العجلة ، ولأى سبب ستحضر من الاسكندرية فى ليلة امس وتتوجه اليها فى هذا اليوم فقال لى انا حضرت من اجل مسالة مهمة ، ومتوجه الى الاسكندرية فى هـذا اليوم لأن اسكندرية سيحصل فيها بكرة حركة جسيمة جدا ، وفى ثانى يوم حصلت تلك المذبحة فتحقق لى بذلك ان عرابى كان له دخل فى هـذه الحركة الفظيعة » .

وذكر على داود فى محضر استجوابه ان النديم كان يحرض الشبان ويتكلم فى الديانات ، ويلقى الخطب وان سعادة المحافظ نبه عليه بالخروج من الاسكندرية .

ذكر لويس صابونجى فى رسالة منه الى بلنت ان شخصية النديم السريعة الاثارة يمكنها اشعال النار فى اى وقت لحرب دينية .

وعندما سئل احمد عرابى اثناء محاكمته عن صلته بالنديم ، وعن مدى معرفة انه سافر الى الاسكندرية قبيل المذبحة ، وان محافظ المدينة اراد ان يخرجه منها ، ولكنه لم يستطيع لصلته بالعرابيين لم ينكر عرابى هذا بل قال بانه ليس مسئولا عن النديم ولا عن تصرفاته .

ورغم ان هذه الشهادات والتقارير تؤكد أن للنديم يدا فى أحداث فتنة ١١ يونية فقد ذكر بلنت ان خطب النديم فى ذلك الوقت كانت تحض الناس على الهدوء ، وانه كان يشرح لهم عدم التورط فى اى اشتباك مع الأوربيين حتى لا تعطى الفرصة للاسطول الانجليزى بالتدخل وضرب المدينة .

كما ذكر محمد حندق صاغقول مستحفظين الاسكندرية فى محضر استجوابه ان النديم لم يشجع الأهالى ضد الأوربيين بل كان يطلب منهم الاتحاد والا يعتدوا على احد . كما انه لم يكن موجودا بالاسكندرية وقت الحادث بل كان بالقاهرة .

والواضح ان هذه المذبحة أحزنت عرابى ورفاقه ، لأن عدم استتباب الأمن قد اساء اليهم ، وقلل من عطف الدول الأوربية على حركتهم .

وقد انكر بلنت وبرودلى اتهام العرابيين بتدبيرها ، ومع أننا نضع فى الحسبان ان شهادات وتقارير الشهود كانت بعد هزيمة العرابيين وخروجهم من ساحة المعارك ، وان المغلوب كثيرا ما تلصق به التهم جزافا فاننا نرى أن طبيعة النديم الثورية ولهجته الخطابية التى تستثير الشعور دون حيطة أو تبصر ، وكراهيته للاجانب كان لها اكبر الأثر فى اثارة الأهالى الذين تشبعوا بكراهية الأجنبى المستغل فكتموا غيظهم فى نفسهم حتى حدثت الفتنة وكان دويها واضحا فى ١١ يونية ١٨٨٢ .

اما عن اتهام الانجليز بأنهم هم الذين دبروا هذه المذبحة ، واصطنعوا حادثة المالطى مع المكارى لاثبات عجز الحكومة عن حماية الأمن استنادا على ان المالطى الذى تشاجر مع السيد العجان كان من اتباع الانجليز ، واخا لخادم المستر كوكسن القنصل الانجليزى (٣٥) فان هناك من المواقف ما يؤكد ذلك كما أن هناك من المواقف ما ينفيه .

وعن الموقف الأول يتضح حرص كولفن على اظهار البلاد بأنها غير مستقرة وبلا حكومة وان الفوضى تضرب أطنابها والخراب يتسع نطاقه ، ففى مذكرة له يذكر أنه يتوقع فى اى لحظة أن يسمع عن حادثة خطيرة لا يمكن التنبؤ بعواقبها .

ويتهم عبد الله النديم المستر كولفن بتدبير احداث مذبحة الاسكندرية فيذكر ان هناك اتفاق مع السير مالت والمستر كولفن على احداث فتنة فى الاسكندرية بين الأجانب والمصريين لاتخاذ ذلك ذريعة لتدخل الأساطيل الأجنبية فى الموقف واحتلال المدينة كما ذكر جون نينيه بأن كوكسن شجع المالطيين على التسلح غير أن هناك ما يدل على أن تسليح الأجانب لم تكن فكرة كوكسن وحده فبعد أن انتشرت الشائعات بحدوث مذبحة للأجانب فى الاسكندرية اقترحت القنصلية اليونانية على قنصل انجلترا وغيره من القناصل وضع خطة سرية لتسليح الأجانب للدفاع عن أنفسهم وقت الحاجة ، ولكن هذه الخطة لم تنفذ خشية ما قد يترتب على ذيوعها بين الاسكندريين من حوادث خطيرة .

اما عن الموقف الثانى فيتضح من محاضر جلسات العموم البريطانى

أن ما حدث فى الاسكندرية كان كارثة بالنسبة للانجليز راح ضحيتها بعض رعايا الانجليز الذين ذبحوا برغم انهم فى حماية الاسطول البريطانى وتؤكد الأحداث ذلك فالقنصل البريطانى كوكسن ضرب وجرح فى راسه جرحا خطيرا بعد أن هجم عليه الغوغاء (٣٦) ولم يفلت من ايديهم الا باعجوبة كما قتل ضابط انجليزى مما دفع أحد اعضاء مجلس العموم البريطانى الى ان يتساءل على من تقع مسئولية هذه الأحداث فى الاسكندرية (٣٧) .

ومهما كان الأمر فان ما حدث فى الاسكندرية قد أعطى الفرصة للانجليز لاتخاذ هذه الأحداث ذريعة للتدخل المباشر بحجة عجز العرابيين عن حماية أرواح الرعايا والقناصل الأجانب فى مصر .

وعقب الحادث سافر الخديو الى الاسكندرية مع درويش باشا بحجة العمل — كما ذكر الخديو لثابت باشا مندوبه فى استنبول — على تهدئة الخواطر وتقوية أسباب الأمان وتخليص الأذهان من المخاوف حيث هرب معظم السكان الأوربيين من البلاد والتجأوا للاسطول والبواخر الموجودة فى الميناء بعد أن تعرضوا للمحن التى صحبت مثل هذه الاحداث، ولكن كان واضحا من ذهاب الخديو الى الاسكندرية رغبته فى أن يكون على مقربة من الاسطولين الانجليزى والفرنسى بعد أن أعيد تدبيرها بواسطة الجيش ورغم أن السلطان قد طلب من الخديو ودرويش باشا الانتقال الى القاهرة للسيطرة على زمام الأمور فانه ظل بالاسكندرية بحجة تسكين الاضطراب وازالة الخوف من نفوس الأوربيين والأهالى ، كما أن الباب العالى احتج لدى الحكومة البريطانية على اى تدخل سياسى فى مصر دون موافقة سابقة من السلطان ، وقد حاول السلطان العثمانى استغلال هذه الأحداث بارسال قوات عسكرية تركية الى مصر تكون قيادتها لدرويش باشا ولكن تلك المحاولة قوبلت بعاصفة استنكار شديدة ضد السلطان فقد انكر علماء المسلمين أن يرفع مسلما سلاحا فى وجه أخيه المسلم ، وأعلنت انجلترا أن هذا الضغط من السلطان ليس له ما يبرره وتحت هذه الضغوط سحب السلطان قراره بالتدخل المسلح فى مصر .

والجدير بالذكر أنه بعد قبول استقالة البارودى لم تتألف الوزارة الجديدة برئاسة راغب باشا الا فى ٢١ يونية ١٨٨٢ وقد طلب الخديو ى

الأمر العالى الذى وجهه الى رئيس النظار الجديد ابقاء عرابى ناظـرا للجهادية والبحرية [٣٨] .

وقد اهتمت وزارة راغب باشا بتهدئة الخـواطر فى محاولة منهـا لاعادة العلاقات الطيبة بين اهالى الاسكندرية والأجـانب الذين كانـوا فى حالة انزعاج شديد فأصدرت تعليمات لخطباء المساجد ووعاظها « بان ينصحوا الناس بمواده النصارى وغيرهم من المخالفين فى الدين » كمـا اعتزمت الوزارة تأليف لجنة مختلطة من المصريين والأجانب مهمتها اجراء تحقيق فى حوادث الاسكندرية لمعاقبة المتسببين فيها ، وبدات الأمور تستقر فى بعض أحياء المدينة ووزع العرابيون منشورا على الأهالى بأن الأساطيل على وشك الانسحاب من الاسكندرية ، وما ان اخذت الأمـور تسـتقر حتى أصدر الخديو توفيق منشورا فى ٢١ يونية اتهم فيه عرابى بالتقصير فى المحافظة على أرواح الأجانب وابدى أسفه لاحداث الاسكندرية .

والواضح أن مركز الخديو فى تلك الفترة كان ضعيفا وسلطته مسلوبة وقد وضح ذلك للانجليز فقد ورد فى مناقشات احد أعضـاء مجلس العموم البريطانى تساؤل عن مركز الخديو ، وعما اذا كان هو الحاكم الحقيقى فى مصر وهل يمكن أن يستمر كخديو للبلد [٣٩] أم لا .

ونظرا للخطورة المترتبة على ضعف سلطة الخديو ، وخشية الدول الأوربية وخصوصا فرنسا من انفراد انجلترا باحتلال مصر تقرر عقد مؤتمر دولى لبحث المسألة المصريـة .

مؤتمـر الآسـتانة :

دعت فرنسا الى عقد مؤتمر للنظر فى المسألة المصرية فوافقت انجلترا وروسيا والمانيا والنمسا وايطاليا على الدعوة بينما رفضت تركيا الفكرة فى بداية الأمـر بحجة ان ايفاد درويش باشا الى مصر كاف لحل مشكلتها ولأن تركيا رأت فى بحث الموقف فى مصر على النطاق الدولى بمثابة تـدخل فى شئون سيادتها غير أن السلطان عاد ووافق على حضور المؤتمر الذى انعقد فى احدى ضواحى الاستانة فى ٢٣ يونيو ١٨٨٢ . وانتهى الى عقـد اتفاق أطلق عليه ميثاق النزاهة وبمقتضاه « تتعهد الحكومات التى يوقع

مندوبها على هذا القرار بأنها فى كل اتفاق يحصل بشأن تسوية المسألة المصرية لا تبحث عن احتلال اى جزء من أراضى مصر ولا الحصول على امتياز خاص بها ، ولا على نيل امتياز تجارى لرعاياها لا يخول لرعايا الحكومات الاخرى » .

وقد وقعه أعضاء المؤتمر جميعا ، كما قرر المؤتمر فى ٢٧ يونية ، وبعد أن انضمت اليه تركيا وجوب التدخل فى شئون مصر لاخماد الثورة على أن تعهد لتركيا بهذه المهمة ، ولكن انجلترا حين ابرمت القرار كانت تنوى نقضه فحين اقترح مندوب ايطاليا المفوض بأنه ليس من حق اى دولة مشتركة فى المؤتمر أن تقوم بأى عمل انفرادى ضد مصر طالما ظل المؤتمر منعقدا طلب مندوب انجلترا أن يضاف الى الاقتراح جملة « الا فى حالة الضرورة القصوى » ليضمن بذلك لبلاده حق التدخل فى شئون مصر بحجة ما تقتضيه الظروف القاهرة ، وفعلا فانه لم يمض على توقيع انجلترا على قرارات المؤتمر ستة عشر يوما حتى ضرب اسطولها الاسكندرية بمدافعه فى ١١ يوليو (٤٠) .

ضرب الاسكندرية :

وفى يوم ٦ يوليو شرع الادميرال سيمور قائد الاسطول الانجليزى فى استفزاز العرابيين ، وانتحال الأسباب لمباشرة الأعمال الحربية فارسل الى قائد القوات العسكرية فى الاسكندرية يطلب منه وقف التدابير الحربية التى تجرى فى الطابيات وتسكين النشاط العسكرى فى الاسكندرية ووقف التحصينات القائمة ، واذا لم يتحقق ذلك فى مدى اثنى عشر ساعة فان الاسطول الانجليزى سيضرب مدينة الاسكندرية .

والواقع أن سيمور قد حاول انتحال الذرائع للعدوان على مصر ، وكانت لديه ايضا أسباب شخصية تدفعه الى الاسراع فى مباشرة الأعمال الحربية ، فاسطول بحر المانش كان قد تلقى الأوامر بالانضمام الى اسطول سيمور ، وكان قائد اسطول المانش أرقى رتبة من سيمور ، فاذا انضم اليه تكون الرئاسة له ، لذلك أسرع سيمور فى اختلاق الاسباب لضرب الاسكندرية قبل مجيء اسطول المانش .

وذكر جون نينه Ninet وكان شاهد عيان لضرب الاسكندرية انه كان يزور الحصون بصحبة كبار الضباط يوميا ، ولم ير بها اى ترميم ولم ينصب فيها اى مدفع جديد منذ وصول اوامر السلطان واكد ذلك ايضا « وكيل عموم الاستحكامات المصرية » ولكنه ذكر ان حكمدار طابية السلسلة كان لديه ثلاثة قواعد خشبية للمدافع الصغيرة ارسلها للتصليح واعيد تركيبها بعد صدور اوامر السلطان مما جعل البعض يظن بانه تم تركيب مدافع جديدة (٤١) .

وذكر القائمقام فرج عبد العال فى تقريره المقدم الى الخديو انه « لما صدر الأمر السلطانى بتوقيف اشغال الطوابى ، حصل الامتثال من الجميع » (٤٢) .

وذكر محمد شكرى بك انه « لم يكن جاريا وقتها تصليح وترميم شىء بالاستحكامات نفسها بل الذى كان جاريا هو بياض وترميم القشلاقات » .

وذكر الخديو توفيق « ان ادعاءات الادميرال سيمور انما تقوم على الظن والشبهة ، فليس هناك مدافع وضعت فى الطوابى غير مدافعها القديمة ، ولم يعمد الى اية ترميمات جديدة فى الطابيات ، وليس ثمة حركات فى الطابيات سوى تنظيف المدافع ومسحها كالمعتاد واجراء بعض التمرينات دون اطلاق المقذوفات » .

ومهما كان الأمر فاننا نرى انه من حق العرابيين تحصين وترميم مواقعهم الدفاعية ، وان الحجة التى تذرع بها الانجليز لضرب الاسكندرية هى حجة واهية .

وطلب الادميرال سيمور من العرابيين رفع مدافع الاستحكامات الموجودة بطوابى راس التين ، وعلى الساحل الجنوبى للمينة الشرقية لأن ذلك من وجهة نظره يعتبر تهديدا للسفن الانجليزية وهدد سيمور بانه فى حالة رفض طلبه سوف يطلق النار على الاسكندرية فى شروق شمس يوم الثلاثاء ١١ يوليو ١٨٨٢ ، وقد ردت الحكومة المصرية على انذار الادميرال بانه ليس هناك اية تدابير حربية تجرى فى الطابيات وانها على الحالة التى كانت عليها عند وصول الأساطيل ، ورات تفاديا

للعواقب التفاهم مع الادميرال سيمور بفك ثلاثة مدافع من الطوابى التى ادعى بتركيبها ، على أن يختـــار سيمور الأماكن التى يتم رفع المدافـــع عنها سواء من طابية واحدة أو من كل طابية مدفع واحد ولكنه اصر على مطالبه بتسليم الطوابى أو ضربها ، وكان الرد معارضة طلبه حتى لو ادى ذلك الى الحرب مع عدم مقابلة ضرب المدافع بالمثل الا بعد خمس طلقات من مدافع الأسطول ، ونفذ سيمور تهديده وبدأ فى ضرب الاسكندرية فى الساعة السابعة من صباح يوم ١١ يولية ١٨٨٢ وفتحت سفن الاسطول الانجليزى نيـــرانها على القلاع والســـفن بعد ان غادر الاسطول الفرنسى بأوامر من حكومته الميناء الى البحر (٤٣) .

ولكى يجعل الانجليز عملهم العسكرى ذا صبغة شرعية عرضوا على الخديو الضيافة على ظهر احدى سفنهم حتى ينتهى الضرب ، ولكن الخديو اعتـــــذر .

واستمر الاسطول الانجليزى فى ضرب الاسكندرية نحو عشر ساعات تمكن خلالها من اسكات المدفعية الساحلية وتخريب الاستحكامات بالمدينة وهدم واحراق معظم مبانيها .

وجاء ضرب الاسكندرية تجاهلا للمؤتمر اذى كان لا يزال منعقدا فى الآستانة ، فلا السلطان ولا الدول المجتمعة طلبوا من انجلترا القضاء على الثورة المصرية ، وهكذا اهان الانجليز المؤتمر الذى دعوا اليه بأن بدأوا الحرب بغير توصية منه أو حتى موافقته ، كما اعتدوا على حقوق الباب العالى .

ولقد اثار ضرب الاســـكندرية الجـــدل العنيف فى مناقشات مجلس العموم البريطانى فاستنكر بعض الأعضاء هذا العمل ، واعتبروه تصرفا خاطئا وغير مدروس ووصفوا السياسة الخارجية لانجلترا فى مصر بأنها نفرت حلفائها ، وورطتها — اى انجلترا — بصورة واضحة فى حـــرب مع مصر .

وعلى كل حال فقد صـــمدت القـــوات المصرية فى مراكزها بعض الوقت ، وبذلت جهدها(٤٤) أمام قذائف الاسطول الانجليزى للطـــوابى ،

واشترك الرجـــال والنساء من أهالى الاسكندرية فى نقل الذخـــائر الى المدافعين رغم نيران المدافع والقنابل . ولكن ضعف المدفعيـــة المصريـــة وقدمها لم يحقق لهم استمرار الصمود والقتال .

ولمـــا نزلت القوات الانجليزية الى الاسكندرية أظهر الخديو انحيازه اليها وسارع هو وشيعته الضئيلة بتهنئتها ووضع نفسه تحت حمايتها ، وهنا يجـــدر بنا أن نتســـاءل هل كان هنـــاك اعـــلان حرب من انجلترا على مصر ؟

يذكر المستر جلادستون بأن ما اتخذ كان اجراءا دفاعيا لأمن الاسطول كما صرح السير تشارلز ديلك وكيل الخارجية البريطانية بأن القوات التى انزلت كانت مهمتها الحفاظ على النظام والأمن فى الاسكندرية . وقد أرسل الخديو رسله الى المصريين الذين هجروا الاسكندرية يطلب منهم العودة اليها حتى تستقر الأحوال ، وكان موقف درويش باشا متفقا مـــع الخديو فى الانحياز الى الانجليز . وعلى أى حال فبعد أن أصبحت الاسكندرية غير صالحة كمنطقة دفاعية ، قرر العرابيون الانسحاب منها ، وفى أعقاب ذلك تم احراقها ويتهم حسين باشا الدرملى العرابيين بحرق الاسكندرية فذكر أن النديم كان من المشجعين على حرق المدينة ونهبها حتى لا يجـــد الانجليز شيئا عند احتلالهم لها .

كما أكد ذلك أحمدسلامة فذكر أنه رأى النديم بعد الحادث فى محطة سيدى جابر راكبا فى صهريج الوابور وفى يده طبنجة ، وسمعه يقول أنه قتل بها ثلاثة اشخاص ، وأن حرق البلد كان بواسطة غاز أحضر بمعرفتهم وصب على الدكاكين والمنازل حتى يتم حرق البلد بسرعة .

وأيد حسن واصف هذا الكلام فقـــال انـــه كان راكبا وابور السكة الحديد القادم من الاسكندرية للقاهرة والذى كان به عبد الله النديم وانـــه سأله عن حالة الاسكندرية فأجابه بقوله « اننا أوقدنا فيها النار بعد السلب والنهب ولمـــا سأله عن حالة الطوابى قال له انها هدمت ، ولكننا مستعدين للمقاومة فى البر » ، وأصر النديم على المقاومة وقال « فمع أنه ضعيف فقد قتل ثلاثة من الأوربيين بالطبنجة التى معه »[٤٥] واخـــرج من جيبه طبنجـــة ..

واكد ذلك ما تردد من ان سليمان سامى كان قد شرع فى حرق الاسكندرية فعلا وبداه فى جهة المنشية ، وذكر محمد شكرى ان ما فعله سليمان سامى كان بالاتفاق مع عرابى بينما يذكر آخرون ان ذلك كان بدون علمه .

وعلى كل حال فقد بيعت البضائع التى نهبها العساكر والأهالى من الاسكندرية بسوق كفر الدوار دون أن يتعرض أحد من العسكريين لضبطها او لجمعها وتسليمها للمديرية[٤٦] واذا كان البعض يحاول ابعاد العرابيين عن هذه التهمة فاننا نرى ان طبيعة المتطرفين من قادة الثورة العرابية كانت تأبى ان تترك الاسكندرية سليمة تستفيد منها القوات الانجليزية وتدخلها آمنة فاشعلت فيها الحرائق ونهبت المحلات .

واذا كان بلنت وسليم النقاش قد ذكرا بأن العرابيين حرقوا الاسكندرية وفقا لتكتيك عسكرى سليم بالا يستفيد العدو من البلد الذى يدخله كما فعل الروس فى موسكو فى اثناء الغزو النابليونى حتى لا يجد العدو مأوى ولا مئونة ولا ذخيرة لرجاله وحتى يستطيع عرابى التقهقر لاتخاذ أماكن استراتيجية للقتال فان شهادة أحمد رفعت تؤكد أن عرابى قد ذكر بانه « اذا تداخل أحد لازم نموت لآخرنا ، ونفنى كل شىء » كما أن وثائق الثورة العرابية تؤكد ان عرابى لم يصدر منهأى تأنيب لسليمان سامى بل أشركه معه فى الاستعدادات بكفر الدوار ، ولم يحاكمه .

وذكر محمود فهمى ان عساكر آلاى مصطفى عبد الرحيم وسليمان داود كسروا أبواب الدكاكين والمخازن ونهبوا ما فيها واوقدوا النيران فى الأماكن والأبنية الفاخرة كما دخل ايضا عربان البحيرة والبرابرة وسلبوا الحوانيت والمخازن واشعلوا فيها النيران علما بأن العرابيين قبل انسحابهم من الاسكندرية اطلقوا سراح جميع المسجونين .

والجدير بالذكر أن احد اعضاء مجلس العموم البريطانى قد نبه الحكومة البريطانية الى ما يتسبب عن ضرب الاسطول للاسكندرية بأنه فى حالة يأس الجيش المصرى فقد يقوم بتدمير المدينة .

اننا نتفق مع راى الشيخ محمد عبده فى ان تهمة حرق الاسكندرية

ينبغى أن توجه لأكثر من طرف ، فقد عثر على جثث أروام بلباس عـــرب أثناء الحريق ، كما اشترك فيه عربان من أولاد على ممن كانوا على صلة بالخديو ، ومنهم أهالى الاسكندرية ومنهم أوربيون بقصـــد المبالغـــة فى التعويضات .

ونتيجة لضرب الاسطول الانجليزى للاسكندرية تحطمت حصونها ، ولم تعد صالحة للدفاع مما دفع العرابيين الى الانسحاب منها الى منطقـــة كفر الدوار واعادة تنظيم الاستعدادات الحربية ، ولمـــا علم الخديـــو بنيـــة العرابيين أرسل الى عرابى يطلب منـــه وقف كل التجهيزات العســـكرية والسماح للمهاجرين بالعودة الى الاسكندرية والحضور اليه فى قصر رأس التين لاعطائه التنبيهات اللازمة والغاء الادارة العســـكرية واعادة الادارة المدنية ولمـــا استشار عرابى المقربين اليه نصحوه بعدم التوجه الى راس التين فرفض عرابى طلب الخديو واستمر فى استعداداتـــه واتهم الخديو بخيانة البلاد ، وأنه سبب ما نزل بها من مصائب ، وطالب الوطنيين بتدبير المساعدات اللازمة للمهاجرين الذين اضيروا من أجل بلادهم .

ونتيجة لتطور الأحداث واتضاح موقف الخديو المؤيد للانجليز دعـــا عرابى الى عقد جمعية عمومية من الأعيان والعلماء والموظفين وممثلين عن كافة الطوائف ليعرض عليهم الموقف ، وما يجب عمله ردا على موقف الخديو كما أرسل خطابا بذلك الى جميع مديرى المديريات .

وعقدت الجمعية العمومية اجتماعها فى مســـاء يوم ١٨٨٢/٧/١٧ ، وانتخب حسين باشا الدرملى رئيســـا للجلســـة(٤٧) كما اتخـــذ المجلس قراراته بالاجماع ، وكان أهمها الاستمرار فى قتال الانجليز وارسال وفـــد الى الخديو بالاسكندرية يطلبون منـــه العودة هو والوزراء الى العاصمة كما طالب بعض الأعضاء بعزل الخديو ولكن استقر الأمر على الرجوع الى السلطان فيما يختص بالخديو .

وقد رفض الخديو قرارات المجلس العرفى مما جعل المجلس يطلب من ديوان المـــالية وقف صرف مرتبات الخديو والوزراء عن شهر يوليـــة ١٨٨٢ .

وفى ٢٠ يوليو ١٨٨٢ اعلن الخديو عصيان عرابى واصدر امرا بعزله من منصبه وتعيين عمر لطفى مكانه ، وقد ارجع الخديو ذلك الى عدم اطاعة عرابى للأوامر ورفضه عودة المهاجرين الى الاسكندرية وحجزه مياه ترعة المحمودية[٤٨] واستمراره فى التجهيزات الحربية وقطعه للاتصالات التلغرافية والبريدية عنه حتى أن اخباره الخاصة لم يستطيع معرفتها مما سبب له الضيق والاضطراب واضطر الى الاستعانة بتلغراف الجيش الانجليزى[٤٩] . وقد برر الخديو نزول القوات البريطانية الى الاسكندرية بالقضاء على الحرائق وطرد اللصوص وحماية المدينة .

ولم يهتم عرابى بعزل الخديو له وطلب من يعقوب سامى وكيل وزارة الحربية أن يدعو الجمعية العمومية للانعقاد والتشاور فى الأمر ، وقد عقدت الجمعية العمومية اجتماعها الثانى فى ١٨٨٢/٧/٢٢ فى جو ذكره شهود العيان بأنه ملىء بالرهبة والعنف فالضباط والجنود شاهرين سلاحهم خارج الاجتماع وداخله ، وعلى الروبى يخطب خطبة عنيفة يهاجم فيها الخديو ويتهمه ببيع البلاد للانجليز الذين عاثوا فى البلاد فسادا وأعقبه محمد عبيد الذى رفع سيفه واقسم يمينا بقطع يد من يؤيد عزل عرابى ، وارتجل الشخ محمد عبده خطبة قال فيها « ان الخديو انحاز للانجليز ، ويريد تسليم القطر لهم كما حصل فى الاسكندرية والمراد بعقد هذه الجمعية هو هل يصح عزل عرابى باشا أو يبقى ناظرا على الجهادية » . ونظرا لما حدث فلم يتجاسر احدعلى رفع يده بالمعارضة وانتهى الاجتماع الى ضرورة بقاء عرابى ناظرا للجهادية واهمال اوامر الخديو وما يصدر من نظاره الموجودين معه فى الاسكندرية وخصوصا بعد أن خرج الخديو على قواعد الشرع والقانون[٥٠] .

وقد ختمت الجمعية العمومية قراراتها بضرورة عرض الأمر على الباب العالى بواسطة وكلاء النظارات ، وارسل العرابيون الى المديريات ودواوين الحكومة منشورا باعلان انضمام الخديو الى الانجليز وأمروا بخلع طاعته « لأنه باع البلاد لألد اعدائها » وضرورة المداومة على الاستعداد للقتال وعدم التسليم كما أمر عرابى بسد ترعة المحمودية لقطع المياه عن الخديو واعوانه فى الاسكندرية .

وفى ٧ أغسطس ١٨٨٢ أصدر الخديو امرا لجميع سكان مصر اتهم فيه عرابى بالسعى لخراب مصر ، وبأنه السبب الأول فى مذبحة الاسكندرية وما حدث بطنطا وغيرها ، وانـــه سبب شل الحيـــاة التجارية والزراعية فى البـــلاد .

وفى وسط هذا الجو من الانقسام بين الخديو والعرابيين نشبت الحرب مع الانجليز ، وكانت الخزانة المصرية خاوية لان المراقب الانجليزى كولفن أخذ الأموال المصرية الموجودة فى الخزانة العامة ، ووضعها فى احدى سفن الاسطول الانجليزى قبل الحرب بأيام وكذلك نقـــلت الأمـــوال الموجودة بصندوق الدين الى السفن الحربية بالاسكندرية لذلك تزاحم الأهـــالى على اعانة الجيش بما يلزمه(٥١) .

التعاطف الوطنى والاسلامى ضد الانجليز :

قامت البلاد تدافع عن شرفها وتحارب عدوها ، فانضم الرجال الى معسكرات التدريب لخوض المعركة وتركوا محـــلاتهم وعائلاتهم ومزارعهم وامتلأت نفوس أفراد الأمة المصرية بالرغبة فى الانتظام فى سلك العسكرية والاستشهاد فى سبيل الله والوطن وتبرعت النساء بحليهن عن طيب خاطر ، وهرع الشيوخ الى المساجد يدعون الله كى ينصر عرابى حامى البـــلاد وتحت وطأة هذا الحماس الشعبى فكر عرابى فى تشـــكيل وحـــدات من الأهالى يجرى تدريبهم على حمل السلاح ، وأن يعهد اليهم بحماية العاصمة والأقاليم عند خروج الجيش الى مناطق القتال ، ولكنه عدل عن الفـــكرة بعد أن اتضح انه يخشى على العاصمة اذا سلمت حراستها الى الأهالى وذلك لأن معظم من تطوع منهم هم الفقراء المحتاجون للقوت والعاصـــمة مكتظة بالأموال الاميرية وغيرها ، وتقرر أن يجرى تدريب المتطوعـــين من الأهالى على الآليات وارسالهم الى جبهة القتال اذا لزم الأمر .

والواقع ان مصر لم تكن وحدها فى أزمتها فقد أثار ضرب الانجـــليز للاسكندرية هزة عنيفة بين المسلمين فى كافة البلدان الاسلامية فدعا علماء تركيا الى حمل السلاح ، ومســـاعدة اخوانهم فى الدين ، كما ثار مسلمو الهند على الانجليز مما جعلهم يسرعون الى تجديد اقامـــة جمـــال الدين الأفغانى الذى كان بالهند وقتذاك وفى الشام حمل الرجال السلاح ، وأعدوا

كتائب من المتطوعين ولكن السلطان منعهم من التوجـــه الى مصر ، وفى تونس ناصرت صحافتها عرابى ومثلته فى صورة البطل الذى سينقذ مصر والبلاد العربية من التدخل الأجنبى ، واتصل عرابى بالسنوسى « وحرضه على القتال والمجاهدة فى سبيل الله » . كما اتصل بعبد القادر الجزائرى فى منفاه بدمشق وبأبناء فلسطين وبثوار السودان بزعامة المهـــدى حتى اضطرت الحكومة الى ارسال تعليمات الى عبد القـــادر باشـــا حكمدار السودان بعدم الاصغاء الى تعليمات العرابيين ، ولمـــا أيد عرب برقـــة نداء عرابى اجبرت انجلترا السلطان العثمانى على ان يرسل بتعليمات الى والى طرابلس ومتصرف بنى غازى باتباع الحزم والشدة مـــع الأهـــالى بخصوص ذلك ، كما طلب الانجليز من الحـــاكم التركى فى فلسطين منـــع تقديم المساعدة الى عرابى فألقى القبض على كثير من شـــيوخ العـــرب المتعاطفين مع عرابى .

معـــارك كفـــر الدوار :

احكم عرابى تحصين مواقعه فى كفر الدوار ، مما أعاق تقدم القوات الانجليزية فى هذه المنطقة ، فقد استطاع عصمت قومندان فرقة كفر الدوار وجنوده صد هجوم الانجليز المتوالى على هذه المنطقة حتى اضطرت القوات الانجليزية الى الانسحاب أكثر من مرة امام بسالة الجنود المصريين .

ولمـــا لم تستطع القوات الانجليزية اقتحـــام استحكامات العرابيين فى كفر الدوار نقلوا العمليات الحربية الى منطقـــة قنـــاة السويس حتى يتمكنوا من استخدام قواتهم البحرية مما اضطر العرابيين الى جعل نقطـــة التل الكبير مركزا لتجميع قواتهم العسكرية تبعا لاستعداد العدو وحركاته . ولمـــا كان عبور القوات الانجليزية للقناة يمثل خطورة على العرابيين فقد نصح بعض الضباط عرابى بردم القناة ، ولكنه لم يستمع لنصائحهم مؤمنا بوعود ديلسبس التى كانت تنحصر فى ضمان حياد المرور فى القنال للجميع ، وحماية أرواح ومصـــالح الأوروبيين المقيمـــين فى مصر(٥٢) فكان ذلك من الأخطاء الجسيمة التى غيرت مجرى الحرب . فقد اخترق الانجليز القناة ، وانتقلت المعركة الى الجبهة الشرقية فى أواخر أغسطس ١٨٨٢ .

وأمام هذا التحول المفاجىء فى جبها تالقتال اعاد عرابى حساباته فانتقل محمود فهمى رئيس اركان الحـــرب الى « المسخوطـــة » واخـــذ العرابيون فى انشاء خطوط دفاعية هناك ، وقاموا بسد ترعة الاسماعيلية عند « المجفر » لمنع وصول المياه العذبة الى الانجليز ، ولكن الجنـــرال ولسلى قائد القوات الانجليزية احبط هذه المحـــاولة فقد احتـــل نقطـــة « المجفر » ثم تابع الجيش الانجليزى تقدمه ، ونجح فى الاستيلاء عـــلى « المسخوطة » و « المحسمة » كما نجح فى اسر محمود باشا فهمى مما ادى الى تصدع الجبهة الشرقية .

منشور السلطان بعزل عرابى :

واستطاعت انجلترا تغيير ميزان المعركة ليس حربيا فقط بل وسياسيا أيضـــا فتمكنت نتيجـــة للاتصـــالات المكثفة التى دارت بينها وبين الدولة العثمانية ونتيجة لجهود اللورد دفرين مندوبها فى الآستانة من الضغط عـــلى السلطان بالتهديد تارة ، وباستخدام كل الوسائط ومنها الرشوة تـــارة أخرى حتى يصف عرابى بالعصيان ، وتحقق لها الوصول الى ذلك فأصدر السلطان منشورا بعصيان عرابى والتزام الدولة العثمانية بالمحافظة على الخديو مما قلب ميزان الحماس الشعبى وأضاع التأييد الاسلامى والعربى للثورة العرابية حيث كان عرابى يعلن انه يدافع عن حقوق السلطان .

وحينما بلغ عرابى المنشور استشار عبد الله النديم فيما يجب عمله فأشـــار عليه كما يذكر « سليم النقاش » نشره فى جريدة الطائف والرد عليه مع الاستمرار فى الدفاع عن البلاد حتى لو اشتركت عســـاكر عثمانية ضدهم لأن توزيع المنشور سرا سيكون له رد فعل اســـوأ مما لو نشر فى الصحف ورد عليـــه ، ولكن عـــرابى لم يستحسن نشره خشية تحـــول القلوب عنـــه .

ويذكر اسماعيل سرهنك انه لمـــا قرأ عـــرابى منشور الباب العالى بعصيانه فى جريدة الجوائب[٥٣] « وقع فى قلبـــه اليأس لأن حجته الكبرى

كانت بدعوى أنه قائم بالمدافعة عن حقوق الدولة العلية فى مصر فتشاور مع صديقه الحميم عبد الله النديم واقرا على اخفاء ذلك عن الجند » .

وعلى كل حال فقد تمكن جواسيس الخديو وعلى راسهم سلطان باشا من توزيع المنشور فتمكن بعض العربان من التسلل الى المعسكرات المصرية وتوزيع المنشور على الضباط والجنود الذين احسوا بصدمة عنيفة بعد الاطلاع عليه فخارت قواهم ويئسوا من الفوز وضعفت حميتهم الدينية اذ اعتبروا انفسهم « عصاة على السلطان مخالفين لكتاب الله وسنة رسوله » .

ومع اننا لا نلصق هزيمة عرابى بهذا المنشور وحده كما يذكر البعض فاننا نعتبره أحد الأسباب فى صرف القلوب عن عرابى وحركته .

وقد أرسل الخديو الى عمد البلاد واعيانها مكاتبات يدعوهم فيها الى مخالفة عرابى واعوانه ، وانه سيدخل تحت طائلة المحاكمة الشديدة والعقاب كل من يسانده(٥٤) .

معركــة التــل الكبير :

ونجحت جبهة الخيانة فى تنفيذ مخططها فاتصل الخديو وسلطان باشا بأحد الضباط ويدعى على يوسف (خنفس) ووعداه بالنياشين فكانت خطط الجيش السرية ترسل اليهم عن طريقه ، كما كانت اعداد وتحركات قوات عرابى وتوزيعها وخططها معروفة لدى الانجليز والخديو فهجم الانجليز فجأة يتقدمهم البدو وأنصار الخديو ومعهم خطة جيش عرابى ومواقعه ، وكانت المعركة الفاصلة فى التل الكبير والتى فوجىء فيها المصريون بالهجوم الانجليزى الذى لم يكن متوقعا فى حساباتهم حيث انه فى الليلة التى استعد فيها الانجليز للهجوم على التل الكبير كتب علــى يوسف (خنفس) الى عرابى وكان فى مقدمة الجيش يخبره بعدم وجود تحركات للعدو « فقعد عرابى طوال الليل مع الفقراء فى الصيوان .. يذكرون الى آخر النصف الأخير من الليل وعند الفجر ناموا جميعا » ولم يستيقظوا الا على طلقات البنادق واستمرت المعركة حوالى عشرين دقيقة حطم فيها الجيش الانجليزى متاريس التل الكبير تحت قيادة السير ولسلى ، وتشتت قوات عرابى .

لقد كانت معركة التل الكبير سلسلة من المـآسى توامها الخيانة حيث كان بالاسكندرية مكتبا يسمى « قسم المخابرات العسكرية » مهمته تنظيم شبكة الدسائس والجاسوسية فى البلاد(٥٥) وكان على راس هؤلاء محمد سلطان ، كما أن معارك التل الكبير كانت غير متكافئة وقد ساعد عـلى هزيمة عرابى فيها عدة عوامل منها نجاح الخديو فى ضم البدو الى الانجليز بعد رشوتهم وخيانة بعض الضباط الذين انضموا الى الخديو وأبلغـوه بخطط العرابيين ومواقعهم .

محاولات الدفاع عن القاهرة والتسليم :

أسرع عرابى الى القاهرة بعد هزيمته فى التل الكبير وذهب الى مقر وزارة الحربية حيث كان المجلس العرفى مجتمعا ، وأخبرهم بأمر الهزيمة واسبابها واستشارهم فيما يفعله ، وبعد استعراض الموقف استقر الرأى على المقاومة بحجة أن القاهرة « غاصة بالجند ومخازن الجهادية مـلأى بالمؤن والذخائر والأسلحة ومعدات الدفاع متوفرة » .

وقد حاول العرابيون منع الانجـليز من دخــول القاهرة بمد خطوط الاستحكامات أمام العباسية فتوجه عرابى وبعض الضباط الى العباســية لاجراء ترتيب النقط العسكرية ، ووضع التصميمات لانشاء خط دفـاعى ولـمـا استعرضوا الجند هناك وجدوا أن أعدادهم قليلة ، وروحهم المعنوية منخفضة حتى أن احد الضباط هاجم فـكرة الدفــاع عن القاهرة فقــال لعرابى « اذا كان مقصودك فى الباطن اعمال خط نار كما هو متبادر لنا من افكارك فهذا غلط ولا ينفع بشىء ... والأوفق ترك هذه التشبثات التى لا تفيد سوى الوبال والدمار وتلف البلد فقال عرابى ان قصده ليس ذلك بل مرامه التوجه للعباسية لترتيب النقط والعساكر بصـفة كردون فقط للحفظ أولى من ترك البلد سايبة .

ولـمـا وجد عرابى أن شبح الهزيمة باديا على الضباط والجنود عاد الى المجلس العرفى وعرض عليه الأمـر فتقرر الكف عن القتال والتسليم وتحرير عريضة للخديو يلتمسون فيها العفو والاعتذار عما حدث منهم .

وفى ١٥ سبتمبر ١٨٨٢ دخلت القــوات الانجليزيــة القاهرة بدون

مقاومة تذكر وسلم عرابى نفسه للقوات الانجليزية كما تم القبض علـــى قـــادة الثورة ووضعوا فى أضيق السجون وأصعبها كما امتـــلأت السجون بمن ناصر الثورة من العلماء المديرين وعمد البلاد والأعيان والتجـــار حتى بلغ عـــدد المقبـــوض عليهم ثلاثين الفا من المصريين . وبعد ان وضعت الحكومة يدها على معظم زعماء الثـــورة أصـــدر الخـــديو امرا عاليا فى ٢٨ سبتمبر ١٨٨٢ بتشكيل قومسيون « لتحقيق اقامة الدعوى على كل من ارتكب جريمة العصيان والتعدى على السلطة الخديوية سواء اكان مرتكبو هذه الجرائم مدنيين أم من العسكريين وصـــدرت الأوامر بتقـــديم عرابى وزملائه للمحاكمة كما أصدر الخديو توفيق عدة أوامر بهدف القضاء على العسكرية المصرية وروح الجندية أهمها حل الجيش المصرى[٥٦] والغـــاء الرتب العسكرية المعطاة فى مدة الثورة . كما أصدر بعد ذلك أمرا عاليا بجواز التخلص من الخدمة العسكرية بدفع البدل النقدى وقيمته خمسون جنيها كما نص هذا القانون على استثناء العلماء والمدرسين والطلبة وحفظة القرآن وأئمة المساجد ورجال الدين والمثقفين من الخدمة العسكرية كمـــا أصدر أوامر الى سائر المديرين بتسهيل عبور العساكر الانجليزية فى أنحاء القرى والبلدان التابعة لمديريتهم ، وتقديم كافة المساعدات لهم .

وبذلك يتضح رغبة الخديو فى وضـــع البلاد فى جو من الاســـتانكة الدائمـــة .

وهكذا انتكست أعلام الثورة العرابية التى قامت من أجل الدفاع عن شرف البلاد وكرامتها ضد الظلم الداخلى والتدخل الخارجى ، وابتلعت السجون رجالها واحس الشعب المصرى بمرارة الهزيمة ، ولكنه سرعان ما التقط أنفاسه فانتقلت الشعلة من جيل الثورة العرابية الى الجيل الذى حمل الراية بعدها بزعامة مصطفى كامل .

مراجـــع الفصـــل الرابـــع

(١) دار الوثائق : أوراق خاصة بالسيد جمال الدين الأفغانى .

(2) Public Record Office : F. O. 407/21 Inclosure in No 931. Extract From the Observer of July 23, 1882.

(٣) الياس الأيوبى : تاريخ مصر فى عهد الخديو اســماعيل باشــا ١٨٦٣ — ١٨٧٩ . المجلد الثــانى . القاهرة — دار الكتب المصرية ١٩٢٣ ص ٤٧٠ .

(٤) أحمد عرابى : كشف الستار عن سر الأسرار . مخطوط . القاهرة — دار الكتب المصرية تحت رقم ١٥٤٢ س ٩٩ — ١٠٠ .

(٥) اسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار . الجزء الثانى — القاهرة — المطبعة الأميرية ببولاق — الطبعة الأولى ١٨٩٤ ص ٣٧٥ .

(6) F. O. 407/18 No. 38 Memorandum of Events in Egypt Sinec the Deposition of the Late Khedive, Leading to the Recent Military Insurection, by P. Currie, sep. 17, 1881 .

(٧) دار الوثائق : أوراق الحضرة الخديوية بصدد الثورة العرابيــة — صورة خطاب من رئيس مجلس النظار الى القائد العام بتاريخ ٣٠ ينــاير ١٨٨١ .

(8) F. O. 407/18 No. 80. Mr. Malet to Earl Granville, Sep. 23, 1881 .

(٩) دار الوثائق — محافظ مجلس النظار محفظة ٥/د تحت عنوان : « جلسات مجلس النظار » فى ٣ ابريل ١٨٨١ ، محافظ مجلس الوزراء . نظارة الحربية . محفظة رقم ١١ تقرير مقدم للخديو بخصوص مرتبــات الضباط والعساكر بتاريخ ١٩ ابريل ١٨٨١ .

(١٠) سليم النقاش : مصر للمصريين ج ٤ . الاسكندرية — مطبعــة جريدة المحروسة ١٨٨٤ ص ٩٠ .

(١١) محمد مهرى كركوكى : رحلة مصر والسودان : القاهرة — مطبعة الهلال ١٩١٤ ص ٤٦٠ .

(12) F. O. 407/18 Inclosure 1 in No. 47, Memorandum by A. Colvin sep. 15, 1881.

(١٣) احمد عرابى : المخطوط السابق .

(١٤) د. محمد احمد خلف الله : عبد النديم ومذكراته السياسية . القاهرة — الأنجلو المصرية ١٩٥٦ .

(١٥) الوقائع المصرية العدد ١٢١١ فى ١٧ سبتمبر ١٨٨١ تحت عنوان : « تشكيل وزارة شريف باشا » .

(16) F. O. 407/18 No. 55 Mr. Malet to Earl Granville, sep. 22, 1881 Telegraphic No. 66 .

(١٧) محافظ الثورة العرابية . محفظة رقم ٢٠ دوسيه ١٧٨ .
شهادة محمد شريف باشا رئيس مجلس النظار امام لجنة التحقيق فى الحوادث العرابيـــة .

(١٨) محافظ الثورة العرابية . محفظة رقم ٢٠ ملف ١٧٨ . شهادة محمد شريف باشا رئيس مجلس النظار امام لجنة تحقيق الحوادث العرابية .

(١٩) الوقائع المصرية : العدد ١٢٩١ فى ٢٦ ديسمبر ١٨٨١ .

(٢٠) يذكر جون مارلو أن الحكومة والرأى العام الانجليزى كان لديهم عدم ثقة فى اى شىء ، له صلة بالدكتاتورية العسكرية .
Marlowe (John) Anglo Egyptian Relations p. 126 .

(٢١) محفوظات مجلس الوزراء — الجمعية العمومية ومجلس شورى القوانين . محفظة رقم (٢) .

(22) F. O. 407/20 Inclosure in No. 77 Memorandum by Edward Malet May 16, 1882 .

(٢٣) محفوظات مجلس الوزراء — محافظ الداخلية — محفظة رقم (٦) خطاب من رئيس قومسيون التحقيق الى رئيس مجلس النظار بتاريخ ٧ أكتوبر ١٨٨٢ .

(٢٤) دار الوثائق : محافظ مجلس النواب . محفظة رقم (١) لائحة مجلس النواب الصادرة فى ٧ فبراير ١٨٨٢ .

(٢٥) محافظ الثورة العرابية . محفظة رقم ٢٠ دوســـيه ١٧٩ ، وسجلات الثورة العرابية سجل رقم ٩٠ ص ١٤ .

(٢٦) دار الوثائق . ارشيف الحكومة النمساوية : المسألة المصرية — المجموعة ٢٤/٣١ ملخص تقرير سياسى رقم ١١٥ ب بتاريخ ٢٩ مايو ١٨٨٢ (مترجم من الالمانية الى العربية) .

(٢٧) محافظ الثورة العرابية . محفظة رقم ١٩ دوسية ١١٧ استجواب عبد الرحمن البحراوى .

(٢٨) الوقائع المصرية : العدد ١٤٣٢ فى ١٣ يونيو ١٨٨٢ .

(٢٩) مذكرات محمد فريد — تاريخ مصر من ابتداء ١٨٩١ — القسم الأول — الجزء الرابع ص ٨٩ .

(30) Broadley : How we Defendod Arabi p. 235 .

(31) Marlowe : op. cit., p. 135 .

(٣٢) دار المحفوظات . محافظ الداخلية . محفوظات العرضحالات — محفظة ٤٤ ملف ١٠٠ عين ١٥١ مخزن ٥٠ .

(٣٣) محافظ الثورة العرابية — محفظة رقم ١٩ دوسيه ١٢ محضر استجواب ابراهيم بك الناضورى ومعلوماته عن حادثة ١١ يونيه بالاسكندرية .

(34) Marlowe, John : Anglo Egyptian Relations 1800-1953 p. 135 .

(35) F. O. 407/19 Inclosure in 411 Memorandum by sir A Colvin, March 16, 1882 .

(36) Parliamentary Papers. Egypt No 11 (1882) .

(37) Parliamentary Debates, Vol 270 p. 818 .

سؤال من مستر بوكر لوكيل وزارة الخارجية .

(٣٨) محفوظات مجلس الوزراء — محافظ الداخلية . محفظة رقم ٧٠ تحت عنوان صورة الأمر العالى الصادر الى راغب باشا فى ٤ شعبان ١٢٩٩ هـ .

(39) Parliamentary Papers. Egypt No. 8 (1882) .

Affairs of Egypt. No. 57 .

(٤٠) الرافعى : الثورة العرابية والاحتلال الانجليزى . القـاهرة — النهضة المصرية الطبعة الثانية ١٩٤٩ ص ٣١٦ .

(٤١) محافظ الثورة العرابية : محفظـة رقم ٢٠ دوسية ١٧٩ محضر استجواب محمد شكرى باشا .

(٤٢) أوراق الحضرة الخديوية بصدد الثورة العرابية والبرقيات التى ضبطت لدى المتهمين فيها . مخطوط بدار الوثائق . تقرير مقدم الى الحضرة الخديوية من القائمقام فرج عبد العال ص ٤ .

(43) Dicey : The Egypt of the Future p. 171 .

(٤٤) محافظ الثورة العرابية : محفظة رقم ٨ دوسيه ٥٣ — د — ٦ ملف ٢٢٠ .

(٤٥) محافظ الثورة العرابية . محفظة رقم ١٨ دوسيه ٦٩ . محضر استجواب حسن واصف التاجر بالاسكندرية ومعلوماته عن حريق الاسكندرية وما سمعه من عبد الله نديم .

(٤٦) محافظ الثورة العرابية . محفظة ١٩ دوسيه ٩٤ ، ومحفظة رقم ٢٠ دوسيه ١٧٩ .

(47) F. O. 407/21. Inclosure in No 762, Memorndum From Information Supplied by Omer Pacha Loutfi by G. H. Portal «Tonjore» at Alexandria. July 21, 1882 .

(٤٨) محافظ مجلس الوزراء — الثورة العرابية — محفظة رقم ٣٨ — مجموعة ٤٧ حربيـة .

(٤٩) ديوان المعية السنية عربى . المجموعة ٣٥ سجل رقم ٤٥٣٦٦ ص ٤ .

(٥٠) محافظ الثورة العرابية : محفظة ٤١ وثيقة تحت عنوان صورة القرار المعطى من الأمة المصرية بديوان الداخلية يوم السبت ٢٩ يوليـو ١٨٨٢ .

(٥١) للتفاصيل نظر محافظ الثورة العرابية . محفظة رقم ٨ دوسيـة ٥٣ — د — ٨ ملف ٢٢٢ وأيضا محفظة رقم ٩ دوسيه ٨٦ تحت عنـوان « الثورة العرابية وقضايا المتهمين » .

(٥٢) محافظ الثورة العرابية محفظة رقم ١٩ دوسيه ٩١ تلغراف من دلسبس الى رئيس المحكمة العسكرية بالقاهرة .

(٥٣) انظر : الجوانب العدد ١١٠٥ فى الثلاثاء ٢٩ شوال ١٢٩٩ .

(٥٤) محافظ الثورة العرابية . محفظة ٤١ وثيقة تحت عنوان « صورة ارادة سنية صادرة من الحضرة الفخيمة الى كافة أهالى القطـــر المصرى بتاريخ ٧ اغسطس ١٨٨٢ .

(٥٥) من محافظ الثورة العرابية يتضح اتهام عبد الله المصرى وخليل المصرى ومصطفى رمزى وكانوا من ضباط الجيش بمراسلة العدو والتجسس على قوات عرابى . انظر : محفظة رقم ٤ تلغرافات — دوسيه رقم ٥٠ .

(٥٦) محافظ مجلس الوزراء — نظارة الحربية . مجموعة رقم ٧٠٥ حربية — محفظة رقم (١) دكريتو فى ١٩ سبتمبر ١٨٨٢ .



الفصل الخامس

حركة البعث الوطنى
بعـد الاحتـلال

١ — انبعاث الحركة الوطنية فى مصر بعد هزيمة الثورة العرابية .

٢ — مصطفى كامل وتاسيس الحزب الوطنى .

٣ — محمد فريد وزعامته للحزب الوطنى .

٤ — الزعامة الوطنية بين مصطفى كامل ومحمد فريد .



١ ـ انبعاث الحركة الوطنية في مصر بعد هزيمة الثورة العرابية

ظروف تولية عباس الثانى الخديوية :

بعد ضرب الثورة العرابية صفيت الحركة الوطنية ، وأصبحت الحياة السياسية فى مصر تدور حول الخديوية من ناحية وسلطات الاحتلال من ناحية اخرى وظل هذا الموقف سائدا فى السنوات الأولى للاحتلال ، وفى يناير ١٨٩٢ اشتد المرض بالخديو توفيق حتى بلغ مرحلة الخطر فى وقت كان فيه الموقف فى مصر دقيقا فسلطة الخديو كانت ضائعة ومسلوبة لقضاء الانجليز عليها والحكومة الموجودة على راسها صديق الاحتلال مصطفى فهمى الذى كان مكروها من الشعب وكان الانجليز يتصرفون فى شئون البلاد كما يشاءون ولخشية تدخل السلطان العثمانى فى أمر مصر بعد وفاة الخديو توفيق اجتمع كرومر مع مصطفى فهمى رئيس النظار وغيره من المسئولين وتباحثوا فى الأمر واتفقوا على استدعاء نجله عباس من فينا وتوليته العرش حيث انه أكبر انجال الخديو توفيق ، ولكن اتضح أن هناك مشكلة شائكة حين توفى توفيق وهى أن عباس لم يكن قد بلغ سن الرشد بعد فالأمر يقتضى أن لا يكون سن الأمير اقل من ثمانية عشر عاما وبما أن عباس ولد فى ١٤ يوليو ١٨٧٤ فانه لم يبلغ سن الرشد الا فى ١٤ يوليو ١٨٩٢ بينما كانت وفاة والده المفاجئة فى السابع من يناير ١٨٩٢ مما أظهر شبح تكوين مجلس وصاية مادام الأمير لم يبلغ سن الرشد ، ويذكر كرومر أنه سمع احد العلماء يقول ان سن الأمير المسلم ينبغى ان يحسب بالسنين الهجرية التى تبلغ ايامها ٣٥٤ يوما فتمسك بذلك وبحساب سن عباس بالتاريخ الهجرى اتضح أنه بلغ سن الرشد فى ٢٤ ديسمبر ١٨٩١ أى قبل وفاة ابيه بأربعة عشر يوما .

وصل عباس الى مصر واخذ يضطلع بمهام الخديوية ، وقد تملكه فى الفترة الأولى من حكمه شعور حماسى فاستبدل رجال الحاشية الموالين

للاحتلال بغيرهم كما اصدر عفوه عن عدد كبير ممن اشـــتركوا فى احـــداث الثورة العرابية واخذ يوطد علاقته بالشعب .

الأزمة الــوزارية ١٨٩٣ :

وجد الخديو عباس الثانى فى رئيس النظار مصطفى فهمى خضوعا كاملا للانجليز فكان ينفذ اوامرهم ولا يتصرف فى اى شأن من شـــئون الحكـــومة الا بعد اخذ رايهم مما ضـــايق عباس فانتهز فرصـــة مرضه وارسل اليـــه خطـــابا باقالته وكلف حسين فخرى بتأليف النظارة الجديدة .

ثـــار اللورد كرومر على ذلك التغيير وذهب لمقابلة الخديو فأجـــابه أن من حقـــه اختيار الوزراء بنفســـه دون الرجوع الى احد ، فهدده كرومر بانه اذا قاوم انجلترا فمعنى ذلك الاطـــاحة بعرشه ، وتعكر الجو وحدثت ازمة وارســـلت الحكومة البريطانية برقية مضمونها ان الخديو لابد ان يأخذ رأيها فى المســـائل الخطيرة مثل مســـألة تغيير النظـــار ، وانها لا ترى هناك ضرورة لتغيير رئيس النظار وانها لا توافق على تعيين فخرى باشا .

قـــابل كرومر الخديو وابلغه بالبرقية وطلب منه ارجاع مصطفى فهمى فرفض الخـــديو وقال ان من حقه تعيين الوزراء فهدده كرومر فرد الخـــديو بأن تنـــازله عن العرش اهـــون عليه من ارجاع مصطفى فهمى ، وتدخـــل بطرس غالى وآخرون لحل الازمة ، واخيرا ســـويت الأزمة على أســـاس الا يتمســـك كرومر باعادة مصطفى فهمى لانه ليس من الصواب اذلال الخديو الشـــاب كثيرا على ان يعزل فخرى باشـــا ويتم تعيين رياض باشا مكانه ، وبذلك انتهت الازمة الوزارية دون ان ينال احد من الفريقين فوزا فاصـــلا ، ومع ذلك فقد التفت الأمة المصرية حـــول الخديو وشجعته على موقفـــه واقبلت عليه الوفود للتهنئة .

وزارة رياض وازمة الحدود :

شكلت وزارة رياض فى ١٩ من يناير ١٨٩٣ ، وقد شـــجع ريـــاض الخديو على معاكسة انجلترا وحـــاول الحد من تغلغل النفـــوذ الانجليزى فى البـــلاد ، والجدير بالذكر أن الخديو عباس الثانى اهتم منذ اعتلائه عرش

الخديوية بأمر الجيش وفى ٨ يناير ١٨٩٤ استعرض الخديو بعض وحـدات الجيش المصرى فى القـاهرة وفى اليوم التالى سـافر الى الصعيد لتفقـد أحوال الجيش هنـاك ، وبينما كان الخديو يستعرض الجيش فى وادى حلفا أبـدى بعض الملاحظـات والانتقادات التى تمس كفاءة الضبـاط الانجليز مما ضـايق الانجليز فارسل كتشنر الى كرومر بذلك وقدم استقالته احتجاجا على أن الخـديو أهان الكرامة العسـكرية للانجليز ، وانتهز كرومر الفرصة حتى يوجه الى الخـديو ضربة قاصمة فارسل الى الحكومة البريطانية التى اعتبرت الأمر خطيرا وطلبت أن يقدم الخديو اعتذارا يثنى فيه على الضباط الانجليز وفى حـالة رفضه تستعمل الشـدة معه وهددت بخلع الخـديو اذا لم يسحب انتقاداته ، فهرع رياض باشا الى الصعيد وقـابل الخـديو وأخبره بالأمر ونصحه بالاستسلام فاصدر الخديو منشورا يعلن فيه رضاءه عن حـالة الجيش بالحدود وعلى الضباط الانجليز ، وبذلك تم اذعان الخديو لمطالب الانجليز واصيب نفوذه من جـراء هذه الأزمة بضربة شديدة وفقـد هيبته فى نفوس أفراد الجيش ، كما يتضح أن حادث الحدود كان نصرا كبيرا لكرومر وسياسته فى مصر .

اطلاق يد الانجليز فى شئون الادارة المصرية :

تميزت الفترة التى تلت حـادث الحدود بأن الخديو عبـاس الثـانى وان كان لم يكف عن مقـاومة الاحتلال الا انه سلك طريق المقاومة السرية بتشـجيع العنـاصر المناوئة لتواجد الاحتلال ، وكان شديد الحذر فى ذلك يظهر الوفاق ويبطن المقـاومة ، وان كانت الظروف قد اضطرته الى المقاومة الصريحة للاحتلال بعد ذلك .

والجـدير بالذكر أن تقرب الخديو الى الأمة قد ازداد بعد حـادث الحدود وفشـله فى السيطرة على الجيش فأخذ يدعو اليه المثقفين من أبناء البـلاد والعلماء امثال الشـيخ محمد عبده وعبد الله النديم وغيرهم ، وكان يسمح لهم بأن يعقدوا الجلسات فى قصره .

نشاط الخديو السرى ضد الاحتلال :

تألفت جمعية سرية بعد حـادث الحدود من بعض ضبـاط الجيش عرفت باسم جمعية المودة السرية ، كمـا شهدت مصر مولد جمعية سرية

قدر لهـــا أن تكون نواة للحزب الوطنى فيمـــا بعد ، وقد تمكن لطيف سليم المؤسس الفعلى لهـــا من ان يحتفظ بافكاره الثورية محبذا اسلوب العمـــل السرى لتحرير الشعب بعيدا عن وصاية اى ســـلطة وقد انضم مصطفى كامل ومحمد فريد وغيرهم الى هذه الجمعية فى عـــام ١٨٩٣ وقد تعـــاون الخديو عباس الثانى مع هذه الجمعية ورحب اعضاء الجمعية بذلك حيث كان تواجده ضرورة ملحـــة اقتضتها الظروف الصعبة التى كانت تلك الحـــركة تشق طريقها وســـطها لمقاومة الاحتلال الجـــاثم على صدر الوطن ، كمـــا ادار الخديو من قصره اللجنة الفرنسية المصرية ، وقد قامت هذه اللجنـــة بالدعاية لقضية استقلال مصر فى أوربا وبالذات فى فرنسا .

والجدير بالذكر أنه تأسست جمعية سرية فى بنى سويف فى عام ١٨٩٦ اطلق عليهـــا جمعية تحرير مصر ، كمـــا أرسل الخديو مصطفى كامل الى بعض دول أوربـــا ليكسب العـــون الدولى لقضية استقلال مصر ، فركـــز نشاطه بصفـــة خاصة على فرنســـا وتركيا والمانيا والنمسا ، وقد خرج مصطفى بعد عام واحد من نشاطه فى أوربا بحقيقة واضحة وهى أن النشاط فى الخـــارج وحده لا يكفى لحدوث استقلال مصر بل أن العبء الأكبر يجب أن يكون على عـــاتق المصريين بالدرجة الأولى .

حـــادث دنشـــواى (*) :

خلاصته أن خمســـة من الضباط الانجليز من كتيبة كانت فى طريقهـــا من الاسكندرية الى القـــاهرة عسكرت فى قرية كمشوش التابعة لمـــديرية المنوفية ارادوا الترويح عن انفســـهم بصيد الحمام فذهبوا الى بلدة دنشواى التـــابعة لمركز شبين الكـــوم ودخلوا ضيعة احد الملاك لصيد حمام وجدوه واقفـــا على جرن مؤذن القرية محمد عبد النبى فانحرفت رصـــاصة احدهم عن هدفها مما أدى الى اشتعـــال النار فى جرن محمد عبد النبى وجعـــل الأهـــالى — وخصوصا اصحاب ابراج الحمـــام الذين كانوا فى ضيق واستياء من صيد الانجليز لحمامهم — يحـــاولون انتزاع اسلحة هؤلاء الضبـــاط وضربهم وفى تلك الاثنـــاء وصل الخفراء وشيخهم لفض النزاع واخمـــاد

(*) للتفاصيل انظر جمال المسدى ، دنشواى ، القاهرة ، الهيئـــة العامة للكتاب .

النيران ولكنهم فشـــلوا فى ذلك مما دفع بعض الضباط الانجليز الى اطـــلاق الأعيرة النارية وفى تلك الاثناء انطلقت بعض الرصاصات انتى اصابت سيدة تدعى أم محمد وشـــيخ الخفراء وأحد الخفراء مما زاد من ثورة الأهــــالى فاشتدوا فى هجومهم على الضبــاط وضربوهم ففر منهم اثنين جريا فى اتجاه معســـكرهم أصيب احدهم بضربة شمس أودت بحياته ، وفر الآخر حيث أبلغ بالحـــادث زملائه فاسرعت دورية انجليزية لانقاذ الضباط فصادفت الضابط المغشى عليه وقد أحاط به أحد الأهالى عند سوق سرسنا يقدم له المــاء فانهالوا عليه ضربا بكعوب البنـــادق والســـونكى حتى هشموا راسه ، ولما علمت سلطات الاحتلال بالحـــادث طلبت تقـــديم المتهمين الى المحـــاكمة ، وعلى الرغم من ثبوت أن المشـــاجرة لم تكن بسبق اصرار وان وفاة الضابط الانجليزى كان بسبب ضربة الشمس التى لم يتحملها فقد درست المحكمـة القضية ولم تعط للمتهمين (عددهم) ٥٢ فرصا للدفاع عن أنفسهم الا ثلاثين دقيقـــة فقط وحكمت المحكمة باعـــدام أربعة شنقـــا وصدرت احكام اخرى بين الأشـــغال الشاقة المؤبدة والاشغال الشاقة على الآخرين كما عـــزل عمـــدة دنشـــواى .

وقد نفذت الأحكام علنا فى قرية دنشـــواى بين عويل النساء وصراخ الأطفـــال ووجوم الرجال الذين شاهدوا التعذيب .

واذا تفحصنـــا أسباب هذه الحادثة والأحكام التى صـــدرت نخـــرج بالنتـــائج التـــالية :

١ — ان المعتدى فى هذه الحـــادثة انمـــا هم الانجليز ، فقد فاجئوا قرية آهلة بالسكان ليصطادوا الحمام كما لو كانت قرية مهجورة لا سكان فيها

٢ — انه لا يمكن للأهالى وقد رأوا احـــدى نسائهم تسقط جريحـــة والنـــار تشتعل فى جرن القمح وشـــيخ الخفراء وآخرين مصـــابين برصاص الانجليز ان يقفوا مكتوفى الأيدى دون أن يدافعوا عن أهلهم وبلدتهم وأنفسهم.

٣ — ان احكـــام المحكمة المخصوصة تجافى العدالة لان اغلب اعضائها من الانجليز ومعنى ذلك ان الانجليز جعلـــوا من أنفسهم حكاما وخصـــوما.

٤ — اثبت تقرير الطب الشرعى أن الضابط المتوفى انما مات لاصابته بضربة الشمس وذلك لأن الوقت كان صيفا ودرجة الحرارة ٤٢ درجة.

٥ — ان المحاكمة كانت شبه صورية لان النية كانت مبيتة على الانتقام فلم تستغرق المحاكمة سوى ثلاثة ايام ، وقبل أن تنهى المحكمة اجراءاتها صدر الأمر الى المخازن باعداد المشانق والآلات الخاصة بالجلد وارسالها الى دنشواى .

لقد استنكرت الأمم المتمدينة هذه المأساة الوحشية ، وكادت الأمة المصرية تستسلم لليأس لولا دوى صوت مصطفى كامل الذى بدد سحب اليأس فقد كان فى باريس للاستشفاء وقت الحادث ورغم نصيحة الأطباء له بالراحة فانه ما أن وصله خبر الحادث حتى كتب مقالته المشهورة « الى الأمة الانجليزية والعالم المتمدين » فى جريدة « الفيجارو » تناول فيه ملابسات الحادث وطريقة الحكم وتنفيذه فكان لهذه المقالة وقع شديد زعزع مركز اللورد كرومر المعتمد البريطانى فى مصر .

نتائج الحادث :

١ — كان لهذا الحادث اكبر الأثر فى ايقاظ الأمة المصرية حيث جمع قلوب الشعب المصرى واحى شعور التضامن القومى بين ابنائه .

٢ — اطلاع الراى العام الأوربى والانجليزى على ما يرتكبه الاحتلال فى مصر من فظائع .

٣ — زيادة قوة الحركة الوطنية التى يتزعمها مصطفى كامل وانضمام كثير من المترددين الى صفوف الحركة الوطنية ثم تعديل سياسة الاحتلال.

٤ — استغلال مصطفى كامل للحادث فى التشهير بالسياسة الانجليزية واثارة الراى العام فى أوربا على قسوة ما اتخذ من اجراءات .

٥ — اظهرت حادثة دنشواى للعالم أن المصريين يكرهون الاحتلال خلافا للشائعات المخالفة لذلك .

٦ — ساعدت حادثة دنشواى على بلورة الوضع الداخلى فى مصر فظهرت الأحزاب الرئيسية الثلاثة (حزب الأمة — الحزب الوطنى — حزب الاصلاح على المبادىء الدستورية) .

٧ — اشتراك الادباء والشعراء فى التعبير عما حدث فى دنشواى وبروز الملامح الشعبية والأدب الشعبى للتعبير عن المظالم التى وقعت على الأهالى وأحكام الشنق والجلد وشنق زهران بالذات وفيما يلى الزجل الذى يعبر عن ذلك .

يوم شنج زهران كانت صعب وجفاته
أمه تبكى عليه فوج السطح واخواته
لو كان له اب ساعة الشنج ما فاته
لاجل نصر الديانة اتانا مصطفى كامل

٨ — اضافت حادثة دنشواى المزيد من احقاد القرية المصرية على الاحتلال حتى أن الظل القبيح لأحكام دنشواى اقتم السنة الأخيرة من حكم اللورد كرومر لدرجة أن تحركاته فى مصر كانت تحت الحراسة المسلحة .

٩ — ازدياد الشائعات عن أن أيام كرومر فى مصر أصبحت معدودة، وقد تحقق ذلك فعلا فى ابريل ١٩٠٧ وعينت الحكومة الانجليزية السير « الدون جورست » .

الدون جورست والحركة الوطنية المصرية :

تمكن جورست من اجتذاب الخديو اليه تماما حتى تطورت العلاقات بينهما الى صداقة متينة وذلك بهدف الوقيعة بين الخديو والحركة الوطنية (سياسة فرق تسد) والواقع أن جورست قد نجح فى الوقيعة بين الخديو والحزب الوطنى وخصوصا مصطفى كامل مع ذلك فانه لم ينجح فى القضاء على الحركة الوطنية وان ساعد بسياسته على تجزئتها فظهرت الأحزاب فى مصر لأول مرة فى تاريخها .

٢ ـ مصطفى كامل وتأسيس الحزب الوطنى

هناك انـــاس خلقوا للكفاح يستعذبونه ويستطيبـــون كل شىء فـــى سبيله يرون فيه اداء للواجب وارضاء للضمير وسبيلا ناجحا لاعلاء كلمـــة الحق واصلاح امور بلادهم ومن هؤلاء الزعيم الوطنى الشاب مصطفى كامل .

ولعل اهم عمـــل قام به مصطفى كامل من اجل مصر هو انه اعـــاد للمصريين الثقـــة فى انفســـهم بعد هزيمة العرابيين فى التل الكبير وبعـــد نجـــاح الاحتلال فى احداث حـــالة من البلبلة والاضطراب فى تفكير المصريين تسبب عنهـــا ايجاد نـــوع من القنوط واليأس والحيرة استولت على قلوبهم والأمثلة على ذلك كثيرة منها المثل القائل « اتفق المصريون على الا يتفقوا » ومنها ما قاله شاعر النيل حافظ ابراهيم :

ان عشرين حجة بعـــد خمس	علمتنـــا السكوت مهمـــا تمادى
امـــة النيل اكبرت أن تعـــاد	من رماها واشفقت أن تعـــادى
ليس فيها الا كلام والا حسرة	بعـــــد حســـرة تتهـــــــادى
لاجرى النيل فى نواحيك يامصر	ولا جـــادك الحيـــا حيث جادا
انت انبت ذلك النبـــت يامصر	فأضحى عليـــك شوكا قتـــادا

وكان ما فعله مصطفى كامل هو انه ذكر المصريين بماضيهم وجلال تاريخهم وســـما بالوطنية المصرية الى مرتبة العقيدة حتى اصبحت اسلوبا فى الكفاح وكان طريقه الى ذلك الأســـلوب السهل المؤثر على ســـامعيه لدرجة ان خطبه جرت على السنة الناس وكأنها اناشـــيد واغان ، وساعده على ذلك اســـلوبه الوجدانى الذى اعتمد على الجمل الضخمة التى رددتها الجماهير « لا معنى للحياة مع اليأس ولا معنى لليأس مع الحياة » .

« بلادى بلادى ، لك حبى وفؤادى لك حياتى ووجودى ، لك دمى ونفسى لك عقلى ولســـانى لك لبى وجنانى فانت انت الحياة ولا حيـــاة الا بك يامصر » .

بهذا الأسلوب الوجدانى ، وبهذه القوة الخطابية خاطب مصطفى كامل شعور الشبيبة المصرية واستنهض همتهم يضـاف الى ذلك ما كان يكتبه من مقالات تنقد بالوطنية بالجرائد خاصة فى جريدة اللواء .

بكل ذلك استطاع مصطفى كامل ان ينهض بأعباء دعوته متقدما الى الأمام رافعـا علم النهضة ومرددا نشـيد الأمل بصوت تهتز له الأفئدة حتى لقد وصفه لطفى السيد بأن شعاره الوطنية وغرضه الوطنية وكلماته الوطنية وكتابته الوطنية وحياته الوطنية حتى لبسها ولبسته فصار بينهما تلازم مستمر فى كافة المواقف .

ولعل أدق تحليل لدور مصطفى كامل فى قيادة الحركة الوطنية هـو ما ذكره الأستاذ محمد شفيق غربال اذ يقول « ابسـط استجـابة كانت استجابة مصطفى كامل تقـوم على قاعدة خالية من كل تعقيـد ومن كل شـطارة لمصر عدو واحد هو الاحتـلال ، ولمصر مقصد واحد وهو الجلاء وما عدا ذلك فتفصيل له وقته . . ومصدر العقيدة ايضا بسيط كل البساطة فكانت حمـلة مصطفى كامل تستخدم ثلاث وسائل هى :

١ — الا يأس مطلقـا ولا تصدقوا أيها المصريون كلام الانجليز أو كلام مأجـوريهم بأن مركزهم فى مصر لا يتزعزع ولن يتزعزع .

٢ — لا تثقوا مطلقا بوعودهم ولا تركنوا الى محـاولاتهم تبسـيط مركز البـلاد الدولى بل تذرعوا بتلك العناصر الدولية والعثمـانية التى يكرهها الانجليز ويكفى كرههم لها لتمسككم بها .

٣ — لا تصدقوا أن الاحتلال يمكن أن يبطن خيرا لكم أو لبعضـكم فهو يفعل ذلك ليفرق كلمتكم ويجعل من بعضكم أعداء البعض الآخر[1] .

ولقـد أتبع مصطفى كامل سيـاسة مترامية الأطـراف تعتمد على أساليب متعددة من أجـل اجلاء الانجليز عن مصر فلم يتـرك وسـيلة لخدمة القضـية المصرية الا ولجأ اليها فاعتمـد على فرنسـا والـدولة العثمانية كمـا وطد علاقته بالخديو فى أول الأمـر خصوصا وأن الحركة الوطنية لم تكن قـادرة وحدها على الصمود فى وجه الاحتلال ، ولما يئس

من هؤلاء جميعا لم يجد خير وسيلة أمامه سوى الاعتماد على الرأى العام وتربيته .

وعلى الرغم من أن فكرة تأسيس حزب لم تكن بعيدة عن ذهن مصطفى كامل ، وبالرغم من انه كان يلم بطبيعة العمل الحزبى التى كان قد عرفها جيدا أثناء وجوده بفرنسا وتجواله فى أوربا فقد آثر ألا يكون البادىء بتكوين الأحزاب لقناعته بضرورة توحيد كافة القوى فى مصر لاجلاء المحتل الغاصب أولا ولأن انشاء أحزاب فى تلك الفترة ربما يؤدى الى تفتيت الجهود الوطنية وتصارعها ، واستمر مصطفى كامل متمسكا بهذا الموقف كما تمسكت به القوى الوطنية الأخرى لفترة من الوقت ، ولكن تطور الأحداث فى مصر ويأس الوطنيين من الحصول على مساعدات فعالة ضد الاحتلال من أوربا أو الدولة العثمانية أو من الخديو خصوصا بعد عقد الاتفاق الودى عام ١٩٠٤ وأزمة طابة ١٩٠٦ وأحداث دنشواى عام ١٩٠٦ أيضا كل هذا ادى الى ضعف الحركة الوطنية وانقسامها الى ثلاثة أقسام :

القسم الأول : ويشمل بعض كبار الملاك والمثقفين من اتباع الشيخ محمد عبده وكان هدفهم حماية مصالحهم بالتعاون مع الاحتلال بعد أن رأوا ثمار اصلاحاتهم فى الزراعة والرى .

والقسم الثانى : ويشمل أنصار الخديو وعلى رأسهم الشيخ على يوسف وكان هدفهم تحقيق الاستقلال الادارى ثم اقامة حكم نيابى مقيد بسلطة الخديو ، وكان هؤلاء ينتقدون سلطات الاحتلال نقدا معتدلا .

أما القسم الثالث : فكان فريق مصطفى كامل ، وكان يعتمد على المثقفين بوجه خاص [٢] وهو الذى حمل لواء المعارضة ضد الاحتلال

ومن هذه الأقسام الثلاثة تكونت الاحزاب المصرية الثلاثة الكبرى وهى حزب الأمة وحزب الاصلاح على المبادىء الدستورية والحزب الوطنى .

وقد يجرنا الحديث عن الحزب الوطنى الى أن نتساءل هل عبارة الحزب الوطنى جديدة أم كانت معروفة قبل مصطفى كامل .

الواقع أن تعبير الحزب الوطنى كان معـــروفا فى مصر قبل ظهـــور مصطفى كامل بعشرات الســـنين فقد تردد هذا الاسم اكثر من مرة فـــى كتـــابات وخطب الوطنيين المصريين وغيرهم كما اطلق على بعض الهيئـــات الوطنية ســـواء السرية منها او العلنية فعندما أحس المصريون بالخطر على مصـــير بلادهم ، وفكروا فى التخلص من الخديو اسماعيل الذى لا يحسن تصريف شئون البـــلاد تم الاتفاق بين الجمعية السرية التى تكونت مـــن ضباط الجيش [٣] عام ١٨٧٦ وجمعية حلوان التى تكونت فى ابريل ١٨٧٩ [٤] على تأليف « حزب خفى من العظمـــاء والكبراء والعلماء سموا أنفســـهم بالحزب الوطنى ، وقد اتيح لعرابى تزعم هذا الحـــزب بجناحيـــه المـــدنى والعسكرى [٥] .

وعندما ناشد الأفغـــانى أبناء مصر بالاقبال على العلوم والمعـــارف أوضح لهم أن حزبهم الوطنى لا تحصل له القوة ولا يكون له البقاء الا اذا استقرت فيهم المعارف [٦] .

وعندما أشـــتد التآمر على الثورة العـــرابية واقال الخـــديو وزارة البارودى التى كان عرابى وزيرا للحربية فيها ، تمسك عرابى بمركزه كرئيس للحركة الوطنية وأعلن انه لم يستعف من رئاسة الحزب الـــوطنى رغـــم استعفائه من نظارة الجهادية [٧] .

وعندما سافر مصطفى كامل الى باريس عام ١٨٩٥ للدعاية للقضية المصرية صرح بأنه موفد من قبل الحزب الوطنى علما بأن هذا الحزب لم يكن له وجود فى تلك الفترة .

وعندما تأسست جمعية سرية لمناهضة الاحتلال تحت رئاسة الخديو فى عام ١٨٩٦ عبر عنها مصطفى كامل بأنها حزب سرى مخلص للغاية وعلى استعداد للتضحية بذاته فى سبيل الوطن المقدس [٨] .

وهذا الحزب أطلق عليه اسم الحزب الوطنى ، وقد أكد لطفى السيد ذلك بقوله « كونا تحت رعاية الخديو عباس جمعية سرية فى بادىء الأمر، وكانت هذه الجمعية هى الحزب الوطنى [٩] .

لماذا اطلق تعبير الحزب الوطنى على هذه الهيئات السياسية رغم انها لم تكن حزبا سياسيا بالمعنى المفهوم فالحزب لابد أن يقابله احزاب اخرى تتعارض فى المبادى والبرامج على النحو الذى نعهده فى الأحزاب السياسية .

يذكر عرابى ان مصر مسكونة بأجناس مختلفة وكل جنس منها يعتبر حزبا كما أن لاهل البلاد حزب قائم بذاته هو الحزب الوطنى(١٠) .

ويذكر مصطفى كامل أن الحزب الوطنى موجود فعلا قبل اعلانه بثلاثة عشر عاما فهو وان لم يظهر بشكل نظامى وبلائحة ولجنة ادارة فقد ظهر بأعماله واتفاق اعضائه على خدمة البلاد بكل قوة (١١) وان هذا الحزب هو حزب الامة كلها الذى ايقظ العواطف الوطنية فى البلاد(١٢) ويذكر الأستاذ عباس محمود العقاد ان تسمية تلك الهيئة السياسية بالحزب ترجع الى ان افرادها يواجهون جماعة الأتراك والشراكسة والالبانيين والأرمن الذين كانوا يتبعون الدولة العثمانية وينفردون بولاية الحكم فى الوظائف الكبيرة واكثر الوظائف الصغيرة ، لذلك فتعبير الحزب الوطنى على هذا الأساس كان هو حزب الفلاحين او حزب الأمة المصرية(١٣) .

والواقع ان اطلاق تعبير حزب على تلك الهيئات الوطنية من الممكن الاستعاضة عنه بتعبير جبهة وطنية او اتجاه وطنى بدلا من حزب لأنه لم يحمل مضمون الحزب او ابعاده فقد كانت له اهداف عامة تعكس الآمال الشعبية ، ومع ذلك فقد كان يفتقد الى التنظيم اللازم للعمل الحزبى ، ولم يقتصر الأمر على ذلك فقط فقد ظهرت احزاب فى ظل الاحتلال كان لها برامج واطلق عليها اسم الحزب الوطنى قبل أن يؤسس مصطفى كامل حزبه مثل الحزب الوطنى الحر (١٤) الذى تأسس فى ٢٦ يوليو ١٩٠٧ برئاسة محمد وحيد الأيوبى ، وكان مناصرا للاحتلال ، ويرى أن رقى البلاد لم يتم الا على يديه كما كان معاديا لمصطفى كامل وحركته .

وحزب آخر سمى الحزب الوطنى أسسه حافظ عوض صاحب جريدة المنبر فى اغسطس ١٩٠٧ وكان شديد الولاء للاحتلال البريطانى أيضا ولكنه لم يستمر طويلا بل انضم الى حزب الاصلاح على المبادىء الدستورية بعد ذلك .

وعلى كل حال فان فكرة تأسيس حزب بمفهــوم حقيقى قد راودت مصطفى كامل قبل الاعلان عنه بمدة ، ففى عام ١٩٠٠ فــكر فى اقامــة حزب على غــرار الأحزاب الأوربيــة واوضح عن ذلك فى اللواء معــربا عن امنيتــه فى تأسيس هذا الحزب [١٥] ولكن خشــيته من تفتيت الجبهة الداخلية جعــله يحجم عن تنفيذ فــكرته ، ولعله تعلم هذا الدرس مــن عبد الله النديم خطيب الثــورة العرابية ، ومع ذلك فقد ظلت فكرة تأسيس حزب تراود خياله فعندما اجتمــع بالخديو فى خريف ١٩٠٦ اتفق معه على تأسيس الحزب الوطنى ، وكانت نقطــة الخــلاف حوله هل سيكون الحزب سريا أم علنيــا ، وكان رأى الخديو ان يكون سريا ثم انتهى الأمر بأن كان علنيــا [١٦] ومع ذلك لم يسرع مصطفى كامل فى تكوين حزبه ، بــل تريث فى الأمــر حتى اواخر ١٩٠٧ خشــية تفتيت الجبهة الداخلية ، ولكن ظهور حزبى الأمة والاصــلاح على المبادىء الدســتورية قد دفعاه الى الاسراع فى تأسيس حــزبه وقد أوضح مصطفى كامل ذلك فى خطــاب ارســله الى محمد فريد قال فيه « ان ظهور حزب الأمة المؤلف من أولئك الذين خبــرنا نفسيتهم وميلهم الى مســايرة المحتلين وفقــا لما يســمونه سياسة اللين والتدرج وان ما علمته كذلك من صــاحب المؤيد عن تأليف حزب باســم « حزب الاصلاح » لخدمة السراى ، هذان الأمران يحتمان علينا كل الحتم أن نظهر حزبنا الوطنى بالرغم منا بمظهره الحقيقى حتى يعلم العالم كافة أن للوطن المصرى حــزبا يطلب بعزيمة صــادقة الجــلاء والدستور اى انه لا يقبل حــكم الأجنبى ولا حكم الفــرد » ثم أوضــح مصطفى كامل الأسباب التى تجعــله لا يرغب فى تعدد الأحزاب فقال « نعم انى ارغب الآن كل الرغبــة فى ظهور هذا الحــزب بحال منتظمة بالرغم من وطنيتى التى تــرى فى تعدد الأحزاب حــربا اهلية لا مندوحة منها ، حربا تعوق ولو الى حين ما نرمى اليه من حرية واستقلال بتقوية مركز المحتل لبلادنا ولكن ما العمــل ونحن لو سكتنــا أمام هذه الحــال التى ما أوجــدها الا دهــاء جورست وقصر نظر المؤلفين لهذين الحزبين لفقــدنا كل شىء ولاصبحت الوطنية المصرية عدما فى عدم بتغليب المبادىء السقيمة عليهــا وتقاعس المخلصين لنصرتها وانمائها [١٧] .

وهكذا يتضح أن مصطفى كامل رغم أمنيته فى أن يرى فى مصر حــزبا وطنيا منظمــا الا أنــه خشى ان يبدأ بهذه الخطوة حتى لا تنقسم الجبهــة الداخلية ، واستمر على هذه السياسة حتى ظهر حزبا الأمــة والاصلاح على المبادىء الدستورية ، فاضطر الى أن يعلن عن حــزبه حتى لا تضيــع الأهــداف الوطنية وسط المتاهات الحزبية ففى الثــانى والعشرين مــن اكتوبر ١٩٠٧ دعا مصطفى كامل الــوطنيين لمؤتمــر عام بمسرح زيزنيــا بالاسكندرية فلبى الدعــوة عدد قدرته الصحف بين خمسة وسبعة آلاف ألقى فيهم مصطفى كامل خطبــة طويلة تحدث فيها عن الحياة الوطنية فى مصر بعد الاتفــاق الودى والتقدم الذى أحرزه العمل الوطنى وثقته الكبيرة فى أن المصريين قادرون على الوصول الى الاستقلال ، كما أعلن عن قيــام الحزب الوطنى ودعا أفراد الأمة الى الانضمام اليه [١٨] .

وقد أحدث ذلك الخطاب دويا كبيرا ، ونشرت الجرائد فقرات طويلة منه وانهالت للانضمام للحزب من كل جانب .

وفى ٢٧ ديسمبر عقدت أول جمعية عمومية للحزب بدار جريدة اللواء بالقاهرة أطلق عليها اسم المؤتمر الوطنى وكان عدد الحاضرين ١٠١٩ مندوبا من كافة الطبقــات يمثل كلا منهم مئتــا عضو طبقا لقانون الحزب[١٩] ، وافتتح مصطفى كامل هذه الجمعية العمــومية بخطبة نوه فيها بأن الحزب الوطنى موجــود منذ وقت طويل ، وان ما يحدث هو اعــادة تنظيمــه ، كما أوضح أن الحزب الوطنى لم يكن حزبا ســياسيا فحسب بل هو قبل كل شىء حزب حيــاة الأمة وانهــاض لها ، كما أنه حزب يهتم بتعليم سائر طبقــات الشعب ، ويرى ان استقلال البلاد هو اســاس كل سعــادة ويسعى للوفاق بين أفراد الأمة كما يقم بتحسين حال الفلاح[٢٠] .

وبعد خطاب مصطفى كامل انتخبــه الحاضرون بالاجماع رئيســا للحزب الوطنى مدى الحياة ، وبعد التصــديق على لائحة الحزب قــام الحاضرون بانتخاب الأعضاء الثلاثين للجنة الادارية الأولى للحزب[٢١] .

والجدير بالذكر أن الحزب الوطنى كان الحزب الوحيد — من الأحزاب الثلاثة الكبيرة — الذى التزم بنهج ديمقراطى فى تنظيمه فقد بدأ من القاعدة

وتدرج الى القمة كما هو متبعــا فى الأحزاب الديمقراطية فرفض ان يفرض على اعضــائه لجنة ادارية معينــة كما حدث فى حزبى الأمة والاصــلاح بل تــرك الأمر للجمعية العمــومية التى قامت بانتخاب اعضــاء اللجنــة الادارية المكونة من ثلاثين عضوا والتى قامت بدورها فى انتخاب اللجنــة التنفيذية للحزب المكونة من تسعة اعضاء (٣٢) الا أن ما يؤخذ على الحزب أن انتخــاب رئيسه مدى الحيــاة أمر غير مفهوم فى الأحزاب الديمقراطية وهذا هو ما أخذه سعد زغلول على الحزب الوطنى (٣٣) وما دفع محمــد فريد بعد ذلك بتعديل هذه المادة وتجديد المدة التى ينتخب لها الرئيس بثلاث ســنوات .

أما عن برنامج الحزب فقد تضمن مبادىء عشرة هى :

١ — استقلال مصر كما قررته معاهدة لندن ١٨٤٠ وضمنته الفرامانات الســلطانية ذلك الاستقلال الضامن عرش مصر لعائلة محمد على والضامن للاستقلال الداخلى للبلاد وهو الاستقلال الذى تعهــدت انجلترا رســميا باحتــرامه .

٢ — ايجاد حكومة دستورية فى البلاد بحيث تكون الهيئة الحــاكمة مسئولة أمام مجلس نيابى تام السلطة كمجالس النواب فى أوربا .

٣ — احترام المعاهدات الدولية والاتفاقات المالية التى ارتبطت بهــا الحكومة المصرية لسدد الديون ، وقبول مراقبة مالية كالمــراقبة الثنــائية مادامت مصر مدينة لأوربا ومادامت أوربا تطلب هذه المراقبة .

٤ — انتقاد الأعمال الضــارة بكل صراحة والاعتراف بالأعمال النافعة والتشــجيع عليها وارشــاد الحكومة الى خير الامة ورغائبها والاصلاحات اللازمة لهــا .

٥ — العمل على نشر التعليم فى انحــاء الديار على اســاس وطنى صحيح بحيث ينــال الفقراء النصيب الأوفر منه ، ومحــاربة الخزعبــلات والترهات ونشر المبــادىء الدينية الســليمية الداعية للرقى وحث الاغنياء والقــادرين على بذل كل المســاعدات لنشر التعــليم بتأسيس الكليــات

فى البلاد ، وارســـال الارساليات لأوربا وفتح المــدارس الليلية للعمـــال والصنـــاع .

٦ — ترقية الزراعة والصناعة والتجـارة ، وكل فــروع الحياة ، والعمل والجـــد حتى تنال الأمة استقلالها العلمى والاقتصادى .

٧ — ارشاد الأهالى بكافة الوسائل الممكنة الى حقـــائق الأحـــوال وبث الشعور الوطنى فيهـــم ، ودعوتهم الى الاتحـــاد والائتـــلاف وتمكين المحبـــة بين عنصرى الأمة المسلمين الاقبـــاط وتنبيههم الى واجبـــاتهم نحو بـــلادهم .

٨ — مساعدة كل مشروع يعود على القطر بالنجاح والاجتهـــاد فى تحسين الأحوال الصحية حتى يزداد عدد الســـكان فتزداد الأمـــة قـــوة على قوتهـــا .

٩ — تقوية العلاقات الودية بين تركيا ومصر من جهة ، وبين مصر والدول الأوربية من جهة أخرى ونفى كل تهمة عن مصر ، والعمل لايجاد انصـــار لها فى أنحاء العالم حتى تكون لها قوة أدبية سامية تســـاعدها على اعتراف الغير بحقوقها الشرعية ، والتغلب على المســـاعى التى تعمـــل ضدها ويراد بها اخفاء الحقيقة [٢٤] .

وعند تحليل المبادىء التى ارتكن عليها الحزب الوطنى نجـــد أنهـــا قريبة الشـــبه بالبرنامج الذى ســـار عليه الوطنيون فى عام ١٨٨١ وأطلق عليه برنامج الحزب الوطنى المصرى خصوصا فى اعـــلان ولاء كل منهمـــا للدولة العثمانية ، وضرورة المحافظة على العلاقات الودية معها والارتكان فى ذلك فى مواجهة القوى الخارجية .

ففى البند الأول من برنـــامج الحـــزب الوطنى المصرى ما نصـــه « يرى الحزب الوطنى المحافظة على العلاقات الودية بين الحكومة المصرية والبـــاب العالى ، واتخاذ ذلك البـــاب ركنا يستند عليه » ثم يعتـــرف باستحقـــاق البـــاب العالى لما يأخذه من أمـــوال من الخـــزانة المصرية وما يلزمه من المســـاعدة بشرط المحـــافظة على الحقوق الوطنية ومقاومة

من يحـــاول اخضـــاع مصر او أن يسلب امتيـــازاتها الادارية التى منحتها الفرامانات ، وفى البنـــد الأول من برنامج الحزب الوطنى الذى اسســـه مصطفى كامل نجـــد المطالبة بالاستقلال الذاتى لمصر فى ظـــل السيـــادة العثمانية مما أثـــار البعض على مصطفى كامل خصـــوصا جريدة المقطـــم التى اتهمته وحزبه بأنهم يعملون على استبدال الانجليز بالاتـــراك وبأنهم يفضلون الولاء للعثمانية على الولاء للمصرية ، وقامت بحمـــلة شـــديدة على الحزب الوطنى ومؤسســـه ممـــا دفع مصطفى كامل الى دحض هذه التهـــم ، مبينـــا ان الفرامانات السلطانية تثبت عـــدم شـــرعية الاحتلال الانجليزى لمصر ، وان البـــاب العالى يحترم دائمـــا استقـــلال مصر كما أنه ضـــد اى تغيير للمعـــاهدات الدولية التى نظمت عـــلاقة مصر بالدولة العثمانية [٢٥] .

ويرجع الدكتور هيكل اسباب تمسك الحزب الوطنى بهـــذا البنـــد فى حيـــاة مصطفى كامل [٣٦] الى محاولته تفـــادى معـــارضة القـــانون أو ان ينسب اليه أحد تهمة التآمر على النظام القائم [٣٧] .

ومع وجـــاهة هذا الراى فاننـــا اذا تفحصنـــا الخطبة التى القاها مصطفى كامل على مسرح زيزينيـــا بالاسكندرية واعلن فيها قيام الحزب الوطنى نجـــده يذكر ما نصـــه « اننـــا اذا خطبنا الـــود لأمة أو لدولة فاننا نعمـــل كغيرنا ونتبـــع ناموس الطبيعـــة القـــاضى بأن من اتفقت مصـــالحهم يجتمعون ويتناصرون » ومعنى ذلك انه اذا كان مصطفى كـــامل قد نـــادى بضرورة التمســـك بالرابطة العثمانية فيرجع ذلك الى انه رأى فى التعاون مع الدولة العثمانية ورقة سياسية ذات فاعلية ضد محاولات انجلترا اعلان الحماية على مصر .

وحتى يحـــول دون استمالة انجلترا للسلطان العثمانى وايقـــاعها بينه وبين مصر فليس من الحكمة أن ينادى مصطفى كامل بجلاء الاحتلال البريطانى وبالغـــاء السيادة العثمانية معا [٣٨] لأنه اذا فعل ذلك سيثير غضب تركيـــا ويجعلها تنضـــم الى جـــانب انجلترا ضد المصالح المصرية، كما أنه رأى أن التخلص من الســـيادة العثمانية كان أمرا هينـــا بعـــد التخلص من الاحتـــلال يضـــاف الى ذلك أن الراى العام فى مصر كان

متمســكا بالخــلافة ، وكان يعتبر الســلطان العثمانى خليفة المسلمين، لذلك فان دعــوة مصطفى كامل للتمسك بالخلافة كانت تساير روح العصر وتتفق مع رأى غالبية المصريين [٣٩] .

وفى البنــد الثانى لكل من الحزبين نــرى هناك تشــابها أيضــا فقد نص برنامج الحــزب الوطنى أيام عرابى على عدم عودة الاستبـداد والاحكام الظــالمة ، واتباع حــكم الشورى بواسطة مجلس شـــورى النواب واطــلاق عنان الحرية للمصريين ، ودعــا برنامج الحزب الوطنى بزعامة مصطفى كامل الى أن تكــون الحكومة دســتورية ومسئولة أمام مجلس النــواب .

اما البنــد الثــالث فنجد فيه تشــابها أيضا من ناحيــة احتــرام الاتفاقات والمعاهدات التى عقدت مع الدول الأوربية حتى تهــدأ خــواطر أصحاب الديــون فقد نص برنامج الحزب الأول على احتــرام الاتفــاقات الدولية خصــوصا الديون الأجنبية وقبول استمرار المراقبــة الأوربيـــة كما نص برنامج حزب مصطفى كامل على احترام ارتبــاطات الحكــومة بسداد الديــون وقبــول مراقبة مالية كالمراقبة الثنائية مادامت مصر مــدينة لأوربـــا .

يضــاف الى ذلك أن كل من الحزبين نــادى بتعميم التعليم والعمل على نشر المعــارف وتقوية عنصر الوئــام والمحبة بين كافة الأديان ونفى تهيــة التعصب عن المصريين واشــتراك رجــال مختلفى العقيدة والمذهب فى كل منهمــا .

وعلى كل حال فقــد كان برنامج الحزب الوطنى برنــامجا عمليــا بشــكل عام واقرب ما يكون الى نشــاط مصطفى كامل قبل اعلان الحزب رســميا .

وقد كانت الجمعيــة العمــومية للحزب الوطنى تجتمع مرة فى شهر ديسمبر من كل عام تحت اسم المؤتمر الوطنى لمناقشــة ميزانية الحــزب واعماله ومراجعة نشاطه ووضع القرارات .

وعن اللجنة الادارية للحزب فكانت تنعقد مرة كل شهر للنظر فى الأمور الخاصة بالحزب .

أما عن اللجنة التنفيذية فكانت تتكون من ثمانية اعضاء ينتخبون من أعضاء اللجنة الادارية بخلاف الرئيس يكون منهم نائبان للرئيس وسكرتير وأمين صندوق وكانت هذه اللجنة تجتمع اسبوعيا لتسيير أمور الحزب وما يطرأ عليه من تطورات [٣٠] .

وبالنسبة لاشتراكات الأعضاء فلم يتحدد اشتراك معين بل ترك لكل عضو يدفع ما يريد حسب مقدرته .

وقد نمت حركة الحزب الوطنى واتسع نطاقها بازدياد عدد الذين انضموا الى صفوفه .

وتختلف الآراء التى قيلت عن تأسيس الحزب الوطنى بين مادح وقادح فهناك رأى يرى انه كان من الواجب على مصطفى كامل وجماعته محاربة حركة تجزئة الأمة وتفتيت وحدتها بأن تبادر بكشف اساليب الاستعمار وأعوانه بدلا من أن تسارع الى تنظيم نفسها على شكل حزب بعد الاعلان عن حزبى الأمة والاصلاح على المبادىء الدستورية[٣١] ولكن ردنا على ذلك هو انه بالرغم من اختمار فكرة تكوين الحزب الوطنى فى ذهن مصطفى كامل كما سبق ان أوضحنا الا أنه لم يقدم على هذه الخطوة الا بعد الاعلان عن حزبى الأمة والاصلاح وبعد أن كاد صوت الجلاء يضيع وسط المتاهات الحزبية ، فالواضح أن الحزب الوطنى كان آخر الأحزاب الكبيرة التى أعلنت عن نفسها حيث أعلن عن قيام حزب الأمة فى ٢١ سبتمبر ١٩٠٧ وحزب الاصلاح فى ٩ ديسمبر بينما الحزب الوطنى لم يعلن قيامه الا فى ٢٧ ديسمبر من نفس العام يضاف الى ذلك أن مصطفى كامل رغم انه اضطر الى قبول مبدأ تكوين الحزب السياسى فانه ظل يدافع عن فكرة مبدأ الحزب الواحد ، وكان من رأيه أن تعدد الاحزاب ممكن طالما أن الوطن ليس معرضا للخطر أما وقد أصبحت مصر محتلة من الانجليز ، فان مواجهة الخطر تقتضى الاكتفاء بحزب سياسى واحد هو الحزب الوطنى حتى يتمكن من توحيد الأمة وتجنيد وحشد كافة طاقاتها لتحقيق الاستقلال [٣٢] .

أما الرأى الثانى فكان يرى فى تعـــدد الأحزاب قوة للأمة وتأكيـــدا لصلابتها وتقدمهـــا اذ انه لا توجـــد الأحـــزاب الا فى الأمم القـــوية التى بلغت أشـــدها ، وتكون الأحـــزاب كالشجرة التى تتفـــرع الى اغصـــان كثيرة لكنها ترتبط بالجـــذع الراســـخ بجـــذوره فى اعمـــــاق الأرض ، فكذلك الأمة القـــوية هى الجذع الراسخ وفروعها بمثابة الأحزاب المختلفة الاتجـــاهات (٣٣) .

ثم هنـــاك رأى آخـــر يرى ان العمل الحزبى افضـــل من العمـــل الفردى الذى يمكن أن ينتهى بمـــوت الفرد ، كمـــا ان وجـــود احـــزاب معتدلة بجانب متطرفة يعطى للانجليز الفرصة فى التفاهم معهم فيكون احدهم حلقة اتصال بين الأمة والاحتلال (٣٤) .

ومع وجـــاهة الآراء السابقة فاننا نرى أن ظروف مصر فى تلك الفترة وهى فترة الاحتـــلال كانت تتطلب وجود حزب واحـــد قـــوى يســـتطيع قيادة الأمة نحو الاستقلال بعيـــدا عن المهـــاترات الحـــزبية التى غـــالبا ما تنشـــأ نتيجة الصراع بين مختلف الاتجـــاهات والنزاعات الحزبيـــة ، أما بعد أن يتحقق الجـــلاء فتعدد الأحـــزاب مطلوب لممارســـة الحيـــاة الديمقراطية .

وعلى كل حـــال فقد خاضت مصر غمار الحزبية ، وأصبح لزاما على الحزب الوطنى أن يحمل لواء الاستقلال وقيادة الحركة الوطنية المطـــالبة بالجـــلاء العـــاجل .

ولقد ارتبطت الطبقـــة المتوسطة وبوجه خاص الكامنة منها فى المدن بشخصية مصطفى كامل الرومانســـية أشد الارتبـــاط كما ارتبط الشباب بصفة عامة والطلبـــة بصفة خـــاصة بمصطفى كامل لدرجـــة ان اصبحت بعض المدارس مكانا للمناقشات السياسية التى اثارها الحزب الوطنى (٣٥) ومع ذلك فانه لا يمكن القول بأن الحزب الوطنى كان يمثل كافة المثقفين لأن هـــؤلاء وزعوا بين كافة الأحزاب (٣٦) كمـــا أن الحزب الوطنى فى بـــداية تكوينه لم يهتم بجـــذب الفلاحين اليه وذلك لأن دعوته بالتقـــارب من الدولة العثمـــانية جعلت الفلاحين يبتعدون عنه نظـــرا لما لاقوه من العسف أثنـــاء الحـــكم العثمانى واستمر الحال على هذا المنـــوال حتى

حادثة دنشـــواى التى كانت فرصـــة لوصـــول صـــوت مصطفى كامل للفلاحين [٣٧] ، يضاف الى ذلك ان نشـــاط الحزب الوطنى تركز فى المدن، وبوجه خـــاص فى الاسكندرية والقاهرة والمدن الكبرى بالوجه البحـــرى أما فى الوجه القبلى فلم يكن للحزب الوطنى نفوذ يذكر .

ولقد تميز برنامج الحزب الوطنى بالوضـــوح ورتب مطالبه الوطنية حسب اهميتها فأعطى للجـــلاء الأولوية على الدستور ، وبذلك كان حـــزب التعبير عن الواقع مما كفل له تأييد اغلبية الجماهير فكان له اعظم وزن فى الحركة السياسية المصرية فى تلك الفترة [٣٨] .

وقد أثمرت دعـــوة الحزب الوطنى فى جمع شمل المصريين حـــول مطلب الجـــلاء الذى اقترن بفكرة الحيـــاة الدستورية ، ولما اتضـــح ان ذلك لا يتم الا بالارتقـــاء بأفراد الأمة اهتم الحزب الوطنى بنشر التعـــليم كما نادى برفع الغبن عن الطبقات الكادحة من أبناء الشعب [٣٩] .

ومما يؤخذ على الحزب الوطنى موقفه من القضـــايا الاجتمـــاعية ، فرغم أن مؤسسه تعلم فى أوربـــا فقد ظل متمسكا بالقديم أشد استمساك فهاجم قاســـم أمين عندما أصدر كتابه تحرير المـــراة واتهمـــه بمخـــالفة الدين [٤٠] كما هاجم الشيخ على يوسف لموقفه من قضية الزوجية .

ويمكننا أن نرجع ذلك الى أن مصطفى كامل حاول التقرب الى الشعب فيما هو عزيز لديه من عادات وأوهام لاستغلاله فى الغايات السياسية .

ويؤخذ على الحزب الوطنى ايضـــا انه لم يكن له دور بـــارز داخل القرية المصرية فاعتمـــد على الطبقـــة المثقفة مع ان الحركات الجماهيرية لا تتعمق جـــذورها الا بالاعتماد على القوى الفلاحية التى تمثل غـــالبية أفراد المجتمع كما يؤخذ عليه انه لم يطرح على جماهير الشعب المصـــرى تصورات لآفاق جديدة مثل التى طرحتها الأحزاب الاخرى [٤١] .

ولعل الخديو عبـــاس الثانى كان محقـــا فيما قاله عن مصطفى كامل بأنه لم يكن متـــرطا فى عصريته وأن أفكـــاره كانت اقـــرب الى التقليـــد الشرقى [٤٢] يضاف الى ذلك ما ذكرته جوليت آدم من أن مصطفى كـــامل

كان يشفع اعمـــاله بالتقاليد العربية الأصيلة حتى يرضى شمم عنصـــره الذى لا يقبل فى ذلك الوقت الا ان يسترد ما اعاره لأوربا (٤٣) .

وعلى كل حال فقد أسس مصطفى كامل حزبا ذو تنظيم اتسم بالقوة والثبـــات أمام الضربات التى وجهت اليه وصار يؤدى واجبه فى حـــركة النضـــال الوطنى حتى يمكن القول انه كان صاحب الفضل فى تهيئة الطريق أمام ثورة ١٩١٩ .

٣ ـ محمد فريد وزعامته للحزب الوطنى

حيـــاة محمد فريد الزعيم الثـــانى للحزب الوطنى مليئة بالتضحيات فى سبيل المبـــادىء من أجل الدفاع عن حرية مصر وحقوقها المســلوبة فقد انضم فريد الى قافلة المجـــاهدين بعد ان اتم تعليمه ، وبدأ حيـــاته الســـياسية بالاستقـــالة من وظيفته كوكيل للنـــائب العام بعد موقفـــه الوطنى فى قضية التلغراف ، ثم ضحى بعمله فى المحاماة لكى يتفرغ للجهاد، كمـــا ضحى بأمواله لمساندة الحركة الوطنية فباع كل ما تركه والده مـــن أرض زراعية من اجـــل تمويل الحزب الوطنى حتى يقف على قدميه ثابت الأركان ، ورفض الاشـــتراك فى أى وزارة . أو تولى أى منصب طـــالما الاحتلال جاثمـــا على صـــدر الوطن يضاف الى ذلك انه ضحى براحتـــه وحـــريته فتعرض للســـجن والنفى ومـــات بعيدا عن الوطن الذى أحبه وعمل من اجـــله .

ورغم الظروف الســـياسية التى أحاطت بفريد عقب توليه رئاســـة الحزب الوطنى ورغم ما تعـــرضت له الحركة الوطنية من ضربات متلاحقة ســـواء من الخديو أو من الاحتلال نتيجة ســـياسة الوفاق التى اتبعهـــا الانجليز لاجتذاب الخديو الى صفهم واحتواء الحركة الوطنية فقد ظـــل فريد متمســـكا بمبادئه متحملا للمصـــاعب والعقبات التى واجهته بـــكل عزيمة وجـــلد ليس فقط من جـــانب الانجليز والخديو ، ولكن أيضـــا من جانب بعض أعضـــاء الحزب الوطنى وبوجـــه خاص من على فهمى كامل شقيق مصطفى كامل .

فبعد وفاة مصطفى كامل اتجهت انظار الوطنيين الى محمد فريد ليخلفه فى تحمل أعباء زعامة الحزب الا أن الخديو كان له موقف آخر وهو رغبته فى احتواء الحزب الوطنى عن طريق ترشيح من يتوسم فيه السير فى ركابه خلفا لمصطفى كامل فى زعامة الحزب ، ولما كان الخديو يدرك ان فريدا ليس بالرجل الذى يسير طوع ارادته ، أو ممن يدينون بالطاعة او الولاء له فقد حاول منع انتخابه رئيسا للحزب الوطنى وذلك عن طريق تقريب أعضاء الحزب منه واملاء ارشاداته وتوجيهاته عليهم ، ودس دسائسه لانتخاب من يكون طوع ارادته ، فأوعز الى على فهمى كامل أن يرشح نفسه لرئاسة الحزب الوطنى ووعده بالمساعدة المادية والادبية على اساس انه أحق الناس بوراثة أخيه فى زعامة الحركة الوطنية ، ورغم أن مصطفى كامل كان قد رشح فريداً بأن يكون رئيسا للحزب من بعده فان على فهمى كامل حبذ فكرة الخديو ، وعمل من أجل تحقيقها ، ولكنه رأى التيار داخل الحزب فى صالح فريد فتراجع عن موقفه ، ويتضح ذلك مما كتبه فريد فى مذكراته فقال « كان يريد أن ينتخب بصفته أخ الفقيد وجهز أوراقا مكتوبا عليها اسمه ووزعها على بعض الحاضرين ، وادخل فى محضر الاجتماع الكثيرين من غير الأعضاء بواسطة من وضعهم على الباب من رجاله ، ولكنه لما رأى التيار قويا ضده حول الدفة ، وخطب فى الحاضرين مرشحا لى بناء على جواب كتبه له أخوه من أوربا يوصيه فيه بانتخابى لو فاجأه القدر المحتوم [٤٤] » .

وعلى كل حال فقد فشلت محاولات الخديو فى اسقاط فريد خصوصا بعد أن وقف الأستاذ عثمان صبرى صهر مصطفى كامل ، ومدير جريدة ذى اجبشيان استاندارد والقى خطبة أوضح فيها أن فريد هو المرشح الوحيد لرئاسة الحزب بعد مصطفى كامل ، وقد وجدت هذه الفكرة ترحيبا من اجماع الحاضرين ونودى بفريد رئيسا للحزب الوطنى [٤٥] مما قلب خطط الخديو رأسا على عقب .

ولما علم الخديو بما حدث حاول الا تفلت الأمور من يده اكثر من ذلك فطلب من فريد تليفونيا مقابلته بسراى عابدين ، وهناك هنأه على على انتخابه وكان من ضمن عباراته له « أن وجود مثلك على كرسى

الحركة الوطنية مفيدا جدا لأنك لست محتاجا ، ولا طالبا للمال ، ولأنك من عائلة خدمت البلاد .. ولا يمكن للانجليز أن يقولوا عنك بأنك طالب شهرة أو مال أو وظيفة »[٤٦] كما عرض الخديو على فريد استعداده للمساعدة بالمال ، ولكن فريد رفض ذلك بشدة حتى لايكون مرتبطا بالولاء لأحد .

وهكذا نجح رجال الحزب الوطنى فى احباط محاولات الخديو بمنع انتخاب فريد ، واحداث انشقاق ونزاع بين أعضاء الحزب فقضوا على المؤامرة فى مهدها ، ورأبوا الصدع ، وتم انتخاب فريد رئيسا للحزب الوطنى ، وكذلك حدد فريد فى أول لقاء له مع الخديو بعد انتخابه استقلاله عنه ، ورفض أمواله حتى لا يسير طوع ارادته مما زاد من اصرار الخديو على ضرورة اسقاطه ، ووضع العقبات أمامه .

وقد حمل فريد زعامة الحزب الوطنى وسط مصاعب جمة فلم تسر الأمور على المنوال الذى سارت عليه رئاسة مصطفى كامل للحزب، ويرجع ذلك الى أن فريد تولى زعامة الحزب فى وقت ظهرت فيه سياسة الوفاق بين الخديو والاحتلال فصارت الحركة الوطنية بزعامة فريد هدفا لحرب شديدة من جانب الاحتلال والخديو معا [٤٧] مما جعل فريد يضاعف من جهاده .

وقد أخذ فريد يشرف على تحرير جرائد الحزب الثلاثة ويوجه سياستها كما أنشىء فى أوائل عهده بالرئاسة نادى الحزب الوطنى ، وتولى هو رئاسته .

وقد حدد فريد مطالب الحركة الوطنية فى مطلبين هما الجلاء والدستور وبذلك كان متفقا فى خطته مع مصطفى كامل الا أنه أبرز دعوة المطالبة بالدستور وجعل منها حركة عامة دعا اليها الأمة ، ووجهها الى مطالبة الخديو بالدستور بكتابة العرائض الى قصر عابدين[٤٨] ، وقد أعد الحزب الوطنى عرائض لتقديمها الى الخديو بطلب مجلس نيابى [٤٩] واعادة دستور ١٨٨١ الذى ألغى بعد هزيمة العرابيين .

ويبدو أن فريدا كان قد اقنــع الخديو بضرورة منح الأمة المصــرية مجلسا نيابيا ، وأن الخديو وافق على كتــابة العرائض بطلب الدستور حتى اذا سافر الى انجلترا يتكلم مع الملك ادوارد بخصوص منح المصريين الدستور ويثبت ذلك ما كتبه محمد فريد فى مذكراته « كان الشـــروع فـــى هذا العمل بالاتفـــاق مع الخديو حتى اذا سافر الى انجلترا يتكلم مـــع الملك ادوارد فى ذلك ويظهر له أن الأمة المصرية تطلب الدستور وانه يوافق على ذلك لأنه من حقوقها »(٥٠) .

وعلى كل حال فقد أخذ الحزب الوطنى يجمع التوقيعـــات بطـــلب المجلس النيـــابى حتى وصـــل الى حوالى خمســـة وسبعين الف توقيع، ولما تبلورت خطـــورة هـــذه الحركة داخـــل البـــلاد ســـعى الاحتـــلال لاحباطها فأعلن وزير الخـــارجية البريطانية فى مجلس العموم أن الخديو لا يمكنه أن يمنـــح بلاده دستورا أو مجلسا نيابيا الا بعـــد استشـــارة الحكومة البريطانية ، وقـــد احتج الحزب الوطنى على ذلك بشدة وانتقد ما تخـــوله انجلترا لنفســـها من الحق غير الشرعى فى التدخل بين الأمة والخـــديو صـــاحب السلطة فى منح أمته الدستور (٥١) فذكر فريد بأنه خير لنـــا أن نبقى بلا دستور من أن ننـــاله بالاعتراف بأن للانجليز حقـــا أو شـــبه حق فى بلادنا .

وعلى الرغم مما أبداه الخديو من ارتيـــاح فى بداية الأمر الى تقـــديم العرائض فانه قابل اتســـاع هذه الحركة بالفتـــور ثم تغير موقفه حيالها وبوجه خـــاص بعد أن اظهر الاحتـــلال استيـــاءه وأعلن جورســـت ان الشروط اللازمة لاقامة مجلس نيـــابى فى مصر غير متوفرة والتفـــكير فيهـــا يعتبر ضربا من الحمـــاقة والجنون فخشى الخـــديو أن تتعرض ســـياسة الوفاق بينه وبين الانجليز للخطر يضـــاف الى ذلك أن فريدا اشترط أن يضع أحكام الدستور المنتظر مجلس منتخب من الأمة ممـــا جعل الخـــديو يتردد فى الأمـــر .

ورغم ذلك فان الحزب الوطنى استمر فى مطالبته بالدستور ، وجدد أساليبه فى مطـــالبته به فبعد أن كانت المطـــالبة تقتصر على العـــرائض اتبع الحزب اســـلوب المظاهرات الشعبية ، فكان يتجمع فى حديقة الجزيرة الآلاف ثم تســـير المظاهرة الى قلب القاهرة منادية بالدستور ، وكان دور

الطلبة خصوصا طلبة المدارس العليـا بـارزا فى هذه المظـاهرات ففى محطة طنطـا قام الطلبة بمظـاهرة وطنية اثنـاء مرور الخـديو بهـا يطالبون بالدستور ، كمـا تظاهر الطلبة اثنـاء مرور مـوكب الخـديو فى القاهرة هاتفين « الدستـور يا افندينا »(٥٢) وكان طلبـة الحقـوق يصعدون على سـطح مدرسـة مجاورة لقصر عـابدين يرددون الهتاف للدستور(٥٣) ولم يتوقف الأمر عند ذلك الحد فقد تعقبت هـذه الدعـوة الخـديو خـارج مصر أيضا فقد طـالبه المصريون الموجـودون فى تركيا بالدستور أثناء زيارته للسلطان وعلا هتـافهم « الدستور يا افندينا » كما طالبه به الطلاب المصريون بانجلترا اثناء زيارته لها (٥٤) .

وقد تزايدت الهتافات بالدستور فى كل مكان حتى اصبحت اقـرب الى نشيد وطنى لا يظهر الخديو فى اى مكان عام الا ويواجه بها واحيـانا تختلط هذه الهتافات بزغاريد النساء (٥٥) .

يضاف الى ذلك أن الحزب الوطنى حاول اتباع أسـاليب الضغط والتهديد مع الخديو حتى يمنح الأمة الدستور وذلك بأن يقدم اعضـاؤه عريضـة للخديو يطلبون فيها الدسـتور ، واذا لم يتحقق مطلبهم فى مدة شـهر يتوقف المصريون كافة عن دفع الضرائب للحكومة(٥٦) ولم يقتصر الأمر على ذلك بل قـام بعض رجال الحزب الوطنى بارهـاب الخـديو فأرسلوا اله خطـابات تهديد بنسـف موكبه كمـا قاموا بوضـع عـوائق أمام القطار الخاص الذى كان يقوده الخـديو بنفسـه من مـريوط الى الاسكندرية ، ولكن الخديو تمكن من ايقاف القطار بصعوبة .

وبالرغم من أن حركة المطالبة بالدستور لم تسفر عن اعلانه بـل زادت من تقرب الخديو لقصر الدوبارة فانها غرسـت فى نفوس المصريين التعلق بالحكم الدستورى والكراهية للحكم الاستبدادى (٥٧) كمـا انهـا زادت من متاعب رجال البوليس فى حفظ النظام فى شوارع القاهرة (٥٨) مما سبب قلقا لسلطات الاحتلال .

وبالرغم من احساس فريد بخطورة التصـدى للخـديو والانجليـز معا فانه لم يجـد بـدا من التصـدى لهمـا دون أن يبـالى بغضبهمـا

أو تحالفهما ضـده فانتقد زيـارات جورسـت المستمرة لقصر عابدين ، واعلن عن تخوفه من النتـائج السـلبية التى تعود على الحركة الوطنية من جراء توثيق العلاقات بين الخديو والمعتمد البريطانى وكتب مقـالات فى اللواء تحت عنوان « ماذا يقولون » بدأ أولهـا فى ١١ ابـريل ١٩٠٨ وفيها عرض بالخـديو وسياسته وذكره بمواقفـه السابقة من الانتصـار للحركة الوطنية والدستور (٥٩) كما فتـح باب المناقشة فى سياسة الوفاق يضاف الى ذلك أنه سـافر الى فرنسا فى مايو ١٩٠٨ للدفاع عن القضية المصرية والتقى ببعض رجـال السياسة والقلم هنـاك كمـا سـافر الى انجلترا ، وقابل المستر بلنت وبعض اعضاء البرلمان الانجليزى(٦٠) وهناك طـالب بالجـلاء واعادة الدستور ، واوضح أن الحركة الوطنية لم تمت بوفاة مصطفى لأنهـا لم تكن قائمة على اشخـاص بل لهـا اسس وجذور فى داخل الشعب المصرى ، ومهما تغيرت الاشخـاص فالمبدأ ثابت لا يتغير وهو جلاء الانجليز عن مصر .

ولما حاول بعض النواب الانجليز اقنـاع فريد بالتخلى عن مطـلب الجلاء فى سبيل بحث اعطاء مصر الدستور ، رفض ذلك الطلب بشـدة واوضح أنه لا مساومة فى موضوع جلاء المحتلين عن مصر (٦١) .

وقد تضـايق الخديو من محاولات فريد افساد سـياسة الـوفاق فحاول ابعـاده عن الاتصـال بالجماهير وتخريب الندوات السياسية التى يقيمها الحزب الوطنى فعندما سـافر فريد الى الزقازيق مع بعض رجال الحزب لالقاء خطبة بمناسبة دخول انجليز مصر تصدى لهم أنصار الخديو بالمحطة وحاولوا منع الاحتفال ، ولكن لم يتحقق مسعاهم .

وقد جاهر الخديو بعدائه لفريد بعـد ان فشل فى احتـوائه فرماه وانصـاره بالتسرع فى حديث له مع مكاتب جريدة الطـان الباريسية فقال « لقد اشتغلت دائمـا فى ترقية بـلادى وتقدمها فى الحضارة ، ولـكن للاسـف وجد قوم متسرعون جدا اخروا تقدمها الطبيعى بالحاقهم فـى مطـالب سـابقة لأوانها ومصحوبة بالضوضاء » وعرج فى حديثه على الاحتلال وجورسـت فقال « ولى وطيد الأمل فى انقيام بمهمتنا بمسـاعدة البلد الذى يؤيد مصر تأييدا عظيما فى رفع شأنها وتمدينها ، وان وجود ممثل هذا البلد السير الدون جورست بيننا يعتبر وثيقة لنا لتحقيق ذلك »(٦٢) .

وقد رد فريد على ذلك بمقالتين تحدث فيهما عن خطر سياسة الوفاق على القضية المصرية وانتقد الخديو له بالتسرع .

وعلى كل حال فانه يتضح من احاديث الخديو انتقاده للسياسة العدائية التى كان يجرى عليها الحزب الوطنى ضد الانجليز وتمسكه بسياسة الوفاق التى سار عليها جورست .

ولم تقتصر المضايقات الموجهة الى فريد على الخديو والمحتلين فحسب بل شاركهم فى ذلك على فهمى كامل وبعض المنشقين على سياسة فريد ، فقد عمل على فهمى كامل على تعطيل جريدة اللواء لاحراج مركز فريد فحرض عمال الجريدة على الاضراب عن العمل فى نوفمبر ١٩٠٨ حتى تتحقق مطالبهم ، ولما لم ينجحوا فى مسعاهم فى تعطيل الجريدة او السيطرة عليها قاموا بانشاء جريدة مصر الفتاة لتعبر عن آرائهم وتنتقد سياسة فريد وتحارب اللواء ، ومع كل ذلك فقد تذرع فريد بالصبر ودعا كافة اعضاء الحزب الى ضرورة لم الشمل والتضامن لمجابهة الدسائس التى تحاك ضد الحزب .

وقد تدفعنا مضايقات على فهمى كامل لمحمد فريد الى التساؤل عن سبب الخلاف الاساسى بينهما .

الواقع ان الخلاف كان يكمن فى علاقة كل منهما بالخديو ففريد كان يمثل التيار المتشدد تجاه الخديو بينما على فهمى كامل كان يتمسك بمبدأ الموالاة الشديدة له يضاف الى ذلك ان على فهمى كامل كان يعتبر انه أحق من فريد برئاسة الحزب الوطنى ، وان فريدا اختلسها منه لذلك كان يحاربه فى الباطن بينما يظهر له الود كما ان حب على فهمى كامل الشديد للمال جعل من السهل على الخديو اجتذابه الى صفه ضد محمد فريد ومحاولة اظهاره بمظهر عدم القدرة على ادارة الحزب وصحافته .

ورغم كل هذه العقبات التى اعترضت فريد فقد سار فى برنامجه الوطنى لتحقيق الجلاء والدستور ، ومن أجل ذلك عمل فريد على تعليم الشباب حتى يتعرف على حقوقه وواجباته فطالب بنشر التعليم الابتدائى

بين جميع طبقـــاته فقيرها وغنيها ، وان يكون هذا التعليم الزاميا ومجانيا لكل مصرى ومصرية حتى يشب التلاميذ على حب المساواة ، ويعرفون منذ نعـــومة اظفارهم الا تفـــاوت بين الناس الا بخدمة الوطن كما تبنى فريد مع نـــادى المدارس العليا فكرة انشـــاء مدارس ليلية لتعـــليم الفقـــراء والعمال مجانا ، وقد عرفت هذه المدارس باسم مدارس الشعب ، وبدات الدراســـة بأولها وهى مدرســـة بولاق فى نوفمبر ١٩٠٨ وعهد بالتدريس فيها الى رجـــال الحزب الوطنى وانصاره فكان المحامى والطبيب والمهندس وغيرهم يخصصـــون من أوقاتهم ساعة او اكثر كل مساء يقفون فيهـــا فى حجرة ضيقـــة خشنة يعلمون الفقراء مبادىء القراءة والكتابة ، وجغرافية بلادهم وتاريخها وقـــوانين المعـــاملات اليـــومية والأخلاق والآداب وغير ذلك من العلوم ، ومن داخل هذه المدارس نبتت بذور فكرة انشاء نقـــابة الصنـــائع اليدوية من اجل حماية العامل والفـــلاح من الفقر ، ومساعدته عند الشـــيخوخة ، ورغم اهمية هذه المدارس فى القضـــاء على الجهـــل والأمية فان الحـــزب الوطنى اقتصر على افتتـــاحها فى القاهرة ولم يـــكن للاقاليم منها نصيب .

وقد دعا فريد الى وضـــع التشريعات لحمـــاية العمـــال والعنـــاية بشئونهم وتحديد ساعات العمل بالنسبة لهم ، وتحريم اشتغال الاطفـــال الذين تقل اعمـــارهم عن تسع سنوات فى محالج القطن ، وتحريم عملهم فى كافة المصـــانع ليلا ، كما عنى بتأسيس النقابات للدفاع عن حقـــوق العمال والمطالبة بترقية احوالهم المادية والمعنوية فانشئتببولاق عام ١٩٠٩ أول نقـــابة للعمال فى مصر باسم نقـــابة عمال الصنائع اليدوية ، كمـــا دعا الى ايجاد النقابات الزراعية لتقف ضـــد الظلم الفادح الذى يتعرض له الفلاح من الحكومة والملاك والمرابين كمـــا طالب بتخفيف الضرائب عن الأطيـــان ، وتحســـين حالة الفلاح المسكين الذى يعمـــل هو وزوجتـــه واولاده ورغم ذلك لا يحصلون الا على القوت الضرورى .

وقد سرت فكرة تأسيس النقابات فى عاصم الاقاليم فانشئت نقابات لعمال الصنـــائع اليدوية فى الاسكندرية والمنصورة وطنطـــا وغيرها على غرار نقابة القاهرة .

ونتيجة لدعوة فريد بالاهتمام بالعمال والفلاحين ذكر البعض ان الحزب الوطنى أيام فريد كانت به لمسات اشتراكية ، ولكن الواضح ان مخطط الحزب الوطنى كان يفتقر الى مثل هذه اللمسات الحقيقية لانه لم يقدم على سبيل المثال منهجا عمليا للاسهام فى حل مشاكل الشعب الاقتصادية والاجتماعية ، ولم يتعد دفاعه عن العمال والفلاحين الخطب والمقالات بهدف جذبهم اليه وبث روح النضال الوطنى فيهم ، وتنظيمهم ليكونوا ركيزة للعمل الوطنى الى جانب المثقفين من أبناء الطبقة المتوسطة ولم يقتصر دور فريد الوطنى فى الكفاح على ذلك بل شجع على تأسيس جمعيات للطلاب المصريين الذين يدرسون فى الخارج بهدف الدفاع عن قضية استقلال مصر [٦٣] ثم عقد المؤتمرات فى أوربا لشرح حقيقة القضية المصرية يضاف الى ذلك الاشتراك فى المؤتمرات التى تعقد فى أوربا لاظهار حقوق الشعوب المغتصبة بهدف تكوين رأى عام يناصر القضية المصرية .

وفى محاولة للحد من نشاط فريد الثورى والقضاء على الروح الوطنية قامت حكومة بطرس غالى بتقييد حركة الصحافة فاعادت فى مارس ١٩٠٩ العمل بقانون الصحافة القديم الصادر فى نوفمبر ١٨٨١ والذى يخول لوزارة الداخلية حق انذار الصحف وتعطيلها مؤقتا أو نهائيا دون محاكمة أو دفاع ، كانت حجة الوزارة فى ذلك هو ردع الجرائد التى تجاوزت الحدود ، ووقف الفوضى التى تتعرض لها البلاد .

وقد احتج الحزب الوطنى على اعادة هذا القانون الذى يكمم أفواه الوطنيين وظهر ذلك واضحا فى المظاهرات التى قامت فى القاهرة احتجاجا على تقييد حرية الصحافة ، وفى برقيات الاحتجاج التى ارسلت الى الخديو والوزراء وعلى كل حال فقد حوكم الشيخ جاويش بمقتضى هذا القانون لنشره مقالا باللواء تحت عنوان « ذكرى دنشواى » اعتبرته النيابة طعنا فى حق بطرس غالى رئيس المحكمة المخصوصة التى حاكمت المتهمين ، وحكم عليه بالسجن لمدة ثلاثة شهور ، كما أنذرت جريدة اللواء لنشرها مقالا عن شاب هندى يدعى (دنجرا) عدتها تحريضا على ارتكاب الجرائم والاخلال بالأمن والنظام كما أمعنت الحكومة فى عدوانها على ضمانات الحرية الشخصية فأصدرت

ما يعرف بقانون النفى الادارى وبمقتضـــاه يكون الحق للحكومة ان تنفى الأشخـــاص الذين تــرى فيهم خطورة على الأمن العام ولم تقتصر جهود الحكومة البطرسية على الافتئات على حقـــوق الأفراد بل حاولت ايضـــا الافتئات على حقوق الأمة بمد فترة امتيـــاز قناة السويس الذى كان ينتهى العمل به عام ١٩٦٨ أربعين عاما اخرى فى نظير مبلغ اربعة ملايين مـــن الجنيهـــات تدفعها الشركة لهـــا ، ورغم أن هذا المشروع قد ظل فى طى الكتمان حوالى سنة فان محمد فـــريد تمكن من الحصـــول على نســـخة المشروع فى اكتوبر ١٩٠٩ ونشرها فى جريدة اللواء موضحـــا مدى الغبن الذى ستتعرض له مصر من ورائه وكان ذلك بمثابة صيحة الخطر فاهتمت الأمة بطوائفها وصحافتها بهذا الموضوع فرأت الاحزاب ضرورة الاتفـــاق على طريقة واحدة (٦٤) كمـــا طالبت الصحـــافة بعـــرض المشروع على الجمعية العمومية قبيل البت فيه ونظرا لخطـــورة المسألة اجتمعت اللجنة الادارية للحزب الوطنى فى ٢٩ اكتوبر ١٩٠٩ وهـــاجمت قيمـــة المشروع السياسية والمالية ، وطالبت الحكـــومة بأخـــذ رأى الأمـــة قبـــل تنفيـــذ المشروع(٦٥) كما أرســـلت البرقيات الجماعية الى الخديـــو رفض فيهـــا اصحـــابها تجديد امتياز القنـــاة ، وطالبوا بعرض الموضوع على الجمعية العمـــومية (٦٦) .

ونظرا لما آلت اليه البـــلاد من الغليان حاول الخديو اقناع جورست بعرض المشروع على الجمعية العمومية ومع ان جورست لم يعتـــرض على ذلك الا انه اشـــترط ان توافق الحكومة على المشروع اولا ثم تترك امر تنفيذه لموافقة الجمعية العمومية (٦٧) على أن يدافع سعـــد زغلول عـــن المشروع امامها ونتيجة لذلك قامت الوزارة بدعوة الجمعية العمومية للانعقاد لاحـــالة المشروع عليهـــا .

ولكى تتضح مخاطر المشروع أمام الراى العـــام قـــام فريد بتوضيح ابعـــاده السياسية فقال « كيف يجوز لهذه الحكومة ان تتســـاهل فـــى أمر اطـــالة أمد هذه الشركة مع علمها ان هذه القناة كانت السبب فـــى ضياع استقلال مصر ، وان كل مصرى يتوق لأن يراها ملكا لمصر » كمـــا طالب فريد بحفظ مرافق الأمة فى أيـــدى ابنائها ، وهاجم تمليك مرافـــق البلاد الى الشركات الانجليزية ، وناشد اعضاء الجمعية العمومية الاستقلال

فى الفكر والشجاعة الأدبية لأن مصالح الأمة فوق كل شىء كما دعا الحزب الوطنى الى القيام بمظاهرة وطنية عند اجتماع الجمعية العمومية للمناداة برفض المشروع .

وعندما افتتحت جلسات الجمعية العمومية برئاسة الأمير حسين كامل فى ٩ فبراير ١٩٠٩ لمناقشة هذا الموضوع حاولت الحكومة استعمال الشدة مع الاعضاء لكى يوافقوا على المشروع فقد كان بطرس غالى يعتقد أن المشروع نافع للبلاد كما كان الأمير حسين كامل يؤيد المشروع[٦٨] ولكن الاعضاء اصروا على رفضه ، وفى ١٠ فبراير شكلت لجنة مكونة من خمسة عشر عضوا لدراسة المشروع وكتابة تقرير عنه ، وقد انتهت اللجنة الى عدة قرارات أهمها .

عدم قبول مشروع الاتفاق المعروض على الجمعية لانه ليس فى صالح البلاد بل يعد غبنا فاحشا على مصر ، ونظرا للمعارضة الشديدة للمشروع فى الجمعية العمومية لم يجد الأمير حسين كامل بدا من الاستقالة من رئاسة جلسات الجمعية خصوصا بعد أن فشل فى تحويل دفة المناقشات لصالح الحكومة .

واستمرت المناقشات فى الجمعية العمومية ، وفى النهاية تقرر رفض المشروع بأغلبية الآراء ، فكانت هذه المرة الأولى التى استطاعت فيها الجمعية العمومية فرض رأيها على الحكومة .

وهكذا نجح ضغط الراى العام المصرى فى اجبار الانجليز والوزارة على العدول عن مشروع له مساس كبير بالاقتصاد المصرى مما اقلق مضاجع الانجليز والحكومة فبداوا فى تحين الفرص لارهاب زعماء الحركة الوطنية ، ومهدت لذلك جريدة المقطم باتهامها لرجال الحزب الوطنى بالثورية المتطرفة التى تختزن السلاح وتتحين الفرصة للقيام بثورة تطيح بالنظام القائم[٦٩] .

ونتيجة للارهاب السياسى الذى تعرض له زعماء الحزب الوطنى وانصاره تحولت سياسة الحزب الى تشجيع الأفكار الارهابية[٧٠] وتدعيم

التنظيمات السرية ، كما ابرزت اللواء اساليب الكفاح الثورى فى الهند ، واشادت بدور الطلاب الهنود فى مقاومة الاستعمار البريطانى(٧١) .

ويبدو أن فريدا قد شجع على أسلوب العنف الثورى فتألفت تحت رعايته جمعيات فى البلدان الأوربية التى بها طـــلاب مصريون للدعايـــة للقضية المصرية ، وقد استطاع هؤلاء الشبان أن يثيروا قضـــية مصر فى البلدان التى يقيمون فيها ، ومن خـــلال هؤلاء تكونت الجمعيات السرية ، وتدرب الطلاب على استعمال الأسلحة والمفرقعات لتخليص بلادهم بالقوة، وكان فريد يزورهم وقد اهدى اليهم فى احدى هذه الزيارات مسدســـات ، كمـــا كان ابراهيم الـــوردانى وشفيق منصور يزوران هـــؤلاء الطـــلاب لتجديد العهد معهم كل عام(٧٢) .

ومع ازدياد نشاط هذه الجمعيات السرية الذى صحبـــه ازدياد فى شعبية الحزب الوطنى توقع البعض انه كان من الممكن حـــدوث ثـــورة مسلحة فى البلاد ، ولكنها لم تحدث أمام سياســـة الاضطهاد التى اتبعها الانجليز والحكومة ضد الحزب الوطنى(٧٣) .

وعلى كل حال فقد ظل فريد متمســـكا باستقلاله عن الخديـــو مما جعل العداء مستحكما بينهما حتى وصل الأمـــر بفريد أن رفض الوقوف أثناء عزف السلام الخديو فى حفل لرعاية الأطفال بدار الأوبرا مما استرعى أنظار الحاضرين ، واحدث ضجة فى داخل السراى ، ولمـــا خاطب حسين رشدى محمد فريد فى هذا الشأن اجابه بأنه ليس هناك قانون يحتم عليـــه الوقوف ، وكانت هذه الظاهرة بمثابة اعلان محمد فريد حربا عدائيـــة ضد الخديو وخروجا على التقاليد المرعية(٧٤) .

ولتمكين قبضة الحكومة من السيطرة على الموقف قام رجال البوليس السياسى بمراقبة اعضـــاء الحزب الوطنى ، وكتابة التقـــارير اليوميـــة عن أحوال البـــلاد ، وذلك بناء على طلب اللورد كتشنر(٧٥) الذى أراد تصفية العناصر الوطنيـــة ذات الميـــول المتطرفـــة عن طريق تعريضهم للمحاكمات والارهاب وشتى ضروب الاضطهاد .

ونتيجة لاغتيـــال بطرس غالى امعنت الحكومة فى محاربة الحـــركة

الوطنيـــة فصدرت ثلاثة قوانين تعطى الصفة القانونيـــة للحكومـــة فى تصرفاتها المطلقة تجاه الصحافة والمطبوعات ، ومظاهرات طلاب المدارس ، وتعديل قانون العقوبات ، وقد استهدفت الحكومة من هذه القوانين التنكيل برجال الحـــزب الوطنى وهـــذا ما حدث فعـــلا فقـــدم كل من الشيخ عبد العزيز جاويش ومحمد فريد فى أغسطس ١٩١٠ الى المحاكمة بتهمـــة كتابة مقدمـــة لكتاب وطنيتى الذى ألفه الشيخ عـــلى الغاياتى وتضمن التنديد بالظلم وبحكم الفرد ، فقد تحدث الغاياتى عن استسلام ملك فرنسا لويس السادس عشر لارادة حاشيته الظالمه وزوجته المسرفـــة المستبدة مارى انطوانيت التى كانت تحتقر الشعب الفرنسى ، كما بين هذا الكتاب ان ارادة الشعب كانت دائما فـــوق كل ارادة ، وان الويـــل دائما يلحق بالحكومات اذا غضبت عليها الشعوب(٧٦) .

كما تضمن هذا الكتاب تنديدا بحكم الخديو المطلق واسرافه فكتب على الغاياتى يقول « يأخذ الحاكم المستبد أموال الأمة باحـــدى يديـــه ، ويسومها سوء العذاب باليد الأخرى فهو يجبيها ليشبع ويفقرها ليغنى ، ويذلها ليعتز ثم يسد فى وجهها مناهل العلم لتنفسح أمامه مناهج الظلم » ثم هدد الحكام الظالمين بقوله « لكن يوم الظالمين يوم عصيب . هنـــالك يغير الله حالا بعد حال وتستوى الأمـــة على عرشها تدير دفـــة الحـــكم بيدهـــا »(٧٧) .

ومع أن جميع القصـــائد التى احتواها الكتاب كان قدسبق للصحف نشرها فقد نبهت جريدة المؤيد السلطات الى خطورة الكتاب مما دفـــع الحكومة الى مطالبة النيابة بالتحقيق فيما ورد بالكتاب فأمرت بمصادرته ووجهت تهمة التحريض على جريمة القتل السياسى والعيب فى حق الذات الخديوية ، والحض على كراهية الحكومة(٧٨) الى محمد فريد وعبد العزيز جاويش وعلى الغاياتى ، ولمـــا كان محمد فريد فى أوربا فى ذلك الـــوقت للدفاع عن القضية المصرية بمؤتمر السلام باستوكهلم فقد أجلت محاكمته لحين عودته بينمـــا حكم على الشيخ الغاياتى غيابيا (وكان قد خـــرج سرا من القاهرة الى الآستانة) بالحبس لمدة سنة ، كما حكم على الشيخ عبد العزيز جاويش بالحبس ثلاثة شهور .

ومع أن خصوم محمـد فريد قد اشاعوا انه لن يعود خوفـا من الحكم عليه ، فانه نفى هذه الشائعة وهو فى اوربا وعاد الى مصر بعد أن كتبت كبرى بناته الآنسة فريدة خطابا تذكر له فيه الشائعات وتطلب منه العودة الى بلاده بقولها « ولنفرض أنهم يحكمون عليك بمثل ما حكموا به على الشيخ جاويش فذلك اشرف من أن يقال أنكم هربتم وما تحملتم الهوان فى سبيل وطنكم وباسم الوطنية والحرية التى تضحون بكل عزيز فى سبيل نصرتها أن تعودوا وتتحملوا آلام السجن [٧٩] .

وعاد فريد الى مصر بعد أن جاهد فى أوربا فى سبيل الدفـاع عن قضيتها ، وبدأت النيابة التحقيق معـه فى ٤ ينـاير ١٩١١ وقـد تولى استجوابه محمد توفيق نسيم ، ونظرت القضية أمام محـكمة الجنايات بالقـاهرة فى ٢٣ ينـاير ١٩١١ ، واصـدرت المحكمة حكمها بحبس فريد لمدة ستة شهور مع النفـاذ ، فقابلت الأمـة من كبيرها الى صغيرهـا هذا الحكم بالاستياء الشديد .

وعند مراجعتنا للمقدمة التى كتبها محمد فريد لكتاب الشيخ الغاياتى وهى بعنوان « تأثير الشعر فى تربية الأمم » والتى حـكم عليـه بسببها بالسجن ستة أشهر نجد أنها لا تمثل أى مسئولية قانونية فقد تحدث فريد عن أثر الشعر فى ايقاظ الأمم من سباتها ، وهاجم استبداد حكومة الفرد لاماتتها للشعر الحماسى دون أن يذكر اسم هذه الحكومة ودعا الشـعراء الى عدم تملق الأمراء والتقرب من الوزراء لأن « الحكام زائلون والأمـة باقية »[٨٠] وهذا التعبير ربما لا يختلف فيه اثنان .

ويبقى لنا أن نتساءل لمـاذا حكم على فريد بستة شهور وحكم على الشيخ جاويش بثلاثة مع أن التهمة الموجهة اليهما واحدة .

والواقع ان محاولة الحكومة التنكيل بفريد وارهابه حتى يعـدل عن موقفه العـدائى من الاحتـلال كانت السـبب وراء هـذا الحـكم الذى لا يتناسب مع التهمة الموجهة اليـه فمسئولية فريد فى نظر لحكومة لا تقف عند المقدمة التى كتبها لكتاب وطنيتى بل ترجع الى خططه المناوئة لها ، والى مبادئه التى نشرها والى خطبه التى أثرت فى نفوس الكثيرين وقـد

يسال البعض أن القضاء وليس الحكومة هو الذى حكم على فريد بذلك الحكم الجائر اقول ان احالة الحكومة لجنح الصحافة الى محكمة الجنايات مع حرمان المتهم من الضمانات ربما تكون هى التى ادت الى مثل هـذا الحكم الجائر .

وعلى كل حال فانه بعد صدور الحكم على فريد تم عمـل استفتاء فى جريدة الشعب لمعرفة راى علماء القانون عن السبب فى الحكم عـلى فريد بستة شهور بينمـا حكم على الشيخ جاويش بثلاثـة شهور مـع ان التهمة واحدة فكانت الحجة أن فريد يعرف القانون اكثر من الشـيخ جـاويش .

ولقد تلقى فريد الحكم برباطة جاش ودخـل السجن ، وهناك بدأت مساومته فوعده بعض أنصار الاحتلال والخديو بالعفو عنه اذا وعد بتغيير خطته فرفض بكل شمم وقضى مدة الحبس فى سجن الاستئناف ببـاب الخلق صابرا ثابتا[٨١] وبعـد خروجه من السجن كتب مقالا عنوانه من سجن الى سجن عبر فيـه عن شعوره وهو فى السجن عند خروجه منـه فقال « مضى عـلى ستة أشـهر فى غيابات السجن ، ولم استشعر أبدا بالضيق الا عند اقتراب أجل خروجى لعلمى أنى خـارج الى سجن آخر هو سجن الأمة المصرية الذى تحده سلطة الفرد ويحرسه الاحتلال » . كما اعلن فريد أن حبسه لم يؤثر فى نمو الحزب الوطنى وانتشـاره ومبادئه بين طبقات الشعب .

وهكذا كان مسلك فريدقبـل وبعـد دخوله السجن تشريفا للوطنية المصرية ، ومثلا ينير طريق المجاهدين ، فرغم أنه سليل الأغنياء والأمراء فقد دخل السجن وتحمل مشاقه ، ولم يقبل مساومة الخديو وانصـاره ، وخرج من السجن وهو اقوى صلابة .

والجدير بالذكر أنه فى أثناء سجن فريد تصدعت سياسـة الوفـاق بوفاة المعتمد البريطانى جورست فى ١٢ يولية ١٩١١ وتعيين كتشنر الذى لم يكن من انصار سياسة الوفاق ونتيجة لذلك سعى الخديو الى الحـزب الوطنى ليعدل من موقفه حياله ، ولكن فريدا رفض أن يجعل للحزب أيـة صلة به ، ورغم الاضطهاد الذى تعرضت له جرائد الحزب خصوصا صدور

الأوامر بغلقها بحجة سلوكها المناوىء للحكومة فقد كان فريد يتغلب علـى ذلك باصدار صحيفة اخرى فى نفس اليوم الذى يتقرر فيــه غلق صحيفة الحزب تحت اسم آخر فأصدر الحزب الوطنى جريدة الشعب بعد أن اغلقت السلطات جريدة العلم ، كما استأنف فريد نشاطه فى أوربا وتركيا دفاعا القضية المصريـــة .

وعندما القى فريد خطابه السنوى فى الجمعيـــة العموميـــة للحــزب الوطنى فى ٢٢ مارس ١٩١٢ ندد فيه باقتراح اللورد كتشنر انشاء صندوق توفير للزراع ، وطـــالب أن يكون ذلك بأيدى صرافى البـــلاد كما طالب بالدستور وأنهى حديثه بقوله « اللهم طهر قلوبنا من أدراء النفاق ونق افئدتنا من جراثيم الخنوع والاستسلام حتى ندرك أن لنـــا كـــرامة تجب المحافظة عليها ، ووطنا يجب الدفاع عنـــه بالأنفس والأموال وحقا فى الحرية تجب المطالبة به » .

ومع ان هذه الخطبة كانت خفيفة اللهجة عن خطب فريد السابقـــة فان الحكومة التى كانت تتربص به رأت أن القاء فريد فى السجن يحد من نشاطه الوطنى ، ويرهب باقى الوطنيين لذلك أرسلت له اخطارا على يد ضابط بوليس يتضمن استدعاءه الى النيابـــة لاستجوابه عما ورد بخطبته ، ولمـــا احس فريد بنية الحكومة تجاهه فكر فى مغادرة البلاد الى الخـــارج وقد أوضـــح ذلك فى مذكرة بقوله « ومن هـــذه اللحظـــة صممت عـــلى ترك مصر »[٨٢] .

ولمـــا كان أمر مغادرة زعيم الحزب الوطنى للبـــلاد له خطورته فى التأثير عـــلى الحزب فقد استشار فريد أعضـــاء اللجنة الخاصة بمناقشة المسائل المهمة فى الحزب ، وعن ذلك يذكر « خابرت صادق بـــك رمضان وفؤاد بك سليم ومحمود بك فهمى المحامى واسماعيل لبيب واسماعيل حافظ أعضاء اللجنة الخصوصية التى كنا قد شكلناها للمداولة فى مسائل الحزب الهامة قبل عرضها على اللجنة الادارية ، وفى صبـــاح يوم الاثنين نـــزلت بالقطار من محطة الحلمية حيث كنت ساكنا الى محطة الزيتون وقصدت منزل الدكتور صادق وأخبرته بالحادثة وبعزمى على السفر فوافق واتفقنا على الاجتماع بمنزل اسماعيل بك لبيب بالحلمية الجديدة بعد الاستجواب » .

وذهب فريد الى النيابة لاستجوابه وبعد الاستجواب سمح له بالانصراف فذهب الى منزل اسماعيل لبيب حسب الاتفاق ، وهنـاك قص عـلى زملائه ما دار فى التحقيق فقرروا بالاجماع ضرورة مغادرته للبلاد[٨٣] .

وقد أوضح فريـد الطريقـة التى غـادر بها أرض الوطن فقـال « ذهبت الى نادى الحزب الوطنى وذهب اسماعيل بك الى محـل كوك للاستعلام عن السفن المسـافرة الى الخـارج فوجدنا ان الوابور الروسى « الملكة أولجـا » يسـافر الى الآسـتانة وبيريه فى يوم الثلاثاء فقـررنا السفر بالكيفية الآتيـة وهى أن اسماعيل لبيب يقطع تذكرة لنفسـه للآستانة وانا اسافر من مصر يوم الثلاثاء باكسبريس الصباح السـاعة السابعة كأنى مسافر الى الاسكندرية للمرافعة فى قضية بمحكمة الاستئناف المختلطة ثم ارافقه الى الوابور فان ضبطت او تعرف البوليس على أقول بأنى حاجز لوداعه وبما انى ساكون بمفردى بلا شنط أو ملابس بل بلا تذكرة سفر فلا يمكن لأحد أن يظن بأنى مسافر .

ومع أن الوقت كانضيقاامام فريد ، والظروف تقتضى منه الاسراع فى العمل لأن الحكومة كانت جادة فى استصدار أمر بالقبض عليه فـان أمرا هاما كان يشغل باله وهو الطريقة التى يمكنه عن طريقها ابلاغ زوجته بما اعتزم عليه فقد حرص على عدم ازعاجها ، ولكنه لم ير بدا من أن يفضى اليها بالأمر فأفهمها بضرورة سفره وأوصاها بالصبر والجلد وطلب منها أن لا تخبر أولاده ولا احدا من أسرته بما اعتزم عليه حتى لا ينزعجوا .

وفى صباح الثلاثاء ٢٦ مارس استقل فريد القطار فقابله كثيرون من اخوانه واصدقائه فأخبرهم انه ذاهب الى الاسكندرية للترافـع فى قضية بالمحكمة المختلطة ، وقد رافقه فى القطار اسماعيل لبيب وتغذيا بالاسكندرية ثم قصدا الباخرة الروسية المزمع ركوبها ، وكان اسماعيل لبيب قد اشترى لنفسه تذكرة السفر أما محمد فريد فقد ركب بدون تذكرة حتى لا يعرف أحد عزمه على السفر فيحجزوه[٨٤] .

واحتجب فريد فى محل الادب نحو عشر دقـائق عنـد مرور مفتش الباخرة فلم يلحظ احد وجـوده[٨٥] وبعـد تحرك الباخرة دفع فريد ثمن

التذكرة معتذرا بأنـــه لم يجـــد الوقت الكافى لأدائـــه فى مكتب الشركة بالاسكندريـــة[٨٦] .

وعلى كل حال فقد خرج فريد من مصر واختلف الكتاب والباحثون حول طبيعة هذا التصرف فمنهم من يعتبر خروجه تصرفا خاطئا لأن مكان المناضل يجب ان يكون فى أرض المعركة لا فى خارجها وان خروجه من مصر قد عزل قيـــادة الحركة الوطنية عن الجماهير ونقل قيادتها من مركز اشعاعة الى الآستانة ودول أوربا ، وانه ترك شعبا أحبه والتف حوله وأعجب به ومنح التأييد لحزبه ما لم يمنحه لأى حزب آخر وكان يجب عليه الا يترك مصر لأنها مركز الجهاد الحقيقى وان دخوله السجن فيـــه تعبئة للرأى العـــام وايقاظها لهمم الناس ، وشحذا لوطنيتهم[٨٧] وانه كان من الممكن الافراج عنه بقوة الضغط الشعبى .

ومن الكتاب والباحثين من يرى أن خروج فريد من مصر كان تصرفـــا صحيحا لأنه كان فى نية الحكومة شل حركته وابقاؤه رهن السجون بواسطة سلسلة من المحاكمات التى لا تنتهى بحيث اذا خرج من سجنه تدبر له تهمة جديدة يدخل بسببها السجن ثانية كما أن خروج فريد من مصر سيتيح لـــه متابعة جهاده فى الخارج ويمكنه من أن يسمع العالم صوت مصر ، ويدافع عن قضيتها فى عالم الحرية حيث كان الرأى العام العالمى فى حاجة الى فهم واضح لأبعاد القضية المصرية ، كما أن التنظيمات الطلابية خارج مصر كانت فى حاجة الى جهود فريد الذى يعتبر رجل التنظيم السياسى فى مصر[٨٨] .

وهناك فريق يرى أن خروج فريد من مصر كان من أجل ملاحقة امرأة فرنسية كان يحبها وهى « دى روشبرون » .

ومن وجهة نظرنا فان نقل فريد لميدان الكفاح فى الخارج رغم أنـــه يعتبر استمرارا لمواصلة الجهاد وتأليبا للرأى العام الأوربى على الانجليـــز فانه قد أضر بالحركة الوطنية فى الداخل ، وأصاب حركة الانبعاث الثورى بالانكماش والعنف لأن مكان الزعيم لابد أن يكون فى قلب المعركة لا فى خارجها مهما كانت ضراوة المؤامرات أو قسوة الاضطهاد .

وعلى كل حال فقد تابع فريد جهاده فى الخارج وكان اول عمل بارز هناك هو حضوره مؤتمر السلام فى جنيف فى ٢٢ سبتمبر ١٩١٢ ومطالبته بجلاء الانجليز عن مصر ، واقناع اعضاء المؤتمر بأن الجلاء عن مصر هو خدمة للسلام العالمى ، وقد اقر المؤتمر بوجوب الجلاء عن مصر وعدم مشروعية الاحتـــلال .

والجدير بالذكر انه بعد خروج فريد من مصر سادها جو من الارهاب وكثرة الوشايات ، واستهدف الوطنيون لشتى ضروب الاضطهاد فأخـــذت الحكومة فى مطاردة الحركة الوطنية وضرب نطاق من التجسس حولها كما انها اخذت تراقب تحركات فريد بأوربا فأرسلت محمد بدر رئيس قلم الضبط بوزارة الداخلية لمراقبته ، خصوصا وانها كانت تخشى تأثيره على الطلبـــة المصريين فى أوربا(٨٩) .

وكان طبيعيا بعد هجرة فريد من مصر وماتبعه من هجرة العشرات من قادة الحزب الوطنى أن تبددت جهود الحركة الوطنية فتوقفت حركة انشاء النقابات ومدارس الشعب ، وانقسمت اللجنة الادارية للحزب على نفسها . فقد زاول الحزب نشاطه فى مصر دون قيادة مباشرة مما أدى الى تدهـــور احواله ويتضح ذلك جليا من الرســـالة التى بعث بها أحمـــد وفيق احـــد اعضاء الحزب الى فريد اذ يقول فيها « أما نوم الحـــزب من بعد سبتمبر ١٩١٢ ... فقد كان عميقا فاذا سمحت لى أن أقول أن النـــوم ابتـــدأ بعد مفارقتكم لهذه البلاد التعسة ، وانى اقسم لك انى لو كنت اعرف أن مصير حركتنا سيكون كذلك بعدهجرتكم لكنت أول من ألقى القبض عليك(٩٠) .

وقد صـــار الحزب يتدهور من سىء الى أسوأ فقد بيعت أمتعـــة نادى الحزب الوطنى بالمزاد العلنى فى ٢٢ مايو ١٩١٣ وفاء للديون المستحقة على ايجار المبنى ، وبدا أن الحزب قد صفى ، ولم تبق الا جريدة الشعب التى كان محرروها لا يبحثون الا عما يسد رمقهم (٩١) .

ويبدو أن فريدا قد شعربفداحة خطأ خروجه من مصر ففكر فى العودة اليها ، وطلب من مدام روشبرون السعى له لدى كتشنر والحكومة المصرية للسماح له بالعودة الى مصر(٩٢) ولكنها لم توفق فى مسعاها .

وفى الوقت الذى كان نيه فريد فى منفاه بأوربايدافع عن القضية المصرية دبر بعض عملاء الخديو من اللجنة الادارية للحزب الوطنى مؤامرة لاقصائه عن رئاسة الحزب بعد هجومه العنيف على الخديو فى الصحف الاوربية واتهامه بالاتفاق مع بريطانيا على اعلان الحماية على مصر وفصلها عن الدولة العثمانية فى مقابل تسميته خليفة للمسلمين .

ومن أجل هذا الغرض عقدت اللجنة الادارية للحزب اجتماعا استنكرت فيه مقالات فريد ضد الخديو ، وقررت مساءلته فيما نسب اليه ولما بلغ فريدا ذلك أرسل برقية الى على فهمى كامل وكيل الحزب يعلن فيها استقالته بشرط عرض هذا الأمر على الجمعية العمومية للحزب ، ولكن على فهمى كامل لم يجرؤ على دعوة الجمعية العمومية لبحث استقالة فريد ففشلت المؤامرة[٩٣] .

ونتيجة لمحاولات كتشنر المستمرة لسلب حقوق الخديو والغض من شأنه سعى الخديو لاستعادة علاقته بزعماء الحزب الوطنى حتى يتمكن من مواجهة تسلط المعتمد البريطانى فبدأ اتصالاته بمحمد فريد سرا خشية عيون الاحتلال ، ولكن فريد تشكك فى نوايا الخديو ، ورفض أن يجعل للحزب الوطنى اية صلة به .

وتعددت المساعى من أجل التوفيق بين فريد والخديو فتقابلت مدام روشبرون مع فريد فى محاولة لاقناعه بالصلح مع الخديو وقد اخبرها فريد بأنه يقبل الصلح بشرط أن يكون الكلام بينه وبين الخديو بدون وسيط[٩٤] ولما كان الخديو يخشى ان يصل نبأ مقابلته لفريد الى عيون الاحتلال تأخر اتمام الصلح وارسل الخديو الى فريد احد اصدقائه منذ عهد الدراسة وهو توفيق بك زاهر القاضى لمفاتحته فى موضوع الصلح بينهما ، ولما عرض الأمر على فريد ذكر أنه لا يعارض فى اتمام الصلح بشرط أن يتصل الخديو برجال الحزب الوطنى فى مصر ويقبل شروطهم .

واستمر الخديو يبذل محاولاته لجذب فريد الى صفه فأرسل بعض رجاله لهذا الغرض ، وأخيرا وافق فريد على الصلح مع الخديو بشرط أن يوافق الخديو على اعلان الدستور .

وقد تمت المقابلة بين فريد والخديو فى الآستانة حيث تم الصلح

بينهما ووعد الخديو باصدار مرسوم يعلن فيه الدستور كما عبر عن ارتياحه للصلح مع فريد الذى وصفه بأنه رجل مبادىء لا يتغير مهما قاسى فى سبل المحافظة على مبادئه ، وتنفيذا لوعد الخديو اصدر منشورا فى ١١ نوفمبر ١٩١٤ باعلان الدستور الكامل فى مصر(٩٥) ولكن قيام الحرب واعلان الأحكام العرفية وعزل عباس الثانى حالت جميعا دون تنفيذه .

وكان طبيعيا بعد أن أعلن الانجليز حمايتهم على مصر وتمسكوا باحتلالها أن ينضم فريد الى الجانب المعادى لانجلترا ، وكان عليه أن يستعين بالقوى الدولية المناوئة لهم وبوجه خاص تركيا والمانيا ، ولما اتفقت مصلحة كل من تركيا والمانيا مع مصلحة الحزب الوطنى على ضرورة ارسال حملة عسكرية الى مصر بقصد طرد الانجليز منها تشكك فريد فى نوايا الأتراك اذا ما نجحت الحملة مما دفعه الى أن يطالب زعماء الأتراك أن يعلنوا أن هدفهم من الحملة هو استقلال مصر وجعلها ولاية ذات طابع خاص كما أن فريدا كان يتشكك أيضا فى نوايا الألمان نحو الوطنية المصرية وعلى كل حال فقد فشلت الحملة التركية على مصر كما حالت الحرب بين فريد ومن بين نشاطه الوطنى فى أوربا ، وذلك لتوقف معظم الصحف عن الصدور ، وصعوبة اتصال الدول ببعضها ، وانشغال الناس بأخبار الحرب يضاف الى ذلك ان الدعم المادى الذى كان يصل الى فريد من مصر قد توقف فقد كان يصله قبيل نشوب الحرب من عائلته مبلغ عشرين جنيها شهريا ، ولكن نشوب الحرب ادى الى انقطاع هذا المبلغ عنه فاشتدت به الضائقة المالية لدرجة أنه رهن بعض ثيابه لدى المرابين اليهود فى المانيا، كما كان يقتصد من نفقاته فسكن فى غرفة واحدة ، وكان يتغذى بفرنك واحد ثم يأكل غذاءه بكوز من الذرة المشوى وذلك اقتصادا فى النفقة(٩٦)

كما أنه لم يجد العناية الطبية الكافية عند اصابته بمرض الاستسقاء لقلة نقوده ، واشيع أنه كان يحتطب لكسب قوت يومه وانه كان يلبس بدلة مرقعة(٩٧) .

وهذا لا يعيب فريدا فى شىء ، ولا يخجلنا أن نذكره ففريد الذى ولد كما يولد أبناء الأمراء ، وعاش فى بداية حياته كما كان يعيش أبناء

الحكام وصل به الحال كما ذكرنا من اجـل مصر ، ومن أجـل التمسك بالمبادىء ، وهذا شرف كبير ليس لفريد فحسب بل يعتبر هالة فخار للوطنية المصريـة ايضـا .

ولمـا وضعت الحرب أوزارها فى نوفمبر ١٩١٨ وعقـد الصـلح فى باريس ارسل محمد فريد تقريرا فى ٥ ديسـمبر ١٩١٨ الى الرئيس الأمريكى ويلسون يطلب فيه استقلال وادى النيل وضرورة تمثيل مصر فى مؤتمر الصلح وقبولها فى عصبة الأمم .

وعندما قامت ثورة ١٩١٩ لاحت على شفتى محمد فريد ذلك الزعيم الغائب عن وطنه وامته واهله وزوجته ابتسـامة الأمـل ، ووجه لأمتـه من بعيد أعظم تحية لثورتها [٩٨] فقال « نشـكر الله على هـذه النتيجـة الحسنة التى دلت على أن ما ألقاه مؤسسوا الحركة الوطنية من البذور فى تلك الأراضى الخصبة قد نبت وترعرع ساقه ثم ازهر وظهرت ثماره[٩٩] .

كما ارسل فريد يطلب من مؤتمر الصلح التدخل لتقرير مصير الأمـة المصرية والاعتراف باستقلال وادى النيل استقلالا تاما ، ومنـع عسف المحتلين بمقدرات الشعب المصرى .

وعندما سافر الوفد المصرى الى باريس برئاسـة سعد زغلول لم يتصل أحد من أعضائه بفريد رغم تأييده لهم وكتابته برقية الى سعد يتمنى فيها التوفيق والنجاح للوفد فى مهمته فان سعدا لم يرد عليه ، وقد يرجع ذلك الى سببين :

١ — رغبة سعد فى الا تعرقل مسـاعى الوفد فى مؤتمر الصـلح بسبب انحيـاز فريد الى جانب الألمـان خلال الحرب .

٢ — ما بين سعد وفريد من حزازات قديمة ، وان كانت الوطنيـة الحقة تجعل الأفراد يتركون حزازاتهم جانبا فى مواجهـة الأخطـار التى يتعرض لها الوطن .

وبعيدا عن الأهل والوطن اشتدت علة المرض بفريد حتى وافاه الأجل فى ١٥ نوفمبر ١٩١٩ ، وكان رجـال الوفد فى بـاريس فى ذلك الـوقت

فعرض بعضهم على سعد زغلول السفر الى المانيا لنقل رفات فريد الى مصر وعمل اللازم نحو تكريمه ، ومشاركة الأمة فى احزانها فكان رد سعد هو رفض طلبهم باصرار بحجة أن أموال الوفد يلزم أن تصرف على القضية المصرية لا على جنازات الأفراد .

ولم ينل شرف نقل رفات فريد أحد من رجال الوفد بل نال هذا الشرف الحاج خليل عفيفى احد التجار بالزقازيق فنقل رفاته على نفقته الخاصة ، ووصل جثمان فريد الى القاهرة فى يونية ١٩٢٠ (١٠٠) .

وهكذا كانت حياة فريد سلسلة من التضحيات فى سبيل مصر فقد احتمل الفقر وهو ابن الاثرياء ، وقضى زهرة حياته فى سبيل مصر ، وضحى بمستقبله من اجلها ، ولم يتحول عن مبادئه بالرغم من التهديد والوعيد ، وكانت أراؤه توضح بعد نظره السياسى وفكره الناضج فى النواحى الاقتصادية والاجتماعية فقد ابتكر اساليب جديدة فى الكفاح لم تكن موجودة أيام مصطفى كامل فمد فروع الحزب فى الأقاليم حتى تزداد شعبيته فى أنحاء البلاد ، وطرح افكارا سياسية واجتماعية جديدة فنادى بالعدل الاجتماعى والاهتمام بأحوال العمال والفلاحين ، وحاول الربط بين حركة المثقفين والطبقة العاملة فى مواجهة الاحتلال ، وعمل على انشاء مدارس الشعب الليلية لتعليم العمال بالمجان ، ولم يترك منبرا عاليا الا وارتقاه ولا هيئة داعية لنصرة الشعوب والأمم الا وتعاون معها .

وكان فريد أول من ربط حركة الوطنية فى مصر بحركة السلام العالمى فاعتبر أن الجلاء عن مصر خدمة للسلام العالمى كما ربط استقلال مصر بقضية الاشتراكية الدولية بعد أن ارسل لينين رئيس الحكومة الروسية تلغرافا الى دول العالم يطلب فيه تحرير مصر والهند (١٠١) .

يضاف الى ذلك تنظيمه للعمل الوطنى بين الطلبة المصريين فى أوروبا ومع ذلك فالزعماء بشر وكل زعيم عرضة لأن يصيب وأن يخطىء فى آرائه وقراراته وفريد كان يفتقر فى زعامته الى المرونة السياسية فقد نظر الى الخديو بمنظار اسود فى كل الأمور ، ولم يستطع أن يستثمر

الجوانب المفيدة منه للحركة الوطنية كمـا فعل سـلفه مصطفى كامل كما انه لم يستطع واد الخـلافات التى نشبت داخل الحزب بل كان تشـدده فى بعض المواقف يزيد من حدتهـا لدرجـة أن استقال من اللجنـة الادارية بعـد توليه الرئاسـة بعض مؤسسى الحزب مثل احمد فـائق ومحمـود انيس وعمر سـلطان وويصا واصف يضاف الى ذلك أن خـروجه مـن مصر ، ونقل مركز الكفاح الى أوربا كان خطأ فادحا ادى الى عزل الحركة الوطنيـة عن جمـاهيرها كما أدى الى انحسار دور الحزب الوطنى فـى قيـادة الأمة .

وعلى كل حال فان ذلك لم يقلل من تضحيـات فـريد من اجـل مصر ، فهو الذى ضحى بكل ما هو عزيز لـدى الانسان ، فجعـل حياته فداء لوطنـه ، وقضى عمره يزكى روح الوطنية فى البـلاد ، وينفـخ فى رمادها حتى تأججت نيران ثورة ١٩١٩ .

الزعامة الوطنية بين مصطفى كامل ومحمد فريد

هذان الزعيمان كل منهما جاء من نبع وكان يمثل طبقة معينة تختلف كل منها عن الأخرى اختلافا بينا : مصطفى كامل مصرى صميـم اجـداده من الفـلاحين وأبوه نشـأ فى بلد كتـامة الغاب من اعمال مركز طنطا ، وعمل موظفا صغيرا فى خدمة الحكومة المصرية وربما نجد بين افراد اسـرته من يحملون اسم حفيظـة ، وست الدار ، وشلبى ، ونفيسة ، وحسنين، ومحمدين ، ونعناعة ، وخضرة .

أما فريد ابن الذوات فقد نشأ فى بيت عز وجـاه وسلطان فجـده الأعلى عثمان أفندى قدم الى مصر مع الفتح العثمانى لها ، وتولى ارفـع المناصب بها وكان أبوه ناظرا للدائرة السنية ، وكان من بين أفراد أسرته من يعرف التركية ويتحدث بها بطلاقة .

ورغم هذا التباين الطبقى بين هذين الزعيمين ، ورغم أن نشـأة فريد العائلية كانت تؤهله للعيش منعما فانه ترك انتماءه الطبقى ، واقتحم ميدان الجهاد ، وتحمل مشـاقه ، واتصل بمصطفى كامل وتوثقت الصداقة

بينهما منذ عام ١٨٩٥ حينما التقيا بباريس ونسقا معا خطط الكفاح من أجل اجلاء المحتلين عن مصر .

والشيء المثير للتساؤل واندهشة هو ان فريد الارستقراطى النشأة والذى كان يمكنه ان يأمر فيطاع انضوى تحت زعامة مصطفى كامل الأصغر منه سنا ، والأقل طبقة رغم أن المجتمع فى ذلك الوقت كان يفضل دائما الأكبر سنا باعتباره أكثر خبرة ودراية .

والواقع أن فريد وجد فى مصطفى كامل الاخلاص للقضية الوطنية ، ذلك الاخلاص الذى كان ينشده ويبحث عنه بين زملائه فلم يجده الا نادرا ، ومن هنا التقيا معا فى الكفاح دون النظر الى الزعامة أو المكانة.

وقبل أن نتطرق الى موضوع زعامة كل من مصطفى كامل وفريد للحركة الوطنية المصرية تطرح عدة أسئلة علينا نفسها : هل طبيعة المناخ السياسى والاجتماعى فى مصر بعد الاحتلال هو الذى أتاح لزعامة كل من مصطفى كامل وفريد الانبثاق والظهور ؟ وهل ترتبط الزعامة دائما بالمواقف والأزمات التى يتعرض لها الوطن ؟ هل التغيرات التى يحدثها الزعيم تستمد مقوماتها منه أم من البيئة التى يعيش فيها ومن ظروف الأجيال التى انحدر منها ؟

الواقع أن ظروف مصر بعد انكسار العرابيين فى التل الكبير واستيلاء الانجليز على البلاد ، والجو لنفسى الكئيب الذى عاش فيه أبناء الوطن هو الذى هيأ المناخ لوجود زعامات من الطبقة المثقفة أمثال مصطفى كامل ومحمد فريد . فالهزيمة العسكرية غيرت من واقع المجتمع المصرى الذى كان على شفا الانهيار ، ومن أجل ذلك انتقلت القيادة الوطنية من طبقة العسكريين أمثال عرابى وزملائه الى طبقة أخرى من طبقات المجتمع المصرى كانت قادرة على امتصاص روح الهزيمة من نفوس أبناء الشعب ، وانارة طريق الكفاح أمامه وهى طبقة المثقفين فالموقف الذى طرأ على البلاد فرض زعامة من نوع معين زعامة تتسق مع ملابسات وظروف المجتمع المصرى الذى كان فى حاجة الى من يرسم له طريق الخلاص ويستطيع التعبير الحقيقى عن آرائه ، وهنا كان المفتاح الرئيسى لقيام زعامة مصطفى كامل ومحمد فريد .

فمصطفى كامل كان يمثل جيل ما بعد الثورة العرابية ، وهو الجيل الذى حاول أن يتجاوز كل مظاهر الاحباط والكآبة التى حدثت نتيجة للهزيمة ، هذا الجيل كان يتميز بالحس الثقافى والفكرى والقدرة على استيعاب خبرات الماضى وطرح رؤية جديدة تحدد مسار الأمة المهيضة الجناح ، وهكذا تزعم الحركة الوطنية المصرية لأول مرة رجال ينتمون الى الصفوة العلمانية المثقفة التى تمزج بين الفكر السلفى والفكر الليبرالى ، وهذا ما يختلف عن الزعامات المصرية السابقة كعمر مكرم باعتباره من الصفوة الدينية المستنيرة أو كأحمد عرابى بصفة احد زعماء العسكريين [١٠٢] .

وهكذا فان دور المجتمع فى تكوين الزعيم يبدو واضحا عند نظرتنا الى التطورات الطارئة التى لحقت به ، وجعلته فى حاجة الى زعامة معينة تلعب دورها وهى متأثرة بالظروف التى يمر بها هذا المجتمع يضاف الى ذلك أن ظروف المجتمع هى التى تحدد الطريق للزعيم حتى يصبح عنصرا مؤثرا فيه تارة ومتأثرا به تارة أخرى فالزعيم الحق هو الذى يعى بثاقب نظره ما يعانيه مجتمعه ، ويعرف المتطلبات التى ترفع عن كاهله هذه المعاناة ويعمل من أجل تحقيقها أو يحاول ايجاد الحلول الملائمة لها ، وبعبارة أخرى فان الانسان الذى تتاح له فرصة الزعامة لم يولد زعيما بل أن الظروف والمتغيرات التى يتعرض لها المجتمع هى التى تؤهله لتولى الزعامة وهى التى تتيح الفرصة لابراز قدراته اذ كانت لديه الاستعدادات اللازمة لذلك . ومن هنا يكون الزعيم هو الشخصية التى يتجه أو يتطلع اليها الوطن لحاجته الماسة لها أو لشعوره بأن هذه الشخصية هى التى تحقق امانيه [١٠٣] ، وقد وجد الشعب المصرى فى مصطفى كامل الزعيم الشاب الذى يستطيع انتشاله من وهدة الهزيمة ومن براثن الذل والهوان الذى تعرض له ، ونظرا لأن النفوس كانت متعطشة الى نغمة جديدة تجدد فيها الأمل بحياة حرة كريمة بعد أن تسرب اليأس اليها . لذلك اعتبر الشعب مصطفى كامل رسول الوطنية الذى جاء لتثبيت العزائم بعد أن خارت قواها أو قربت من ذلك ، ومن أجل هذا اقبل عليه بحماس وآزره فى كل مواقفه وتعلق به .

وقد يدفعنا هذا الى ان نتساءل هل كان مصطفى كامل الشخص الوحيد الذى كانت لديه القدرة على تحمل الرسالة بعد انكسار العرابيين؟ الواقع انه كان يوجد بين المصريين من يستطيع حمل هذه الرسالة ومن هم اكثر نضجا من مصطفى كامل وتفكيره ، ولكن ما هى متطلبات المجتمع فى الرجل الذى يستطيع ان يتحمل عبء الزعامة فى ذلك الوقت ؟

ان متطلبات المجتمع كانت تنحصر فى شخص لديه الاقدام والشجاعة وحمية الشباب ، شخص يستطيع ازالة آثار اليأس الكريهة التى عششت على المجتمع باتباع اسلوب جديد يشمل حماس الناس ويخاطب شعورهم واحاسيسهم ، وكانت هذه الصفات تنطبق على مصطفى كامل .

فمصطفى كامل يختلف عن غيره فى انه كان لديه الاقدام ، كما كانت لديه حمية الشباب الملتهبة يضاف الى ذلك أنه كان لديه أسلوب جديد فى الخطابة ، وهو الأسلوب الوجدانى الذى يخاطب عواطف الناس وقلوبهم قبل ان يخاطب عقولهم هذا الأسلوب الذى يعتمد على الجمل الضخمة التى تثير شعور الجماهير دون روية للوصول الى الغاية التى تنشدها وتتمناها (١٠٤) .

هذا هو الذى فرض مصطفى كامل كزعيم دون غيره لأن الظروف التى كانت تمر بها مصر كانت تتطلب مواصفات زعامته .

وهنا يمكننا ان نتساءل مرة اخرى هل الزعيم المؤسس لأى حركة يكون اقدر ممن يأتى بعده فى زعامة هذه الحركة أم العكس .

هناك راى يرى ان الزعيم المؤسس للحركة يكون اكثر دراية وتجربة ومعرفة بحركته ممن يأتى بعده لأنه هو الذى وضع نواة حركته وعمل على ابرازها ، وهناك رأى آخر يرى أن الزعيم الذى يخلف غيره فى زعامة الحركة يكون أكثر معرفة باخطاء سلفه وأكثر دراية بها ولذلك يستطيع تصحيح مسيرة الحركة .

وعلى الرغم من وجاهة كل من الرايين فالواضح ان الظروف السياسية والاجتماعية المتغيرة التى تعرض لها الوطن ثم ظروف تكوين الزعيم

هى التى تؤثر فى حركة الزعامة اكثر من اى شىء آخر ، وعلى سـبيل المثال فظروف زعامة مصطفى كامل تختلف عن ظروف زعامة محمد فريد ، فمصطفى استفاد من نزاع الخديو مع كرومر وحاول عن طريق ذلك تحقيق بعض الأهداف الوطنية ، كما انه اعتمد على استغلال التناقض بين انجلترا وفرنسا من أجل اجلاء الاحتلال اما فريد فقد جاءت زعامته بعد أن تغيرت كل هذه الظروف فقد تولى الزعامة مع سياسة الوفاق التى اتبعها جورست مع الخديو ، والتى أدت الى ضرب الحركة الوطنية من كلا الطرفين فكان فريد هدفا لحرب مزدوجة لم يتعرض لها مصطفى كامل كما أن زعامة فريد جاءت بعد وفاق انجلترا وفرنسا لذلك كان من الصعب استغلال التناقض القائم بينهما كما فعل مصطفى كامل فى أول الأمر ، ومن هنا اختلفت سياسة محمد فريد عن سياسة سلفه يضاف الى ذلك أن فريدا الزعيم الثانى للحزب الوطنى بدأ من حيث انتهى مصطفى كامل ، فالمعروف أن مصطفى كامل لم يضع منهاجا واضحا فى طريته كفاحه السياسى فقد اعتمد على تناقض مصالح فرنسا وبعض الدول الأوربية مع انجلترا من أجل تحقيق الجلاء واثبت الاتفاق الودى انهيار هذا الأساس كما اعتمد مصطفى كامل على الدولة العثمانية والخديو واتضح أن لكل منهما مصالحه الخاصة التى يفضلها عما عداها وانتهى به الأمر الى الاعتماد على الرأى العام اما فريد فقد اعتمد على الشعب المصرى منذ أن تولى رئاسة الحزب ولم يقتصر اعتماده على المثقفين كما فعل مصطفى كامل بل جذب اليه الكوادر العمالية والفلاحية ثم حاول الربط بينها وبين حركة المثقفين فى مواجهة الاحتلال ، ومد فروع الحزب الى الأقاليم لتزداد شعبيته كما قام بتنظيم الطلبة المصريين فى أوربا .

ومن هنا لا نستطيع ان نقول أن الزعيم الأول افضل ممن يأتى بعده او العكس بل نقول ان ظروف المجتمع هى التى تحدد مسار الزعامة ولما كان لكل زعامة من معلم أو مثل أعلى يحتذى به فهل نبتت زعامة مصطفى وفريد من فراغ أم أن كلا منهما تلقى دروس الوطنية من احد زعماء الجيل الذى سبقه وعاصر تجارب النجاح والفشل التى تعرض لها الوطن حتى يستطيعا استيعاب خبرات الماضى .

الواقع أن مصطفى كامل قد تأثر بعبد الله النديم خطيب الثـــورة العرابية واستطاع بصحبة هذا الثائر التعرف على حقيقة التيار السياسى فى مصر ، وكيف شوه رجال الاحتلال مبادىء العرابيين وخططهم كما نعلم منه القواعد التى اذا اتبعها يكون وطنيا ناجحا (١٠٥) يضاف الى ذلك أن مصطفى كامل كانت صلته وثيقة بعلى باشا مبارك .

أما فريد فقد كان لمعايشته وهو فى سن الرابعة عشر — ولد عــام ١٨٦٨ — النكبة التى حلت بالبلاد أثر هزيمة التل الكبير ، وما ســـمعه عن المآسى التى حدثت لمصر من جراء الاحتلال اكبر الأثر فى تكوين نزعته الوطنية يضاف الى ذلك أنه حضر مجالس لطيف باشا سليم ، وتعــلم منها المبادىء الوطنية ، وورث عنها مبدأ معارضة التعامل مع الخـــديو .

وعلى كل حال فهناك عدة سمات تميز الزعامة ، ولما كانت ســمات زعامة كل جيل تختلف عن غيرها من الأجيال الأخرى فسنقصر حديثنــا على سمات زعامة جيل مصطفى كامل وفريد .

الواقع أن الايمان المطلق بالقضية الوطنية ، والثبات على المبــدأ والشجاعة ، وقوة الارادة ووعيها ، وسعة الافق والقدرة على التــأثير فى الجماهير بالخطـــابة والصحافة ، واحترام مشاعر الناس ومعتقداتهم كانت من أهم سمات الزعامة فى ذلك الـــوقت ، ومـــع ذلك فان مصطفى وفريد لم يكونا متفقين فى كل هذه السمات أو غيرها بل كان هناك أوجــه اتفاق بينهما كما كان هناك أيضا أوجه اختلاف وفيما يلى نعرض لأوجــه الاتفـــاق .

اذا كانت كثرة القراءة وسعة المعلومات والالمام بدقائق المســـألة التى يتبناها الفرد أو يدافع عنها هى احدى سمات الزعيم الناجح فممــا لاشك فيه أن مصطفى وفريد قد تميز بهذه الصفة ، وكان لقــراءة كل منهما للتاريخ بل والتأليف فيه اكبر الأثر فى اكســابهم خبرات الآخــرين وتعميق كوامن الوطنية فى نفسيهما فقد قرأ مصطفى كامل تــاريخ الأمم الأوربية ودرس تاريخ القضية المصرية ، وله مؤلفات تاريخية تشـــهد بقدرته على استيعاب التاريخ منها كتاباه « المسألة الشرقية » و « الشمس المشـــرقة » .

أما فريد فله الى جانب مذكراته المخطوطة عدة كتب تدل على اهتمامه بالتاريخ منها كتاب « البهجة التوفيقية فى تاريخ مؤسس العائلة الخديوية » ومنها كتاب « تاريخ الدولة العثمانية » وكتاب آخر عن « تاريخ الرومان » ومن يتفحص هذه الكتب يتضح له مدى النضج الفكرى وسعة الاطلاع والالمام بالمسائل السياسية القومية والدولية لكل من مصطفى وفريد واذا كانت زعامة تلك الفترة تقتضى عمل الزعيم بالصحافة حتى يكاد يبدو لمن يقوم بالتأريخ لزعامة أواخر القرن الماضى وأوائل القرن الحالى أن الزعامة والصحافة شىء واحد فقد كان زعماء تلك الفترة يقودون بأفكارهم ومقالاتهم الصحفية كافة أبناء الشعب(١٠٦) ، فقد وعى كل من مصطفى وفريد ذلك فعبرا فى كتاباتهما بالصحف عن أفكارهما التى قادت الجماهير واشعلت الكراهية للمحتلين .

وقد عمل مصطفى كامل منذ صباه فى الكتابة الصحفية فأسس مجلة المدرسة ونشرت له الأهرام والمؤيد بعض المقالات ثم أسس بعد ذلك اللواء التى كانت قلعة من أكبر قلاع الوطنية ، ومدرسة يتلقى فيها الشعب المصرى على اختلاف طبقاته درسا فى الوطنية ، ولم يكتف مصطفى كامل بذلك بل أسس صحيفتين احداها بالانجليزية والأخرى بالفرنسية حتى يتضح للرأى العام العالمى حقيقة المسألة المصرية .

أما فريد فكانت له الكثير من المقالات المستفيضة فى الصحف فقد راسل الصحف منذ تخرجه من مدرسة الحقوق فكتب عدة مقالات فى مجلة الاداب والموسوعات والمؤيد ثم فى اللواء وصحف الحزب الوطنى الأخرى مثل العلم والشعب وكانت هذه المقالات تجمع بين النضج الفكرى وغزارة المادة .

واذا كانت سمات الزعامة تتركز فى الايمان المطلق بالقضية الوطنية فان كلا من مصطفى كامل وفريد قد آمن بالقضية المصرية ايمانا مطلقا بل وضحى فى سبيلها بكل شىء وبذل النفس والنفيس من أجلها ورسم كل منهما لنفسه خطة المقاومة المستمرة للاحتلال وهى مقاومة لا ضعف فيها ولا هوادة ولا تراجع وظل كل منهما ثابتا فى جهاده رغم جنوح معظم رجالات مصر الى الولاء للاحتلال واكتساب رضاه والأمثلة على

ذلك كثيرة منها أن فاشودة كانت بمثابة الضربة القوية لحركة مصطفى كامل كما كانت احد عوامل اليأس فى نفوس معظم الوطنيين ، ومع ذلك فان مصطفى كامل لم ييأس ، ولم ينخفض صوته ولم تفتر عزيمته بل كان رده هو مضاعفة الجهاد والكفاح كلما زادت المصاعب والعقبات.

وعندما وقعت انجلترا الاتفاق الودى فى ٨ أبريل ١٩٠٤ لم يتزعزع يقين مصطفى كامل فى الجهاد وبذلك برهن على ثبات وطنيته ، وان الأحداث لا تزيدها الا صلابة .

ولا يعنى هذا أن مصطفى كامل لم ييأس طوال أيام كفاحه الوطنى فالواقع أن صاحب دعوة لا يأس مع الحياة ولا حياة مع اليأس اعترته عوامل اليأس فى بعض الأحيان حتى وصل به الأمر فى بداية كفاحه الوطنى الى التفكير فى الانتحار ويتضح ذلك من الخطاب الذى أرسله من باريس الى صديقه فؤاد سليم والخاص بشكواه من ضيق ذات يده بعد أن كف الخديو عن ارسال نقود له فيقول مخاطبا صديقه « اليس فى استطاعة والدك والهلباوى ومحمد سالم أن يرسلوا لى سنويا أربعمائة جنيه ماداموا يعتبرون أنفسهم وطنيين ويقدرون جهودى الوطنية ، واذا كانوا غير قادرين على مساندتى فانى سأعود الى مصر يائسا فاقد الأمل ليس من أجل الجلاء فحسب بل من أجل مستقبل الأمة المصرية، وتأكد ياصديقى العزيز انى لم أمكث فى مصر بعد عودتى دون أن أرى القبر (أكيدا) سوف انتحر ولا أعيش وسط أمة جاحدة [١٠٧] .

الواقع أن هذا الخطاب وضعنا فى حيرة وطرح عدة أسئلة تتطلب الاجابة : هل حدة المزاج يمكن أن تخرج الانسان عن طوقه اذا تعرض لبعض الضغوط لدرجة أن يفكر فى التخلى عن مبادئه التى آمن بها ونادى الناس بالتمسك بها ، وكلنا يعرف أن وطنية مصطفى كامل كانت ممتزجة بحدة المزاج .

وهل كان مصطفى كامل مطالب بأن يبعث فى أمته الحياة ، وينبذ فيها فكرة اليأس بعد أن أوشكت على الغرق فيه رغم أن هذه الفكرة غير متمكنة منه ؟ .

الواقع أن اليأس الذى انتاب مصطفى كامل كما يتضح من خطـــابه لم يكن ثابت الجذور فى نفسه بل كان يأسا طارئا زال بزوال المؤثرات التى أدت اليه ، فعندما تعرض مصطفى كامل للضغوط المالية الشديدة خرج عن طوقه وكان ذلك فى أوائل عهده بالزعامة ، وبمعنى آخر فى ١٦ اكتوبر ١٨٩٥ اى فى وقت لم تكن حركته قد وصلت الى الانتعاش الذى وصلت اليه بعد ذلك أو بعد أن صقلته الزعامة وحنكته التجارب وصهرته الصعاب فقد أصبح أصلب عودا وواجه العقبات بثبات .

أما فريد فبالرغم مما تعرضت له الحركة الوطنية من ضربات متلاحقة سواء من الخديو أو من الاحتلال نتيجة سياسة الوفاق فقد ظل متمســكا بمبادئه متحملا للمصاعب والعقبات دون كلل ، وكلما زادت الأمور صعوبة كلما ضاعف فريد من جهاده .

ومن كلماته المأثورة فى هذا الصدد قوله « لا ينتظر أحد منا أن نحيد عن مبدئنا مادام فينا عرق ينبض أو تجرى فى أجسامنا نقطة دم » لذلك فان فريد لم ينثن عن مقاومة الاحتلال أو كل من يلوذ به أو يحالفه حتى لو كان ذلك اكبر راس فى البلد وقتذاك وهو الخديو فرغم آلام الســجن رفض فريد مســاومة الخديو له بأن يخفف فى لهجته فى نظير الوعـــد بالافراج عنه ، وآثر السجن على التســاهل فى مبادئه ورغم انفضاض بعض انصار فريد عنه وانحيازهم الى جانب الخديو فان الضعف أو اليأس لم يعرف الى قلبه سبيلا فقد أعلن أن سياسته لم تتغـــير حتى لو ظـــل وحـــده » [(١٠٨)] وقدم حياته طائعا مختارا من أجل تحرير مبادئه .

وبما أن الزعيم لابد أن يكون واضح الأهداف محدد المبادىء فـــان مصطفى كامل جعل لنفســه هدفا واحدا هو الجلاء ، وعدوا واحدا هـــو الاحتلال أما فريد فانه لم يختلف مع مصطفى كامل فى خطته هذه وان كان قد أبرز معها دعوته للمطالبة بالدستور واعداد العرائض لانشاء مجـــلس نيـــابى [(١٠٩)] .

واذا كان الزعيم الناجح هو الذى يبتعد عن اثارة احاسيس الناس ولا يحاول هز معتقداتهم او عاداتهم بل يحاول استمالة العواطف الموجوده

فى نفوسهم فان كلا من مصطفى كامل وفريد قد عمـل على تحقيق هـذه الغاية فمصطفى كامل ربط بين دعوته لحب الوطن وبين معايير مجتمعه فتمسك بالقديم ، وكان متحفظـا على المبادىء الاوربية فى تربية البنات ودافع عن سياسة الحجاب واعتبرها عصمة للنساء ثم عارض فكرة تحرير المراة موضحا « ان قواعد الشرع والأدب تقضى بفـرض الحجـاب على النساء فليس لهن أن يستخدمن بالمصالح كالرجال وانما يكفى أنهن يدبرن شئون المنزل ويهذبن أولادهن » يضاف الى ذلك ان مصطفى كامل كان خصما لدودا لكتاب تحرير المراة الذى اصدره قاسم أمين عام ١٨٩٩ كما كان خصما لدودا ايضا لصاحبه فحمل عليه حملات ضارية فى اللواء(١١٠) ورفض فكرة سفور المراة .

ولما اثيرت قضية زواج الشيخ على يوسف من ابنة الشيخ السادات رغم ارادة والدها وقف مصطفى كامل ضد صـاحب المؤيد مهاجما ايـاه ومؤيدا للتقـاليد الموروثة ومتمسـكا بها ، وكانت فرحته شديدة عندما طلبت المحكمة ابطـال هذا الزواج ، ويبدو ذلك واضحا فى رسالته الى جوليت آدم بتاريخ ٤ اكتوبر ١٩٠٤ حيث قال « ازف اليك نبأ عظيما .. ان محكمة الاستئناف ايدت حكم أول درجة القاضى بابطال زواج ذلك الصحافى المسـكين الذى حدثتك عنه ، وعلى البـاغى تدور الدوائر .. ولعظيم فرحى وعلمى ان ما يسرنى يشرح فؤادك اسرعت الى مكاتبتك »(١١١) .

ولم يقف الامر عند هذا الحد بل انتقد مصطفى كامل الخديو لموقفه المؤيد للشيخ على يوسف فى هذه القضية مما ادى الى القطيعة بينهمـا وقد أيد فريد مصطفى كامل فى كل هذه المواقف وسار على منوالها طوال زعامته للحزب .

وقد يستغرب البعض هذه المواقف من كل من مصطفى كامل ومحمد فريد خصوصا وأن ثقافتهما فرنسية وانهما تلقيا العلم بعض الوقت فـى أوربا وكانا من بين المعجبين بالمدنية والحضارة الأوربية .

يرجع الدكتور هيكل ذلك الى أن كل من مصطفى وفريـد حـاول التقرب الى الشعب فيما هو عزيز لديه من عادات وأوهـام لاستغـلاله فى الغايات السياسية(١١٢) لدرجة أن مصطفى كامل فضل أن يخسر الخديو

على أن يخسر الرأى العام نضيف الى ذلك ان قوة الاتجـــاه الاســـلامى لدى كل منهما جعلهما يناديا بألا تقلد مصر أوربا تقليدا أعمى بل يجب ان تظل متمسكة بمبادى الاسلام هذا بالاضـــافة الى ان فـــكرة الاصـــلاح الاجتماعى لدى كل منهما كانت تجىء فى المرتبة الثانية بعد تحقيق الجلاء.

واذا كانت التضحية بالنفس والنفيس وايثار الـــذات فى ســـبيـــل الوطن احدى سمات الزعيم الناجح فان كلا من مصطفى وفريد قد تميـــز بهذه الصفة ولم ينظر أى منهما الى اتخاذ العمل الســـياسى وســـيلة لتحقيق النفوذ والجاه والأدلة على ذلك متعددة نذكر منها :

بالنسبة لمصطفى كامل فرغم أنه كان قيد اسمه فى جـــدول المحامين وقررت لجنـــة انتخاب المحامين قبوله(١١٣) فانه لم يحترف المحـــاماه بل تفرغ لقضية واحدة هى قضـــية مصر ، ورغم انه كان ضعيف الصحـــة وفى حاجة الى الراحة فانه لم يعط لبدنـــه حقه من الراحـــة بل واصـــل الجهود فى سبيل مصر ، واخذ على عاتقه مهمة ايقاظ الشعور الوطنى ، وبث الدعاية للقضية المصرية فى انخارج فواصل حملاته ضد احتـــلال ، ولم تغريه باريس بمفاتنها وجمالها بل كان يقطع شوارعها وحواريها ليلحق سياسيا قبل أن يترك مكتبه او خطيبا قبل أن يقف على منصـــة الخطابـــة ليشكو اليه احوال مصر فى ظل الاحتـــلال (١١٤) ورغم أنه حورب فى شخص أقرب الناس اليه وهو اخوه ليعدل عن موقفه فكان رد مصطفى أنه مهمـــا حورب فى شخصـــه أو شخص اقرب الناس اليه فان ذلك لم يحل دون جهاده ، ولمـــا طلب السير كامبل بانرمان رئيس الوزارة البريطانيـــة من مصطفى كامل تكوين وزارة بمعرفته رفض قائلا « ان وطنيتى تفرض على رفض كل مركز فى الحكومة طالما ظل الاحتلال جاثما على صدر مصر »(١١٥) يضاف الى ذلك أنه عندما علم مصطفى كامل برغبة فريد فى تأليف لجنـــة بقصد عمل اكتتاب عام لدعوته الى وليمة وتقديم هدية له بعد جهوده التى بذلها فى الخارج من أجل مصر بعد احداث دنشواى اقترح مصطفى كامل تحويل هذه الهدية لغرض آخـــر قائلا ان « خير هدية اقترح عليكم تقديمها للوطن العزيز والأمة المصرية أن تقوم اللجنة التى شكلت بدعوة الأمـــة كلها ، وطرق باب كل مصرى لتأسيس كلية اهلية تجمـــع أبناء الفقـــراء والأغنياء على السواء »(١١٦) .

هـــذا عن بعض تضحيات مصطفى كامل من اجـــل مصر . اما عن تضحيات فريد فهى كثيرة نذكر منها على سبيل المثال تضحيته بمنصـــبه فى النيابة حيث استقال من وظيفته بعد موقفه الوطنى من قضية التلغراف ثم تضحيته بعمله فى المحاماة لكى يتفرغ للجهاد ، وتضحيته بأمواله لمساندة الحركة الوطنيـــة بأن باع كل ما يملكه من اراض زراعيـــة بعد ان تولى رئاسة الحزب الوطنى(١١٧) .

وكما رفض مصطفى كامل الاشتراك فى الوزارة رفض ايضا فريد ذلك عندما عرض عليه محمد سعيد باشا الاشتراك فى وزارته قائلا « كيف تطلب منى أن اشترك فى حكم البلاد فى ظل الاحتلال ، وانا اجاهد الاحتـــلال ؟ وكيف يتفق النقيضان » .

وقد تكررت هذه المحاولة مع فريد بعد ذلك فعقب مؤتمر بروكســـل فى اكتوبر ١٩١٠ قابل فريد فى باريس مبعوثا من قبل الحكومة الانجليزيـــة يعرض عليه احدى الوزارات ومساعدته ماليا بعد ان تحرج مركزه المـــالى فكان رد فريد الرفض قائلا « ان ضياع ثروتى لا يؤثر على مبادئى ، وانى أرفض اى مركز فى الحكومة مادام الانجليز فى مصر »(١١٨) .

ولما عرضت الحكومة العثمانية عـــلى فريد بعض المناصب ومنها عميد كلية الحقوق بالآستانة اعتـــذر حتى يحتفظ باستقلاله فى جهـــاده بقوله « اننى لم اخرج من بلادى للبحث عن وظيفة انما خرجت لخدمتها ، وسأبقى كذلك حتى أموت »(١١٩) .

يضاف الى ذلك ان فريدا ضحى براحته وحريته ، فاستهدف للسجن والنفى ، وكان يتلقى المحن والشدائد بكل رضـــا فكان رجـــل مبـــادىء لم يتغير مهما قاسى فى ســـبيل المحافظة عـــلى مبادئه فقد ضحى بثروته من أجل الحركة الوطنية حتى اصبح المـــال قليلا معه فلم يجـــد العناية الطبية الكافية عند اصابته بمـــرض الاستسقاء لعدم توافر المـــال اللازم لعلاجه كما ركب القطار لأول مرة فى حياته فى الدرجة الثالثة وهو بأوربا للدفاع عن حقوق مصر رغم برد الشـــتاء وذلك لقلة النقود معه(١٢٠) ووصل فريد الى اقصى حالات الضنك بسبب قيام الحـــرب الأولى ، وانقطـــاع

المورد المــالى الذى كان يصله من أسرته لدرجة انه لم يجد قوت يومــه الا بصعوبة ، كما انه لم يملك ثمن الدواء ، ومع ذلك لم يعرف فريد فى الوطنية لينا او هوادة ، ولم يضعف أمام الوعيد ولم يعبأ بأى وعود .

وبما أن الزعيم الناجح هو الذى يعى متطلبات مجتمعه ، ويحــاول النهوض بشعبه فان كلا من مصطفى وفريد اهتم بتعليم الشعب المصرى ، واستنهاض همته وتذكيره بعزته القومية وكرامته الوطنية فبعد أن رأى مصطفى كامل عقم سياسة الاقتصار على نشر الدعوة فى أوربا وحــدها والاعتماد على الدول لاجلاء انجلترا عن مصر(١٢١) احس بضرورة الاهتمام بتعليم الناس وتعريفهم بحقوقهم وواجبــاتهم خصــــوصا وأن الشــباب المتعلم هو أســاس تقدم الوطن ، وأن سياسة الاحتلال التعليميــة تحول بين تربية الناشئين والشباب تربيــة وطنية صحيحة فكان اساس مناهجها التربية المنعمة بالخضوع والمذلة(١٢٢) ومن اجل ذلك ضاعف مصطفى كامل من جهوده لتنشيط حركة التعليم فى البلاد فطالب بانشاء المدارس الاهليــة بعد أن اغلقت سلطات الاحتلال بعض المدارس الحكومية والغت مجانيــة التعليم كما طالب بأن يشمل التعليم ابناء الأسر الفقيرة والا يقتصر عــلى طبقة الأغنيــاء فقط .

ونتيجة لجهود مصطفى كامل فى هذا المجــال افتتحت مدرسة ابتدائية بالقاهرة حملت اسمه وذلك فى عام ١٨٩٩ ثم كون نادى المدارس العليا الذى كان اول تنظيم للطلاب وخريجى المدارس .

وقد سار فريد على منوال مصطفى كامل فى الدعوة لنشر التعليم فقد طالب بنشر التعليم الابتدائى بــين كافة طبقات الشعب فقيرة وغنيــه وأن يكون هذا التعليم الزاميا ومجانيا لكل مصرى ومصرية كما تبنى فريد مع نادى المدارس العليا فكرة انشاء مدارس ليلية لتعليم العمال ومن يرغب من الفقراء مجانا ، وقد عرفت هذه المدارس باسم مدارس الشعب ، وعهد بالتدريس فيها الى رجال الحزب وأنصاره .

هذا عن دور مصطفى كامل وفريد نحو التعليم العام أما عن دورهما نحو التعليم الجامعى فالمعروف أن مصطفى كامل نادى بانشــاء جامعــة

فأموال الأمة تتيح للمصريين ابراز مواهبهم ورفع شأنهم كما سار فريد على منوال سلفه وزاد على ذلك انه كان ضمن الاعضاء المؤسسين للجامعة الأهلية وعضوا بمجلس ادارتها وسكرتيرا للجنة انشاء الجامعة وضمن المساهمين من اجل انشائها فقد اكتتب بمائتى جنيه ، وبمثل هذا المبلغ سنويا .

هذا عن أوجه الاتفاق بين مصطفى كامل وفريد ، وقبل أن انتقل الى أوجه الاختلاف بينهما ينبغى ان نذكر انه اذا كانت احدى سمات الزعيم السياسى مساومة الآخرين ومراوغتهم من اجل الحصول على مطالبه ومطالب شعبه فان كلا من مصطفى وفريد لم يستعمل هذا الاسلوب فى كفاحه بل كانا واضحين فى مطالبهما دون لف أو دوران .

اما بالنسبة لأوجه الاختلاف بين الزعيمين فنجد انه بالرغم من أن مصطفى وفريد كانا متفقين فى اساسيات حركة الكفاح الوطنى فان الظروف السياسية التى لازمتهما وبوجه خاص أثناء زعامة كل منهما للحزب الوطنى حتمت على كل منهما اتباع سياسة مخالفة لسياسة الآخر فمع أن زعامة مصطفى كامل للحركة الوطنية كانت تمثل المرونة السياسية فان زعامة محمد فريد كانت تمثل الصلابة العقائدية[١٣٣] فمصطفى كامل كخطيب استطاع تحريك الجماهير واثارتها دون ان يقدم لها برنامجا فكريا واضحا [١٣٤] ، وقد اتاح له رصيده السياسى استخدام الاسلوب المرن من اجل الوصول الى هدفه فلجأ الى الكتابة والخطابة فى التشهير بالاحتلال واستطاع أن يخاطب عدوه القوى باللغة الهادئة التى تستند الى العقل والمنطق ولم يلجأ الى الاساليب الثورية فى حركته .

اما فريد فقد دفعته ظروف سياسة الوفاق وقلة رصيده السياسى بالاضافة الى الخلافات التى نشبت داخل الحزب الوطنى بعد وفاة مصطفى كامل الى التشدد فى مواقفه واللجوء الى تحويل المجتمع الى قوة ضاربة فانتقل من الخطابة مع المثقفين وطلاب المدارس الى تنظيم الحزب وتطويره ومد فروعه الى الاقاليم كما لجأ الى القوى الاجتماعية الأخرى القادرة على مقاومة الاحتلال بالعنف مثل العمال والفلاحين يضاف الى ذلك أن فريدا دعا الى المظاهرات الشعبية المنظمة للمطالبة بحق مصر فى

الدستور فكان يجتمع فى حديقة الجزيرة عشرات الآلاف ثم يسيرون الى قلب القاهرة هاتفين بمطالبهم مشتبكين بالبوليس مضحين بالعشرات[١٢٥] فقد رأى فريد أن الزعيم الناجح هو الذى يعتمد على كافة طبقات شـــعبه فى حركة الكفاح وهنا يبرز لنا تناقضا غريبا وهو أنه بالرغم من أن مصطفى كامل ينتمى الى طبقة الفلاحين وصغار الموظفين وفريد ينتمى الى الطبقة الارستقراطية فان موقف كل منهما من الفلاحين والعمال كان على عـــكس انتمائهما الطبقى فقد حصر مصطفى جهوده فى أول الأمـــر عـــلى الطبقـــة المثقفة فى المدن ، ولم يجذب اليه طبقة العمال والفلاحين ، ولم يكن لهم فى مقالاته أو فى برنـــامج حزبـــه شـــأن كبير ، كما أن دعوته للالتفاف حول الدولة العثمانية جعلت الفلاحين يبتعدون عنـــه بعض الوقت حتى وقعت احداث دنشواى فانضم الفلاحون اليه وتغنوا بأعماله . أما فريـــد فقد فطن الى ضرورة جذب العمـــال والفلاحين اليه منذ بدء زعامته فأصبح رجلا جماهيريا يتسم بطابع البســـاطة ، ويفضل العيش بـــين الجمـــاهير ومشاكلها[١٣٦] فبدأ بالربط بين حركة المثقفين وطبقة العمـــال والفلاحين حتى يتحول المجتمع المصرى الى قوة ضاربة فى مواجهة الاحتلال .

وقد اهتم فريد بأحوال العمـــال ، وطالب بوضع قوانين لحمايتهم وتحديد عدد ساعات العمل لهم ، كما اهتم بالنقابات والأندية العماليـــة لترقية احوال هذه الطبقة والدفاع عن مصالحها ومنع استغلالها فانشئت فى عام ١٩٠٩ أول نقابة للعمال فى مصر وهى نقابـــة عمـــال الصـــنائع اليدويـــة .

اما عن الفلاحين فقد طالب فريد بانشـــاء نقابات زراعيـــة تحميهم من جشع المرابين ، وتعمل على ترقية احوال الزراعة ، وتحسين أحوال الفلاح المصرى الذى وصفه فريد بأنه أتعس فلاح فى العالم .

وهكذا كان لاهتمام فريد بمشاكل العمـــال والفلاحين اكبر الأثـــر فى زيادة رصيده الشعبى فى الكفاح الوطنى وهذا ما لم يتوفـــر لسلفه مصطفى كامل ومع أن فريدا كان اقرب فى عثمانيته من ناحية الدم والصلة والقرابة من مصطفى كامل فان فكره كان اكثر مصرية من مصطفى كامل الذى كان شديد الامتزاج بالعثمانية فمزج عقيدته الوطنية بعقيدته الدينيـــة ويكفى

للتدليل على ذلك أن فريدا أحدث تغيرا فى مبادىء الحزب الوطنى العشرة بعد وفاة مصطفى كامل لدحض الاتهامات التى نسبت للحزب بتغليب ولائه التركى على ولائه المصرى فعدل المبدأ الأول للحزب من « استقلال مصر كما قررته معاهدة لندن ١٨٤٠ وضمنته الفرامانات السلطانية ذلك الاستقلال الضامن عرش مصر لعائلة محمد على والضامن للاستقلال الداخلى للبلاد » ليصبح استقلال مصر مع سودانها استقلالا تاما غير مشوب بأية حماية أو وصاية أو سيادة أجنبية أو أى قيد يقيد هذا الاستقلال .

يضاف الى ذلك أن فريد رفع شعار مصر للمصريين فى أحرج ظروفه خصوصا بعد خروجه من مصر فقد وضع على جاكتته شارة مرسوم عليها أبو الهول ومكتوب عليها مصر للمصريين مما أثار الأتراك وهددوه اما أن ينزع هذه الشارة من على صدره أو أن يغادر الآستانة فآثر فريد مغادرة العاصمة العثمانية على خلع شارته .

حقيقة أن مصطفى كامل كان له هدفه من التقرب الشديد للعثمانيين ، ولكنه أيضا كانت له مواقف فضل فيها المصلحة العثمانية على مصلحة مصر ويكفينا أن نذكر موقفه من مسألة طابة واذا كانت ملكة الخطابة ، والقدرة فى التأثير على الجماهير احدى سمات الزعامة فان مصطفى كامل كان خطيبا بارعا فى الارتجال اذا خطب الناس بعباراته البليغة وبيانه الواضح وحججه المدعمة بالمنطق والأسانيد لذلك كان قادرا على استمالة الجماهير واقناعهم كما كانت كلماته تعبيرا حيا عما يجيش فى صدور أبناء وطنه .

أما فريد فقد كان يفتقر الى هذه الصفة من سمات الزعامة فانه لم يكن خطيبا فى بلاغة مصطفى كامل بل كان غالبا ما يتلو خطبه[١٣٧] .

وتبدو ديمقراطية فريد واضحة فى رفض اختياره رئيسا للحزب مدى الحياة كما حدث مع مصطفى كامل فطالب بتعديل لائحة الحزب التى تقضى بانتخاب الرئيس مدى الحياة ، وان يقتصر انتخابه على فترة محددة ولكن ذلك الموقف من فريد لم يستمر طويلا فبعد انتهاء فترة الثلاث سنوات الأولى لزعامة فريد للحزب الوطنى عقدت الجمعية العمومية

للحزب اجتماعا انتخبت فيه فريدا رئيسا للحزب مدى الحياة ، ولم يعترض فريد على ذلك بعد أن اتضح له ضرورة استمرارية الزعامة فيه باعتبار أن استمراريته فيها هى استمرار لمبادىء الحزب .

أما بالنسبة لعلاقة كل من مصطفى وفريد بالخديو فقد كان هناك اختلاف واضح بين كل منهما فى علاقته به فقد اعتمد مصطفى كامل على الخديو فى امداده بالمصروفات الكبيرة التى يتطلبها العمل الوطنى الذى تصدى له خصوصا وأن نشأته الاجتماعية المتوسطة لم تمكنه من مقابلة هذه المصروفات مما أوجد نوعا من العلاقة الخاصة بين الرجلين(١٢٨) وجعل مصطفى كامل يرتبط بالخديو فى بعض المواقف أحيانا ، ورغم ذلك فان علاقة مصطفى كامل بالخديو لم تستمر على هذا المنوال طويلا خصوصا بعد أن رأى ضرورة استقلال الحركة الوطنية عن الخديو نتيجة للسياسة المتقلبة التى كان يتبعها تجاهها .

أما فريد فانه لم يرتبط بالخديو بأية روابط تقيد من حركته أو تفرض عليه مواقفا معينة ، فبحكم انتمائه لطبقة كبار الملاك استطاع امداد العمل الوطنى بالمال دون أن يلتزم بأى موقف مع الخديو ، لذلك اتخذ طابع الخلاف بينه وبين الخديو أبعادا واسعة نتيجة لرفضه ايجاد علاقة معه شبيهة بالعلاقة التى كانت قائمة بين الخديو ومصطفى كامل .

لقد ورث فريد مبدأ معارضة التعامل مع الخديو من لطيف باشا سليم الذى كان يرى فى الخديو رجلا انانيا يفضل منفعته الشخصية على الصالح العام .

مما سبق يتضح أنه اذا كان الخديو قد أمد مصطفى كامل بالمال فان ذلك لم يحدث مع فريد حتى فى أحرج اللحظات الا فى أواخر حياته ، فمع أن فريد نفى الشائعات التى قيلت بأن الخديو ورئيس الوزراء محمد سعيد قد أرسلا اليه ثلاثمائة جنيه لمساعدته على الخروج من مصر ، واستغرب مثل هذا الأمر بقوله فى رسالة له الى الخديو : « انى أترفع عن قبول أية مساعدة منكم ولو كنت فى أحط دركات الفقر .. وانى لا أقبل منكم أية مساعدة مادامت مهمتى هى الجهاد فى تحرير البلاد من الانجليز ومن كل من يعاونهم على توطيد أقدامهم فى مصر كائنا من كان(١٢٩) .

ومع ذلك فان الظروف التى احاطت بفريد فى اواخر ايامه جعلته يقبل مساعدة الخديو له بالمـــال ، ويبدو ذلك واضحا فيمـــا كتبه فى مذكراته تحت عنوان « من اين أعيش » أنه أخذ نقودا من الخديو ، ولا عيب فى ذلك « لأنه خديوينا الشرعى ، ولا يعتبر أخذ الفلوس منه خيانة »[١٣٠] .

يضاف الى أوجه الاختلاف السابقة بـــين مصطفى كامل وفريد أن مصطفى كامل جمع بين زعامة الحزب وادارة جرائده واستطاع أن يديرها بكفاءة أما فريد فقد تفرغ لقيادة الحزب وترك ادارة اللواء للشيخ عبد العزيز جاويش ، كما أن جريدتى الحزب الانجليزية والفرنسية قد اغلقتا .

هذا عن دور مصطفى كامل ومحمد فريد فى زعامة الحـــزب الوطنى وأوجه الاتفاق والاختلاف بينهما ، والتى يتضح منها أن كلا منهما كان مثالا للتضحية والاخلاص من اجل القضية الوطنية فقد عبر كلاهما عن ارادة الأمة المصرية خير تعبير ، وقام بتوجيه الجماهير المصريـــة فكريا ونفسيا ، واضاء لهم الطريق الذى مهد لقيام ثورة ١٩١٩ .

مراجع الفصـــل الخـــامس

(١) تاريخ المفاوضات المصرية البريطانية ص ٢٧ .

(٢) د. المسدى : محاضرات فى تاريخ مصر المعاصر .

(٣) كون هـــذه الجمعية على الروبى فى عام ١٨٧٦ اى بعد هزيمـــة الجيش المصرى فى حرب الحبشـة .

للتفاصيل انظر : الياس الايوبى . تاريخ مصر فى عهد الخديو اسماعيل باشا ١٨٦٣ — ١٨٧٩ المجلد الثانى ص ٤٧٠ .

(٤) جمعية سرية ضمت شريف باشا واسماعيل راغب ومحمد سلطان وغيرهم من الشخصيات الرافضة لسياسة رياض باشا .

(5) Ninet : Arabi Pacha. Egypt 1800 — 1883 Paris, 1884 .

(٦) جريدة مصر : العدد ٤٧ فى ٢٤ مايو ١٨٧٩ .

من خطبة جمال الدين الافغانى فى قاعة زيزينيا بالاسكندرية .

(٧) محافظ الثورة العرابية : محفظة رقم ٨ دوسيه ٥٣ ملف ٢٢٢ وثيقة رقم ١١٩١ الثورة العرابية — قضايا المتهمين .

(٨) على فهمى كامل : رسائل مصرية فرنسية ص ٣٩ .

(٩) اللواء الجديد : العدد الخامس فى ١٩٤٤/١٢/١٠ « حديث لطفى السيد باشا » .

(١٠) محافظ الثورة العرابيـــة .محفظة رقم ٨ ملف ٢١٢ محضر استجواب عرابى .

(١١) اللواء فى ١٠ اكتوبر ١٩٠٧ .

(١٢) مصطفى كامل : (المســـألة الشرقية) القـــاهرة — الطبعـــة الأولى ١٨٩٨ ص ٢٥٩ .

(١٣) عباس العقاد : محمد عبده ص ١٧٨ .

(١٤) أطلق عليه حزب الاحرار فيما بعد .

(١٥) اللواء فى ٢ يولية ١٩٠٠ تحت عنوان « حزب وطنى حر فى مصر »

(١٦) مذكرات محمد فريد ، ملف رقم (١) الجـزء الاول — القسـم الاول ص ١ ٠

(١٧) جوليت آدم : انجلترا فى مصر — ترجمة على فهمى كامل ص٢٧٣

(١٨) الرافعى : مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية ص ٢٦٢ ٠

(١٩) جوليت آدم : المرجع السابق ص ٢٧٣ ٠

(٢٠) نفســه ٠

(٢١) الرافعى : المرجع السابق ص ٢٦٧ ٠

(٢٢) د٠ يونان لبيب : الحياة الحزبية فى مصر فى عهـد الاحتـلال للبريطانى القاهرة ٠ الأنجلو المصرية ١٩٧٠ ص٥٧ ٠

(٢٣) مذكرات سعد زغلول — كراس رقم ٦ ص ٢٩١ — ٣٠٠ ٠

(٢٤) تقرير الحزب الوطنى عن سنة ١٩٠٧ القاهرة — مطبعة اللواء ١٩٠٨ ص ٢١٦ — ٢٢١ ٠

(٢٥) اللواء فى ٣١ اكتوبر ١٩٠٧ تحت عنـوان « الحـزب الوطنى والاستقلال » ٠

(٢٦) ادخل الحزب الوطنى تغييرا عـلى نص هـذا البند ليصبح « استقلال مصر مع سودانها استقلالا تاما غير مشوب بأية حمايـة أو وصاية او سيادة اجنبية او اى قيد يقيد هذا الاستقلال ٠
د٠ يونان لبيب : مصطفى كامل وتأسيس الحزب الوطنى ص ١٠٠ ٠

(٢٧) محمد حسين هيكل : تراجم مصرية وغربية ٠ القاهرة — مطبعة السياسة ص ١٦١ ٠

(٢٨) الرافعى : المرجع السابق ص ٣٦٠ ٠

(٢٩) محمد على علوبة : ذكريات سياسية واجتماعية ص ٢٨٨ ٠

(٣٠) د٠ يونان لبيب : المرجع السابق ٠

(٣١) محمد عبد السلام الزيات : الاتجـاهات المعاصرة فى التنظيم السياسى القاهرة — الأنجلو المصرية ص ١٤٧ ٠

(٣٢) د٠ يونان لبيب : الحياة الحزبية فى مصر ص٥٥ ٠

(٣٣) محمد توحيد : كيف يبحث الوطنى فى مسألة الأحزاب السياسية فى مصر ص ٩٠ ٠

(٣٤) د. يونان لبيب : المرجع السابق ص ٥٦ .

(35) Alexander, J. The Truth about Egypt P. 229 .

(٣٦) محمد شفيق غربال : المرجع السابق ص ٢٧ .

(37) Landau, J. Parliaments and Parties in Egypt. New York, 1954 p. 135 .

(٣٨) د. يونان لبيب : المرجع السابق ص ٥٩ .

(٣٩) فتحى رضوان : كفاحنا الوطنى فى نصف قرن ص ٦١ .

(٤٠) محمد حسين هيكل : مذكرات فى السياسة المصرية ج ١ ص ٢٧ .

(٤١) للتفاصيل انظر د. يونان لبيب : المرجع السابق ص ٥٣ .

(٤٢) المصرى فى ١٤ مايو ١٩٥١ .

(٤٣) جوليت آدم : المرجع السابق ص ٢٣٠ — ٢٣١ .

(٤٤) مذكرات محمد فريد ، ملف رقم (١) الجزء الأول — القسم الأول ص ٣ .

(٤٥) عبد الرحمن الرافعى : محمد فريد رمز الاخلاص والتضحية . القاهرة — النهضة المصرية . الطبعة الثانية ١٩٤٨ ص ٤٥ .

(٤٦) مذكرات محمد فريد . الجزء الأول — القسم الأول ملف رقم (١) ص ٤ .

(٤٧) الرافعى : المرجع السابق ص ٤٦ .

(٤٨) دار الوثائق : محافظ عابدين . ديوان خديو . التماسات جماعية محفظة رقم ١٢ .

(٤٩) كانت صيغة هذه العرائض ما يلى :

مولاى « اننا بكل اخلاص وثقة بامبالكم السامية نلتمس من لدنكم أن تمنحوا رعيتكم المخلصة ما منحه ابوكم الكريم لها عام ١٨٨١ وهو انشاء مجلس نيابى يكون عونا لحكومتكم السنية على نشر العلوم والمعارف ، وأنت يا مولاى الأمير خير من يقدر الدستور قدره لأنك نشأت نشأة عصرية ضاعفت محبتك لرعيتك التى رقيها من أجل امنيتك » .

دار الوثائق : تقارير الأمن العام — الداخلية تحت عنوان : عرائض وطلبات من الأهالى بشأن انشاء مجلس نيابى عام ١٩٠٨ .

(٥٠) مذكرات محمد فريد . القسم الأول — الجزء الأول ص ٤ .

(٥١) الرافعى : المرجع السابق ص ٥٨ .

(٥٢) نفسه ص ٦٢ .

(٥٣) محمد حسين هيكل : مذكرات فى السياسة المصرية جـ ١ ص ٣٢ .

(٥٤) أوراق محمد فريد . مظروف رقم ٢٣ .

(٥٥) دار الوثائق : مذكرات سعد زغلول كراس رقم ٩ .

(٥٦) د. يونان لبيب : الحياة الحزبية فى مصر ص ١٧٦ .

(٥٧) الرافعى : المرجع السابق ص ٦٢ .

(٥٨) تقرير عن المالية والادارة والحالة العمومية فى مصر والسودان ١٩٠٨ مرفوع من جورست الى جراى . المقطم ١٩٠٩ .

(٥٩) اللواء فى ١١ ابريل ١٩٠٨ تحت عنوان « ماذا يقولون » .

(٦٠) مذكرات محمد فريد رقم (١) ص ٥ .

(٦١) مذكرات فريد كراس رقم (١) ص ٥ .

(٦٢) الرافعى : المرجع السابق ص ١٦٥ .

(٦٣) منبر الشرق فى ١٩٥٢/٨/١٥ تحت عنوان الحلقة العاشرة من مذكرات الشيخ الغاياتى .

(٦٤) مذكرات سعد زغلول كراس رقم ١٧ ص ٨٩٧ .

(٦٥) اللواء فى ٣ اكتوبر ١٩٠٩ تحت عنوان « اجتماع اللجنة الادارية للحزب الوطنى » .

(٦٦) دار الوثائق : محافظ عابدين — ديوان خديو . التماسات — تلغرافات محفظة رقم (١) .

(٦٧) مذكرات سعد زغلول . كراس رقم ١٧ ص ٨٩٥ .

(٦٨) مذكرات سعد زغلول . كراس رقم ١٨ ص ٨٢٤ .

(٦٩) المقطم فى ٢٩ اكتوبر ١٩١٠ .

وايضا : Blunt : My Diaries. Vol. II p. 306 .

(70) F.O. 407/174, No. 836, Lowther to Grey, Terapia Oct., 11, 1909.

(٧١) انظر على سبيل المثال :

اللواء فى ٣ مايو ١٩٠٨ تحت عنوان « الثورة على حدود الهند الانجليزية » وأيضا عدد ٧ مايو تحت عنوان « الثورة فى الهند الانجليزية » .

(٧٢) صبرى أبو المجد : محمد فريد . ذكريات ومذكرات . القاهرة كتاب الهــلال . ص ١١٤ .

(٧٣) د. زكريا سليمان : الحزب الوطنى ودوره فى السياسة المصرية ١٩٠٧ — ١٩٥٣ ص ١١٧ .

(٧٤) احمد شفيق : المرجع السابق جـ ٢ . القسم الثانى ص ٢٦٨ .

(٧٥) العلم فى ٢٧ أكتوبر ١٩١٢ .

(٧٦) على الغاياتى : وطنيتى — القاهرة . مطبعة منبر الشرق — الطبعة الثالثة ص ٢٦ — ٢٧ .

(٧٧) نفســـه : ص ٣٣ .

(٧٨) أحمد شفيق : مذكراتى فى نصف قرن . الجزء الثانى ص ٣٢ .

(٧٩) الرافعى : المرجع الســـابق .

(٨٠) على الغاياتى : المرجـــع السابق ص ١١ — ١٥ .

(٨١) الرافعى : المرجع السابق ص ٢٣٧ .

(٨٢) مذكرات محمد فريد . الجزء الأول — القسم الأول ص ١٤ .

(٨٣) نفســـه .

(٨٤) الرافعى : المرجع السابق ص ٢٧٥ .

(٨٥) مذكرات محمد فريد جـ ١ القسم الأول ص ١٧ بينما يذكر الرافعى أن فريد احتجب بغرفة اسماعيل لبيب حتى انتهى مفتش الحجر الصحى من المرور .

(٨٦) الرافعى : المرجع السابق ٢٧٦ .

(٨٧) رفعت السعيد : تاريخ الحركة الاشتراكية فى مصر ص ٣٨٠ .

(٨٨) الجمهورية : العدد ٥٧٧٥ فى ١٦/١٠/١٩٦٩ مقـال للدكتور محمد انيس تحت عنوان كفاح فى المنفى .

(٨٩) مذكرات محمد فريد . ملف رقم (١) ص ٢٠ — ٢١ .

(٩٠) أوراق محمد فريد : مظروف رقم ١٣ من أحمد وفيق الى محمد فريد فى ١٧ يونية ١٩١٤ .

(٩١) مصطفى النحاس : سياسة الاحتـلال تجـاه الحركة الوطنيـة القاهرة — الهيئة العامة للكتاب ١٩٧٥ ص ١٨٣ .

(٩٢) الاهرام فى ١٥ سبتمبر ١٩٧٢ تحت عنوان « مذكرات مـدام روشبرون » .

(٩٣) صبرى ابو المجـد : المرجع السابق ص ١٥٠ .

(٩٤) مذكرات محمد فريد . ملف رقم ٢ ص ٦٤ .

(٩٥) عن نص هذا المنشور انظر : الرافعى — محمد فريد ص ٣٤٤ — ٣٤٥ .

(٩٦) روز اليوسف : العدد ١١١٨ فى ١٥ نوفمبر ١٩٤٩ .

(٩٧) مجلة الهـلال . مجلد ١٩٣٠ مقال للاستاذ طاهر الطناحى تحت عنوان « مثال البذل والجهاد محمد بك فريد » .

(٩٨) فتحى رضوان : مشهورون منسيون . القاهرة ص ٢٤ .

(٩٩) الرافعى : ثورة ١٩١٩ جـ ١ ص ٦٧ .

(١٠٠) محمد على علوبه . ذكريات اجتماعية وسياسـية . مخطوط بدار الوثائق ص ٨٨ .

(١٠١) مذكرات محمد فريد . ملف رقم ١٠ ص٢٦٧ .

(١٠٢) د. عاطف فؤاد : الزعامة السياسية فى مصر — عرض تاريخى وتحليل سسيولوجى . القاهرة — دار المعارف ١٩٨٠ ص١٠٥ .

(١٠٣) محمد على الغتيت : الزعيم . العبقرية والزعامة السياسية . القاهرة ١٩٧٤ ص ٧٩ .

(١٠٤) محمد حسين هيكل : شخصيات مصرية وغربية ص ٥٦ .

(١٠٥) للتفاصيل انظر كتابنا عبد الله النديم ودوره فى الحركة السياسية والاجتماعية . القاهرة — دار الكتاب الجامعى ص ١٩٩ — ٢٠٠ .

(١٠٦) مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة . المجلد العشرين . الجزء الأول مايو ١٩٥٨ مقال للدكتور عبد اللطيف حمزة تحت عنوان « الطور الصحافى من اطوار الحركة الوطنية او العصر الذهبى لصحافة المقال فى مصر » .

(١٠٧) عبد العزيز حافظ دنيا : رسائل تاريخية من مصطفى كامل الى فؤاد سليم الحجازى . القاهرة — دار النهضة المصرية ١٩٦٩ خطاب رقم ١١ ص ٥٨ .

(١٠٨) الرافعى : محمد فريد رمز الاخلاص والتضحية ص ٤٤١ .

(١٠٩) للتفاصيل انظر : دار الوثائق . تقارير الأمن العام — الداخلية تحت عنوان « عرائض وطلبات من الأهالى بانشاء مجلس نيابى ١٩٠٨ » .

(١١٠) انظر على سبيل المثال اللواء عدد ٣١ يناير ١٩٠١ وأيضا عدد ٢٤ فبراير ١٩٠١ .

(١١١) على فهمى كامل : رسائل مصرية فرنسية . القاهرة ١٩٠٩ ص ١٥٥ — ١٥٦ .

(١١٢) د. محمد حسين هيكل : شخصيات مصرية وغربية ص ٥٦ .

(١١٣) المؤيد فى ٣١ ديسمبر ١٨٩٤ .

(١١٤) على فهمى كامل : مصطفى كامل فى ٣٤ ربيعا الجزء السادس ص ١٢٦ .

(١١٥) احمد رشاد : مصطفى كامل . حياته وكفاحه ص ٣٢٣ .

(١١٦) مذكرات محمد فريد . ملف رقم (١) خطاب مرسل من مصطفى كامل الى محمد فريد بتاريخ ٢٤ سبتمبر ١٩٠٦ ص ١٣ .

(١١٧) مذكرات محمد فريد . مظروف رقم ٣٠ .

(١١٨) الرافعى : محمد فريد ص ٤٥٤ .

(١١٩) الهلال : مجلد ١٩٣٠ مقال للأستاذ طاهر الطناحى تحت عنوان « مثال البذل والجهاد محمد بك فريد » ص ٣٣١ .

(١٢٠) مذكرات محمد فريد ملف رقم (١) ص ٢١ .

(١٢١) د. محمد حسين هيكل : المرجع السابق ص ٥٥ .

(١٢٢) المؤيد : فى ١٨٩٨/١٠/٨ .

(١٢٣) د. يونان لبيب : الحياة الحزبية فى مصر ص ٨٥ .

(124) Safran, Nadav : Egypt In search of Political community pp. 62 101 .

(١٢٥) أحمد بهاء الدين : أيام لها تاريخ . القاهرة روزاليوسف ص٧٣ .

(١٢٦) عصام ضياء الدين . الحزب الوطنى والنضال السرى . رسالة ماجستير غير منشورة ص ١٠٩ .

(١٢٧) محمد علـى علوبـة : ذكريات سياسية واجتماعية . مخطوط ص ٢٨٩ .

(١٢٨) د. يونان لبيب : الحياة الحزبية فى مصر ص ٨٤ .

(١٢٩) مذكرات محمد فريد . الجزء الأول — القسم الأول ص ٢ .

(١٣٠) نفسه : ملف رقم ٧ ص ١٩٦ .

الفصل السادس

مصر من ثورة ١٩١٩ الى معاهدة ١٩٣٦

أولا : مقدمات الثورة واسبابها :

ثانيا : احداث الثورة وتطوراتها .

ثالثا : نتائج الثورة .

رابعا : تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ .

خامسا : المفاوضات المصرية البريطانية فى اعقاب تصريح فبراير .

سادسا : حكومة صدقى ١٩٣٠ .

سابعا : معاهدة ١٩٣٦ .

أولا — مقدمات الثورة وأسبابها :

(أ) مقدمات الثورة :

نتيجة لانضمام الدولة العثمانية الى ألمانيا والنمسا فى الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ — ١٩١٨ عملت بريطانيا على ضمان سيطرتها على مصر ، واتخذت من الاجراءات العسكرية والسياسية ما يحقق أهدافها الحربية ويجعل من مصر قاعدة لها فى الشرق الأوسط ، ولكى يتحقق لها كل ذلك همت بضم مصر الى الممتلكات البريطانية ثم اضطرت الى العدول عن هذا القرار وأعلنت حمايتها على مصر ١٩١٤م [1] وقطعت آخر العلاقات التى تربطها بالدولة العثمانية وحلت الجمعية التشريعية واخضعت البلاد لحكم يمارسه المندوب السامى البريطانى والمستشارون الانجليز [2] .

وخلال سنوات الحرب عانت مصر الكثير من المتاعب والحرمان خصوصا وأن الانجليز كانوا قد أعلنوا الأحكام العرفية ، وتشددوا فى تطبيقها ، وتحكموا فى موارد مصر الاقتصادية ، وجندوا العديد من المصريين للخدمة فى الحرب ، كل ذلك أدى الى اشتداد مرحلة الغليان بين أبناء الشعب المصرى ، وازدياد القلق بينهم .

وعندما أعلن الرئيس الأمريكى ويلسون مبادئه الأربعة عشر التى كان مفروضا ان تتخذ أساسا لمفاوضات الصلح وعقد معاهدة السلام وجد المصريون شعاعا من الأمل وخيطا يتمسكون به ، ولذلك بدأوا يتحركون للمطالبة بحقوقهم وتصدر الزعماء البارزون فى ذلك الوقت ومنهم سعد زغلول فكرة تأليف وفد لايضاح قضيتهم أمام زعماء العالم فى مؤتمر الصلح بفرساى، وخلاصة القول أن مصر قبيل ثورة ١٩١٩ كانت مكبلة بالعديد من القيود ، كما كانت تعانى الكثير من المشاكل التى نجرت بعد ذلك ثورة ١٩١٩ م .

(ب) أسباب الثورة :

تعددت الأسباب التى ادت بالمصريين الى القيام بثورة ١٩١٩ م والتى

كان منها اسباب غير مباشرة ، واسباب مباشرة ، وفيما يلى نعرض لهذه الأسباب .

الأسباب غير المباشرة :

١ — الأسباب الاقتصادية :

تدهورت احوال مصر الاقتصادية نتيجة لانخفاض اسعار القطن بعد اعلان الحرب العالمية الأولى وما صاحبه من ارتفاع فى الأسعار نتيجة لتدهور العملة ، وتوقف البنوك عن عملية التسليف ومطالبتها بالأقساط المقررة على الفلاحين مما دفعهم الى بيع حليهم من الذهب لتسديد ما عليهم للحكومة .

وكان لارتفاع الأسعار اثر كبير وخاصة على الفقراء الذين لم يستطيعوا ان يؤمنوا حاجاتهم من حبوب واقمشة وغيرها ، وفى نفس الوقت كانوا يرون أن السلطات العسكرية البريطانية تصادر أرزاقهم ودوابهم وغيرها كما كانوا يرون الأجانب وهم يبتزون ثروات المصريين وارزاقهم .

٢ — الأسباب الاجتماعية :

ساعدت ظروف الحرب العالمية الأولى على نمو المجتمع المصرى ، وتطلعه الى مراقى التقدم خاصة بعد انتشار التعليم وما صحبه من نهضة أدبية وعلمية مما جعل الشعب المصرى يحس بشخصيته المتميزة ويشعر بضرورة اعتراف الانجليز بحقوقه المشروعة .

٣ — الأسباب السياسية :

منذ أن احتلت بريطانيا مصر فى عام ١٨٨٢ وهى تعانى من هذا الاحتلال فى نواح شتى من اهمها الضغط والكبت السياسى ، واجبار العناصر الوطنية على مغادرة البلاد وتعيين مستشارين انجليز فى العديد من المصالح الحكومية وزيادة عدد الموظفين الأوربيين فى كل الادارات وتعطيل الجمعية التشريعية ، وشل دور الحكومة وحرمان مصر من الاتصال المباشر بدول العالم ومحاولات الانجليز فصل السودان عن مصر وتحمل الشعب متاعب السلطات العسكرية البريطانية فى ظل أحكام عرفية شديدة الصرامة .

ونتيجة لضغوط الحركة الوطنية المصرية بدأ الانجليز فى اعطاء الوعود البراقة للمصريين ، ولما اشتعلت نيران الحرب العالمية الاولى اعلنت بريطانيا حمايتها على مصر ، وبدأت فى الضغط على مقدرات المصريين ، الذين تطلعوا الى الاستقلال وراقهم تصريحات الرئيس الأمريكى «ولسن» التى اعلنها فى عام ١٩١٧ وذكر منها حق الشعوب فى تقرير مصيرها بنفسها ولا فرق فى ذلك بين شعب قوى وآخر ضعيف (٣) .

الأسباب المباشرة :

يرجع السبب المباشر فى قيام ثورة ١٩١٩ الى اعتقال الوفد المصرى الذى تم تأليفه للدفاع عن حقوق مصر فى مؤتمر الصلح بباريس حيث تقدم سعد زغلول وعبد العزيز فهمى ، وعلى شعراوى الى دار الحماية البريطانية وطلبوا من السير « ريجنالد ونجت » السماح لهم بالسفر الى المؤتمر الا أن السلطات الانجليزية رفضت السماح للوفد المصرى بالسفر ، ومنعت اعطاءهم جوازات للسفر بموجب الأحكام العرفية (٤) مما أغضب سعد زغلول وجعله يحتج لدى دار الحماية ولدى رئيس الوزراء البريطانى جورج لويد ولما أصر رجال الوفد على ضرورة سفرهم القت السلطات البريطانية فى التاسع من مارس ١٩١٩ القبض على كل من سعد زغلول ، ومحمد محمود ، وحمد الباسل ونقلتهم الى بور سعيد ومنها تم نفيهم الى مالطة مما فجر قيام الثورة .

والسؤال المطروح هو لماذا رفضت بريطانيا السماح للوفد بالسفر الى المؤتمر ؟

الواقع أن بريطانيا كانت ترى أن كبرياءها لا يسمح لها بأن يقوم الشعب المصرى بعرض قضيته ضدها أمام الدول الكبرى ، يضاف الى ذلك أن المؤتمر اذا وافق على اشتراك مصر فى جلساته فعليه أن يسمح لغيرها من الشعوب وهذا ما ترفضه الدول الاستعمارية (٥) .

ثانيا : احداث الثورة وتطوراتها :

جاءت هذه الثورة نتيجة للشحنة الكبيرة الكامنة فى نفوس المصريين

ضد الاحتلال ، وقد جاء اعتقال الوفد المصرى من قبل السلطات البريطانية ليكون الشرارة التى اشعلت فتيل هذه الثورة .

فما أن علم الشعب المصرى باعتقال اعضاء الوفد ونفيهم الى مالطة ، حتى هب افراده فى مسيرات ثورية ضد الاحتلال حيث بدأت المظاهرات فى القاهرة يوم ٩ من مارس اى فى اليوم التالى لاعتقال سعد [٦] . وقد اوقد طلاب المدارس شرارة الثورة حيث أضربوا عن الدرس ، وخرجوا من مدارسهم فى مظاهرات سلمية تتقدمهم اعلامهم وهم يهتفون بحياة مصر [٧] والوفد المصرى وسعد زغلول وسقوط الحماية الانجليزية .

وقد بدأ الاضراب بمدرسة الحقوق ثم انتقل الى مدارس الزراعة ، والطب ، والتجارة ، وعند تحرك الطلاب فى ميدان السيدة زينب ، قبض الجنود الانجليز على حوالى ثلاثة مائة طالب ، وساقوهم الى القلعة ، ولما وصل الى الازهريين أخبار الثورة اضربوا عن الدراسة وساروا فى مظاهرات هادئة لم يستخدم فيها العنف وفى يوم ١٠ مارس تطورت أحداث العنف بين الطلاب والانجليز ، وتطورت الأمور الى قيام الجنود الانجليز باطلاق النار على الطلاب [٨] .

واستمرت الثورة فى اشتعالها وانتقل صداها الى بعض المدن الكبرى مثل الاسكندرية وطنطا واسيوط والبحيرة ، ولم يمض خمسة اشهر على قيامها الا وسقط حوالى الف قتيل .

وازدادت الأمور تدهورا بمشاركة العمال فى الثورة فقام عمال الترام والسكك الحديدية الذين يزيد عددهم على اربعة آلاف عامل بتعطيل قضبان السكك الحديدية واعمدة البريد والهاتف ، مما ادى الى تعطيل حركة المواصلات والاتصالات ، وانعزال مدينة القاهرة عن باقى المدن المصرية .

يضاف الى ذلك قيام المحامين بمشاركة ابناء وطنهم فى القتال فاعلنوا الاضراب عن مزاولة اعمالهم احتجاجا على المذابح التى قام بها الانجليز لقمع الثورة كما اغلقت المتاجر فى القاهرة [٩] .

ولم تقتصر ثورة ١٩١٩ على جهود الرجال بل شارك فيها النساء

أيضا فتظاهرن فى مسيرات — وهى يحملن اعلاما حمراء ولافتات كتب عليها « ايها الانجليز اخرجوا من بلادنا » « سعد زغلول هو زعيمنا » « اعيدوا سعد باشا الينا » « الاستقلال التام او الموت الزؤام » « تسقط الحماية البريطانية » « نموت ويحيا سعد » وكانت هذه أول مرة تخرج فيها المـــرأة فى الشرق الى الشارع فى مظاهرة مما اذهل العالم وجعل وكالات الانباء الاجنبية والصحافة تتحدث فى صدر نشراتها وصفحاتها عن هذه المظاهرة .

وكانت صفية زغلول زوجة سعد هى أول من اقترح ان تخرج نساء مصر الى الشارع محتجات على نفى الانجليز لزعيم الثورة ومضت المظاهرة النسائية فى شوارع القاهرة ، تلوح باعلام صغيرة وتهتف لسعد وتلعـــن الاحتلال الى ان وصلت الى ميدان قصر الدوبارة فى طريقها الى دار الحماية البريطانية فى جاردن سيتى .

وقد احاط الجنود المدججون بالسلاح مظاهرة النساء المصريات ثـــم صوبوا اليهن البنادق ولم تتراجع النساء بل مضين فى طريقهن حتى اقتربت حراب البنادق من صدور النساء وتقدمت الصفوف احدى السيدات وقـــد كشفت صدرها وصاحت بالانجليزية فى وجه احد جنود الاحتلال اطـــلق بندقيتك ايها الجندى ، هنا على هذا الصـــدر ، لتجعلـــوا فى مصر مس كافل[10] ثانيـــة .

وحاصر الانجليز النساء المصريات ، وطلبوا منهن التفرق والعودة الى بيوتهن ، ومنعهن من الوصول الى بيت سعد زغلول ، وتحدت النســــــاء المصريات هذه الأوامر ، ومضت ساعة كاملة فى يوم شديد الحرارة والنساء صامدات ، واخيرا توسط السفير الأمريكى فى الأمـــر ، وانصرف الجنـــود الانجليز ، وسارت مظاهرة النساء الى بيت صفية زغلول[11] .

واعقب ذلك مرحلة من عدم التعاون مع الانجليز ومقاطعة بضائعهم ، ورفض المصريون الاشتراك فى أية حكومة كى يحملوا الانجليز كامل المسئولية عن الاحداث .

وقد ادت هذه الأحداث الى انزعاج السلطات الانجليزية مما جعلهـــا

تشكل محاكم عسكرية للمتظاهرين الذين القى القبض عليهم وكان يحكم عليهم بالحبس او الجلد او الغرامة ، ولكن ذلك لم يزد الثورة الا اشتعالا وازاء ، اصرار الشعب المصرى على الثورة حتى يتم الافراج عن افراد الوفد المعتقلين اضطـرت السلطات البريطانية الى الافراج عن سـعد وصحبه وسمحت لهم بالسفر الى باريس لعرض مطالب بلادهم .

وقد سافر الوفد الى باريس ولكن بعد فـوات الأوان حيث تمكنت بريطانيا من انتزاع اعتراف الدول الكبرى بحمايتها على مصر .

ونتيجة لذلك قرر الوفد الاعتماد على النفس والاستمرار فى حـركة الكفاح الوطنى .

ولـما هال بريطانيا استمرار الثورة وامتدادها الى جميـع انحـاء البلاد ، فكرت فى ايفاد لجنة للتحقيق فى اسباب غضب المصريين ، ومحاولة التوفيق بين أمانى الأمة المصرية ومصالح بريطانيا وحقوق الاجانب (١٢) .

وعلى هذا الاساس شكلت لجنة برئاسة « اللورد ملنـر » وريـر المستعمرات البريطانى فى ذلك الوقت .

وقد اتصف موقف الشعب المصرى من هذه اللجنة بالسلبية وعـدم الرضا فقاطعها المصريون ، واعلنوا انهم لا يرضون بغير الاستقلال بديلا مما اضطر اللجنة الى العودة الى بريطانيا فى مارس ١٩٢٠ (١٣) ودعوة الوفد المصرى بعد ذلك للحضور الى لندن للتفاهم معها بشأن مستقبل القضية المصرية وهناك قدم « ملنر » مشروعه الذى اشتمل على ضمان بريطانى باستقلال مصر بشرط عدم عقد معاهدة مع اى دولة اخرى دون موافقـة بريطانيا ، وعلى اعطاء بريطانيا حق ابقاء قوات عسـكرية فى الأراضى المصرية ، وحق استعمال الموانىء والمطارات ، والزام مصر بتعيين مستشار مالى تكون له جميع الاختصاصات المالية ، هذا الى جانب حق بريطانيـا فى التدخل فى شئون الأجانب .

أما مشروع الوفد فقـد كان ينص على انهـاء الحماية والاحتـلال البريطانى ، واسترداد مصر لكامل سيادتها الداخلية والخارجية كدولة لها

نظام دستورى وأن تسحب بريطانيا قواتها من مصر بعد مدة يتفق عليهـــا الطـــرفان .

وللتوفيق بين المشروعين قدمت لجنة ملنر مشروعا آخـــر ، ولكنـــه كان لا يختلف عن مشروعها الأول كثيرا حيث احتفظ باحتلال بريطانيـــا لمصر، ووضع المصالح البريطانية فى المقام الأول دون النظـــر الى مطالب مصر (١٤) ونتيجة لذلك رفضه الجانب المصرى مما دفع ملنر الى قطع المفاوضـــات ودفع الوفد المصرى الى مغادرة لندن الى باريس ، وعلى اثر قطع المفاوضات قدم ملنر الى حكومته تقريرا اقترح فيه عقد معاهدة بين مصر وبريطـــانيا تتفق مع مصالح الطرفين ، كما أوصى بضرورة أن تحصل بريطانيـــا على ضمانات بتواجد قوات عسكرية لها فى مصر .

ونتيجة لاستمرار الاضطرابات فى مصر اعلنت انجلترا عن رغبتها فى استئناف المفاوضات مع الحكومة المصرية برئاسة « عدلى يكن » الذى كان قد ألف وزارته فى ١٧ مارس ١٩٢١ والتى سميت بوزارة الثقة فألف عدلى وفدا حكوميا برئاسته وعضوية رشدى باشا واسماعيل صدقى (١٥) وسافر الى لندن لمفاوضة اللورد كيرزون ، وقد استمرت المفاوضات طيلة الصيف واتضح منها أن بريطانيا لم تكن جادة فى الغاء حمايتها لاصرارها على مرابطة قوة عسكرية بريطانية فى مصر ، ونتيجة لذلك عـــاد الـــوفد الـــى ارض الوطن (١٦) وقدم عدلى استقالته من الوزارة .

ونظرا لتصاعد الحركة الوطنية ، وتزايد الكراهية ضد الانجليز ، ألقت السلطات البريطانية القبض على سعد زغلول وخمسة من اعضاء الوفد وهم « فتح الله بركات » ، و « عاطف بركات » ، و « مصطفى النحاس » و « مكرم عبيد » ، و « سينوت حنا » ، وقامت بنفيهم الى عدن ثم الـــى جزيرة سيشل ثم نقل سعد الى جبل طارق .

ونتيجة لذلك ازداد هياج الشعب المصرى ، واستمرت الاضطرابات وقاطع المصريون البضائع الانجليزية وتردد رجال السلطان فى قبول منصب الوزارة فى ظل الحماية البريطانية ، وأصر المصريون على الغاء الحمـــاية وعودة المنفيين وازاء هذا الموقف اضطرت الحكومة البريطانية الى تهدئة الموقف والتفاوض مع المصريين مما نتج عنه تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ .

ثالثا : نتائج ثورة ١٩١٩ :

اسهب المؤرخون فى الحديث عن نتائج ثورة ١٩١٩ فمنهم من قال بنجاحها خاصة وانهـا ايقظت مصـر فنهضت تبحث عن شخصها وتعيد روحهـا وحضارتها بنفسها [١٧] دون اعتماد على حكامها ومنهم من قال بغير ذلك والحقيقة ان هذه الثورة لها نتائج ايجابية كما أن لها نتائج سلبية وفيما على نعرض لكافة هذه النتائج .

١ ــ فى الناحية السياسية :

فى الحقيقة ان ثورة ١٩١٩ لم تستطع انهاء النفوذ الانجليزى فى مصر، ومع ذلك فانها وضعت حدا لسلطاته المطلقة التى كان يفرضها على المجتمع المصرى ، كما ان هذه الثورة قد حققت احد اهدافها الهامة الا وهو تقـرير النظام الدستورى الذى كانت تصبو اليه قلوب المصريين ونفوسهم منـذ اواخـر عهد اسماعيل حيث امتزج مطلب الاستقلال الوطنى بمطلب البناء الديمقراطى . يضاف الى ذلك ان ثورة ١٩١٩ استطاعت ان تحمل بريطانيا على الاعتراف بتصريح فبراير ١٩٢١ الذى يرى أن الحماية البريطانية أصبحت علاقة غير مرضية واعترف بمصر دولة ملكية مستقلة ذات سيادة ، وذلك يعتبر فى حد ذاته مكسبا دوليا لمصر خصوصا وان بريطانيا قد ابلغت دول العالم بالغاء حمايتها على مصر [١٨] ، يضاف الى ذلك ان هذه الثـورة نجحت فى بسط سلطان الحكومة المصرية على الأجانب فى التشريع والادارة والأمن .

٢ ــ فى الناحية الاقتصادية :

نجحت ثورة ١٩١٩ فى زعزعة الخرافة القائلة بأن الاقتصاد الزراعى هو النوع الوحيد الذى يلائم مصر [١٩] كما وضعت حدا للحكم المطلق الذى كان يمارسه كبار الملاك تحت اشراف السلطات الاستعمارية ، والتى كانت قد اهملت النواحى الاقتصادية اهمالا واضحا ، فقد رافق الكفاح السياسى للثورة رغبة ملحة فى اقامة نظام اقتصادى لا يرتبط كل الارتباط بالمصـالح الاجنبية ، وقد مهد الطريق لذلك دعوة طلعت حرب الى تأسيس بنك مصر فى عام ١٩٢٠ [٢٠] والذى كان النواة لنهضة اقتصادية ومالية فى مصـر

بعد الحرب العالمية الأولى ، فقد كان أول بنك اسمه واداره مصريون ، وكان رأس ماله مصريا خالصا وقد استقبل البنك بحماسة بالغة ، وسرعان ما كسب ثقة الطبقة الوسطى وتعضيدها .

ومنذ أن انشىء هذا البنك عنى بالمشاركة الجدية فى التجارة والصناعة، فانشأ شركات للمواصلات والتأمين والتجارة وعددا من المؤسسات الصناعية وأهمها مصانع الغزل والنسيج (٣١) .

٣ — فى الناحية الاجتماعية :

اغفل رجالات الثورة حركة التغيير الاجتماعى ، خصوصا وانهم كانوا من طبقة كبار الملاك (الارستقراطية الزراعية) التى كان من الممكن ان تؤثر نتائج الثورة على مصالحهم ومن هنا وقفوا ضد تحويل الثورة من ثـورة سياسية الى ثورة اجتماعية ومع ذلك فقد نشطت الحركة العمالية خـلال الثورة ، حيث طالب العمال بترقية شئونهم وتحسين احوالهم مما اضطر الحكومة الى تأليف لجنة للتوفيق بين العمال وأصحاب العمل كما استجابت المراة المصرية للشعور الوطنى فنزلت الى ميدان النضال السياسى لأول مرة فى تاريخها .

٤ — فى الناحية المعنوية :

كان لثورة ١٩١٩ أثر كبير من الناحية المعنوية حيث سادت بين الشباب روح التضحية والفداء والتمسك بالقيم الاجتماعية بين ابناء الشعب (٣٢) فى حين دب فى نفوس الانجليز روح التململ ، وادركوا ان الشعب المصرى أصبح لا يقبل الذل ، وانه ثورته ما هى الا عملية جراحية لجأ اليهـا بعد أن سدت فى وجهه كل السبل المتاحة واستطاع تحطيم المعوقات وشـق طريقه الى الحياة السليمة ومما سبق يتضح مدى ما جناه الشعب المصرى من ثورة ١٩١٩ فى النواحى السياسية والحضارية والاقتصادية .

رابعا : تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ :

(أ) فكرة اصدار التصريح :

عـرض عـدلى باشـا فى مفاوضاته مـع اللورد كيرزون فـكرة التصريح وخلاصتها هى أنه طالما أن بريطانيا قد أعلنت أن علاقتها مع مصر

عن طريق الحماية اصبحت علاقة غير مرضية ، وانها مستعدة للتسليم ببعض مطالب مصر فلماذا لا يقوم الانجليز بالتسليم بهذه المطالب حتى يهدأ المصريون وتتوقف ثورتهم [(٢٣)] .

وبعد عدة مشاورات اصدرت بريطانيا هذا التصريح وقد جاء فيه :
« بما أن حكومة جلالة الملك ، وعملا بنواياها التى جاهدت بها ، ترغب فى الحال فى الاعتراف بمصر دولة مستقلة ذات سيادة ، وبما أن للعلاقات بين حكومة جلالة الملك ، ومصر اهمية جوهرية للامبراطورية فبموجب هذا تعلن المبادىء الآتية .

١ — انتهاء الحماية البريطانية على مصر وتصبح مصر دولة مستقلة ذات سيادة .

٢ — حالما تصدر حكومة عظمة السلطان قانون تضمينات (اقرار الاجراءات التى اتخذت باسم السلطة العسكرية) نافذ الفعل على جميع ساكنى مصر تلغى الاحكام العرفية التى اعلنت فى الثانى من نوفمبر ١٩١٤

٣ — الى ان يحين الوقت الذى يتسنى فيه ابرام اتفاقات بين حكومة جلالة الملك وبين الحكومة المصرية فيما يتعلق بالأمور الآتى بيانها وذلك بمفاوضات ودية غير مقيدة بين الفريقين ، تحتفظ حكومة جلالة الملك بصورة مطلقة بتولى هذه الأمور وهى :

١ — تأمين مواصلات الامبراطورية البريطانية فى مصر .

٢ — الدفاع عن مصر ضد كل اعتداء او تدخل أجنبى بالذات أو بالواسطة .

٣ — حماية المصالح الأجنبية وحماية الأقليات .

٤ — السودان .

وحتى تبرم هذه الاتفاقات تبقى الحالة على ماهى عليه [(٢٤)] .

وعند تحليلنا لهذه البنود الاربعة ، نجد أن مصر تحولت من الحماية البريطانية العلنية عليها الى الحماية المقنعة فالتحفظ الأول يجعل لبريطانيا حق التواجد العسكرى فى مصر بصفة مستمرة بحجة تأمين المواصلات البريطانية والتحفظ الثانى يجعل لبريطانيا اليد الطولى على مصر عسكريا بحجة الدفاع عنها .

والتحفظ الثالث يعطى لبريطانيا فرصة التدخل المستمر فى شؤون مصر الداخلية بحجة حماية المصالح الأجنبية والاقليات أما التحفظ الرابع فمعناه فصل السودان عن مصر وسيطرة بريطانيا على مقاليد الأمور فيه مما ادى الى ردود فعل لدى بعض الضباط السودانيين تمثلت فى قيام الملازم أول على عبد اللطيف باعلان حركة المقاومة ضد بريطانيا [٢٥] كما ادى أيضا الى ردود فعل لدى المصريين تمثلت فى مطالبتهم باستقلال مصر والسودان استقلالا غير مقيد بحماية أو وصاية .

(ب) اسباب صدور التصريح :

١ — كان لرد الفعل القوى عند الشعب المصرى اثر اعتقال سعد زغلول وصحبه ، اكبر الاثر فى مراجعة بريطانيا لسياستها تجاه مصر ، فرأت أن العقل والمنطق يفرضان عليها تهدئة الموقف والعمل على ايقاف الثورة والحد من المظاهرات العارمة ضدها ، وذلك لحماية مصالحها ومصالح الأجانب فى مصر [٣٦] .

٢ — بعد أن قدم عدلى باشا استقالته اثر عودته من بريطانيا بعد مفاوضاته مع « اللورد كيرزون » رفض المستوزرون قبول تأليف أى وزارة جديدة تضامنا مع الشعب المصرى ، واحتجاجا على اعتقال سعد وصحبه مما أحرج مركز السلطات البريطانية فى مصر [٣٧] واضطر الجنرال اللنبى المندوب السامى البريطانى فى مصر الى ان يصدر قرارا فى ٢٨ ديسمبر يخول وكلاء الوزارات الانجليز سلطة الوزراء ، حتى يتم تأليف الوزارة .

٣ — فشل سياسة البطش والارهاب التى انتهجتها بريطانيا فى مصر ، وتصميم الشعب المصرى على استقلال بلاده [٣٨] مما دفع الساسة الانجليز الى الشعور بعدم جدوى القوة أمام شعب يضحى بدمائه ولا يهاب الموت

٤ — ربط تصريح فبراير بالمحافظة على مصالح بريطانيا فى مصـــر جعل الانجليز لا يشعرون بأى ضرر على مصـــالحهم اذا اعلنــوا هــذا التصريح [٢٩] .

(جـ) صدى صدور التصريح :

تنبه أفراد الشعب المصرى لما ترمى اليه بريطانيا من وراء هذا التصريح الذى لم ينه الحماية ، نتيجة للتحفظات الأربعة التى تضمنته وقد عبر عن ذلك الأستاذ عباس العقاد بقوله انه التصريح المنسوب الى هذا التاريخ (فبراير) لأن أحدا لم يستطع أن يسميه تصريح الغاء الحماية أو تصريح الاستقلال أو ما الى ذلك من الصفات ، لا فرق فى ذلك بين انصاره المرحبين به ، وخصومه المعترضين عليه [٣٠] .

وعلى الرغم من المعارضة الشديدة التى لاحقت هذا التصريح فان الحكومة المصرية اخذت فى تنفيذه .

(د) نتائج اصدار التصريح :

فى الحقيقة ان اصدار هذا التصريح على الرغم مما فيه من قيود كان خطوة فى سبيل استقلال مصر ، خصوصا وان المصريين لم يستطيعوا قبل ذلك استخلاص اى اعتراف من بريطانيا بانهاء الحماية ، كما انه اتاح لهم فرصة الحصول على قدر اكبر من ادارة حكم بلادهم بأنفسهم وتولى العديد من أمورهم فبعد اعلان التصريح قام « عبد الخالق ثروت » بتأليف وزارة جديدة [٣١] شملت بين اجنحتها وزارة للخارجية التى كانت قد الغيت فى ظل الحماية ، وتولى ادارة شؤونها رئيس الوزراء بنفسه [٣٢] وبذلك تحقق لمصر ادارة شؤون كيانها الخارجى وتمثيلها السياسى والقنصلى ومن نتائج التصريح كذلك تحول مصر من سلطنة الى ملكية واعلان السلطان فؤاد ملكا على مصر فى الخامس عشر من مارس ١٩٢٢ [٣٣] والاعتراف بمصر كدولة مستقلة .

يضاف الى ذلك ان من أهم النتائج التى تمخضت عن تصريح فبراير ، كان اعلان الدستور ، فقام رئيس الوزراء بتأليف لجنة فى الثالث عشر من

ابريل ١٩٢٢ لوضع مسودة الدستور ، ولما اتمت هذه اللجنة مهمتها تقدمت مشروع الدستور الى ثروت باشا فى الثانى والعشرين من اكتوبر ١٩٢٢ ، ولكن الملك فؤاد اعترض على بعض بنوده فى محاولة لممارسة سلطته على حساب سيادة الشعب(٣٤)، كما حاول الانجليز تعديل بعض نصوصه مما ادى فى النهاية الى استقالة وزارة ثروت ، وتولية محمد توفيق نسيم رئاسة الوزارة وقد حاولت هذه الوزارة ارضاء رغبات الملك فى تعديل الدستور بحيث يخوله تعيين الشيوخ والحكــام واعطـــاء النياشين واصدار المراسيم التى يكون لها قوة القانون وأن تكون للملك السلطة المطلقة على المعاهــد التعليمية والدينية والأوقاف وغيرها ، ولكنها استقالت قبل أن تكمل مهمتها وتولت وزارة « يحيى باشا ابراهيم » مهمة مسخ الدستور ، وانتهى الأمر فى ١٩ من ابريل ١٩٢٣ بصدور الأمر الملكى باعلان الدستور الذى نص على ان مصر دولة مستقلة ذات سيادة ، واقر نظامها الملكى الوراثى كما جعل الدستور الأمة هى المصدر الأساسى لجميع السلطات ، كما اقر الدستور مبدأ المساواة فى الحقوق والواجبات بين المصريين أمام القانون ، واعطاهم الحرية المطلقة فى الاعتقاد ، وحرية ابداء الرأى أمام الجميع (٣٥) وتنـــاول الدستور البرلمان الذى اصبح يتكون من مجلسين احدهما للشيوخ والآخــر للنواب ومدة العضوية فيهما .

ونتيجة لذلك استبشر الناس بهذا الدستور خيرا واعتبروه فاتحــة خير على مصر والمصريين ، وكان أول عمل أجرى بعد صدور الدستور هو اجراء الانتخابات العامة التى فاز فيها الوفد بأغلبية ساحقة .

خامسا : المفاوضات المصرية البريطانية فى اعقاب تصريح فبراير ١٩٢٢ :

نتيجة لضغط الحركة الوطنية واصرار المصريين على الافراج عن سعد رأت بريطانيا انه ليس من الحكمة ابقاء سعد زغلول وصحبه فى المنفى فأصدرت قرارها بالافراج عنه فى ٢٧ مارس ١٩٢٣ بحجة ســوء احواله الصحية (٣٦) ونتيجة لذلك غادر سعد منفاه الى أوربا ثم عاد الى مصر فى سبتمبر ١٩٢٣ حيث دخل معركة الانتخابات التى أسفرت عن فوز حزب الوفد بأغلبية ساحقة ، وبعدها قام سعد زغلول بتــأليف الوزارة فى ٢٨ يناير ١٩٢٤ واعلن عن استعداد حكومته للدخول فى مفاوضات مع الحكومة البريطانية .

مفاوضات سعد مع ماكدونالد :

وعلى اثر ذلك بدات مفاوضات سعد زغلول رئيس الوزراء المصرى مع ماكدونالد رئيس وزراء بريطانيا [٣٧] حيث سافر سعد الى لندن على راس وفد مكون من مصطفى النحاس باشا وزير المواصلات ، ومحمود فخرى باشا وزير مصر المفوض فى باريس وبعض النواب وعلى الرغم من ارتياح سعد زغلول لتفاوضه مع مكدونالد وسعادته لفوز حزب العمال فى بريطانيا فقد كان هناك تباعد كبير بين أهدافهما ففى حين كان سعد ينشد تحقيق الاستقلال لمصر ، كان مكدونالد يسعى لتثبيت أقدام بريطانيا فى مصر .

وعلى كل حال فقد اجريت المفاوضات بين الجانبين لمدة ثلاثة أيام قدم سعد زغلول خلالها مطالب مصر الاساسية وهى :

١ — أن تقوم بريطانيا بسحب جميع قواتها من الأراضى المصرية ، كما تقوم بسحب المستشارين المالى والقضائى اللذان كانا موضع تذمر المصريين

٢ — زوال اى سيطرة انجليزية على علاقات مصر الخارجية بالدول الأخرى .

٣ — تخلى بريطانيا عن دعواها فى أحقيتها لحماية الأجانب والاقليات فى مصر ، ودعواها فى الاشتراك لحماية قناة السويس .

٤ — ضرورة اعتراف بريطانيا بحق مصر فى السودان وبانه جزء متمم لمصر [٣٨] .

ونتيجة لتمسك سعد بمطالبه فشلت المفاوضات بين الجانبين وعاد سعد الى مصر فى أكتوبر ١٩٢٤ وخلال ذلك استغلت بريطانيا حادث اغتيال السير « لى ستاك » سردار الجيش المصرى وحاكم السودان فى نوفمبر ١٩٢٤ فى زعزعة الأوضاع فى مصر والانتقاص من حقوقها واجبار وزارة سعد على التخلى عن الحكم ، فحملت بريطانيا وزارة سعد مسئولية الحادث، وطالبتها بدفع تعويض يبلغ نصف مليون جنيه تعطى لامراة السردار على سبيل التعويض [٣٩] وسحب القوات المصرية من السودان ، ومع أن حكومة

سعد اعتذرت عن الحادث واعربت عن استعدادها لدفع التعويض المطلوب، فقد عمل الانجليز على اسقاط حكومة سعد فسارت القوات البريطانية فى شوارع القاهرة واحتل الجنود الانجليز مبانى الجمارك ، مما اضطر الحكومة الى الاستقالة فى نوفمبر ١٩٢٤ وادى الى تعطيل مجلس النواب .

مفاوضات ثروت — تشمبرلين :

بعد استقالة وزارة سعد زغلول تألفت وزارة برئاسة زيور باشا وتم حل البرلمان وفى عهد هذه الوزارة استقال اللورد اللنبى وحل محله "اللورد جورجلويد" وكان موقف هذه الوزارة المتخاذل أمام بريطانيا سببا فى اسقاطها فى السابع من يونيو من عام ١٩٢٦ [٤٠] ، فشكلت وزارة برئاسة عدلى باشا يكن كان اعضاؤها من حزبى الوفد والأحرار الدستوريين ، ولم تكن هذه الوزارة احسن حالا من سابقتها فقدم عدلى استقالته فى التاسع من ابريل عام ١٩٢٧ وعهد الى ثروت باشا بتأليف وزارة جديدة . وفى عهد وزارة ثروت استؤنفت المفاوضات مع الحكومة البريطانية ، ولم يكن الجانب المصرى فى هذه المرة كسابقتها من حيث الاصرار على استخلاص حقوق مصر من بريطانيا بل كان على النقيض تماما ، فقد تساهل ثروت فى تفاوضه مع الانجليز وكانت بريطانيا هى المستفيدة الأولى والأخيرة حيث ركزت المفاوضات على الصداقة بين الجانبين [٤١] ووقوف بريطانيا بجانب مصر فى حالة تعرضها لأى اعتداء [٤٢] وأن يقوم الانجليز بتدريب الجيش المصرى كما طلبت بريطانيا ابقاء قوة عسكرية لها فى مصر ، بحجة حماية مصالحها ومواصلاتها فى الأراضى المصرية [٤٣] ، وتفضيل الموظفين البريطانيين على غيرهم فى الدوائر الحكومية المصرية هذا الى جانب مطالبة بريطانيا بتعيين مستشار مالى وآخر قضائى فى مصر حتى تحكم قبضتها على المالية المصرية والقضاء ، وأن يتقدم سفيرها فى مصر سائر سفراء الدول الأخرى هذا عن مصر . أما عن السودان فقد خلت المعاهدة من أى نصوص خاصة به .

وعند تحليلنا لنصوص المعاهدة يتضح لنا أنها أمليت من طرف واحد وهو بريطانيا لأن معظم ما جاء فيها يخص بريطانيا ، ويتعلق بمصالحها ، ونتيجة لذلك فقد أخفى ثروت باشا بنود المعاهدة بعد عودته لمصر لفترة

بحجة انه لا يزال يراسل « تشمبرلين » ، ولما افصح عنها فى ٤ مارس ١٩٢٨ م وجد معارضة شديدة ضدها من مجلس الوزراء كما اعتبرتها جماهير الشعب المصرى امتهانا لحقوق مصر واستقلالها ونتيجة لذلك قدم ثروت استقالته وخلفه مصطفى النحاس فى ١٧ مارس ١٩٢٨ ولكن وزارته لم تستمر طويلا حيث أمر الملك باقالتها فى ٢٥ يونيو ١٩٢٨ وعهد الى محمود محمود باشا بتأليف وزارة جديدة (٤٤) .

مفاوضات محمد محمود — هندرسن :

بعد ان كلف محمد محمود بتشكيل الوزارة اسفرت الانتخابات فى بريطانيا عن فوز حزب العمال برئاسة الحكومة فالف المستر مكدونالد الوزارة ، وعين فيها ارثر هندرسن وزيرا للخارجية ، وكان أول اجراء قامت به وزارة مكدونالد هو اقالتها للورد جورج لويد من منصبه كمندوب سامى فى مصر ، والاعلان عن رغبتها فى تسوية المسألة المصرية واستعدادها للتفاوض مع الحكومة المصرية ، ونتيجة لذلك سافر محمد محمود الى انجلترا، واجتمع بالمستر هندرسن الذى طالبه بتحديد ما تريده الأمة المصرية (٤٥) ، فاوضح له محمد محمود أن مصر ترغب فى الاستقلال غير المقيد بشروط بحيث يكون لها حق السيادة عن اراضيها داخليا وخارجيا ، كما طالب بعودة مجموعات من الجيش المصرى الى السودان كما كان فى عام ١٩٢٤ (٤٦) وبعد مشاورات ومداولات اتفق على أن تقوم وزارة الخارجية البريطانية باعداد مشروع يتضمن جملة ما اتفق عليه الفريقان من مباحثات ، وقد تسلم محمد محمود المشروع البريطانى فى ٥ يوليو ١٩٢٩ والذى تضمن الموافقة على بعض المطالب المصرية التى طالما فاوضت بريطانيا من أجلها والتى من اهمها انهاء الاحتلال العسكرى لمصر بواسطة القوات البريطانية وان كان قد ربط ذلك باهمية عقد معاهدة صداقة بين الطرفين تساعد على تنمية التفاهم الودى وحسن العلاقات والمشاركة فى رد أى اعتداء يقع على الدولة الأخرى ، بحيث اذا دخلت بريطانيا فى حرب يسمح لها باستخدام موانى مصر واراضيها . واحتوى المشروع على امكانية انضمام مصر فى عصبة الأمم ، وحق مصر فى تسيير أمور الأجانب الذين يعيشون بها وتطبيق التشريع المصرى عليهم (٤٧) .

يضاف الى ذلك ان بريطانيا تمسكت بأن يتم تدريب الجيش المصرى بواسطة ضباطها كما أنها تمسكت بحقها فى حماية قناة السويس ، وبتبعية السودان لها ، هذا بالاضافة الى أحقية رعاياها فى مصر فى الوظائف الأجنبية، وان يكون لسفيرها منزلة رفيعة على باقى السفراء . كما اتفق على انــه يتتضى العمل بهذه المعاهدة . مدة خمس وعشرين عاما .

وعلى الرغم من الميزات التى حصلت عليها مصر فى هذه المعاهدة ، واعلان محمد محمود انه سيجرى انتخــابات يعرض فيهــا المشروع على الأمة[٤٨] . فان الصحف الوفدية أحدثت ضجة شديدة ضد المشروع، وطالبت محمد محمود بالاستقالة ، فما كان منه الا أن قدمها فى ٢ اكتوبر ١٩٢٩ وقبلها الملك وعهد الى عدلى يكن بتاليف الوزارة واجراء انتخابات عامة اسفرت عن فوز ساحق للوفد ادى الى قيام حكومة عدلى بتقديم استقالتها، فعهد الملك الى مصطفى النحاس باشا بتأليف الوزارة فى الأول من ينايــر ١٩٣٠ باعتباره زعيم الأغلبية ، فتألفت الوزارة الثانية للنحاس لتبدأ مرحلة جديدة من مراحل الصراع مع بريطانيا من أجل الاستقلال .

مفاوضات النحاس ــ هندرسن :

فى السادس من يناير ١٩٣٠ فوض مجلسا الشيوخ والنواب وزارة النحاس بفتح باب المفاوضات مع بريطانيا للوصول الى اتفاق يوثق عرى الصداقة بين البلدين [٤٩] وقد وصل الوفد الى لندن فى ٢٠ من مارس ١٩٣٠م وجرت المفاوضـــات فى ٣١ من مارس واستمرت الى يوم الثامن من مايو ١٩٣٠[٥٠] وانتهت بالاخفاق وعدم التوصل الى حل مقبول يرضى الطرفين لتمسك بريطانيا بالسودان . وعاد الوفد الى مصر ليجد الاحــزاب قــد استغلت فشله ، وتعمل على اسقاطه ، وانتهى الأمر بتقديم مصــطفى النحاس لاستقالته فى ٧ من يونيو ١٩٣٠ م .

وهكذا يتضح أن مفاوضات النحاس مع الانجليز اصطدمت بعقبــة رئيسة وهى السودان مثلها كمثل المفاوضات التى سبقتها ، وفى اعقاب هذه الفترة بدأت الأحوال فى أوربا فى التغير ، خصوصا بعد ظهور هتلر وتربعه

على قمة الحكم فى المانيا ، واحكام موسولينى لقبضته على ايطاليـــا ، مما جعل بريطانيا تراجع حساباتها وترى انه من الصـــواب فتـــح باب المفاوضات مع المصريين فى محاولة لكسب ودهم وتهدئة ثورتهم (٥١) .

سادسا : مصر فى عهد حكومة صدقى :

فى اعقاب استقالة وزارة النحاس قام اسماعيل صدقى بتأليف الوزارة فى ١٩ يونيو ١٩٣٠ ، وفى عهد هذه الوزارة بدأت مصر مرحلة جديدة من مراحل الصراع الداخلى الا وهو مرحلة الدستور خصوصا وان صـــدقى باشا قام بالغاء دستور ١٩٢٣ واخذ البلاد بالشدة والبطش .

وازاء هذه التطورات اســـتطاع الشعب المصرى أن يثبت حيويتـــه وقدرته على مقاومة هذه الوزارة التى جاءت ضد ارادته (٥٢) فقامت الثورات، وحدثت المصادمات وكانت انجلترا هى المستفيد الــوحيد من ذلك ، حيث رات فى هذا الصراع شاغلا للشعب المصرى عن مطالبتها بالاستقلال وخلال ذلك اعلن صدقى باشا فى ٢٢ اكتوبر ١٩٣٠ عن الغاء دستور ١٩٢٣ وحل مجلس النواب والشيوخ واعلان دستور ١٩٣٠ وقد جاء الدستور الجديد فى اغلب بنوده كمنحة من الملك للشعب فى حين كان دستور ١٩٢٣ كتعاقد بين الملك والأمة .

وقد حرم الدستور الجديد مجلس النواب والشـــيوخ من اقتـــراح القوانين المالية وجعل هذا الحق للملك واعطى للملك الحق فى اهمال أى قانون يقره البرلمان كما اعطى للملك حق تعيين شيخ الأزهـــر وغيره من الرؤساء الدينيين كما اعطاه الحق فى دعوة البرلمان للانعقاد فى أى وقت يشـــاء فما كان من المعارضة الا ان وقفت بالمرصاد ضد هذا الدستور ، وضد حزب الشعب الذى الفه صدقى وزاد رجال صدقى فى تعسفهم ضد الأهالى ، وشددوا على العمد والمشايخ الذين رفضوا العمل بقانون الانتخاب وظل صدقى يحكم البلاد حكما استبداديا لمدة ثلاث سنوات اضطر فى نهايتها الى تقديم استقالته فى ٢٧ سبتمبر ١٩٣٣ ، وجاءت على اثر ذلك وزارة عبد الفتاح يحيى فلم تكن باحسن حالا من سابقتها (٥٣) وقد استغل الانجليز ضعف هذه الوزارة فى فرض هيمنتهم على مصر ، ونتيجة لذلك قدم يحى

باشا لاستقالة وزارته فى ٢ نوفمبر ١٩٣٤ فقام الملك بتكليف محمد توفيق نسيم بتأليف وزارة جديدة ، ولما كانت هذه الوزارة تدرك تماما الأحوال السيئة التى خلفتها الوزارتان السابقتان فقد عملت على الغـــاء دســـتور ١٩٣٠ (٥٤) واعادة الحياة الدستورية ، وخلال ذلك بدأ المصريون يعدون العدة للتفرغ للكفاح ضد الانجليز وانتهى الأمر بتوقيع معاهدة ١٩٣٦ .

سابعا : معاهدة ١٩٣٦ والمفاوضات المصرية البريطانية :

جرت المفاوضات فى شأن هذه المعاهدة فى أواخر عهد الملك فؤاد بين المندوب السامى البريطانى اللورد كيلرن ومعاونيه ، وهيئة التفاوض المصرية برئاسة مصطفى النحاس والمؤلفة من ممثلى الأحزاب السياسية عدا الحزب الوطنى الـــذى لم يقبـــل الاشـــتراك فى المفاوضـــات لمخالفتها لســـياسته « لا مفاوضة الا بعد الجلاء » .

وقد بدأت المفاوضات رسميا بقصر الزعفران بالقاهرة فى الثانى من مارس ١٩٣٦ ثم انتقلت الى قصر «انطونيادس» بالاسكندرية وانتهى الأمر بتوقيعها فى قاعة « لوكارنو » التاريخية بوزارة الخارجية البريطانية فى ٢٦ اغسطس ١٩٣٦ (٥٥) .

وكان الهدف من عقد هذه المعاهدة بالنسبة للجانب البريطانى هـــو اعطاء بريطانيا الصفة الشرعية لوضعها فى مصر التى كانت تفتقدها منـــذ احتلالها لها فى عام ١٨٨٢ ، وضمان مصالحها فى المستقبل .

اما بالنسبة للجانب المصرى فقد كان يتطلـــع الى الحصـــول على الاستقلال الكامل ، وقد صيغت المعاهدة بشكل ارضى طمـــوحات كل من الطرفين والذى يمكن تلخيصه فى جملة واحدة هى ان الاستقلال التام لا يتعارض مع الحقوق البريطانية فى مصر . فقد اضطر الجانب المصرى الى تقديم العديد من التنازلات بشأن مركز القوات البريطانية فى منطقة القنال ووضع موانىء ومطارات مصر تحت تصرف بريطانيا عند الحرب فى مقابل انسحاب بريطانيا من المدن المصرية الكبرى . مثل القاهرة والاسكندرية ، فقد اوضحت المادة الأولى من المعاهدة أن مصر غير محتلة ، عسكريا بواسطة القوات البريطانية على حين اعطت المادة الثامنة لبريطانيا حق تواجد قواتها

فى قناة السويس بهدف الدفاع عنها وتم تحديد هذه القوات بعشرة آلاف جندى فى وقت السلم .

يضاف الى ذلك انه على الرغم من أن المادة الثامنة من المعاهـــدة تنص على أن قناة السويس جزء لا يتجزأ من مصر فانها ذكرت أن القنـــاة طريق أساسى لمواصلات الامبراطورية البريطانية ويجب أن تتعاون القوات البريطانية مع القوات المصرية لضمان الدفاع عنها على الا يكون لهذه القوات صفة الاحتلال (٥٦) ، وأن يستمر الوضع على ذلك حتى يكون لدى الجيش المصرى القدرة على الدفاع عن القنال بمفرده ، وخلال ذلك تتعهد مصـــر ببناء مستوطنات القوات البريطانية فى منطقة القنال هذا الى جـــانب أن المعاهدة ربطت مصر بتحالف أبدى مع بريطانيا وفيما عدا ذلك فقد أقرت المعاهدة بحق مصر فى حماية الأجانب المقيمين بها ونصت على الغاء الامتيازات الأجنبية (٥٧) .

وفيما يتعلق بالسودان فقد اصبح السودان بموجب معاهدة ١٩٣٦ بمثابة مستعمرة انجليزية تحرسها جنود مصرية تحت امرة الحاكم العـــام البريطانى ففى المادة الحادية عشرة اتفق الطرفان المتعاقدان على ان ادارة السودان تستمر مستمدة من اتفاقيتى ١٩ يناير ، و١٠ يوليو ١٨٩٩ اللتين انتزعتا السودان من مصر أن تكون السلطة العسكرية والمدنية فى يد الحاكم العام البريطانى .

أما عن عملية الدخول فى مفاوضات فيما بعد بشأن الرغبة فى تعديل بنود المعاهدة فقد اتفق الطرفان فى المادة السادسة عشرة على ان يـــدخل الطرفان المتعاقدان فى مفاوضات بناء على طلب اى منهما بعد عشرين عاما من تنفيذ هذه المعاهدة .

ومما سبق ان ثورة ١٩١٩ بقيادة سعد زغلول وما اعقبها من تفاعلات

قد وصل بالبلاد الى نتائج سياسية تمثلت فى تصريح ٢٨ نوفمبر بتحفظاته الأربعة ، ووضع دستور ١٩٢٣ .

ومع أن حزب الوفد كان أكثر الاحزاب جماهيرية فانه تعرض لانقسامات حادة ادت الى تفسخ وحدته فخرجت منه المجموعة التى شكلت الاحــرار الدستوريين ، وخرجت منه المجموعة التى شكلت الحزب السعدى ، كما خرجت منه فى النهاية المجموعة التى شكلت الكتلة الوفدية ، وبلغ به الارهاق الى الحد الذى دفعه الى توقيع معاهدة ١٩٣٦ .

مراجـــع الفصـــل الســـادس

(١) انظر خمسون عاما على ثورة ١٩١٩ ص ٤٣ .

(٢) نجلاء عز الدين : العالم العربى — ترجمة محمد عوض ابراهيم وآخرون — القاهرة ، دار احياء الكتب العربية ، الطبعة الثانية ، ١٩٦٢ ، ص ١٥٠ .

(٣) كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية — ترجمة أمين فارس ومنير البعلبكى — بيروت ، دار العلم للملايين ، الطبعة الثامنة ، ١٩٧٩ ، ص ٧٢٣ .

(٤) عباس العقاد : سعد زغلول سيرة وتحية ، بيروت ، دار الشروق د.ت ص ٢٠٥ .

(٥) محمد حسين هيكل : مذكرات فى السياسة المصرية ج ١ ، القاهرة النهضة المصرية ، ١٩٥١ ، ص ٨٤ .

(٧) عبد الرحمن الرافعى : ثورة ١٩١٩ ج ١ القاهرة ، النهضة المصرية الطبعة الأولى ، ١٣٦٥ — ١٩٤٦ م ، ص ١٢٦ .

(٧) خمسون عاما على ثورة ١٩١٩ ، ص ١٨٩ .

(٨) الرافعى : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١٢٧ — ١٢٨ .

(٩) نجلاء عز الدين : المرجع السابق ، ص ١٥٢ .

(١٠) هى ممرضة ايرلندية اسرها الانجليز وقتلوها رميا بالرصـــاص فهاجت لذلك دول العالم واعتبروا ما حدث وحشية ، وسلكوها فى عـــداد الشهداء .

(١١) مقال لمصطفى امين تحت عنوان « عندما خرجت المراة المصرية الى الشارع » .

(١٢) غربال : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٦٥ .

(١٣) الرافعى : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٣٠٦ .

(١٤) العقاد : المرجع السابق ، ص ٣١٣ .

(١٥) هيكل : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١١٧ .

(١٦) غربال : المرجع السابق ، ج ١ ص ٩٠ — ٩١ .

(١٧) توفيق الحكيم : شجرة الحكم السياسى فى مصر ١٩١٩ — ١٩٧٩م القاهرة ، مكتبة الآداب ، ص ٣٨٧ .

(١٨) الرافعى : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ١٨٣ — ١٨٤ .

(١٩) نجلاء عز الدين : المرجع السابق ، ص ١٩٢ .

(٢٠) الرافعى : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ١٩٥ .

(٢١) نجلاء عز الدين : المرجع السابق ، ص ١٩٢ .

(٢٢) الرافعى : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ١٧٣ .

(٢٣) محمد حسين هيكل : المرجع السابق ، ص ١٢٧ .

(٢٤) راشد البراوى : مجموعة الوثائق السياسية ج ١ ، القاهرة النهضة المصرية ، الطبعة الأولى ، ١٩٥١ ، ص ١٢٨ .

(٢٥) عبد الرحمن الرافعى : فى اعقاب الثورة ، القاهرة ، النهضة المصرية ١٩٤٦ ص ١٦١ .

(٢٦) محمد حسين هيكل : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١٢٧ .

(٢٧) الرافعى : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٣٩ .

(٢٨) هيكل : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١٢٧ .

(٢٩) محمد عبد الرحمن برج : قناة السويس — أهميتها السياسية والاستراتيجية وتأثيرها على العلاقات المصرية البريطانية ، القاهرة ، دار الكاتب العربى ، ١٣٨٨ هـ ، ص ٨١ .

(٣٠) عباس محمود العقاد : المرجع السابق ، ص ٤١٧ .

(٣١) الرافعى : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٣٩ .

(٣٢) هيكل : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١٢٩ .

(٣٣) الرافعى : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٥٩ .

(٣٤) نجلاء عز الدين : المرجع السابق : ص ١٥٦ .

(٣٥) الرافعى : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ١١٥ .

(٣٦) عباس محمود العقاد : المرجع السابق ، ص ٤٢٧ .

(٣٧) الرافعى : المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ١٧٦ ، ومحمد شفيق غربال : تاريخ المفاوضات المصرية البريطانية ، جـ ١ ، القاهرة ، النهضة المصرية ، ١٩٥٢ ، ص ١٤٩ .

(٣٨) الرافعى : المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ١٧٩ .

(٣٩) مذكرات ابراهيم الهلباوى : ص ٢٢٦ .

(٤٠) الرافعى : المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ٢٦٣ .

(٤١) غربال : المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ١٧٩ .

(٤٢) الرافعى : المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ١٣ .

(٤٣) غربال : المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ١٧٦ .

(٤٤) الرافعى : المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ١٨ .

(٤٥) غربال : المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ٢١٠ .

(٤٦) الرافعى : المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ١١١ .

(٤٧) البراوى : المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ١٣٦ .

(٤٨) غربال : المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ٢٢٢ .

(٤٩) الرافعى : المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ١٠٤ .

(٥٠) غربال : المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ٢٢٤ .

(٥١) هيكل : المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ٣٦٧ .

(٥٢) الرافعى : المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ١٩ .

(٥٣) الرافعى : المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ١٨٢ .

(٥٤) غربال : المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ٢٧١ .

(٥٥) نشرت جريدة الأهرام نصوص هذه المعاهدة فى السادس من سبتمبر ١٩٣٦ .

والجدير بالذكر أن بريطانيا عقدت مع العراق وشرق الأردن معاهدات على نفس النمط الذى عقدت به معاهدة ١٩٣٦ وإذا كانت هناك اختلافات فهى فى الشكل وليس فى المضمون .

(٥٧) عبد الوهاب بكر : الوجود البريطانى فى الجيش المصرى ، القاهرة دار المعارف ، ص ٢٠ .

(٥٧) فى عام ١٩٣٧ ألغيت الامتيازات الاجنبية طبقا لاتفاقية مونترو .

الفصل السابع

مصر من الحرب العالمية الثانية الى ارهاصات ثورة ١٩٥٢

١ — مصر فى الحرب العالمية الثانية .

٢ — مصر وحرب ١٩٤٨ .

١ — مصر فى الحرب العالمية الثانية :

عند نشـــوب الحرب العالمية الثانية كانت مصر مكبلة بقيود معاهدة ١٩٣٦ التى تفرض عليها الاشتراك فى الحرب بجانب الانجليز ، ونتيجـــة لنصوص المعاهدة أعلن على ماهر رئيس الحكومة قطـــع علاقـــات مصر السياسية مع المانيا ، كما أعلن الأحكام العرفية ، ووافق على وضع الموانى المصرية تحت رقابة السلطة البحرية البريطانية ، وفرض الرقابة عـــلى البريد والبرق والصحف ، ولكن بريطانيا لم تكتف بتلك الاجراءات وطلبت من مصر دخول الحرب الى جانبها ولكن مصر رفضت القيام بهذا الـــدور وحاول ساستها تجنيب البلاد ويلات الحرب (٢) .

يضاف الى ذلك أن الملك فاروق حاول انتهاج سياسة حذرة تجاه المعسكرين المتحاربين فى الظـــاهر ، ومساندة النازية والفاشية فى الباطن.

وعلى الجانب الشعبى فقد كان لكل من النظامين الهتلرى والفاشستى معجبون فى مصر ويبدو ذلك واضحا من خلال امتداح اسماعيل صدقى لها علانية فى مجلس النواب فى ٢١ ديسمبر ١٩٣٨ ، كما بدات تنتشر بين افراد الشعب المصرى فكرة ان انتصار المانيا هو السبيل الأكيد لتحرير مصر من الانجليز .

وعلى الرغم من أن معاهدة ١٩٣٦ كانت تحتم على بريطانيا احترام رغبة المصريين فى تسيير أمورهم فانها لم تغير من طريقة القهر السياسى الذى مارسته على مصر ، فقد استمرت سياسة الانجليز الخفية للتدخل فى شؤون مصر والعبث بالحياة الدستورية فيها مما ادى الى توتر العلاقات بينهم وبين رئيس الوزراء على ماهر الذى تسانده السراى خصوصا وانه رفض اعلان الحرب على ايطاليا بناء على طلب السفارة البريطانية واكتفى بقطع العلاقات معها وانتهى الأمر باستقالته وتكليف حسن صبرى وهـــو من المستقلين بتشكيل الحكومة الجديدة فى ٢٨ يونيو ١٩٤٠ وفى عهد حكومته رفضت مصر مرة أخرى اعلان الحرب على قوات المحور حتى لا يؤدى ذلك

الى قصف الايطاليين لمصر ونتيجة لوفاة حسن صبرى المفاجئة عهد الملك فاروق الى حسين سرى بتولى الوزارة فى الحادى والعشرين من نوفمبر ١٩٤٠ .

وقد تعرضت البلاد فى عهد هذه الوزارة لأزمات اقتصادية عديدة منها أزمة التموين وشح الغذاء الأساسى للشعب وقيام المظاهرات المنادية بسقوط بريطانيا والمرددة الى الامام ياروميل ، ونتيجة لانفلات زمام الامور قدمت وزارة سرى باشا استقالتها فى الثانى من فبراير ١٩٤٢ وتطلع الناس من كل صوب تجاه القصر لمعرفة من سيقع عليه اختيار الملك ليؤلف الوزارة الجديدة [٣] .

وفى الثالث من فبراير استدعى الملك رؤساء الاحزاب وراى ان تكون الوزارة الجديدة ائتلافية تضم الاحزاب كلها قدر المستطاع ، ولكن النحاس باشا رفض الاشتراك فى هذه الوزارة ، وعندما علم مايلز لامبسون السفير البريطانى بذلك تدخل فى الأمر وأخبر رئيس الديوان الملكى بضرورة تكليف النحاس زعيم الوفد بتأليف وزارة وفدية لأن الاوضاع العسكرية على الجبهة الغربية فى الصحراء لم تعد تحتمل ، وكان رد رئيس الديوان بأن المسألة مازالت تبحث بين الملك ورؤساء الأحزاب وفى الرابع من فبراير دعى رؤساء الاحزاب الى الاجتماع بقصر عابدين [٤] ولما علم الملك بمحاولة السفير البريطانى التدخل فى اختصاصاته الدستورية ومحاولة فرض حكومة برئاسة النحاس باشا عليه وراى فى ذلك اعتداء صريحا على السيادة المصرية ولم يشأ تلبية رغبة السفير البريطانى ، مما دفع السفير الى ارسال انذار الى الملك جاء فيه « اذا لم اسمع قبل الساعة السادسة مساء ان النحاس باشا قد دعى لتأليف الوزارة فان جلالة الملك فاروق يجب ان يتحمل ما يترتب على ذلك من نتائج » .

ولما لم يكن القصر على استعداد للاستسلام ببساطة فقد قام الملك بدعوة رؤساء الأحزاب بما فيهم النحاس باشا لتبادل الراى فى هذا الموقف ، ولما تشاور المجتمعون حاولوا احراج النحاس كى لا يقبل تشكيل الوزارة فى مثل هذه الظروف ثم اتفقوا على تأليف وزارة قويةبرآسة النحاس ،

والاحتجاج على الانــذار الموجــه الى الملك ولكن النحاس رفض فكــرة الوزارة القومية ، وكان عاقبة ذلك الرفض ما تعرضت له البلاد من احداث .

ففى الساعة التاسعة من مســاء يوم ٤ فبــراير حاصرت القــوات البريطانية قصر عابدين بالدبابات واندفع بعض الجنود الانجليز الى القصر شاهرين مسدساتهم ودخل السير « مايلز لامبسون » وبصحبته الجنرال ستون رئيس البعثة البريطانية فى مصر ، الى باب القصر متوجها الى مكتب الملك حاملا ورقة بتنازل الملك عن العرش فانهار فاروق ، وكاد يوقع على التنازل لولا تدخل رئيس الديوان « احمد حسنين » الذى اظهر استعداد الملك لقبــول الانذار والرضــوخ للاوامر البريطانية ، وانتهى الأمر بتكليف النحاس بتشكيل الوزارة (٥) .

وعندئذ قال احمد ماهــر فى حضرة الملك ان النحاس باشا يتولى الحكم مستندا على اسنة رماح الانجليز ، وكان رد النحاس على ذلك « لست انا الذى يستند على اسنة الرماح » فقال له اسماعيل صدقى « اظن أن رفعتكم وصلتم الى هنا بعد انصراف الدبابات وحتى لا تزيد حدة النقاش الى مالا تحمد عقباه طلب الملك من المتحدثين السكوت ، وكرر أمره الى النحاس. وطلب اليه ان يذهب الى السفير البريطانى ويبلغه نبأ تكليفه تأليف الوزارة

وبعد أن اجتمع النحاس ببعض اعضاء حزبه اتفقــوا على ان يكتب النحاس الى السفير بسحب الانذار فاذا جاء الرد بسحبه شرع فى تشكيل الوزارة وقد قبل الانجليز هذا الحل خصوصا وأنه لا يعدو ان يكون حــلا شكليا لا يحجب ما وقع فعلا من تدخل سافر فى شئون مصر ، ونتيجــة لذلك قام النحاس بتأليف وزارته .

وهكذا تدخل الانجليز فى شئون مصر بشكل مزرى واذلوا ملكها وكانوا جادين فى تهديدهم له خصوصا وانهم كانوا يعتقدون أنه وبعض رجالات القصر لهم صلات بالمحور مما جعل الملك يخشى على عرشه من الضياع .

وقد اختلف المؤرخون فى تفسير وقائع هذا الحادث وآثاره فمنهم من اعتبره نهاية للوفد كحزب وطنى يستطيع التعبير عن الراى العام المصرى ،

ونهاية للنحاس كزعيم شعبى ، ومنهم من رأى فيه ردعا لسلطة القصر ، ومع كل ذلك فلا يستطيع احد ان ينكر ان ما حدث كان صدمة للمصريين جميعا الذين احسوا بالاهانة والاذلال لما حدث لمليكهم الذى يمثل قمة السلطة فى وطنهم .

وفى أعقاب ذلك تمكنت قوات روميل من اجتياز الحدود المصرية واحتلال السلوم ودخول قوات المحور المدرعة « سيدى برانى » ومحاصرتها للعلمين واقترابها من الاسكندرية بما لا يزيد على مائة كيلو متر ، واعلانها احترام وضمان استقلال وسيادة مصر ، وطرد الانجليز منها مما شجع خصوم بريطانيا فى مصر على اظهار دعايتهم لصالح قوات المحور ، ولكن الرياح لا تأتى دائما بما تشتهى السفن ، فقد استطاعت بريطانيا أن تعد لهجومها المضاد بدقة ، وكسبت فى النهاية معركة العلمين وابعدت خطر قوات المحور العسكرية عن مصر [٦] .

وقبل ان تنتهى الحرب كانت افرازاتها على المسرح المصرى واضحة ، فقد شهدت مصر العديد من القلاقل السياسية والعقائدية ، ففى شهر فبراير ١٩٤٥ شهد البرلمان المصرى مشهدا داميا حيث تقدم شاب يدعى محمود العيسوى من احمد ماهر رئيس الوزراء المصرى واطلق عليه أربع رصاصات أردته قتيلا بحجة انه كان من الذين طالبوا بدخول مصر الحرب بجانب الحلفاء .

وهكذا تكلم الرصاص داخل ردهات البرلمان المصرى ، وارتفع الستار مخضبا بالدم ليعلن عن بداية مرحلة جديدة من مراحل النضال .

وفى اعقاب الحرب العالمية الثانية ، قدمت الحكومة المصرية برئاسة النقراشى باشا مذكرة الى الحكومة البريطانية فى ٢٠ ديسمبر ١٩٤٥ وضحت فيها أن معاهدة ١٩٣٦ وقعت تحت ضغط حوادث وظروف دولية زالت بانتهاء الحرب ، وظهور ميثاق الامم المتحدة وانها تريد الدخول فى مفاوضات لتعديل معاهدة ١٩٣٦ على أن تتناول المفاوضات مسألة السودان ، ونتيجة لذلك عقدت مفاوضات بين الطرفين تمسكت فيها بريطانيا ببقاء قواعدها

العسكرية فى مصر بينما اصر الجانب المصرى على ازالتها لما فيه من انتقاص لسيادة مصر على اراضيها .

ولما أصر الجانب البريطانى على ضرورة التحالف العسكرى بين مصر وبريطانيا فى زمن الحرب أو فى حالة التهديد به استقالت وزارة النقراشى لعدم قدرتها على مواجهة الموقف الداخلى ، وشكلت وزارة برئاسة صدقى باشا الذى سافر الى لندن فى عام ١٩٤٦ للتفاهم مع المستر بيفن حول ايجاد تسوية ودية ، ونتيجة لذلك اعدت المشروعات الأولية التى عرفت فيما بعد باسم « مشروع صدقى — بيفن » (٧) والتى نصت على جلاء القوات البريطانية عن مصر نهائيا فى سبتمبر ١٩٤٩ غير أن الاتفاق لم ينفذ بسبب اختلاف الراى بين الطرفين على وضع السودان وعلى الدفاع المشترك (٨)، وانتهى الأمر باخفاق المفاوضات وبسقوط حكومة صدقى وتاليف حكومة جديدة برئاسة النقراشى .

ونتيجة لفشل المفاوضات بين مصر وبريطانيا تقدم محمود حسن باشا السفير المصرى فى واشنطن بمذكرة الى الأمين العام فى منظمة الامم المتحدة فى ١١ يونية ١٩٤٧ يطالب فيها مجلس الامن الدولى باقرار جلاء القوات البريطانية عن مصر والسودان فى أسرع وقت ممكن ودون اى شرط ، وتمسكت مصر فى مطلبها بتطبيق احكام ميثاق الامم المتحدة ، كما أوضحت أن خلافها مع بريطانيا قد يؤدى الى تعريض السلم والأمن فى هذه المنطقة للخطر .

ولما بدا مجلس الأمن فى دراسة القضية المصرية فى الخامس من أغسطس ١٩٤٧ استعرض النقراشى باشا قضية بلاده فى خطاب أوضح فيه مطالب مصر والمتمثلة فى الغاء معاهدة ١٩٣٦ وقد رد عليه مندوب بريطانيا بتمسك بلاده بالمعاهدة .

ولما اقترح المندوب البرازيلى استئناف المفاوضات المباشرة بين الدولتين ثقة منه أن بالامكان ايجاد طريقة مباشرة بينهما لحل القضية على أن تقدما الى مجلس الأمن نتائج ما توصلتا اليه ، اعرب النقراشى عن تشاؤمه من استئناف المفاوضات .

وقد ايد المندوب السوفيتى موقف مصر . وبعد مشاورات ومداولات، ونتيجة لاختلاف وجهات النظـــر اخفق مجلس الأمن فى اتخاذ قرار بشـــأن النزاع المصرى الانجليزى قام بتأجيل النظـــر فى القضية (٩) .

٢ — مصر وحرب ١٩٤٨ :

كان قرار مصر بدخول حرب فلسطين مفاجئا لكثير من رجالات العرب والمصريين فبعـــد أن أعلن محمود فهمى النقراشى رئيس الوزراء عن عـــدم استعداد مصر لدخول الحرب خصوصا وانه ليس من المنطقى أن تـــدفع مصر جيشها الى فلسطين فتكون القوات البريطانية المرابطة على قنـــاة السويس حائلا بينه وبين ارض الوطن (١٠) . وبعد أن اعرب بعض كبار رجالات الجيش المصرى عن افتقار الجيش المصرى الى العتاد الذى يمكنه من دخول الحرب (١١) ، وبعد ان طلبت الحكومة المصرية من المركز العـــام للاخوان المسلمين فى القاهرة سحب متطوعيه من فلسطين (١٢) جمع النقراشى اعضاء مجلس الشيوخ والنواب واقنعهم بالموافقة على قرار الملك المرتجل بدخول الحرب بحجة مسايرة الرأى العام ورفض وجود دولة صهيونيـــة على حدود مصر .

والسؤال المطروح ما هى الدوافع والأسباب التى جعلت ملك مصر يغير موقفه فجأة من عدم الموافقة على دخول الحرب الى دخـــولها دون استعداد .

الواقع ان الملك وجد فى مسألة فلسطين ما يمكنه من استرداد بعض سمعته التى انهارت فى سنوات حكمه الاخيرة ، وان يدعم بدخول الحـــرب هيبته يضاف الى ذلك حرصه على أن يبنى لنفسه زعامة عربية يستطيع ان ينافس بها الأسرة الهاشمية المالكة فى العراق وشرق الأردن لدرجـــة انه كان يتردد ان الملك فاروق كان يتسابق مع الملك عبد الله فى أيهمـــا يصلى الجمعة أولا فى المسجد الاقصى (١٣) .

وفى الرابع عشر من مايو ١٩٤٨ أصدر محمود فهمى النقراشى أوامره الى الجيش المصرى باجتياز الحدود وكان ذلك الأمر باســـم الملك فاروق بوصفه القائد الأعلى للجيش ، وجاء فى البلاغ الرسمى الأول الذى أذاعته

الحكومة المصرية « ان عمليات فلسطين مجرد حملة لتأديب العصابات الصهيونية » [١٤] .

ولم تكن القوات المصرية التى اعدت لهذه المهمة تزيد عن مجموعة لواء مشاه [١٥] مدعم ببعض الوحدات المدرعة التى تم تجميعها فى منطقة العريش بطريقة سريعة دون أن يتاح لها التدريب المشترك تحت قيادة موحدة [١٦] ، كما أن كميات الذخيرة التى كان يمتلكها الجيش المصرى كانت غير كافية ، ولا توجد خطط واضحة للعمليات الحربية المزمع القيام بها ، كما كانت المعلومات بالنسبة لطبيعة الأرض وقوات العدو ضئيلة لدرجة جعلت رجالات الجيش المصرى يشعرون بالعجز وبان العملية ليست سوى حرب سياسية اكثر منها عسكرية [١٧] .

ومع ذلك قامت القوات المصرية بواجبها بحماس شديد وواصلت اهدافها بنجاح فبعد أن اجتازت حدود فلسطين قامت بحصار العديد من المستعمرات اليهودية واحتلت العوجة والعسلوج ودخلت مدينة بئر السبع واستطاعت السيطرة على الطريق المؤدى الى المستعمرات اليهودية الجنوبية ، وقطعت الطريقين الرئيسيين الممتدين من الشمال الى النقب ولم يبق الا الطرق الفرعية [١٨] .

وخلال الحرب اقترح محمود فهمى النقراشى فى يوليو ١٩٤٨ ايجاد حكومة فلسطينية تتولى عبء المسئولية وتنطق باسم فلسطين امام المجتمع الدولى [١٩] وتسعى لعرقلة اعتراف العالم بدولة يهودية فى منظمة الأمم المتحدة ويترك لها أمر المفاوضة مع الهيئات الدولية وغيرها ونظرا لاعتراض الأردن على هذه الفكرة رأى مجلس الجامعة العربية الاكتفاء بتعيين مديرين لتولى أمر ادارة فلسطين ، وقد تم تعيين هؤلاء دون أن يمارسوا اى عمل حقيقى .

وبعد ثلاثة أيام من القتال بين الطرفين سارع الوفد الامريكى فى الأمم المتحدة بتقديم مشروع قرار الى مجلس الأمن بوقف القتال أملا فى انقاذ اليهود من هزيمة محققة ونتيجة لضغوط دولية توقف القتال لمدة اربعة اسابيع خرق اليهود اثناءها شروط الهدنة اكثر من مرة وجاءتهم النجدات ،

كما اعادوا تنظيم قواتهم وتعزيزها بالطائرات والدبابات على حين انصرف القادة المصريون الى اعداد التقارير الضافية عن المعارك الى ان فرضت الهدنة الاولى ، ووصف حماس الجنود الذين كانوا كلما اقتحموا مستعمرة يهتفون بحياة قائدهم الاعلى فاروق الأول [٢٠] .

وبعد أن استؤنف القتال على الجبهة المصرية فوجئت مصر بانسحاب القوات الأردنية من اللد والرملة [٢١] ، واستيلاء الصهاينة عليها مما أدى الى انكشاف ميمنة الجيش المصرى وانفراد اليهود بمواجهته وانسحابه من المواقع التى كان يحتلها وفى مقدمتها بئر السبع والنقب ومحاصرته فى الفالوجا وهزيمته ، وتقدم القوات اليهودية صوب الحدود المصرية ونتيجة لذلك فرضت الهدنة ثانية فى التاسع عشر من يوليو [٢٢] .

وقد جنحت مصر لعقد مباحثات مع اليهود باشراف هيئة الأمم المتحدة وبدأت المفاوضات بين مصر واسرائيل فى جزيرة رودس فى الثانى عشر من يناير ١٩٤٩ واستمرت حتى الرابع والعشرين من فبراير وقد مثل الوفد المصرى فيها القائمقام محمد ابراهيم سيف الدين والقائمقام محمد كامل الرحمانى ومثل الجانب الاسرائيلى والتر ايتان والقائمقام ايجال يادين وحضر المفاوضات الدكتور رالف بانش القائم بأعمال الوسيط الدولى لفلسطين والجنرال و.أ. رايلى ممثلين للامم المتحدة .

وانتهت بتوقيع هدنة دائمة تعهد فيها كلا الطرفين بعدم القيام بأى عدوان الطرف الآخر ، كما وافق الطرفان على اقامة خطوط للهدنة لا تتخطاها قواتهما على الا تعد هذه الخطوط حدودا سياسية أو اقليمية .

كما قضت الاتفاقية باحتفاظ مصر بالسيطرة على الممر الساحلى الممتد من قرية رفح على الحدود المصرية الفلسطينية الى نقطة تبعد ثمانية أميال الى الشمال من غزة [٢٣] .

وقد ترتب على هزيمة الجيش المصرى فى حرب فلسطين نتائج هامة نذكر منها :

١ — ضياع هيبة المسئولين وامتهان النظام برمته وتفكك كيان الحكومة [٢٤] .

٢ — افساح الطريق امام الضباط الاحرار وتبلور افكارهم حول القضاء على نفوذ السراى ، وطبقة الاقطاعيين واصحاب المصالح ومحاربة الفساد بشتى صوره واشكاله والعمل على تحقيق الامانى الوطنية والقومية مما عجل بقيام ثورة ٢٣ يوليو .

٣ — زيادة الكراهية للدول الاستعمارية التى ساعدت على قيام اسرائيل .

٤ — تطور الشعور القومى العربى ، والاقتناع بحتمية الوحدة العربية .

مراجع الفصل السابع

(١) مارسيل كولومب : تطور مصر : ترجمة زهير الشايب ، القاهرة ص ١١٦ .

(٢) رأى مجلس النواب عدم اشتراك مصر فى الحرب الا فى حالات ثلاث هى غزو الاراضى المصرية ، والاغارة على المدن والقرى ، وضرب المواقع العسكرية المصرية .

(٣) محمد حسين هيكل : مذكرات فى السياسة المصرية ، جـ ٢ ، القاهرة ، ص ٢٢٧ — ٢٢٨ .

(٤) الرافعى : فى أعقاب الثورة ، جـ ٣ ، القاهرة ، النهضة المصرية، ص ١٠١ — ١٠٢ .

(٥) هيكل : المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ٢٤٠ .

(٦) مارسيل كولومب : تطور مصر ١٩٢٤ — ١٩٥٠ — ترجمة زهير الشايب ، ص ١٣٩ — ١٤٢ .

(٧) شاكر الدبس : الدول العربية فى منظمة الأمم المتحدة . دمشق مطبعة الانشاء ، ١٩٤٨ ، ص ١٠٧ — ١٠٨ .

(٨) نجلاء عز الدين : المرجع السابق ، ص ١٥٨ .

(٩) الدبس : المرجع السابق ، ص ١٠٨ — ١١٥ .

(١٠) محمد حسين هيكل : مذكرات فى السياسة المصرية ، جـ ٣ ، القاهرة ، دار المعارف ، ص ٤١ .

(١١) الأهرام فى ٢٤ مايو ١٩٥٣ حديث للفريق عثمان المهدى رئيس أركان الجيش المصرى .

(١٢) سبق الاخوان الجيش المصرى فى دخول فلسطين حيث اجتاز فريق منهم قناة السويس الى سيناء واخذوا فى التسلل الى فلسطين ووصلت طلائعهم فى فبراير١٩٤٨ بقيادة البكباشى احمد عبد العزيز، وابلوا بلاء حسنا فى المعارك . ولم يقتصر التطوع من اجل انقاذ فلسطين على الرجال من الاخوان بل تعدى ذلك الى السيدات المسلمات أيضا .

(١٣) طارق البشرى : الحركة السياسية فى مصر ٤٥ — ١٩٥٢ ، القاهرة ، الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٧٢ ، ص ٢٦٦ — ٢٦٧ .

(١٤) عارف العارف : النكبة ، جـ ٢ ، ص ٣٨١ .

(١٥) يقول عبد الناصر فى مذكراته عن حرب فلسطين أنه لم تكن على الحدود سوى ثلاث كتائب : الكتيبة الأولى ورئيس أركانها زكريا محى الدين، والكتيبة السادسة ورئيس أركانها جمال عبد الناصر ، والكتيبة التاسعة ورئيس أركانها عبد الحكيم عامر ، انظـــر آخر ساعة العدد ١٠٦٣ فى ٩ مارس ١٩٥٥ .

(١٦) محمد فيصل عبد المنعم : أسرار حرب ١٩٤٨ ، القاهرة ، ١٩٦٨، ص ٢٣٥ — ٢٣٦ .

ويبدو أن الحكومة المصرية كانت تعتقد ان الاشتباكات بين المصريين واليهود ستكون بمثابة مظاهرة سياسية اكثر منها عملا حربيـــا وان الأمم المتحدة سوف تتدخل فى الأمر .

(١٧) آخر ساعة : العدد ١٠٦٣ فى ٩ مارس ١٩٥٥ تحت عنـــوان مذكرات عبد الناصر .

(١٨) وزارة الحربية : مكتب المشير ، محفظة رقم ٩ جـ ١ .

(19) Middle East Journal (Washington) 3 January 1949 p. 74 .

(٢٠) أنظر مذكرات عبد الناصر عن حرب ١٩٤٨ ، آخر ساعة العدد ١٠٤٦ فى ١٠ مارس ١٩٥٥ .

(٢١) حاول الملك عبد الله تحديد فترة الهدنة والتقيد بقرارات الأمم المتحدة ولكن الحكومة المصرية رفضت هذه الفكرة بحجة معارضة الرأى العام العربى لها .

(٢٢) حسن يوسف : القصر ودوره فى السياسة المصرية ٢٢ — ١٩٥٢ القاهرة ، مركز الدراسات السياسية بالاهرام ، ١٩٨٢ ، ص ٢٠٤ .

والجدير بالـــذكر ان الشعب المصرى ظل جاهلا بتطـــورات الأمور وتسربت اليه أخبار هزيمة قواته بالتدريج للتفاصيل أنظـــر :

John, Marlowe : Anglo Egyptian Relations p. 330 .

(٢٣) فلاح خالد : الحرب العربية الاسرائيلية ٤٨ — ١٩٤٩ وتأسيس دولة اسرائيل ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، ص ٢٧٦ .

(24) Lacouture : Egypt in Transition p. 103 — 104.

الفصل الثامن

ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢
وأبرز التطورات السياسية فى مصر حتى انتصار اكتوبر ١٩٧٣

أولا ــ الاوضاع السياسية فى مصر قبيل الثورة :

ثانيا ــ مقدمات الثورة :

ثالثا ــ الثورة واعلان الجمهورية :

رابعا : الثورة والتعليم :

خامسا : عبد الناصر وحرب ١٩٥٦ .

سادسا : الوحدة المصرية السورية .

سابعا : حرب الخامس من يونيو ١٩٦٧ .

ثامنا : حرب اكتوبر ١٩٧٣ .

ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢

الأوضاع السياسية فى مصر قبيل الثورة :

وفى أوائل عام ١٩٥٠ أعيد فتح المفاوضات ، واستمرت ثمانية عشر شهرا وقد تركزت حول انسحاب القوات البريطانية ، ولما طالت المفاوضات واتضح مراوغة الانجليز فى الانسحاب ازداد قلق الرأى العـــام المصـــرى وشكه فى النوايا البريطانية فأقدمت الحكومة المصرية ازاء هذا الضـــغط الشعبى على الغاء معاهدة ١٩٣٦ فى الثامن من اكتوبر ١٩٥١ بحجة ان هذه المعاهدة تتعارض مع روح ميثاق الأمم المتحدة الذى نص على مبدأ التساوى بين الدول الأعضاء ، ويتعارض مع قرار منظمة الامم المتحدة الصـــادر فى ديسمبر ١٩٤٦ والذى نص صراحة على عدم بقاء قوات اجنبية على ارض دولة من الدول الأعضاء بدون موافقة هذه الدولة .

وقد قوبل الغاء المعاهدة بالابتهاج الحماسى فى مصر فترك العمـــال المصريون أعمالهم فى المعسكرات البريطانية بالآلاف ، وترك الشبان مدارسهم وجامعاتهم ليلتحقوا بحرب العصابات ضد القوات البريطانية ، واعتقـــد الانجليز أن اتخاذ الاجراءات العنيفة سيؤدى الى اخماد المقاومة .

وقد قصد من معركة الاسماعيلية التى وقعت بين قـــوات البوليس المصرى وبين القوات البريطانية فى ٢٥ يناير ١٩٥٢ ان تؤدى هذا الغرض غير انها زادت من حماس المواطنين فخرجت المظاهرات الساخطة فى اليوم التالى بالقاهرة ، وقد بدأت بجنود بلوكات النظام بالعباسية ثم انضم اليها طلاب الجـــامعة وبعض الأهالى وبينمـــا حاولت الحكومة مقاومة السلطات الانجليزية رأت المخابرات البريطانية والقلم السياسى بوزارة الداخلية الذى كان يعمل لحساب القصر الملكى فى حرق القاهرة فرصة لاقالة الحكـــومة فاندس بين المواطنين فئة من المأجورين وقاموا باشعال النيران عمدا فى كثير من المحلات التجارية والفنادق الفخمة وامـــاكن اللهـــو وبعض الشركات

والمؤسسات ، ولم تستطع السلطات ان توقف ما حدث بل تراخت فى الأمر. مما كان له اكبر الأثر فى النهاية التاريخية للنظام الملكى فى مصر وللقوى السياسية والاجتماعية التى تعاونت معه فيعجل الضباط الاحرار باعلان ثورتهم قبل الموعد المحدد لها .

٢ — مقدمات الثورة :

بعد ان عاد جمال عبد الناصر وزملاؤه الذين اشتركوا فى حرب ١٩٤٨ وكانوا محاصرين فى الفالوجا الى ارض الوطن فى مارس ١٩٤٩ تبلورت فى ذهنهم فكرة اجتثاث الفساد من ارض الوطن ، والتخلص من الاستعمار واعوانه ، ومن ثم اخذ عبد الناصر يعمل على اعادة تنظيم جماعة الضباط الاحرار بعد أن تفرق شملهم بقيام حرب فلسطين واستشهد منهم من استشهد فى هذه الحرب ولما كانت توجد داخل الجيش منظمة سرية أخرى تضم جماعة من الضباط الساخطين فقد عمل عبد الناصر على توحيد جهود هاتين الجماعتين فى مجموعة واحدة [1] هى تنظيم الضباط الاحرار الذى صدر منشورهم الأول فى فبراير ١٩٥٠ ، وكان هذا ايذانا ببدء مرحلة جديدة من العمل الوطنى الثورى داخل الجيش .

وفى أعقاب ذلك تشكلت للضباط الاحرار قيادة تأسيسية ضمت جمال عبد الناصر ، وحسن ابراهيم ، وخالد محى الدين ، وكمال الدين حسين ، وعبد المنعم عبد الرءوف ، وعبد اللطيف البغدادى ، وعبد الحكيم عامر ، وصلاح سالم ، وجمال سالم ، وأنور السادات .

وقد حرص عبد الناصر على استقلالية الضباط الاحرار عن أى تنظيمات حزبية حتى لا يكون لهذه الاحزاب أى تأثير على موقفهم .

وبعد أن رتب الضباط الاحرار صفوفهم اخذوا فى متابعة الموقف الداخلى وتحين الفرص المناسبة استعدادا لساعة الخلاص وبينما كان السياسيون يواصلون خلافاتهم الحزبية ورجال القصر يواصلون مخططاتهم لاحكام سيطرتهم على مقدرات الأمور فى البلاد اعلن الضباط الاحرار ثورتهم فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ فقامت فرق الضباط الاحرار باحتلال المراكز الهامة بالجيش .

واعتقال كبار القادة العسكريين ثم تم الاستيلاء على المرافق الهامة والمواقع الاستراتيجية بالقاهرة وتم احتلال مبنى الاذاعة فى الساعة الرابعة من صباح الثالث والعشرين من يوليو . وفى السابعة والنصف من نفس اليوم اعلن على الشعب البيان الأول باسم القائد العام للقوات المسلحة وكان موجزا مقتضبا لم يتضمن الا الدعوة الى تطهير الجيش ثم صدر البيان الثانى فى اليوم التالى ليشير الى ان القادة ينشدون التطهير والاصلاح فى البلاد ورفع لواء الدستور ثم توالت الاحداث التى مكنت رجال الثورة من السيطرة على زمام الأمور فى البلاد .

٣ — الثورة واعلان الجمهورية :

وجاءت حركة الجيش فى صبيحة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ تعلن نداء الثورة ، وتصر على ضرورة تنازل الملك فاروق عن العرش ، ومغادرته للبلاد فوجه رجال الجيش الى الملك انذارا نصه « من الفريق أركان حرب محمد نجيب .. باسم ضباط الجيش ورجاله الى جلالة الملك .. انه نظرا لما لاقته البلاد فى العهد الأخير من فوضى شاملة عمت جميع المرافق نتيجة سوء تصرفكم وعبثكم بالدستور وامتهانكم لارادة الشعب .. فوضنى الجيش الممثل لقوة الشعب أن اطلب من جلالتكم التنازل عن العرش لسمو ولى عهدكم الأمير احمد فؤاد .. على أن يتم ذلك فى موعد غايته الساعة الثانية عشر من ظهر اليوم السبت ٢٦ يوليو ١٩٥٢ ، ومغادرة البلاد قبل الساعة السادسة من مساء اليوم نفسه ، والجيش يحمل جلالتكم كل ما يترتب على عدم النزول عن رغبة الشعب من نتائج [٢] .

وقد صاحب هذا الانذار ارسال بعض المدرعات والمدفعية لدعم قوات الثورة بالاسكندرية استعدادا لعملية عزل الملك بالقوة لو رفض الانذار [٣] ، ولكن الملك فاروق رضخ للانذار وصدر أمر ملكى رقم ٦٥ لسنة ١٩٥٢ يعلن التنازل عن العرش لولى العهد الأمير أحمد فؤاد .

ولما أعلنت الاذاعة المصرية خبر تنازل الملك عن العرش ومغادرته للبلاد كان الخبر مفاجأة لجماهير الشعب المصرى الذين اعلنوا عن فرحهم وسعادتهم للتخلص من هذا الملك الذى أصبحت مباذله وسهراته مضغة

فى الأفواه فنزل الكثيرون منهم الى الشوارع مظهرين سرورهم وسعادتهم لهذا الخبر السار [٤] فقد احسوا ولأول مرة انهم تخلصوا من الملكية . واصبح حكامهم لأول مرة مصريين لحما ودما وروحا وتفكيرا [٥] .

وكانت أول قضية واجهت قادة الثورة هى قضية الوصاية على العرش ، وتعيين مجلس لها ، وهى قضية دستورية اذ تنص المادة ٥١ من الدستور على أن « لا يتولى أوصياء العرش عملهم الا بعد أن يؤدوا لدى مجلس النواب والشيوخ اليمين » [٦] الذى يتضمن احترام الدستور وقوانين الأمة المصرية والمحافظة على استقلال الوطن وسلامة اراضيه [٧] والملك حق اختيار هؤلاء الأوصياء على ان يقر المجلسان اختيارهم ، ولما كان مجلس النواب منحلا وجب أن يعود للاجتماع أو تجرى انتخابات جديدة [٨] ولما كانت الانتخابات ستستغرق وقتا غير قليل ، ورجال الثورة لا يرغبون فى دعوة المجلس القديم استقر الأمر على ايجاد نظام مؤقت للوصاية يؤلف من ثلاثة تتولى بعد حلف اليمين امام مجلس الوزراء سلطة الملك الى ان تتولاها هيئة الوصاية الدائمة [٩] .

وشكلت هيئة الوصاية من الأمير محمد عبد المنعم وبهى الدين بركات باشا والقائمقام رشاد منها من ضباط المدفعية [١٠] .

ولما كان فى تشكيل مجلس الوصاية عودة الى النظام الملكى ، واستبعاد فكرة اقامة جمهورية فى مصر فقد ناشد الدكتور طه حسين رجال الثورة اعلان الجمهورية موضحا أن مصر « سئمت النفاق من الملوك ... وآن لها أن تستقبل حياة سياسية سمحة لا نفاق فيها » وذكر ان السبيل الى ذلك هو ان تتخلص مصر من الملكية ومن الأشخاص الذين لا يسألون ولا ينقدون ثم وضح أن المستقبل اصبح للنظام الجمهورى ، وان الملكيات الباقية اصبحت آثارا وتقاليد لا اكثر كما انها اصبحت كابوسا فى مصر يجثم على صدر الشعب كله ، ثم طالب رجال الجيش باعلان الجمهورية ، واعرب عن أمله فى قيام الشعب المصرى باعلان الجمهورية اذا تردد رجال الجيش فى ذلك [١١] .

وعندما سئل الدكتور طه حسين عن نوع الجمهورية التى تتلاءم مع

مصر قال « انا اميل شخصيا الى الجمهورية الأوربية التى لا يحكم فيها الرئيس ، وانما هو رمز للدولة ليس غير ، وجائز أن نصل بعد تطور بعيد الى الجمهورية كما هى فى الولايات المتحدة ، ولكن يحسن الا يكون هذا الا بعد أن يتم النضج السياسى للشعب » (١٢) .

ولنا ان نتساءل هل كان فى فكر قادة ثورة ٢٣ يوليو فى بداية حركتهم رؤية واضحة عن تغيير الحكم فى مصر من ملكى الى جمهورى ؟ يذكر اللواء محمد نجيب ان رؤية قادة الثورة فى أول الأمر لم تكن قد وصلت الى حد اقامة الجمهورية بل اكتفوا بعزل الملك واحلال ولى العهد محله (١٣) .

ويذكر الرئيس جمال عبد الناصر انه فى « يوم ٢٣ يوليو لم يكن فى خاطرنا بأى حال من الأحوال ان نستولى على الحكومة ، ولكن كنا نعبر عن امل الشعب فى القضاء على الملكية الفاسدة والقضاء على حكم اعوان الاستعمار ، ولكن لم يكن فى خاطرنا ابدا أن نحكم » (١٤) كما وضح انه بعد خروج الملك طلب مجلس قيادة الثورة من حزب الوفد أن يستعد لتولى الحكم (١٥) وقد اوضح الدكتور عبد العظيم رمضان ذلك فذكر أن ثوار ٢٣ يوليو لم يستهدفوا فى اول امرهم اكثر من القيام بانقلاب محدود لاسقاط حكم فاروق واجراء بعض التطهير والاصلاح فى الحياة السياسية مع الاحتفاظ بنظام الحكم السابق الذى أرساه دستور ١٩٢٣ (١٦) .

والواقع أن تطور الاحداث يؤكد ذلك فقد ابقى قادة ٢٣ يوليو دستور ١٩٢٣ فى بداية الامر ليكون القاعدة المنظمة لشئون الحكم بعد الثورة . مما جعلنا نتساءل لماذا لم يتجه قادة ٢٣ يوليو الى الدعوة للجمهورية مباشرة فى بداية حركتهم ؟

تؤكد الوقائع أن قادة الثورة تريثوا فى الموقف أول الأمر ترقبا للاحوال ، فكان موقفهم تكتيكيا حتى تستقر لهم الأمور فتجربة الثورة العرابية كانت ماثلة فى اذهانهم حيث تدخل الانجليز عسكريا فى مصر بحجة الحفاظ على الحقوق الشرعية للخديو توفيق ، فموضوع الشرعية

للملكية كان فى اذهانهم ولكى يكسبوا اعتراف الدول الكبرى بحركتهم تريثوا فى الموقف وخصوصا وان القوات الانجليزية كانت لا تزال موجودة على ضفاف القنال ويمكنها التدخل بحجة حماية الحقوق الشرعية للملك ، كما ان رجال الثورة ارادوا الا يعطوا الفرصة لآخرين فى الداخل وخصوصا وأن معظمهم كان ضد حزب الوفد لتأليب الأوضاع الداخلية ضدهم يضاف الى ذلك مخاوفهم مما يترتب على الغاء الملكية ، فقد كانت هذه العملية فى تصورهم كثيرة المخاطر ، ولكن الأمور كانت اسهل مما توقعوا .

ولما رأى قادة الثورة انه من الصعب عليهم تحقيق التغييرات الثورية لأسس العلاقات السياسية والاجتماعية والاقتصادية للمجتمع المصرى فى ظل دستور ١٩٢٣ قرروا الغاءه فى ١٠ ديسمبر ١٩٥٢ ، وتأليف لجنة تضع مشروع دستور جديد ، حيث اصدر مجلس قيادة الثورة فى ١٣ يناير ١٩٥٣ مرسوما بتأليف لجنة لوضع مشروع دستور جديد يتفق مع اهداف الثورة [١٧] وتألفت هذه اللجنة من خمسين عضوا من مختلف الكفاءات والاتجاهات والاحزاب [١٨] وقد عقدت هذه اللجنة جلساتها فى مساء ٢١ فبراير سنة ١٩٥٣ بقاعة مجلس النواب بالقاهرة وانتخب على ماهر رئيسا لها كما انتخبت لجنة فرعية من ١٥ عضوا سميت لجنة الخطوط الرئيسية لمشروع الدستور تفرع منها لجنة من خمسة اعضاء [١٩] لكى تبحث نظام الحكم فى مصر هل يكون ملكيا او جمهوريا ، وقد قدمت اللجنة الخماسية تقريرها ويتضمن قرارها بالاجماع على أن يكون نظام الحكم جمهوريا ، وأن يكون تقرير هذا النظام عن طريق استفتاء الشعب [٢٠] .

واخذ رجال الثورة يروجون لفكرة الجمهورية فى الصحف ففى ١٧ يونيو ١٩٥٣ ادلى جمال عبد الناصر بحديث لمندوب الاهرام اعلن فيه عن رأيه فى نظام الحكم الذى يجب أن تقوم عليه مصر الحديثة فقال « انى أرى أن النظام الملكى قد تاكل وانتهى بعد ان اتى سوس الفساد والخيانة على عرشه ولن تقوم لهذا النظام قائمة ثانية . وان الجمهورية آتية لاريب فيها » [٢١] .

وفى ١٨ يونية ١٩٥٣ أعلن عن اسقاط اسرة محمـــد على ، وخلع الملك احمد فؤاد الثانى ، وقيـــام النظام الجمهورى ذلك الحـــدث الهـــام الذى جاء ثمرة لتطور كفاح الشعب على تعـــاقب الســـنين ، كما قـــرر مجلس قيادة الثورة تولى اللواء محمـــد نجيب رياسة الجمهورية ، وان يكون للشعب الكلمة الأخيرة فى تحديد نوع الجمهورية ، واختيـــار شخص الرئيس حيث اعلن باسم الشعب :

١ — الغاء النظام الملكى ، وانهاء اسرة محمد على مع الغاء الالقـــاب من افراد هذه الأسرة .

٢ — اعلان الجمهورية وتـــولى اللواء محمد نجيب رياســـة الجمهورية مع احتفاظه بسلطاته الحالية فى ظل الدستور المؤقت .

٣ — يستمر هذا النظام طول فتـــرة الانتقال ، ويكون للشعب الكلمة الأخيرة فى نوع الجمهورية ، واختيار شخص الرئيس عند الاقرار عـــلى الدستور الجديد [٣٢] .

وصار يوم ١٨ يونية من كل عام عيـــدا وطنيا من الأعياد الرسمية سمى « عيد الجمهورية » وخصص قصر عابدين ليكون مقـــرا لرياســـة الجمهورية واطلق عليه « القصر الجمهورى » [٣٣] .

ولكى يكسب قادة الثـــورة اعترافا دوليا بما حـــدث اعلن البكباشى جمال عبد الناصر « ان قيام النظـــام الجمهورى فى مصر لا يعنى ان مصر تعادى النظام الملكى فى أى بلد من البلاد » [٣٤] كما علقت جـــريدة الاخبار على ذلك بأن مصر اذ تعلن النظام الجمهـــورى لا تنظـــر الا لمصـــالحها وظروفها [٣٥] .

وقد استقبل الشعب المصرى اعلان الجمهـــورية بحماسة بالغة حيث احس ولأول مـــرة فى تاريخه الطويل انه تحرر من الملكية والملوك الذين أذلـــوه واستغلوه ، واصبح حكامه لأول مـــرة مصريين لحما ودما وروحا وتفكيرا [٣٦] .

وقد عبرت مختلف طبقات الشعب عن فرحتها باعـلان الجمهـورية بارسال آلاف البرقيات لتعبير عن مباركتهم لمـا حدث [٣٧] ومع ذلك فان الاستاذ محمد زكى عبد القادر حذر فى مقاله « نحو النور » من انحـراف قادة الثورة الى المظاهر التى تقرب الجمهورية من الملكية ، وطالبهم بأن يكونوا اسوة حسنة لمواطنيهم ، فقال « أن تربية الشعوب تكون بالاسـوة الحسنة واشعارها بأن الحاكم يحترمها » [٣٨] كما أوضح الاستاذ كامل الشناوى فى مقال له « ان نجاح الجمهورية التى هى كسب عظيم للشعب يتطلب من الشعب جهادا شاقا فى تربية نفسه تربية جمهورية فلا ينبغـى أن يعامل رئيس الجمهورية كملك او حاكم مطلق بل يجب ان ينظـر اليـه كفرد عادى يحاسبه على الخطأ ويبصره بالصواب » [٣٩] .

ولقد كان للتأييد الساحق الذى منحه الشعب للواء محمد نجيب اكبر الأثر فى جعله يصدق انه زعيم الثورة الفعلى بينما كان عبد الناصر ورفاقه يتصرفون على أنه واجهة للثورة ، وسرعان ما اخذت تتباين وجهات النظر بين نجيب ورفاقه حول كثير من الأمور [٣٠] منها الاجراءات التى اتخذها ضباط القيادة لمحاسبة السياسيين القدامى وتشكيل محكمة الثورة ، ولمـا أحس مجلس قيادة الثورة أن محمد نجيب يشكل عقبة فى طريقهم انتهـزوا فرصة الغاء النظام الملكى واعلان الجمهورية فقرروا ابعـاده عن قيـادة القوات المسلحة [٣١] واصدروا قرارا بتعيين الصاغ عبد الحكيم عامـر قائدا عاما ، وترقيته اربع رتب مرة واحدة ليصل الى رتبة اللواء ، وقـد اعترض محمد نجيب على هذه القرارات كما اعترض على اعـلان النظـام الجمهورى دون استفتاء شعبى ، ووصل الأمر بينه وبين رجال الثـورة الى درجة التحدى [٣٢] ولم تلبث الأمور أن تدهورت بين الفـريقين حين أخذ مجلس القيادة يتجاهل اللواء محمد نجيب فى جلسـاته فقـدم نجيب استقالته فى ٢٣ فبراير ١٩٥٤ الى مجلس قيادة الثورة فكان ذلك بمثـابة المفجـر الحقيقى لأزمة مارس ١٩٥٤ [٣٣] .

ونظرا لما احدثته استقالة محمد نجيب من تـأثير فى الـراى العـام ورغبة من قيادة الثورة فى احتواء الأزمة ولو بصفة مؤقتـة وحفاظا على وحدة الأمة اعلن مجلس قيادة الثورة عودة اللواء محمـد نجيب بعد أن تم الاتفاق معه بخصوص ذلك .

وعاد محمد نجيب الى رئاسة الجمهورية ولكن بـــدون ســـلطات ، ومضى فى مهاجمة مجلس قيادة الثورة والدعوة الى الديمقـــراطية ، وكان واضحا أن نجيب سيمضى فى هذا التيار ما دام بعيـــدا عن الســـلطة ، وشعر عبد الناصر أن تحدى نجيب للثورة ســـوف يعـــرقل مسيرتها لذلك قام بمناورة بارعة اذ تقدم باقتراح الى الاجتماع المشترك لمجلس الثـــورة ومجلس الوزراء بعودة الأوضاع الى ما كانت عليـــه قبل استقالة نجيب واسناد رئاسة مجلس قيادة الثورة ورئاسة مجلس الوزراء الـــى رئيس الجمهـــورية مـــرة اخرى وبذلك ضمن عبد النـــاصر التهدئـــة مع نجيب خلال تلك المرحلة المصيرية التى تجتازها الثـــورة ، وفى نفس الوقت كان الهدف الآخر الذى يسعى اليه نجيب هو طرح رئاسة الجمهـــورية للاستفتاء الشعبى لأنه كان يشعر انه رئيس جمهورية بالتعيين [٣٤] . كما كان لـــه عدة مطالب هى :

١ — أن يكون له كل سلطات رئيس الجمهـــورية البرلمانية فى حالة عدم وجود برلمـــان .

٢ — أن يستفتى الشعب على النظام الجمهورى قبل اقـــرار الدستور الجـــديد .

٣ — أن ينتخب الشعب رئيس الجمهورية قبـــل اقـــرار الدســـتور أيضا بالانتخاب المباشر .

٤ — أن يعود الضباط الى صفوف الجيش[٣٥] .

وفى ١٨ يونيو ١٩٥٤ وبمناسبة الاحتفال الأول بعيـــد الجمهـــورية القى اللواء محمد نجيب كلمة ذكر فيها أن الحكم الجمهورى هـــو حـــكم الشعب للشعب ولصالحه ، وانه التطور الطبيعى نحـــو احقاق العـــدل والمساواة بين الناس ، كما أوضح أن مصر قبل اعلان الجمهـــورية كانت سلعة يرثها الأبناء على آبائهم مهما كان الأب خاملا أو جاهلا أو كان الابن ظالما ومستبدا [٣٦] .

ولمـــا ثبت من التحقيقات فى قضـــايا الاخوان المسلمين أن اللـــواء

محمد نجيب كان على اتصال بهم منذ ابريل ١٩٥٤ ، وانه معتـزما بعـد نجاح انقلابهم تأييد حركتهم ودعوة الجمهور للانضمام اليهم قـرر مجلس قيادة الثورة فى ١٤ نوفمبر ١٩٥٤ اعفاءه من جميع المناصب التى كـان يشغلها ، وان يبقى منصب رئيس الجمهـورية شاغـرا ، وان يسـتمر مجلس قيادة الثورة فى تولى كافة سلطاته بقيـادة جمال عبـد الناصر حتى يتم انتخاب رئيس الجمهورية .

وفى السادس عشر من يناير ١٩٥٦ تم اعلان الدستور مدعما برنامج الثورة وهـو :

١ ــ القضاء على الاستعمار واعوانه .

٢ ــ القضاء على الاقطاع .

٣ ــ القضاء على الاحتكار وسيطرة راس المال على الحكم .

٤ ــ اقامة جيش وطنى قوى .

٥ ــ اقامة عدالة اجتماعية .

٦ ــ اقامة حياة دستورية سليمة .

واعلن الدستور ان النشاط الاقتصادى الخاص حر بشرط الا يضر بمصلحة المجتمع ، ونص على مساواة المصريين فى الحقوق والواجبات .

كما اعلن حرية الاعتقاد ، وحرية التعبير عن الراى فى حدود القانون ، وجعل التعليم حقا لكل المصريين .

وفى ٢٢ يونيو ١٩٥٦ انتخب جمال عبد الناصر رئيسـا للجمهورية بالاستفتاء ، وبذلك تم ولأول مرة فى تاريخ مصر انتخاب الشعب فى استفتاء عام رئيسا لجمهورية مصر .

وبانتخاب جمال عبد الناصر حـل مجلس قيادة الثـورة ، واصبـح جمال عبد الناصر هو المسئول عن مصر سواء من ناحية السياسة الداخلية او السياسة الخارجية ، وبذلك دخلت مصر فى طور جـديد من حيـاتها السياسية .

وافتتحت الثورة عهدا جديدا ، فبدأ نضالها لاقتلاع جذور الاستعمار فى مصر ونجحت فى عقد معاهدة الجلاء فى ١٩ من اكتوبر ١٩٥٤ (٣٧) ، كما انتهجت سياسة عدم الارتباط بالأحلاف العسكرية او بمشروعات الدفاع المشترك ، ورفضت أى قيود على تحركاتها الدولية ولما رفض الغرب بيع السلاح لها لتسليح جيشها عقد عبد الناصر صفقة الأسلحة التشيكية فى ٢٥ سبتمبر ١٩٥٥ ضاربا عرض الحائط باحتجاجات الغرب مما كان له أبلغ الأثر فى تغيير ميزان القوى فى منطقة الشرق الأوسط وتغير نظره أمريكا تجاه استئناس عبد الناصر وانسحابها مع بريطانيا من مشروع تمويل السد العالى، وكان رد عبد الناصر على هذه الضربة هو تأميم شركة قناة السويس فى السادس والعشرين من يوليو ١٩٥٦ .

٤ — ثورة ٢٣ يوليو والتعليم :

وبقيام ثورة ٢٣ يوليو تغير نظام التعليم فى مصر ، ودخل مرحلة جديدة مؤثرة فى حياة الانسان المصرى ، وكان من أول مشروعات اصلاح التعليم التى تبنتها الثورة ، وعمل على تنفيذها المرحوم اسماعيل القبانى عندما تولى أمر وزارة التربية عام ١٩٥٢ الغاء ثنائية التعليم فى المرحلة الأولى لكى تزداد الفرص المتاحة لجميع الشعب ، ولقد كان هذا الاصلاح يتفق مع الفلسفة الجديدة للمجتمع ، وقد زادت الحكومة من ميزانية التعليم وعلى غرار ذلك ازداد عدد المدارس بطريقة واضحة ففى العام السابق للثورة بنيت فى مصر ثلاث مدارس جديدة بينما بنى فى السنوات الخمس الأولى للثورة ١٢٣٥ مدرسة بمعدل ٢٤٨ مدرسة فى كل عام ، وانشىء بجانب المدارس الاعدادية العامة انواع من المدارس الاعدادية الفنية زراعية وصناعية وتجارية ، واهتمت الثورة بالتعليم الفنى (٣٨) .

وقد عمدت حكومة الثورة الى تغيير اسم الوزارة التى تقوم بمهمةالتعليم من وزارة المعارف الى وزارة التربية والتعليم ، وسارت السياسة التعليمية يحدوها الأمل فى نشر التعليم ، وانتهى الأمر الى أن ست سنوات تعليمية هى الاساس المنطقى لتعليم شعبى تتهيأ فيه الفرص المتكافئة لجميع المواطنين، وبذلك تقرر أن يكون التعليم الابتدائى اجباريا مجانيا لمدة ست سنوات ، وأن يعاد النظر فى السلم التعليمى بحيث يتلاءم ومراحل التعليم واعمار

المتعلمين وانشئت لذلك مرحلة جديدة هى المرحلة الاعدادية بين المرحلة الابتدائية والمرحلة الثانوية . وقد هدفت السياسة التعليمية فى عهد الثورة الى ما يلى :

١ — تعميم التعليم الابتدائى وتدعيمه .

٢ — تكافؤ الفرص لجميع المواطنين فى جميع مراحل التعليم .

٣ — تخطيط التعليم فيما بعد المرحلة الاولى على أساس احتياجات البلاد وامكانياتها .

٤ — التوسع فى التعليم الفنى بأنواعه ، وخاصة فى المرحلة الاعدادية الفنية .

٥ — التوســـع فى تعليم البنات .

٦ — تدعيم التعليم العالى والجامعى ورفع مستواه وتشجيع البحث العــلمى .

٧ — مسايرة التطور العالمى فى العلوم والآداب والفنون حتى يتمكن المواطنون من الاستفادة بنتائج الفكر العالمى فى كل الميادين ، مع الحرص على تراثنا القديم فى كل العصور وحمايته .

٨ — التعاون الثقافى مع جميع الدول الصديقة فى العالم .

٩ — زيادة اواصر الوحدة الثقافية مع البلاد العربية [٣٩] .

ولمـــا كان النظـــام التعليمى فى أى بلد يعكس الفلسفة الاجتماعيـــة السائدة به ، فقد كان للقوانين الاشتراكية التى اعلنت فى مصر عام ١٩٦١ تأثيرها الفعال على التعليم فى مختلف مراحله حيث اعلنت مجانية التعليم فى كافة مراحله بعد أن درج التعليم المصرى منذ سنوات طويلة على أن يكون تعليما طبقيا بمعنى أنه كان هناك نوع من التعليم للاغنياء وآخـــر للفقراء ، فالغيت المصروفات واتسع مجال التعليم أمام جميع فئات الشعب، وتزايد عدد المقبولين عاما بعد عام ونشأ عن ذلك تكافؤ فى الفرص ، كما أصبح المجموع الكلى لدرجات الطالب الفيصل فى قبوله بالجامعات وغيرها،

وعلى الرغم من الظروف المريرة التى مرت بها مصر بعـــد هزيمة ١٩٦٧ فان برامج تطوير التعليم لم تتوقف فقد سار برنامج العمل الوطنى الصادر فى عام ١٩٧١ خطوة ابعد فى مجال رسم السياسة الواجب اتباعها فى مجال التخطيط التعليمى .

وقد أكد البرنامج على المبادىء التالية :

١ — أن تلتزم المرحلة الأولى من التعليم فى نهاية العشر سنوات ١٩٨٢/٧٢ بقبول جميع الملزمين .

٢ — التمهيد لرفع سن الالزام الى ١٥ سنة .

٣ — الارتفاع بمستوى التعليم وتطويره بما يتلاءم وانجازات العلم الحديث .

٤ — الارتفاع بمستوى اداء الخدمة التعليمية .

٥ — ربط التعليم باحتياجات المجتمع .

٦ — القضاء على الأمية .

وقد هدفت هذه الخطة الى تحقيق الفرصة المتكافئة . والمســـاواة الكاملة لابناء الشعب ، ورفع مستوى التعليم ، وتوفير الرعاية التربوية والصـــحية للطالب ، ووضـــع برامج توعية لمحو الأمية والاهتمام بالبحث التربوى ، وتطوير نظام الامتحانات ، وتحقيق التنسيق بين الاجهزة المعنية بالتعليم فى مستوياته المختلفة .

وتجىء ورقة اكتوبر لتركز على ان اهم ما طـــرا على منطق التعليم والبحث فى العالم هو زوال المسافة بين الفكر والعمل ومعنـــى ذلك ان التعليم والتثقيف العام صار لهما هدفان :

١ — ايجاد الفرد المتعلم المستنير .

٢ — تزويده بخبرة متقدمة محددة تمكنه من القيام بدور يتناســـب مع هذه الخبرة ، وتحقيق ذلك يستلزم عدة أمور منها عدم حبس التعليم

فى قوالب جامدة ومنها ربط أنواع معينة من التعليم بالبيئة ، ومنها توثيق الصلة بين الجامعات والمعاهد على اختلافها ، ومنها القضاء على فكــرة الفارق الاجتماعى فى التعليم وعلى الرغم من كل الجهود التى بذلتها حكومة الثورة لاصلاح التعليم وما تم احرازه من تقدم فى كثير من المجالات فانه يمكن القول بأن التعليم فى مصر يحتاج الى اعادة النظر والاصلاح وتجىء هذه الصيحات لا من جانب المربين ورجال التعليم والمشرفين على أمــره فحسب ، ولكنها تصدر ايضا من آباء التلاميذ والمســئولين عن التخطيط للتنمية الاقتصادية والاجتماعية ، والجميع يؤمن ان اصلاح التعليم هــو الاســـاس الذى تقــوم عليه تنميــة الثروة البشرية لاســعاد النـــاس وتقدم المجتمع .

ونحن نأمل ان تتمخض جهود المتخصصين عن اصلاح حقيقى فى التعليم يشكل ثورة حقيقية فى التعليم المصرى تتفق مع الآمال الكبيرة المعقودة عليه فى جميع الأوساط التعليمية والفنية والسياسية ، علما بأن اقامة اصـــلاح التعليم على اسس من البحث العلمى والتخطيط السليم هــو الضــمان لاستترار هذا الاصلاح من جهة وديناميته من جهة أخــرى .

يضاف الى ذلك ان اصلاح التعليم يحتاج الى توفير مصادر التمويل الكافية لمتطلبات هذا الاصلاح يتناسب مع الزيادة السكانية الضخمة فى كل عام واستيعاب جميع الاطفال والاستعانة بالوسائل التكنولوجية الحديثة فى التعليم يتطلب المزيد من الانفاق عليه بما يتناسب مع الأهمية التى ينظــر اليه بها فى حياة الأمة المصرية .

— عبد الناصر وحرب ١٩٥٦ :

ادار الرئيس عبد الناصر حرب ١٩٥٦ على المستوى الوطنى والاقليمى والدولى ، وعلى المستوى العسكرى والسياسى والنفسى فى ظروف شديدة التعقيد ، وفى مواجهة توازن متشابك وخطير استفادت مصر من خلالــه العديد من الدروس بحلوها ومرها وفيما يلى نعرض لهذه الحرب وأسبابها ودور الرئيس عبد الناصر فى ادارة خيوطها حتى تحقق له فى نهاية الأمر قطع ذيل الأسد البريطانى وكسر أسنانه .

وعقب اعــلان قرار الولايات المتحدة وبريطــانيا سحب عروضهما الخاصة بالمساهمة فى تمويل بناء السد العالى بحجة ان قدرة مصر المــالية لا تتحمــل تــوفير المــــال اللازم للمســـــاهمة فـــى بنـــاء السد(٤٠). رأى جمال عبد الناصر ان الرد المناسب على ذلك يكمن فـــى تأميم شركة قناة السويس ، خصوصا وان هذا التأميم بالاضافة الى انه يحقق له امكانية بناء السد العالى فانه يلبى حقا مصريا يراود احلام كل المصريين ، ويؤكد استقلال الارادة السياسية المصرية ، ويضيف الى مصر أهــم أرصــدتها الاستراتيجية ومن اجل ذلك دعا عبد الناصر الى اجتماع مشترك بين اعضاء مجلس قيادة الثورة ومجلس الوزراء بكامل هيئته . . وفى الاجتماع طــرح عبد الناصر فكرة التأميم ، ولما وجد من بعض المجتمعين من يحذر من احتمالات الخطر وتعدد مصادره أوضح انه سيتحمل وحده مسئولية القرار (٤١) .

وأمام مؤتمر شعبى حاشد وقف عبــد النــاصر فى ميــدان المنشــية بالاسكندرية فى ٢٦ يوليو ١٩٥٦ ليعلن تأميم الشركة العالمية لقناة السويس شركة مساهمة مصرية ، ونقل جميع مالها من أموال وحقوق ، وما عليها من التزامات الى الدولة (٤٢) مما تسبب فى حدوث أصداء واسعة ارتجت لها مصر خاصة وان القناة كانت جرحا فى ضمير كل مصرى ، وكان استعادتها لمصر حلما من الاحلام ، كما ارتج لها العالم الذى هزته هــذه الخطــوة الشجاعة .

ونتيجة لأن معظم التوقعات كانت ترى أن بريطانيا وفرنسا وربمــا دول أخــرى لن تسكت على هذه الضربة التى قوضت هيبة الغرب وحطمت هيبته وكانت بمثابة الكابوس لاحتكاراته (٤٣) . وان هذه الدول قــد تصعد الأمر الى درجة التدخل العسكرى فقد راى عبد الناصر ضرورة تفادى قيام حرب غير متوازنة عن طريق تكثيف العمل السياسى المصرى ، وتكتيل الجو الدولى العام لصالح مصر حتى يتم تفويت فرصة استعمال السلاح على الذين يفكرون فيه ، ويتم كسب الوقت حتى تبرد الأزمة وتهدأ نارها خصوصــا وانه كان يتصور أن احتمال التدخل العسكرى سوف يكون محققا بنســبة ٨٠٪ خلال الاسبوع التالى للتأميم فاذا انقضت هذه الفترة الحرجة تناقصت احتمالات التدخل وانحسرت فرصته (٤٤) وتمكنت مصر من بسط سيطرتها

على القناة . والى حد كبير نجح عبد الناصر فى جذب انظار العالم نحو حق مصر فى تأميم القناة فأكد اكثر من مرة ان مصر تتعهد باحترام الوضع الدولى للقناة وتم ابلاغ السكرتير العام لهيئة الأمم المتحدة بذلك كما عمل على أن تستمر كفاءة الحركة الملاحية فى القناة دون اى معوقات بعد انسحاب المرشدين الاجانب منها [(٤٥)] حتى لا يحس العالم بأى تقصير .

والى جانب ذلك كان عبد الناصر يشعر انه يمسك معظم الأوراق الرابحة فى الأزمة بكلتا يديه فمع انه كان لا يستبعد قيام بريطانيا بعمل عسكرى ضد مصر فانه كان يرى أن ايدن لم تكن لديه قوات جاهزة فى الشرق الأوسط للقيام بأعمال عسكرية فورية ، وان الأمر يحتاج لبعض الوقت لتجهيز هذه القوات ، وخلال ذلك يمكن تكتيل الراى العام العالمى لصالح مصر ، وتكثيف الجهود السياسية مما قد يؤدى الى تفويت فرصة التدخل المسلح .

ومع انه كان لا يستبعد قيام الحكومة الفرنسية بمغامرة عسكرية ضد مصر للتخلص من قيادتها التى كانت تمد الثوار الجزائريين بالسلاح والدعم المعنوى ، فانه كان يرى أن تورط فرنسا عسكريا فى الجزائر ، وفقدانها السيطرة على العديد من المناطق التى يتمركز بها الثوار الجزائريين ، وشبح هزيمتها فى « ديان بيان فو » (الهند الصينية) قد يجعلها تتردد فى القيام بعمل عسكرى ضد مصر [(٤٦)] .

الأمر الذى استبعده عبد الناصر ، واستحال وقوعه هو أن تلجأ بريطانيا وحدها او بريطانيا بالتنسيق مع فرنسا الى الاستعانة باسرائيل فى اى عملية ضد مصر لاستعادة القناة بالقوة خصوصا وان ذلك سيعرض مركزهم ومصالحهم فى الشرق الأوسط للخطر ، ويكون وحده كفيلا باسقاط كل النظم الموالية لانجلترا وفرنسا فى المنطقة ، كما يترتب عليه الدعوة الى خروج العراق من حلف بغداد ، وزيادة النقمة على فرنسا فى شمالى افريقية [(٤٧)] .

وحول موقف الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى من الأزمة فقد كان تقدير عبد الناصر أن واشنطن وموسكو ستكونان بعيدتين عن أى مساندة عسكرية أو سياسية للمعتدين خصوصا بعد أن اظهرت الولايات المتحدة عدم

استجابتها للاشتراك فى اى عمل عسكرى ضد مصر ، ورفضت فكرة تقديم اى مساندة استراتيجية او سياسية لدول العدوان وفضلت تسوية المشكلة سلميا ، وبعد ان اظهر الاتحاد السوفيتى رغبته فى عقد تسوية سـليمة للمسألة وأعلن عن تعاطفه مع موقف مصر الذى تدافع فيه عن سيادتها .

والى جانب ذلك فقد تعاطفت دول مؤتمر باندونج ، ومعظم الدول العربية تجاه موقف مصر ، فأعلنت الهند والصين تأييدهما لموقف مصـــر وقضيتها ، كما تجلت وحدة المشاعر والعاطفة العربية من الشعوب العربية تجاه مصر واعلنت الدول العربية التى تتحكم فى انتاج وضخ البترول تأييدها ومساندتها لموقف مصر .

والسؤال المطروح هل تحققت كل استنتاجات عبد الناصر تجاه الأزمة أم ان تطورات الأحداث قلبت توقعاته راسا على عقب .

الواقع أن تقدير عبد الناصر للموقف قد جانبه الصواب فقــد وقع العدوان على مصر بعد ثلاثة شهور وكان عبد الناصر يستبعده اذا تأخـر شهرا ، واشتركت انجلترا وفرنسا فى العدوان على مصر مع اسرائيل مع أنه كان يستبعد ذلك ولا يتوقعه (٤٨) . اذا ما هى الأســباب التى قلبت توقعات عبد الناصر وافسدت حساباته ؟

الواقع أن بريطانيا وفرنسا كانت لها حسابات أخرى فقــد كــانا يريان أن انهماك الحكومة الامريكية فى انتخابات الرئاسة وتطاحن الاحزاب من أجل الوصول الى السلطة قد يبعد الولايات المتحدة عن التفكير فى الأزمة او اتخاذ مواقف محددة تجاهها لذلك لم يخبرها احد بخطة العدوان ، بــل حاول الانجليز والفرنسيين تشويش الأمور أمامها وتضليلها حتى لا تتدخل فى المسألة . والى جانب ذلك فقد توقعا عدم اهتمام السوفيت بالمســألة خصوصا وان امور القناة كانت لا تهمهم كثيرا ، كما انهم كانوا منهمكين فى مشاكل المجر والتطورات الجارية فيها .

وعلى اى حال فقبل حدوث العدوان عملت بريطانيا وفرنسا على تعمية الرأى العام العالمى واخفاء نواياهم العدوانية على مصر وذلك باصــدار التصريحات المتلاحقة بالرغبة فى حل المشكلة بالطرق السلمية ، والقيـام

بشن حرب دعائية عنيفة ضد مصر وشخص عبد الناصر بالذات ، والشكوى الى مجلس الأمن بأن مصر استولت تعسفا على قناة السويس خرقا للاتفاقات الدولية مما يعرض الملاحة فى هذا الممر الحيوى لاخطار داهمة ، والدعوة الى وضع القناة تحت ادارة دولية [٤٩] والتشجيع على انعقاد نادى المنتفعين لبحث المسألة . وخلال ذلك كانت خطط العدوان قد وضعت وحشدت القوات لغزو مصر [٥٠] ، ورسمت الخطة على الوجه التالى :

تقوم القوات الاسرائيلية بشن هجوم واسع النطاق على القوات المصرية فى سيناء أمام نقطة الكونتلا فى التاسع والعشرين من أكتوبر ١٩٥٦ بهدف قطع مواصلات الجيش المصرى والوصول الى منطقة قناة السويس ، وبعدها توجه الحكومتان البريطانية والفرنسية نداء بالتوازى الى الحكومتين المصرية والاسرائيلية يتضمن وقف جميع الأعمال الحربية ، وسحب كل القوات المسلحة من الطرفين الى مسافة عشرة أميال بعيدا عن القناة وقيام القوات الانجلو فرنسية مؤقتا باحتلال مواقع رئيسية فى كل من بور سعيد والاسماعيلية والسويس لضمان حرية المرور بها ، والقيام بالفصل بين المتحاربين حتى يتم الوصول الى ترتيبات نهائية واذا لم تستجيب القوات المتحاربة لهذا النداء خلال اثنتا عشرة ساعة تنتهى فى تمام الساعة السادسة والنصف من صباح الأربعاء الموافق ٣١ من أكتوبر فان القوات البريطانية والفرنسية سوف تستخدم القوة اللازمة لتنفيذ شروط الانذار[٥١] .

والمتفحص لشروط هذا الانذار يتضح له ان التحرك الاسرائيلى والانذار كان خيوطا مشتركة فى نسيج واحد فالانذار لم يوضع بهذه الصيغة الا لكى ترفضه مصر خصوصا وانه كان يحمل بين جنباته شبح التواطؤ وسوء النية ، والرغبة فى طعن مصر من الخلف . فليس من المنطقى ان تسحب مصر قواتها الى مسافة عشرة أميال غرب القناة ، وتوقف كافة الأعمال الحربية لصد القوات الاسرائيلية الغازية لأراضيها ، ثم تكافىء اسرائيل باحتلال سيناء والابتعاد فقط مسافة عشرة أميال شرق القناة بل المنطق العادل كان يحتم انذار اسرائيل بالعودة الى ما وراء الحدود ، والرجوع من حيث أتت ، ودعوة مصر الى وقف الأعمال الحربية حتى لا يحدث تعطيل لسير الملاحة فى قناة السويس ولكن بريطانيا لم تكن تريد وقف العدوان الصهيونى ، بل

كان هذا العدوان جزءا لا يتجزأ من الخطة المرسومة للغزو الثلاثى لمصر ، وللاطاحة بنظامها (٥٢) .

وفى جلسة لمجلس الوزراء المصرى بتاريخ الثلاثين من اكتوبر ١٩٥٦ انتهى الرئيس عبد الناصر الى رفض الانذار البريطانى الفـرنسى شـكلا وموضوعا لانه لم يكن مقبولا بضياع استقلال مصر الوطنى وعودة النفوذ البريطانى الى المنطقة (٥٣) .

ونتيجة لرفض مصر الانذار تزايدت احتمالات الخطر وبدأت موجات القصف الجوى على مدن مصر وقراها وامتد جسر من اسراب الطائرات تعمل ليل نهار من بريطانيا الى شرق البحر المتوسط مما ادى الى تخريب العديد من المنشئات والمرافق .

وحتى يحقق العدوان اهدافه ويتم وضع العالم أمام الأمر الواقع قبل أن تستفحل الأمور وتتشابك ، رأى قادة الغزو أن تكـون الحرب سريعة وحاسمة بحيث يتم كل شىء فى خلال ثلاثة أو أربعة أيام تحتل فيها مصر ، وتسقط حكومة عبد الناصر وتحل محلها حكومة تقبل كل شىء يطلب منهـا حتى لا يجرؤ أحد على الاعتراض . مادامت الحكومة الجديدة قد تكـونت وباركت الغزو .

ونتيجة للتطورات المتلاحقة دعا عبد الناصر الى اجتماع مع القـادة العسكريين وبعض اعضاء مجلس قيادة الثورة لتقييم الموقف واعادة النظر فى خطط مصر العسكرية بعد أن اتضحت نوايا العدوان . وفى هذا الاجتماع كان الجو مشحونا بالقلق والتوتر واختلاف وتضارب الآراء ففى حين تبنى عبد الحكيم عامر موقف حتمية القتال ومواجهة المعتدين حتى آخر طلقة والى آخـر رجل رأى صلاح سالم عضو مجلس قيادة الثورة أن حجم القـوى المعتدية لاقبل لمصر بمواجهته ، وانه لا خيار أمام عبد الناصر سوى أن يذهب الى السفير البريطانى ويسلم نفسه له وبسرعة قبل أن يتمكن الطيران المعادى من تدمير مرافق مصر الحيوية وتمزيق جيشها (٥٤) والحاق كارثة محققـة بالبلاد . ولكن عبد الناصر الذى لم يفقد اعصابه خلال الاجتمـاع نجح فى سحب البساط من تحت أقدام المتشائمين ، ومضى فى شرح وجهة نظـره

موضحا ان المستهدف هو مصر وشعبها واذا لم يقف الشعب المصرى بكافة فئاته فى مواجهة المعتدين فان مصيره سيصبح معرضا للضياع .

وفى اعقاب ذلك قرر عبد الناصر سحب قوات مصر الرئيسية من سيناء وارتدادها الى غرب القناة حتى لا تتعرض من الخلف لضربات الغزاة ، وتصبح هدفا للتطويق ، وحتى يمكن أن يشكل منها اداة ضاربة واحدة استعدادا لمواجهة هجوم بريطانى فرنسى على مصر قادما عبر البحر المتوسط فى اتجاه الاسكندرية أو بور سعيد لذلك صدرت الاوامر بعودة فرقتين من سيناء احداهما مدرعة والأخرى مشاه [٥٥] ، كما صدرت الأوامر ايضا بتوزيع السلاح على المواطنين حتى لا تصبح البلاد عزلاء عديمة المقاومة .

ولحفز همم العالم على سرعة التدخل فى الموقف ، صدرت الأوامر بتعطيل الملاحة فى قناة السويس [٥٦] مما ادى الى نقص واردات اوربا الغربية من البترول بمقدار ٣٠٠ الف برميل يوميا ، ووضع دول العالم امام واقع جديد ، وتسبب فى خسارة فادحة لحركة التجارة العالمية . وتفاديا لتأثير الاحداث على الشعب المصرى ، وعلى الرغم من فداحة الخطر ذهب عبد الناصر لتأدية صلاة الجمعة فى الاول من نوفمبر بالجامع الأزهر ، وتحرك فى سيارة جيب مكشوفة بين هتافات الجماهير ، ووقف على منبر الأزهر ليعلن بصوت مشحون بالانفعالات « اننا جميعا سوف نقاتل ولن نستسلم ابدا ... سأقاتل معكم ضد اى غزو والى آخر نقطة دم .. وسنبنى بلدا وتاريخا ومستقبلا .. وسننتصر » .

وبعد أن اعلن عبد الناصر عن انشاء جيش التحرير الوطنى وفتح باب التطوع امام المواطنين ، هبت جموع الشعب للذود عن حياض الوطن ، وتكاتفت قوى الشعب والقوات المسلحة للدفاع عن مصر وتم تشكيل جيش التحرير الوطنى من قوات الحرس الوطنى والفدائيين ، ووحدات المقاومة الشعبية ، وكتائب الشباب [٥٧] .

وعلى الرغم من تزايد شعبية عبد الناصر بين الناس الذين وجدوا فيه بديلا ثوريا للتعبير عن ارادتهم فقد برزت أمامه صعاب جديدة تمثلت فى اجتماع عدد من رجالات الاحزاب واتفاقهم على مطالبته بالتنحى عن منصبه

نظرا لان العدوان يستهدفه اكثر مما يستهدف مصر . ولكن عبد الناصر الذى لم تلن له قناة اصدر اوامره باعتقال الذين حضروا هذا الاجتماع وهم سليمان حافظ ومحمد صلاح الدين وغيرهم ، كما امر باعتقال عدد من السياسيين ومنهم فؤاد سراج الدين وابراهيم فرج حتى لا يستطيع هؤلاء التأثير فى الروح المعنوية لدى الجماهير أو بث روح الدعاية المناهضة لعبد الناصر (٥٨) .

وعلى اى حال فبعد أن استمرت موجات القصف الجوى على مدن مصر وقراها طوال الفترة من ٣١ اكتوبر الى ٤ نوفمبر بدأت قوات المظلات البريطانية الفرنسية تهبط ابتداء من اليوم الخامس من نوفمبر فوق المنطقة الشمالية من قناة السويس ، وتشتبك مع القوات المصرية والأهالى فى معارك بالاسلحة الصغيرة بينما كانت مدافع الاسطول الانجليزى الفرنسى تطلق نيران قنابلها الضخمة على مدينة بور سعيد وما حولها .

وفى فجر الخامس من نوفمبر تقدمت حاملات الجنود البريطانية والفرنسية تحت حماية مدافع الاسطول ، وبدأت موجاتها تنزل على الشاطىء وتتسلل الى مدينة بور سعيد كى تصطدم معها قوات المقاومة الشعبية التى كانت بمثابة الوجه المشرق للشعب المصرى .

وخلال ذلك كثفت مصر جهودها السياسية لكشف وفضح حقيقة العدوان ونواياه فطالبت بعقد جلسة لمجلس الأمن للنظر فى وقف العدوان (٥٩) واثبتت لدول العالم مدى بشاعة العدوان ضد المدنيين الآمنين . كل ذلك ادى فى كل دول العالم الى اجتياح موجة من الغضب والسخط ضد المؤامرة ، فهوجمت المنشآت والسفارات البريطانية والفرنسية فى معظم العواصم الافريقية والآسيوية ، وتعرضت مصالح المعتدين للخطر فى العالم العربى واشتعلت نيران الغضب فى كل قارات العالم ضد العدوان والى جانب ذلك تبنى البرلمان الانجليزى معارضة قوية تتربص بحكومة ايدن الدوائر ، وتوجه اليها التهم (٦٠) ، ووصلت المظاهرات ذروتها فى لندن وباريس تهتف بسقوط ايدن وجى موليه كما وقفت الحكومة السوفيتية موقفا حازما من العدوان . وخلال ذلك كان منبر الأمم المتحدة يشهد اعنف المناقشات .

وخشية من استفحال الأمر ، واتساع مسرح العمليات بتدخل اطراف اخرى فى النزاع وقفت الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى معا اثناء التصويت ضد المعتدين حتى تم الاتفاق على مشروع القرار الكندى الذى يقضى بوقف العمليات الحربية ، وانشاء قوات طوارىء دولية لاعادة الأمور الى نصابها ، ومراقبة عملية انسحاب قوات العدوان ثم للمرابطة على خطوط الهدنة لمنع تجدد الاشتباكات بين مصر واسرائيل .

ومع ان قرار مجلس الأمن [٦١] نص على انسحاب المعتدين فى مدة لا تزيد عن الشهر فقد تجاهلت القوات المعتدية الأمر واخذت فى توسيع أماكن احتلالها وتثبيت أقدامها فمركز الفرنسيون وجودهم فى بور فؤاد ، والانجليز فى بور سعيد ، واعلن القائد البريطانى ان انسحاب قواته فى هذه الفترة القصيرة لا يتفق مع الكرامة العسكرية ، وانه لابد من قيام قواته بتطهير القناة .

ونتيجة لذلك طلبت الحكومة السوفيتية من الولايات المتحدة القيام معا باخراج المعتدين من مصر بالقوة ولما لم تستجب الولايات المتحدة لهذا الطلب بعث الرئيس السوفيتى بولجانين كتابا الى رؤساء حكومات بريطانيا وفرنسا واسرائيل يدين العدوان ويطالب بتنفيذ قرارات الأمم المتحدة بوقف القتال وسحب المعتدين فورا حتى لا تتحول الأمور الى حرب عالمية ثالثة ، كما انه اشار بكل وضوح بان الحكومة السوفيتية مصممة على اخراج المعتدين فورا ودون ابطاء وهدد بأن لندن وباريس ليستا بعيدتين عن مدى الصواريخ النووية السوفيتية [٦٢] .

والى جانب ذلك اعلن الاتحاد السوفيتى عن استعداده لارسال متطوعين الى مصر لانهاء الاحتلال [٦٣] .

وخشية من انفلات الأمور ، اتخذت الأمم المتحدة قرارا مجددا فى الرابع والعشرين من نوفمبر يقضى باجلاء المعتدين فورا عن مصر . ونتيجة لكل ذلك وجدت الدول المعتدية نفسها واقفة ضد ارادة المجتمع الدولى وان عليها الانسحاب فورا ، لذلك بادرت قواتها بالانسحاب من بور سعيد ، وتم جلاء آخر فوج من القوات المعتدية فى مساء الثالث والعشرين من ديسمبر ١٩٥٦ بعد أن قضت فى احتلالها ثمانية واربعين يوما لم تنعم فيها بالراحة ،

بل كان يؤرقها دائما جهاد الفدائيين المصريين وهجماتهم ، وارتفع العلـم المصرى فوق بور سعيد واصبح يوم الثالث والعشرين من ديسمبر يـوما تحتفل فيه مصر كل عام بانتصاراتها على المعتدين .

أما عن اسرائيل فانها تحدت قرار الانسحاب معلنة أنها لن تنسحب الا اذا اخذت ضمانات لحرية مرور السفن الاسرائيلية فى خليج العقبة ، وعدم استخدام غزة كقاعدة ضدها ، وقد رفضت مصر أى شرط للانسحاب ، وتدخلت الحكومة الامريكية فى الأمر فضغطت على اسرائيل للانســحاب ، وضغطت على مصر لتبقى قوات طوارىء دولية فى شرم الشيخ حتى لا تتاح للقوات المصرية مستقبلا فرصة اغلاق خليج العقبة ، ومنع الملاحة فيه [٦٤] واخذت اسرائيل فى الانسحاب بعد تدمير وتخريب كل ما يصل اليهـا من منشئات سيناء .

وهكذا انتهى العدوان الثلاثى بالفشل الذريع ، وتحـررت مصر من شبهة التحالف مع الغرب ، وبدأت فى تطهير القناة حتى أعيد افتتاحها فى التاسع والعشرين من مارس ١٩٥٧ .

نتائج العدوان الثلاثى على مصر وزعامة عبد الناصر :

وضعت حرب السويس العالم بأسره أمام مرحلة جديدة من العلاقات الدولية ، وازدادت حدة المنافسة بين المعسكرين الغربى والشرقى ، وظهرت مصر كدولة لها ثقلها الكبير فى المنطقة العربية وفيما يلى نعرض لأهم النتائج :

١ — من الناحية السياسية :

أ — كان تأميم شركة قناة السويس بمثابة انقلاب تاريخى عـالمى ونقطة تحول كبرى فى تاريخ التحرر العملى للشعوب ، حيث انهار مـركز انجلترا وفرنسا فى الشرق الأوسط ، وتزايدت عوامل السخط ضدهما فى العالم العربى ، واستطاعت مصر انهاء كافة التزاماتها مع بريطانيا طبقـا لاتفاقية الجلاء التى أبرمت فى ١٩ من أكتوبر ١٩٥٤ [٦٥] ، كما استطاع عبد الناصر أن يعلم شعوب العالم الثالث كيف تكون شجاعة الثورة .

٢ — ازدياد ثقة الشعب المصرى بقادته ، والتكاتف الكامل بين قوى الشعب واصراره على مواجهة شتى المواقف الصعبة .

٣ — ظهور القومية العربية كعامل مؤثر فى صنع الاحداث ، واثبات قدرة الأمة العربية على مواجهة التحديات ، اذا توفرت لها اســتراتيجية موحدة وسياسة عامة (٦٦) .

٤ — هيأ النصر السياسى فى جولة السويس ١٩٥٦ الدور القيــادى لمصر لقيادة حركة التحرر فى افريقيا ، والوقوف مع القوى الثورية ضــد الاستعمار فى اى بلد واى مكان الأمر الذى ادى الى انهماك القدرات المصرية فى معارك مستمرة ضد الاستعمار (٦٧) .

٥ — بروز جمال عبد الناصر كشخصية دولية لها تأثيرها على مسرح الاحداث وازدياد مركزه داخل مصر وخارجها وارتفاع شعبيته الى مستوى لم يحصل عليه زعيم عربى فى العصر الحديث لدرجة ان اسمه أصبح يتردد فى الآفاق العالمية كرمز للوطنية المصرية والقومية العربية ، وحركات التحرر الوطنى فى آسيا وافريقية وأمريكا اللاتينية .

٦ — كشف حقيقة اطماع اسرائيل التوسعية امام العالم العربى .

(ب) من الناحية الاقتصادية :

١ — تحرير الاقتصاد القومى المصرى بتمصير الشركات والمؤسسات الأجنبيــة .

٢ — ازدياد رصيد مصر من العملات الصعبة بتحصيل رسوم المرور بالقنــــال .

٣ — فتح اسواق تجارية مع دول الكتلة الشرقية وآسيا .

٤ — انشاء اسرائيل خط انابيب من ايلات الى جنوب حيفا .

٥ — ضياع أرباح ضخمة من عائدات الأسهم التى تمتلكها الحكومتين البريطانية والفرنسية .

٦ — اهتمام مصر بمرافقها العامة والبدء فى بناء السد العالى (٦٨) .

(جـ) من الناحية العسكرية :

١ — فشل قوات العدوان فى احتلال مصر ، وزعزعة حكم عبد الناصر وتحطيم الجيش المصرى ، والاستيلاء على قناة السويس .

٢ — استمرار مصر فى استكمال تسليحها من دول الكتلة الشرقية والتوسع فى تعميم التدريب العسكرى خصوصا وان انتصارها فى المعركة كان سياسيا وليس عسكريا .

٣ — تسابق دول الغرب على التسلح الذرى والصاروخى بعد الانذار السوفيتى ، واتجاه بريطانيا لتخفيض قواتها فى منطقة الشرق الأوسط .

وفى النهاية يمكن القول ان العدوان الثلاثى على مصر انتهى بلا كسب سياسى أو عسكرى لأطراف العدوان بل حقق لمصر سيادتها واعاد لها كافة حقوقها ، وعصفت بايدن وجى موليه وغيرهما من قادة العدوان .

حقيقة لقد انتصرت مصر سياسيا ، ومع ذلك لا يستطيع احد ان ينكر ان اسرائيل ايضا حققت مكسبا هاما بالنسبة لها وهو حقها فى المرور بخليج العقبة .

٦ — الوحدة المصرية السورية ونشأة الجمهورية العربية المتحدة :

مصر وسورية من الأقطار العربية التى جمعت بينهما عوامل مشتركة وثيقة الارتباط منها التاريخية والسياسية والعسكرية والاقتصادية والتى كانت تحتم ضرورة ايجاد صيغة عمل مشتركة ، واستراتيجية تعاون بين البلدين .

وبعد قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ وتمسك مصر بالنضال ضد الاستعمار ودعوتها الى التمسك بالقومية العربية ازدادت عوامل التقارب بين البلدين ، واتفقا على التصدى لحلف بغداد ، وكافة الأحلاف العسكرية التى تؤدى الى ربط البلدان العربية بفلك الاستعمار ، كما اتفقا على تكوين قيادة عسكرية مشتركة واقامة تنظيم دفاعى بينهما ونتيجة لذلك عقد اتفاق عسكرى بين الدولتين فى الحادى والعشرين من اكتوبر ١٩٥٥ وبمقتضاه تقرر ان اى اعتداء على احداهما يعد موجها ضدهما معا ، ولتحقيق ذلك اتفقت مصر وسوريا على انشاء مجلس أعلى ، ومجلس للحرب ، وقيادة مشتركة وابرمت هذه الاتفاقية لمدة خمس سنوات وتأكدت بتوقيع اتفاقية التضامن العربى فى التاسع عشر من يناير ١٩٥٦ [٦٩] .

وبعد قيام الرئيس عبد الناصر بتأميم شركة قناة السويس وما تلاه من عدوان ثلاثى غادر على مصر تأكدت أواصر الوحدة والمصير المشترك بين البلدين فوقفت سورية بجانب مصر تشد من أزرها وتناصرها بشتى السبل والامكانات فوضعت موانيها ومطاراتها وقواتها تحت تصرف القيادة المصرية، كما قام العمال السوريون بنسف أنابيب البترول التى تمر عبر بلادهم وتعمل لحساب الدول المعتدية والتى تسير فى فلكها .

ونتيجة للتعاون المشترك بين البلدين خلال العدوان الثلاثى ومرورا بالحصار الاقتصادى على مصر ثم نهاية بمشروع ايزنهاور فى عام ١٩٥٧ تعرضت سورية لضغوط قوية هددت أمنها وسلامتها ، فحشدت تركيا قواتها على حدود سورية ، ودبرت حكومة نورى السعيد فى العراق وحكومة كميل شمعون فى لبنان المؤامرات ضد سورية بهدف زعزعة الحكم الوطنى وابعادها عن التيارات التحررية ومن هذا المنطلق شعرت سورية ومصر بالحاجة الماسة لتوطيد كافة أواصر التعاون بينهما لمواجهة المد الاستعمارى والصهيونى الذى يسعى الى السيطرة على مقدرات الأمة العربية ونتيجة لذلك استمرت المحادثات بين الطرفين فقام وفد مصرى بزيارة دمشق والاشتراك فى مباحثات مع الحكومة السورية لوضع اسس الوحدة الاقتصادية بين البلدين ، كما توصلت لجنة الشئون العربية فى مجلس الأمة المصرى ، ولجنة الشئون الخارجية فى مجلس النواب السورى الى قرار بشأن قيام الوحدة بين البلدين تحقيقا لارادة الأمة العربية . والى جانب ذلك اجتمع مجلس القيادة فى الجيش السورى وتبنى الضباط الوحدويون والبعثيون طلب الوحدة . وعلى الطريق لتحقيق الوحدة بعث الرئيس السورى شكرى القوتلى برسالة الى الرئيس عبد الناصر يطلب فيها باسم الشعب السورى الاسراع فى تنفيذ الوحدة الاندماجية بين الشعبين المصرى والسورى ، كما قرر مجلس الوزراء السورى ايفاد صلاح الدين البيطار على رأس وفد الى القاهرة لاجراء المباحثات مع الحكومة المصرية حول تحقيق الوحدة .

وقد استقبل الرئيس عبد الناصر هذا الوفد واستمرت المباحثات والمراسلات بين القاهرة ودمشق حول ذلك الموضوع كما حضر الرئيس القوتلى الى القاهرة لبحث كافة التفاصيل الخاصة بموضوع الوحدة . ومع أن عبد الناصر كان يرى عدم الاسراع فى قيام وحدة اندماجية بين البلدين ،

فانه وافق فى نهاية الامر على قيام الوحدة متخليا بذلك عن كل الدراسات التى أشارت الى التريث فى الأمر وان كان قد وضع شروطا لقيام الـوحدة اهمهـا :

١ — حل الاحزاب السياسية القائمة فى سورية اسوة بالأوضاع القائمة فى مصر .

٢ — ابتعاد ضباط الجيش عن الاشتغال بالسياسة أو ممارستها .

وفى الثامن والعشرين من يناير ١٩٥٨ اعلن الرئيس القوتلى فى دمشق « انه ليسعدنى ان احقق رسالة العرب القومية فاسلم الأمانة الغاليـة يدا بيد الى الرئيس جمال عبد الناصر الشاب المتلىء عروبة وحماسـة واخلاصا للامة العربية » .

وفى الحادى والثلاثين من يناير ١٩٥٨ اجتمع مجلس الوزراء المصرى والسورى فى القاهرة لاتمام موضوع الوحدة ، وفى الاول من فبراير ١٩٥٨ أعلن عن قيام الجمهورية العربية المتحدة كخطوة اولى نحو تحقيق الوحدة العربية الشاملة ، وفى الثانى والعشرين من فبراير وافق مجلس الأمة المصرى ومجلس النواب السورى على قيام الجمهورية العـربية المتحـدة كـدولة ديمقراطية مستقلة ذات سيادة تتكون من اقليمين هما سورية ومصر على أن يكون لها علم واحد ، ويتولى السلطة التنفيذية فيها رئيس الجمهـورية يعاونه وزراء يكونون مسئولين امامه كما يتولى السلطة التشريعية مجلس تشريعى واحد يطلق عليه مجلس الأمة وان تكون القاهرة هى العاصمة .

وبعد أن تم الاستفتاء على الوحدة القى الرئيس شكرى القوتلى بيانا أعلن فيه ترشيح جمال عبد الناصر رئيسا للجمهورية العربية المتحدة ، وصدق مجلس النواب السورى على ذلك الترشيح بالاجماع .

ولقد كان لخبر اعلان الوحدة وقيام الجمهورية العربية المتحدة صدى كبير فى الأوساط العربية والعالمية بين مؤيد ومعارض ففى حين ابتهجت شعوب الأمة العربية بهذا الاعلان واعتبرته الطريق الى الوحدة العـربية الشاملة انزعجت العناصر الرجعية داخل العالم العربى من هذه الخطوة

واعتبرتها بداية الطريق للقضاء على نفوذها وامتيازاتها واستعانت بالدول الاستعمارية من أجل القضاء على هذه الدولة الناشئة ، والى جانب ذلك رأت اسرائيل فى قيام هذه الوحدة عائقا قويا أمام اهدافها التوسعية .

وعلى اى حال فقد كان قيام الجمهورية العربية المتحدة بداية لتكوين كيان اقتصادى وسياسى وعسكرى قوى زاد من شعور العرب بعـزتهم وكرامتهم ونجح فى احكام طوق الحصار على اسرائيل .

ونتيجة للحماس العربى المتزايد الذى صاحب قيام الوحدة تقـدمت اليمن تطلب الانضمام الى الوحدة الجديدة فى أمور التمثيل السياسى والدفاع والصحة والتعليم وتم توقيع ميثاق الاتحاد بين الطرفين فى الثامن من مارس ١٩٥٨ على اساس قيام اتحاد كونفدرالى[٦٩] وعلى أن تكون رئاسة مجلس الاتحاد سنوية بالتناوب بين الدول الاعضاء .

والجدير بالذكر ان الوحدة الاندماجية بين مصر وسورية لم تعمر طويلا للاسباب الآتية :

١ — تربص الاستعمار والصهيونية بهذه الدولة الناشئة ومحاولاتها الايقاع بها .

٢ — ان هذه الدولة كانت تفتقد الى الوحدة الجغرافية فمصر وسورية لا يربط بينهما حدود برية مباشرة مما دعم عوامل الانفصال وجعل الاتصال بينهما غير كامل .

٣ — الاستعجال فى تحقيق خطوات الوحدة ، قد اوقعها فى العديد من الثغرات والاخطاء .

ونتيجة لذلك وقع الانفصال فى الثامن والعشرين من سبتمبر ١٩٦١ .

٧ — حرب الخامس من يونيو ١٩٦٧ :

قبل يونيو ١٩٦٧ كان العرب لا يعرفون اسرائيل بالقدر الذى كانت تعرفهم به مما ادى الى نجاح الصهاينة فى تحقيق انتصار على العرب أكبر

مما كانوا يستحقون وجعل الأمة العربية تصاب بهزيمة فادحة اكبر من كل التوقعات .

حقيقة لقد كانت الفجوة واسعة بين الجيوش العربية التى كان قادتها يتخذون من وظائفهم طريقا للحياة السياسية والجيش الاسرائيلى الذى كان يطبق مبادىء الحرب الحديثة وحقيقة كانت الخلافات على اشدها بين القادة العرب كما ان توقيت ما حدث كان غير موات للدخول فى مغامرة غير مأمونة العواقب سواء على الجوانب العسكرية او السياسية خصوصا وان القوات المصرية كانت فى معظمها مشغولة فى حرب اليمن التـى استنـزفت معظم قدراتها ، وان المواقف المتناقضة بين القيادتين المصرية والأمريكيـة كانت واضحة ومع كل ذلك فان ما حدث كان مفاجأة مذهلة للانسان العربى الذى تم شحنه بالشعارات المثيرة والزائفة ثم وجد نفسه فجأة امام افـدح هزيمة عسكرية حطمت آماله والتهمت رجاله ومعداته .

وطبقا لسيناريو الأحداث نذكر ان مصر طبقا لاتفاقية الدفاع المشترك هبت لمساندة سورية ضد الحشود الاسرائيلية على حدودها وفى مواجهة الصيحات التى كانت تتهددها بالغزو على لسان ليفى اشكول رئيس وزراء اسرائيل وبعض قادته العسكريين فأعلنت حالة الاستعداد القصوى للقتال فى السادس عشر من مايو ١٩٦٧ وبدأت القوات المصرية تتجمع فى سيناء استعدادا لخوض المعركة ضد اسرائيل اذا تعرضت سورية لأى عدوان ، كما كلفت القيادة السياسية فى مصر الفريق أول محمد فوزى رئيس أركان حرب القوات المسلحة — فى ذلك الوقت — بارسال خطاب الى الجنرال الهندى (ريكى) قائد قوات الطوارىء الدولية — التى كانت موجودة فى سيناء لتكون فاصلا بين مصر واسرائيل منذ خروج القوات الاسرائيلية من سيناء بعد عدوان ١٩٥٦ — بسحب هذه القوات وانهاء وجـودها على الأراضى المصرية . وبعد اتصالات تمت بين مصر والمستر يوثانت السكرتير العام للامم المتحدة اجيبت مصر الى طلبها وبدأ الجنرال (ريكى) فى سحب قواته ، وتسلمت القوات المصرية مواقعها فى منطقة شرم الشيخ المطلـة على خليج العقبة وغيرها من المناطق .

ولم يتوقف تصعيد الموقف عند هذا الحد بل اعلنت الحكومة المصرية

فى الثالث والعشرين من مايو اغلاق خليج العقبة فى وجه الملاحة الاسرائيلية، وحظر مرور البضائع الاستراتيجية الى اسرائيل ولو كانت على بواخر غير اسرائيلية ، ومنع ناقلات البترول المتجهة الى ميناء ايلات على اختلاف جنسياتها ، وصدرت التعليمات المفصلة الى كل السفن والبواخر القادمة الى خليج العقبة باتباع القواعد التى تقررها السلطات المصرية حفاظا على سلامتها خاصة وان بعض المواقع داخل مياه مصر الاقليمية قد وضعت فيها الغام بحرية . ونتيجة لذلك تحول الصراع مع اسرائيل من قضية تهديد لسوريا وحشد القوات المصرية فى سيناء الى قضية اغلاق أحد الممرات البحرية فى وجه الملاحة الاسرائيلية ، واتخذ هذا النبأ مكان الصدارة فى صحف العالم مقترنا بحملة اعلامية مضادة ضد مصر وهيأ لاسرائيل الأسباب والمبررات التى استندت اليها فى اتخاذ قرار الحرب فقد اتهم رئيس وزرائها ليفى اشكول مصر بخرق القانون الدولى ، وأوضح أن اسرائيل لا تستطيع قبول هذا القرار ، وانها سوف تحارب دفاعا عن كيانها وبالفعل تشكلت وزارة حرب فى اسرائيل عين فيها « موشى ديان » وزيرا للدفاع ، كما أعلنت التعبئة العامة فى اسرائيل وتم استدعاء المتطوعين اليهود فى الولايات المتحدة وأوربا للمشاركة فى التعبئة .

وقد ردت مصر على ذلك بأنها على استعداد للحرب ومواجهة اسرائيل، وانها سوف تضرب بكل قوة أى حركة عدوانية فى أى اتجاه ، وفى أى ميدان ، كما بدأت أجهزة الاعلام المصرية تدق طبول الحرب وتواصل الهاب مشاعر الجماهير معلنة أن مصر ستدمر اسرائيل لو بدأت بالعدوان .

وفى محاولة للحد من تدهور الموقف ، وحتى لا تصبح الحرب أمرا لا مفر منه قام سكرتير عام الأمم المتحدة بزيارة لمصر فى الرابع والعشرين من مايو وقابل الرئيس عبد الناصر كما قابل محمود رياض وزير الخارجية بقصد البحث عن طريق للسلام ، ولكنه لم يوفق فى مساعيه .

وفى الثانى من يونيو عقد الرئيس عبد الناصر اجتماعا بمكتب المشير عامر بالقيادة العليا للقوات المسلحة بمدينة نصر حضره كبار قادة القوات المسلحة وبعض السياسيين وخلال ذلك تم استعراض الموقف السياسى والعسكرى وتوقع عبد الناصر قيام الحرب مع اسرائيل بنسبة مائة فى المائة

وأوضح أن اسرائيل ستبدأ بالهجوم خلال يومين او ثلاثة اى فى الرابع او الخامس من يونيو ، وانها ستبدأ هجومها بضربة جوية مفاجئة بهدف شل قدرات قوات الطيران المصرى ودفاعات مصر الجوية ، واوضح انه لاعتبارات سياسية يتحتم على مصر أن تترك المبادأة للعدو ، وتستعد لتلقى الضربة الجوية ، واتخاذ ما يلزم لتقليل خسائرها حتى يمكن بعد ذلك توجيه ضربة جوية رادعة ضد اسرائيل . وعلى الرغم من ذلك لم يأخذ القادة العسكريون توقعات عبد الناصر مأخذ الجد وفى ضربة مباغتة قامت القوات الجــوية الاسرائيلية بغارات مكثفة على المطارات المصرية فى الخامس من يونيو ١٩٦٧ نجحت خلالها فى تدمير معظم الطائرات المصرية وهى جاثمة على الأرض ، وفى أعقاب ذلك اصيبت جبهة القتال فى سيناء بانهيار شامل ، ودبت حالة من الفوضى العارمة بين القوات نتيجة لصدور اوامر من المشير عبد الحكيم عامر فى السادس من يونيو ١٩٦٧ بالانسحاب دون وضع خطة تكتيكيــة منظمة له فانسحب الجيش المصرى من سيناء انسحابا باهظ الثمن فظيعا فى منظره ونتائجه وآثاره بل كان عبارة عن مجزرة بشرية رهيبة خاصــة وان الأمر بالانسحاب السريع لجيش كبير انتشر فى الصحراء ، واتخذ مواقعه بمعداته الثقيلة تحت وابل من نيران العدو يعد بمثابة قرار اهــوج غير مدروس مما أدى الى تحول الجيش النظامى الى شراذم مبعثرة لا هدف لها سوى النجاة بأنفسها دون أية محاولة للصمود امام العدو ، تاركة اسلحتها ومعداتها غنيمة للقوات الاسرائيلية دون اطلاق طلقة واحدة والى سيطرة العدو على قطاع غزة والزحف على سيناء والوصول الى الضفة الشرقية من قناة السويس .

وعلى جانب الجبهات العربية تمكنت القوات الاسرائيلية من الاستيلاء على هضبة الجولان السورية ، والسيطرة على مدينة القدس العــربية والضفة الغربية لنهر الأردن ونتيجة لالحاح من مصر ، ومحاولات مستميته من الدول الصديقة للعرب تم دعوة مجلس الأمن لعقد دورة استثنائية عاجلة بحث خلالها الموقف وصدر القرار رقم ٢٣٤ فى السابع من يونيو الذى يطالب بالوقف الفورى لاطلاق النار .

وفى أعقاب ذلك ووسط شماتة الاعداء وذهول الاصدقاء لما حــدث سعى مجلس الأمن لايجاد حل جذرى للمشكلة . وبعد مشاورات ومداولات

وخلافات بين اعضاء المجلس تمكن المجلس فى نهاية الأمر من اصداره قراره رقم ٢٤٢ فى الثانى والعشرين من نوفمبر ١٩٦٧ والذى يقضى بانسحاب اسرائيل من الأراضى التى احتلت وانهاء حالة الحرب بين دول المنطقة واحترام السيادة الاقليمية والاستقلال السياسى لكل دول المنطقة ، وحقها فى العيش بسلام ضمن حدود آمنة ومعترف بها ، كما نص القرار على ضمان حرية الملاحة فى الممرات الدولية وتسوية مشكلة اللاجئين وان يقوم الأمين العام للامم المتحدة بتعيين ممثل خاص له للذهاب الى الشرق الاوسط لاقامة اتصالات مع الدول المعنية بهدف الوصول الى اتفاق ومساعدة الجهود لتحقيق تسوية عملية ومقبولة على اساس النصوص والمبادىء التى تضمنها القرار (٧٠) ولتحقيق ذلك تم تعيين الدكتور جونار يارنج سفير السويد فى موسكو ممثلا خاصا للسكرتير العام للقيام بالاتصالات المناسبة فى محاولة لتسوية المشكلة غير ان جهوده لم تكلل بالنجاح وتوقفت مهمته نتيجة لرفض اسرائيل التعهد بالانسحاب من الأراضى العربية التى احتلتها واعلانها عن رغبتها فى الاحتفاظ ببعض هذه الأراضى تحت دعوى الحدود الآمنة لها (٧١) .

والسؤال المطروح لماذا تصر اسرائيل على عدم تطبيق القرار ، وتجد بعض الآذان الصاغية فى المجتمع الدولى تساندها ؟

الواقع ان القرار ٢٤٢ حمل بين طياته بعض عناصر الابهام واختلفت فيه الآراء مما جعل اسرائيل تستغل ذلك الى ابعد الحدود فاسرائيل ترى ان القرار ربط تعليق الانسحاب من الأراضى العربية بتحقيق ما يكفل لها حدودا آمنة خلافا لوضعية الأراضى العربية التى تم احتلالها فى عام ١٩٦٧، وان القرار يطالبها بالانسحاب من ارض عربية وليس كل الأراضى المحتلة مستندة فى ذلك الى النص الانجليزى للقرار الذى يقول :

With drawal of Israli armed Forces Form territories occupied in the recent Conflict .

وترجمته انسحاب القوات الاسرائيلية من اراضى احتلت فى القتال الاخير . فى حين تصر الأطراف العربية على أن القرار يعنى استرداد كل الأراضى التى تم احتلالها فى عام ١٩٦٧ .

وعن موقف المجتمع الدولى من القرار فانه يربط استرداد الأراضى العربية باقامة سلام دائم مع اسرائيل يكفل وجودها ، اما ما يتردد حول هل ينبغى اعادة كل او بعض الأراضى المحتلة ففى تصورنا أن اغتصاب أراضى الغير بالقوة يتنافى مع ميثاق الأمم المتحدة ، كما يتنافى مع كل الأعراف الدولية ويكفى لدحض هذا الادعاء أن نذكر ما ورد فى مقدمة القرار من أن مجلس الأمن يؤكد عدم جواز الاستيلاء على أراضى الغير عن طريق الحرب، كما أن نصوص اللغات غير الانجليزية التى حرر بها القرار تؤكد أن الانسحاب يشمل جميع الاراضى .

وهكذا تسببت حرب يونيو ١٩٦٧ فى مهانة للامة العربية لا نزال نتجرع من كأسها ، وتحصد ما جنته أيدى قادتها الذين لم يقدروا عواقب تسرعهم وانفعالاتهم وخططهم غير المدروسة وحتى تكون الاستفادة مما حدث نبراسا للاجيال الحاضرة يمكننا ان نرجع أسباب الهزيمة فيما يلى .

١ — ان الأمة العربية خاضت المعركة من خلال واقع الصراعات والتجزئة التى كانت تفرق بين قادتها وتبدد قواها وتهدد طاقتها فلم تكن هناك جبهة عربية موحدة ، ولم تستغل امكانات العرب العسكرية جميعها فكانت معظم القوات المصرية منهكة القوى فى حرب اليمن ولم تكن هناك خطة عسكرية متكاملة قابلة للتنفيذ على مستوى العالم العربى بحيث تستغل الامكانات العربية سواء اكانت عسكرية او اعلامية أو جغرافية أو اقتصادية بطريقة سليمة .

٢ — أن العرب كانوا يواجهون عدوا يعرف عنهم اكثر مما يعرفونه عنه ، وانه تلقى امدادات عسكرية وتكنولوجية تفوق قدراتهم وان هذا العدو تصرف فيما حصل عليه من امكانات ببراعة ومقدرة فائقة ، والى جانب ذلك فان هذا العدو اختار أن يفاجئنا بالتحدى فى ظروف غير مواتية للامة العربية من الناحيتين السياسية والعسكرية واستطاع استدراج قادتنا الى مصيدة يونيو وان يحشد كل الأوراق بين يديه لينزل بنا ضربة عسكرية قاسية ، وليفرض على قواتنا خوض معركة غير متكافئة .

ونتيجة لما حدث ، وعلى الرغم من محاولات الجانب المنتصر املاء شروطه وبث روح القنوط واليأس فى الجانب العربى ، وبالرغم من مشاعر

الآلم التى انتابت الشعب المصرى ، وانفترة حالكة السواد التى عاشـتها مصر فى اعتاب الحرب فقد فشلت كل محاولات الاحباط فى التسرب الـى نفوس المصريين ، فرفض الانسان المصرى الهزيمة واصر على الصـمود والنضال من اجل استرداد الحق المسلوب ، واعادة الكرامة التى اهدرت ، وكانت مشاعر الألم التى انتابته بمثابة الوقود الذى دفعه للعمل من اجل محو العار الذى الم بالأمة فدخل الى القوات المسلحة ما يزيد عن مليونى شاب دربوا على السلاح وتعرضوا لتجارب الحياة القاسية فى الصـحراء وصهرتهم التدريبات الشاقة واثقين ان ما اخذ بالقوة لا يسترد الا بالقوة مما مهد لقيام حرب اكتوبر ١٩٧٣ .

٨ — حرب اكتوبر ١٩٧٣ :

كان أول درس من دروس هزيمة حرب ١٩٦٧ هـو ضرورة تجنب المفاجأة والتعرف على العدو بشكل اوضح ، والاصرار عـلى الصـمود والنضال لاسترداد الحق بالقوة فما أن انتهت المعركة حتى راحت الدول العربية تكثف جهودها السياسية والدبلوماسية واسعة النطـاق لـرفض الهزيمة وايجاد تسوية مقبولة للنزاع وفى نفس الوقت بدات دول المواجهة مع اسرائيل تعيد بناء قواتها المسلحة بكل اصرار وعزيمة فجرت عملية بناء القوات المسلحة بكفاءة هائلة انتظارا ليوم الحسم وبمفهوم جديد يتناسب مع المهام المنتظرة ونتيجة للتعنت الاسرائيلى ورغبته فى فرض الأمر الواقع بكل ما يحمله من اجحاف تحطمت شتى جهود التسوية السلمية ففشـلت جهود جونار يارنج فى ايجاد حل سلمى للازمة ، كما لم يسـتطع مشروع السلام الذى قدمه الاتحاد السوفيتى فى يناير ١٩٦٩ اقناع اسرائيل بتسوية النزاع بالطرق السلمية . ونتيجة لاصرار العدو على فرض شروطه عـلى العرب فى اطار مفاوضات مباشرة معهم رات مصر تحريك جمود الموقف بشن حرب استنزاف مع اسرائيل فيما بين سبتمبر ١٩٦٨ ويوليو ١٩٧٠ ، وقـد استطاعت القوات المصرية أن تشن هذه الحرب عبر قناة السويس بنجاح فوجهت ضربات مستمرة فى اماكن متفرقة على خط المواجهة لدرجة ارتفعت فيها خسائر اسرائيل من الأفراد والمعدات بشكل ملحوظ ، كما صـدقت القيادة السياسية على البدء فى الخطة المعروفة لدى العسكرين جرانيت رقم (١) وهى الخطة التى تم رسمها لعبور القوات المصرية للقناة على خمسة

محاور [٧٢] وفى مواجهة هذا الموقف بدأ العدو فى تركيز نشاطه الجوى على العمق حتى مشارف القاهرة بهدف تحطيم الجبهة الداخلية .

ونتيجة لتصاعد الموقف تقدم المستر روجرز وزير الخارجية الامريكى بمبادرة فى الخامس من يونيو ١٩٧٠ بهدف ايقاف حرب الاستنزاف والبحث عن حلول جديدة للسلام فنصت المبادرة على نقطتين هما الانسحاب ووقف اطلاق النار لمدة تسعين يوما يجرى فيها وسيط الأمم المتحدة المفاوضات بين الاطراف المعنية من أجل تسوية المشكلة ، وعلى الرغم من قبول عبد الناصر للمبادرة ، فان جهود روجرز تحطمت أمام الضغوط الاسرائيلية، وبدأت حالة اللا سلم واللا حرب تسود المنطقة .

وبعد وفاة عبد الناصر وتولى انور السادات رئاسة الجمهورية بدأ التفكير فى تحريك القضية سلميا بمبادرة تقوم بها مصر فاعلن الرئيس السادات فى الرابع من فبراير ١٩٧١ انه على استعداد لفتح قناة السويس للملاحة العالمية مقابل انسحاب جزئى للقوات الاسرائيلية كمرحلة أولى من الانسحاب الكامل تبدأ مصر خلالها فى تطهير القناة واعادتها للملاحة [٧٣] .

وعلى الرغم من ترحيب العالم بهذه الفكرة فقد رفضتها اسرائيل واعلنت عن تمسكها بالأراضى المحتلة ، ورغبتها فى أن يكون الاتفاق على اعادة فتح قناة السويس منفصلا عن موضوع الصراع العربى الاسرائيلى .

وفى حين استمرت مصر فى جهودها لتحقيق سلام عادل فى المنطقة عن طريق مطالبة المجتمع الدولى بتحمل مسئولياته عزمت اسرائيل على فرض سياسة الأمر الواقع والتلويح باليد العليا وذراع الردع الطويلة مما جعل القيادة المصرية تتيقن صحة المبدأ القائل « ما اخذ بالقوة لا يسترد الا بالقوة » وأن جمود الموقف لا يكسره الا استخدام السلاح لتحرير الأراضى وتحقيق السلام العادل المنشود [٧٤] . ومن أجل ذلك اعدت مصر خططها المنشودة للحرب فاستمرت القوات المسلحة المصرية فى تدريباتها الشاقة العنيفة فى ظروف بالغة الصعوبة والتعقيد خاصة وان اسرائيل كانت تمارس كافة ضغوط الارهاب النفسى ضدها وتحاول التشكيك فى قدرات مصر

وامكاناتها لدفعها الى التخلى عن واجبها الوطنى ، والى جانب ذلك كانت القوات الاسرائيلية لا تزال تتمتع بميزة التفوق الجوى وتتزود بأحدث اسلحة الحرب الالكترونية يضاف الى ذلك أن وجود خط بارليف والساتر الترابى كان يشير الى صعوبة مهمة المقاتل المصرى .

وعلى الرغم من كل ذلك فقد إقتنع افراد القوات المسلحة المصرية بأن القتال ضرورة حتمية لاسترداد الحقوق المغتصبة واسترجاع الأرض المحتلة ، ومحو عار الهزيمة وان ذلك لا يتأتى الا بالتركيز على واقعية التدريب ، واستيعاب السلاح ورفع قدرة المقاتلين للسيطرة الكاملة عليه والى جانب ذلك بدات القيادة المصرية فى اعداد الجبهة الداخلية لتقبل التضحيات ، وحماية الخطوط الخلفية للقوات المسلحة وحتى يمكن تهيئة الرأى العام العالمى التى تأثرت رؤيته للصراع بحرب يونيو ١٩٦٧ قامت القيادة السياسية بتكثيف جهودها خصوصا بعد أن تأثرت القضية بتطور علاقات التفاهم بين القوى العظمى بعد زيارة الرئيس الأمريكى نيكسون للصين والاتحاد السوفيتى فى عام ١٩٧٢ وما أسفر عنهما من رغبة فى استرخاء الموقف العسكرى فى منطقة الشرق الأوسط والتهوين من شأن العرب ، ووضع قضاياهم على الرف (٧٥) .

وبعد أن تكاملت صورة الموقف ، وبذلت كافة الجهود السياسية والعسكرية بدات القيادة المصرية بالاشتراك مع القيادة السورية فى اعداد خطط الهجوم لتحرير الأرض فى اطار من السرية المطلقة ، وقد صاحب ذلك العمل خداع استراتيجى وتعبوى شاركت فيه كافة الجهات صاحبة الاختصاص وفى اعقاب ذلك تم دراسة عملية اختيار التوقيت المناسب لتحديد ساعة الصفر بالنسبة للجبهتين المصرية والسورية معا وفى اجتماع تم بالاسكندرية فى اغسطس ١٩٧٣ اختير «يوم كيبور » اى يوم الغفران او التكفير عند اليهود وكان يوافق السادس من اكتوبر موعدا لعبور القناة وتحرير الأرض العربية . ويرجع اختيار هذا اليوم بالذات الى انه اليوم الذى تصاب فيه الحياة فى اسرائيل بشلل شبه تام ، كما انه فى نفس الوقت يوافق العاشر من رمضان ذلك الشهر صاحب التأثير المعنوى القوى على المسلمين .

فضلا عما يمكن تحقيقه من مفاجأة حيث يصوم فيه المسلمون ولا يتوقع العدو فيه قيام القوات المصرية بالهجوم عليه وزيادة فى خداع العدو حتى تكتمل المفاجأة اختير قلب النهار وفى وضحه بداية للعبور وليس كما هـو متبع فى الحروب اول ضوء فى الشروق أو آخـر ضوء فى الغروب فتحددت الساعة الثانية وخمس دقائق بعد الظهر كسـاعة للصـفر حيث انطلقت الشرارة وبدأت خطة « بدر » حسب تعبير العسكريين [٧٦] ، وكانت المفاجأة للعدو فى الجو والبر والبحر فقامت مائتا طائرة على ارتفاع منخفض جـدا بالضربة الأولى على جميع مواقع ومطارات العدو المؤثرة فى سيناء ، ومائة طائرة بالضربة الأولى على الجبهة السورية ، وقامت المدفعية تهدر بطلقاتها المتلاحقة على امتداد الجبهة للتمهيد للعبور ثم بدأ الهجوم الأول بنزول اطقم اقتناص الدبابات الى الماء وصرخة الايمان المدوية « الله اكبر » تهز الأجواء ثم اخذت باقى القوات المصرية تنزل الى قوارب المطاط وغيرها وتعبر الى سيناء تحت ساتر من النيران ، ولم تنجح مقاومة العدو من نقاطها الحصينة بخط بارليف فى صد الهجوم بل اذهلتها المفاجأة ، واخذت القوات المصرية تواصل اقتحامها للنقط الحصينة للعدو بالمدافع الرشاشة والقنابل اليدوية وتحررها وتقوم برفع الاعلام المصرية عليها وخلال ذلك تمكن سلاح المهندسين من بناء الجسور التى عبرت عليها الدبابات خصوصا فى قطاع الجيش الثانى، وتحركت القوات البحرية لضرب الاهداف البحرية الاسرائيلية على شواطىء البحرين المتوسط والأحمر ، وبدأت القوات المصرية فى تعميق وتوسيع وضم رؤوس الكبارى حتى تزايد عدد الجنود العابرين للقناة الى اكثر من خمسين الف مقاتل . وقد نجحت مظلة صواريخ الدفاع الجوى فى صد هجمات العدو الجوية ، كما فشلت هجمات العدو المضادة لوقف زحف القوات المصرية [٧٧] مما افقد العدو المتغطرس توازنه ، وزاد من ارباكه واعاد للامة الجريحة شرفها بعد أن سيطرت القوات المصرية على الجانب الشرقى للقناة ونجحت فى عبور سيناء .

وبعد التقاط العدو لانفاسه بدأ فى هجومه المضاد واسرع فى طلب النجدة من يهود أوربا والولايات المتحدة وبدأت اسرائيل تجد نفسها ولأول مـرة تخوض حربا دفاعية ضد القوات المصرية على طول جبهات القتال .

وخلال ذلك ازداد تماسك الجبهة الداخلية فى مصر واستمرت فى العمل لزيادة الانتاج واستعدت لتقبل التضحيات مما كان له اكبر الاثر على حفز طاقات المقاتلين ، كما كان لوحدة الصف والتآزر بين الدول العربية الذى تجلى فى أروع صورة خلال المعركة اكبر الاثر فى تمكن الأمة العـربية من اثبات ذاتيتها أمام العالم . فقد هبت الأمة العربية للمساهمة فى المعـركة بجنودها وسلاحها ودعمها ، كما استخدم العرب سلاح البترول بفعالية لأول مرة مما نقل القضية من الجمود الى الحركة السريعة ، وجعل العرب يستردون ثقتهم فى أنفسهم ويستعيدون كبرياءهم وخلال ذلك عقد مجلس الأمن دورة طارئة فى الثامن من اكتوبر لمناقشة الموقف ، وبعد مداولات طويلة ومعقدة توصل المجلس الى اصدار القرار رقم ٣٣٨ فى الثانى والعشرين من اكتوبر ١٩٧٣ والذى تضمن وقف القتال ودعوة الأطراف المعنية الى بـدء المفاوضات فورا بهدف اقامة سلام عادل ودائم فى الشرق الأوسط .

وفى محاولة من اسرائيل للتقليل من شأن ما حدث حاولت قواتهـا التسلل لاحتلال بعض المواقع المصرية غرب القناة والاقتـراب من مدينـة الاسماعيلية وقد تمكنت القوات المصرية من ايقاف تقدم العدو كما تمكنت بالتعاون مع عناصر الدفاع الشعبى وقوات الشرطة والأهالى من حصر قوات العدو فى قطاع ضيق ملاصق للقناة شمال البحيرات المرة وفى مناطق الاشجار والأحواش .

والى جانب ذلك قامت قوات العدو فى الثالث والعشرين من اكتوبر بخرق اتفاقية وقف اطلاق النار ودفع جماعات صغيرة من الدبابات والمشاه الميكانيكية عبر المسالك الجبلية والمدقات وحاولت اقتحام مدينة السـويس والاستيلاء عليها ، وعلى الرغم من توغل دباباتهم الى قلب المدينة فقد كانت المقاومة ضدها عنيفة جدا حيث تكاتف شعب السويس بكل طوائفه وطبقاته ومختلف اعماره مع قواته المسلحة فى الذود عن حياض المدينة ببسالة منقطعة النظير ، وكبد العدو خسائر فادحة مما اضطره الى التراجع [٧٨] وجعل وضعه فى غرب القناة بمثابة رهينة فى قبضة القوات المصرية ثم جاء اتفاق

الفصل بين القوات ، وانتهت عملية الثغرة التى اطلق عليها اغلب المحللين انها لم تكن انجازا عسكريا بقدر ما كانت عملا اعلاميا يشـبه الـدعاية التلفزيونية .

وفى النهاية يمكن القول ان الانجاز الضخم الذى حققته القوات المسلحة المصرية باجتيازها أصعب مانع مائى وتحطيمها لخط بارليف لسوف تظل على امتداد الاجيال القادمة موضع فخر واعتزاز وتقدير لانها عكست وبحق ارادة وتصميم المقاتل المصرى ، واثبتت قدرته على استخدام الأسلحة الحديثة بمقدرة ومهارة هذا الى جانب ان حرب اكتوبر ١٩٧٣ اثبتت فشل نظـرية الأمن الاسرائيلى ، واسطورة اسرائيل التى لا تقهر وجعلت الاسرائيلـيين يدركون أن الحدود الآمنة قد لا تضمن بالضرورة امنهم ، كما اظهرت للعرب أن التنسيق فى المواقف بينهم يمكنهم من تحقيق اهدافهم وان قوتهم الذاتية هى الضمان الوحيد لاسترداد حقوقهم فقد تمكنوا من قلب الموازين العالمية راسا على عقب بعد توقفهم عن تصدير البترول ، فتفجرت مشكلة الطاقـة وانقلبت أحوال سوق المـال العالمية وشغل العرب مكانهم تحت الشمس . ونتيجة لذلك نشطت فعاليات هيئة الأمم المتحدة بعد حرب أكتوبر فدعت الأطراف المعنية الى حضور مؤتمر دولى بمشاركة الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى ، وقد اختيرت مدينة جنيف السويسرية كمقر لانعقاد المؤتمر . وخلال ذلك اعربت مصر عن استعدادها لتنفيذ كل الالتزامات المترتبة على قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ . هذا وقد تم الاتفاق بين مصر واسرائيل فى الثامن عشر من ينايـر ١٩٧٤ على فك الاشـتباك بين القـوات المصرية والاسرائيلية فى سيناء باعتباره خطوة أولى نحو التسوية الشاملة ، ثم عادت الدولتان وابرمتا اتفاقية فك اشتباك ثانية فى اول سبتمبر ١٩٧٥ باعتباره خطوة جديدة لاقامة سلام دائم فى المنطقة .

ونتيجة لاختلاف وجهات نظر بعض الأطراف العربية حول السـلام وامكانيات مؤتمر جنيف على تحقيقه وانعدام الثقة المتبادلة بين اطـراف الصراع فى المنطقة قام الرئيس السادات بزيارة القدس فى التاسع عشر

من نوفمبر ١٩٧٧ بهدف تحريك مساعى السلام واثبات رغبة مصر فى تحقيقه امام اراى العام العالمى . وفى غضون ذلك استمرت الجهود الدولية من اجل تنشيط عملية السلام ، وبدات الولايات المتحدة فى ممارسة ضغوطها على الطرفين لتحقيق نتائج ايجابية حتى انعقد مؤتمر « كامب ديفيد » فى سبتمبر ١٩٧٨ وصدر عنه وثيقتان سميت الأولى « اطار السلام فى الشرق الأوسط » وسميت الثانية « اطار لابرام معاهدة سلام بين مصر واسرائيل » مما آثار ردود فعل واسعة النطاق ، وبدات منطقة الشرق الأوسط تـدخل فى منعطف جديد .

مراجع الفصــل الثامن

(١) احمد فريد على : العلاقات المصرية الانجليزية وأثرها فى تطــور الحركة الوطنية فى مصر ١٤ — ١٩٥٢ ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، ص ٧٣١ .

(٢) سيد مرعى : أوراق سياسية ، جـ ١ ، القاهرة — المكتب المصرى الحديث ص ٢٠١ — ٢٠٢ .

(٣) محمد نجيب : كلمتى للتاريخ ، القاهرة — دار الكتاب النموذجى ١٩٧٥ ص ٤٦ .

(٤) عبد اللطيف البغدادى : مذكرات عبد اللطيف البغدادى ، جـ ١ ، القاهرة ، المكتب المصرى الحديث ص ٦١ .

(٥) الجمهورية ، العدد ١٩١ فى الجمعة ١٨ يونية ١٩٥٤ .

(٦) الحكومة المصرية ، أمر ملكى رقم ٤٢ لسنة ١٩٢٣ بوضع نظــام دستورى للدولة المصرية ، القاهرة — المطبعة الأميرية ١٩٢٣ ص ٧ .

(٧) نفسه ، المادة ٥٠ ص ٧ .

(٨) دار الوثائق : محاضر جلسة لجنة الدستور . الدستور المصرى وقانون الانتخاب فى ٢٢ أكتوبر ١٩٣٠ (المادة ٥٢) .

(٩) محمد نجيب : كلمتى للتاريخ ص ٦٤ .

(١٠) عبد اللطيف البغدادى : المذكرات السابقة ص ٦٥ .

(١١) روز اليوسف العدد ١٢٨٠ فى ١٩٥٢/١٢/٢٢ تحت عنــوان « طه حسين يتكلم : لماذا ادعو الى الجمهورية — لقد سئمت النفاق » .

(١٢) روز اليوسف : العدد السابق حديث للصحفى سامى داود مع الدكتور طه حسين .

(١٣) محمد نجيب : المرجع السابق ص ٢٢ .

(١٤) مصلحة الاستعلامات : مجموعة خطب وتصريحات وبيانات الرئيس جمال عبد الناصر ، القسم الثالث فبراير ١٩٦٠ — يناير ١٩٦٢ خطاب فى الاجتماع الأول للجنة التحضيرية للمؤتمر الوطنى بتاريخ ٢٥ نوفمبر ســنة ١٩٦١ ص ٥٧٥ .

(١٥) نفســـه .

(١٦) عبد الناصر وأزمة مارس ١٩٥٤ . القاهرة — روز اليوســـف ص ١٢ .

(١٧) طعيمة الجرف : القانون الدستورى ومبادىء النظام الدستورى فى الجمهورية العربية المتحدة ، القاهرة ص ٨٨ .

(١٨) عن هذه الاسماء انظر عبد الرحمن الرافعى : ثورة ٢٣ يوليـــو ١٩٥٢ ، القاهرة — النهضة المصرية ، الطبعة الاولى ص ٦٦ — ٦٧ .

(١٩) هؤلاء الاعضاء هم : عبد الرازق الســـنهورى — عبد الرحمن الرافعى — مكرم عبيد — السيد صبرى — عثمان خليل عثمان .

(٢٠) الرافعى : المرجع السابق ص ٦٧ .

(٢١) مصلحة الاستعلامات ، مجموعة خطب وتصريحـــات وبيانـــات الرئيس جمال عبد الناصر — القسم الأول ٢٣ يوليو ١٩٥٢ — يناير ١٩٥٨ ص ٣١ — ٣٢ .

(٢٢) النظارات والوزارات المصرية ، جـ ١ ، ص ٥٣٧ .

(٢٣) الرافعى : المرجع السابق ص ٨٧ .

(٢٤) الاخبار : العدد ٣١٣ فى الاحد ٢١ يونية ١٩٥٣ .

(٢٥) نفسه : تحت عنوان « كلمة اليوم » .

(٢٦) الجمهورية : العدد ١٩١ فى ١٨ يونية ١٩٥٤ .

(٢٧) الأخبار الجديدة : العدد ٣١٣ من السنة الثانية فى ١٩٥٣/٦/٢١ تحت عنوان « فرحة الشعب باعلان الجمهورية » .

(٢٨) نفسه تحت عنوان « نحو النور » .

(٢٩) نفسه : العدد ٣١٤ من السنة الثانية فى ٢٢ يونية ١٩٥٣ .

(٣٠) د. عبد العظيم رمضان : المرجع السابق ص ١٦٠ .

(٣١) أنور السادات : البحث عن الذات ، القاهرة — المكتب المصرى الحديث ، مايو ١٩٨٠ ص ١٣٩ .

(٣٢) سيد مرعى : المرجع السابق ، جـ ٢ ص ٢٧٦ .

(٣٣) عن هذه الازمة وتطوراتها انظـــر : د. عبد العظيم رمضـــان : عبد الناصر وازمة مارس ص ١٦٧ وما بعدها .

(٣٤) سيد مرعى : المرجع السابق ، جـ ٢ ص ٢٨١ — ٢٨٦ .

(٣٥) عبد اللطيف البغدادى : مذكرات عبد اللطيف البغدادى جـ ١ ، القاهرة : المكتب المصرى الحديث ص ١٢٧ .

(٣٦) الجمهورية ، العدد ١٩١ فى ١٨ يونيو ١٩٥٤ .

(٣٧) على الرغم من أن هذه المعاهدة انهت عهد الاحتلال البريطانى فى مصر فقـــد تمسك الجانب البريطانى فيها بالاشراف على قاعدة قنـــاة السويس ، والاحتفاظ بعدد من الفنيين للقيام بالأعمال الفنية بالقاعدة ، وعودة القوات البريطانية الى قناة السويس اذا ما تعرضت مصر أو احدى الدول الاعضاء فى جامعة الدول العربية المرتبطة بميثاق الضمان الجماعى فى ذلك الوقت لأى خطر خارجى .

(٣٨) الرافعى : ثورة ٢٣ يولية ١٩٥٢ تاريخنا القومى فى سبع سنوات ١٩٥٢ — ١٩٥٩ . القاهرة . النهضة المصرية ١٩٥٩ ص ٤٤٢ — ٤٤٣ .

(٣٩) سجل العرب للعلاقات الثقافية والاقتصادية ص ٩٤ — ٩٥ .

(٤٠) يرجع السبب الحقيقى فى ذلك اطراد نمو العلاقات بين مصر ودول الكتلة الشرقية منذ توقيع صفقة الاسلحة التشيكية فى عـــام ١٩٥٥ واعتراف مصر بحكومة الصين الشعبية وهو الأمر الذى اعتبرته الولايـــات المتحدة بمثابة صفعة قوية لها .

(٤١) محمد حسنين هيكل : ملفات السويس ، القاهرة ، مركز الاهرام للترجمة والنشر ، ١٩٨٦ ، ص ٤٦٤ — ٤٦٦ .

(٤٢) انظر خطاب الرئيس جمال عبد الناصر فى ٢٦ من يوليو ١٩٥٦ القاهرة ، ادارة الشئون العامة بوزارة التربية والتعليم ص ٦٠ .

(٤٣) كان معنى قرار التأميم متفاوتا عند الدول التى تاثرت مباشرة به وان كان مذاقه مريرا عندها جميعا .

(٤٤) هيكل : مرجع سابق ص ٤٦١ .

(٤٥) رفض ٦٠ مرشدا كانوا فى اجازات بالخارج العودة الى مصر من مجموع ٢٠٥ مرشدين ، وازداد ضغط الشركة وايعازها للمرشدين بترك العمل فى مصر ، فعرض رئيس الشركة جاك جورج بيكو مرتب ثلاث سنوات

مقدما لمن يرفض العمل من المرشدين تحت الادارة المصرية ، ثم هدد بفقدان المرشدين الباقين لمعاشهم احمد حمروش: قصة ثورة ٢٣ يوليو ج٢، مجتمع عبد الناصر بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٧٨ ص ٩٧ — ٩٨ .

(٤٦) وزارة الدفاع : حرب العدوان الثلاثى على مصر ج ١ ، القاهرة، هيئة البحوث العسكرية ، ص ٤٢ .

(٤٧) هيكل : مرجع سابق ص ٥٣٢ .

(٤٨) مع ان كل الشواهد كانت تؤكد أن بريطانيا كانت تبيت للعدوان على مصر فان عبد الناصر يذكر انه لم يعرف باشتراكها الا عند سماعه ازيز الطائرات البريطانية ، فصعد الى سطح منزله ليتأكد من ذلك بنفسه .

انظر : توفيق الحكيم : شجرة الحكم السياسى فى مصر ١٩١٩ — ١٩٧٩ ص ٣٧١ .

(٤٩) حمروش : مرجع سابق ج ٢ ص ٩٥ .

(٥٠) خلال الفترة من ١٢ الى ١٤ من اغسطس ١٩٥٦ بدات الطائرات والسفن الانجليزية والفرنسية تحمل قوات العدوان الى قبرص ومالطة كما امتد جسر من اسراب الطائرات المخصصة لحلف شمال الأطلنطى تعمل ليل نهار من بريطانيا الى شرقى البحر المتوسط ، ودهنت الدبابات بلون أصفر مشابه لرمال الصحراء استعدادا للغزو المرتقب .

(٥١) وزارة الدفاع : مرجع سابق ص ٦٢ .

(٥٢) محمد عوض محمد : العدوان الثلاثى وعواقبه . مقال منشور بالمجلة . العدد الثانى فبراير ١٩٥٧ ص ٥ .

(٥٣) حمروش : مرجع سابق ج ٢ ص ١٠٣ .

(٥٤) هيكل : مرجع سابق ص ٥٢٤ .

(٥٥) وزارة الدفاع : مرجع سابق ص ٤٨ .

ومما لا شك فيه ان قرار الانسحاب وان كان قد ساعد على سرعة تقدم القوات الاسرائيلية داخل سيناء ، واحتلالها شبه الجزيرة ، فانه قد ادى الى تلاحم الجيش والشعب فى الدفاع عن مصر وقناتها .

(٥٦) عندما صدر القرار بسد قناة السويس تحركت ست من سفن الشحن المحملة بالاسمنت الى منطقة البحيرات المرة وتم اغراقها .

(٥٧) وزارة الدفاع : مرجع سابق ص ٢٥٤ .

(٥٨) حمروش : مرجع سابق جـ ٢ ص ١٠٨ .

(٥٩) عجز المجلس عن اتخاذ قراره بسبب استخدام انجلترا وفرنسا لحق الفيتو ، مما دفع المستر داج همر شلد السكرتير العام لهيئة الأمم المتحدة الى التهديد بالاستقالة ، وجعل المندوب اليوجسلافى يتقدم بدعوة الجمعية العامة المتحدة الى اجتماع عاجل .

(٦٠) محمد عوض محمد : المقال السابق ص ٨ .

(٦١) صدر القرار فى السابع من نوفمبر ١٩٥٦ .

(٦٢) هيكل : مرجع سابق ص ٥٥٤ .

(٦٣) مذكرات محمود رياض : البحث عن السلام والصراع فى الشرق الاوسط والجدير بالذكر انه عندما انزعجت بريطانيا من الانذار السوفيتى وطلبت مساعدة الولايات المتحدة كان الرد « على الذين تصرفوا منفردين دون الموافقة الصريحة للولايات المتحدة أن يتحملوا عواقب تصرفهم » .
أنظر هيكل : مرجع سابق ص ٥٥٦ .

(٦٤) حمروش : مرجع سابق جـ ٢ ص ١١٨ .

(٦٥) نصت الاتفاقية على عودة القوات البريطانية الى قناة السويس اذا ما تعرضت مصر أو احد اعضاء جامعة الدول العربية المرتبطة بميثاق الضمان الجماعى — فى ذلك الوقت — لأى خطر خارجى اثناء السنوات السبع التالية لتوقيع الاتفاقية .

(٦٦) على الرغم من قيام سورية بنسف انابيب البترول المارة عبر أراضيها وقيام السعودية بوقف امداداتها البترولية لانجلترا وفرنسا ، واعلان الأردن وقوفها بجانب مصر فان موقف حكومة نورى السعيد فى العراق وكميل شمعون فى لبنان كان مزريا .

(٦٧) أحمد يوسف وآخرون : الاستقلال الوطنى ، القاهرة ، المركز العربى للبحث والنشر ، ١٩٨٢ ص ١٩٣ .

(٦٨) محمد كمال عبد الحميد : معركة سيناء وقناة السويس ، القاهرة، الدار القومية للطباعة والنشر ص ١٨٩ .

(٦٨) مصطفى صفوت : مصر المعاصرة وقيام الجمهورية العربية المتحدة ، القاهرة النهضة العربية ، ١٩٥٩ ص ٢٨١ .

(٦٩) بمعنى أن تظل كل دولة محتفظة بنظام الحكم القائم فيها وبمؤسساتها وبشخصيتها الدولية .

(٧٠) د. ابراهيم العنانى : معاهدة السلام المصرية الاسرائيلية فى ضوء قواعد القانون الدولى ص ١١ .

(٧١) السياسة الدولية عدد يوليو ١٩٧١ .

(٧٢) محمد حسنين هيكل : خريف الغضب ، القاهرة ، مركز الاهرام للترجمة والنشر ، ١٩٨٨ ص ٨٤ .

(٧٣) أنور السادات : البحث عن الذات ص ٢٣٢ .

(٧٤) لواء حسن البدرى وآخران : حرب رمضان ، الجولة العربية الاسرائيلية الرابعة ١٩٧٣ ، القاهرة ، الهيئة العامة للكتاب ١٩٧٥ ص ٩ .

(٧٥) الندوة الدولية لحرب اكتوبر ١٩٧٣ ، المجلد الثانى ، القطاع السياسى ، القاهرة ١٩٧٦ ، ص ٣٠ — ٣١ .

(٧٦) الاهرام فى ١٩٧٣/١١/١٨ من حديث للفريق أول احمد اسماعيل

(٧٧) موسى صبرى : وثائق حرب اكتوبر ، القاهرة ، المكتب المصرى الحديث ، ص ٥٤٨ .

(٧٨) البدرى وآخران : المرجع السابق ، ص ١٧٥ .

الفصل التاسع

من منجزات مصر الحضارية

أولا ـ الانجازات الاقتصادية والعمرانية :

١ ـ القناطر الخيرية .

٢ ـ قناة السويس .

٣ ـ انشاء بنك مصر .

٤ ـ مديرية التحرير .

٥ ـ الوادى الجديد .

٦ ـ السد العالى .

ثانيا ـ الانجازات العلمية والثقافية :

١ ـ المطبعة الأميرية .

مجمع اللغة العربية .



اولا — الانجازات الاقتصادية والعمرانية

١ — القناطر الخيرية

بعد أن وصلت الحملة الفرنسية الى مصر فى عام ١٧٩٨ رأى بعض علمائها أن نهر النيل عندما يصل الى راس الدلتا ينفصل الى فرعين هما فرع رشيد ودمياط ، وأن فرع رشيد رغم كبره يمر فى بقاع معظمها لا يصلح للزراعة فيذهب معظم مائه هباء ، وبالنسبة لفرع دمياط فعلى الرغم من انه يخترق أراضى جيدة التربة فان مياهه لا تكفى للرى فى زمن التحاريق ، كما أن صعيد مصر تشح فيه المياه فى زمن التحاريق لارتفاع أرضه ، ولا ترتوى جيدا الا فى زمن الفيضان . ومن هنا فكروا فى البحث عن وسيلة للانتفاع بمياه فرع رشيد باضافة مياهه الى فرع دمياط عن طريق بناء قناطر على عرض الفرعين عند أول تفرعهما عند رأس الدلتا ، وأن يصنع لهذه القناطر أبواب من الحديد تغلق وتفتح عند الاقتضاء فاذا اقفلت قناطر أحد الفرعين انصرف جانب من الماء المنحدر اليه الى الفرع الآخر ، واذا كان الفيضان قليلا تقفل قناطر الفرعين فترتفع المياه فى الصعيد حتى تروى أراضيه ثم ينصرف منها ما يلزم لرى الوجه البحرى [١] .

ونتيجة لعدم استقرار الأمور للفرنسيين فى مصر وخروجهم منها فى عام ١٨٠١ تعثر تنفيذ المشروع حتى وصل محمد على الى أريكة الحكم فى مصر وبدأ فى تنفيذ مشروعاته الاقتصادية ادرك قيمة المياه التى تضيع هباء من النيل الى البحر المتوسط واخذ يفكر فى السيطرة على زمام النيل والتحكم فى مياهه والاستفادة منها فى رى القطن والمحاصيل الصيفية مما يعود على مصر بالخير والرخاء وبدأ فعلا فى انشاء قناطر صغيرة على ترعة بحر موريس لتوصيل المياه الى الشرقية وبعد أن نجحت الفكرة [٢] طلب محمد على مشورة مهندسى عصره فقاموا باعداد التقارير ورفعها اليه وكان من أبرز هذه التقارير تقرير كبير مهندسيه المهندس الفرنسى رينان الذى حاز مشروعه قبول والى مصر ويتضمن مشروع

« رينان » انشـــاء قنطرتين كبيرتين عند رأس النيـــل أى بعـــد تفـــرعه وفى كل قنطرة عيون لتخـــرج منها الميـــاه ، ويتم التحـــكم فى هذه العيون بانشـــاء البوابات والأهوسة والأحواض عليها فى كلا الفرعين بحيث اذا حجزت هذه القنـــاطر المياه عن أحد الفرعين أرتفع منســـوب المياه فى الفرع الآخر ، وبالتـــالى تمتلىء ترع هذه الفروع بالمياه التى تروى الأرض فى فصـــل الصيف حيث يتم الحـــاجة اليها فى زراعة القطن فى الوجـــه البحرى الذى كان يعتمد عليه محمد على اعتمادا كبيرا ، كما يتـــم تصريف المياه الزائدة وفى وقت الفيضـــان يتم فتح هذه الأبواب وبالتالى تســـير المياه فى مجراها الطبيعى .

ونتيجة لذلك اصـــدر محمد على فى الثانى من جمادى الآخرة عـــام ثلاثة وستين ومائتين والف قرارا الى ديـــوان المالية بصرف ماكولات ولوازم الخمسمائة الف عامل الذين سيتم تكليفهم بالعمل لانشاء القناطر الخـــيرية .

كما جاء فى صحيفة الوقائع المصرية تعيين المهندس الفرنسى لينـــان للاشراف على تنفيذ حفر الرياحـــات الثلاثة المراد حفـــرها وهى تـــرعة المنوفية والشرقية والبحيرة لايصال ما تحجزه القناطر من ميـــاه كما عين نظارا لادارة أمور العمال وتنظيم احـــوالهم بما يضمن انجاز العمل [٣] وقد بدأ الحفر فى الترع الثلاث فى ١٥ جمادى الآخرة ١٢٦٣ هـ ، ولأهميـــة المشروع أمر محمد على نجـــله ابراهيم باشا وحفيده عباس باشا بمتابعة العمل ، وســـار انشاء القناطر بأسرع ما يستطاع من الهمة والنشاط[٤] وصـــدرت الأوامر بتسهيل كافة متطلبـــات المهندســـين القائمين بالعمـــل فى المشروع [٥] ومع ذلك فقد تعرض المشروع لبعض العقبات خصوصـــا فى عام ١٨٣٥ نذكر منها :

١ — تعرض العمال المكلفين بالحفر للأوبئة التى قضت على معظمهم مما ادى الى بطء العمل فى المشروع .

٢ — تعرض مشروع رينان لمجموعة من الانتقادات الفنية مما أدى الى توقف العمل فيه .

ومع كل ذلك لم تفتر همة محمد على فبعث بالمهندس الفرنسى موجيل

Mougel الذى كان يعمل فى خدمته الى باريس لاستشارة المهندسين المدنيين هناك فى الطرق المثلى لاقامة المشروع على اساس علمى سليم وبعد ان عاد موجيل الى مصر فى عام ١٨٤٢ وعرض على محمد على الأفكار الجديدة بشأن المشروع والتى من اهمها انشاء بعض الاستحكامات عند التقاء فرعى النيل لتكون موضعا حربيا يصلح للدفاع عن مصر وافق محمد على على الفكرة وقرر المضى فى المشروع ، ووضع حجر الأساس لبناء القناطر الخيرية فى التاسع من ابريل من عام ١٨٤٧ وبدأ العمل فى حفر الرياحات الثلاثة الكبرى فى ٣١ مايو ١٨٤٧ وظل العمل ساريا حتى توفى محمد على وخلفه فى الحكم حفيده عباس الأول وفى عهده توقف العمل بالقناطر لفترة بحجة انه يكلف الخزانة المصرية الكثير من الأموال التى ترهق كاهلها ، وارتأى عباس توفيرا للنفقات أن تؤخذ الأحجار اللازمة للبناء من الهرم الأكبر ، ولكن المسيو لينان أقنعه بخطأ هذا الراى بحجة ان اقتلاع الأحجار من الهرم يقتضى من النفقات ما يزيد عن نفقات اقتلاعها من المحاجر (٦) ، وسار العمل فى المشروع ببطء مما اغضب الباشا ودفعه الى عزل موجيل واسناد اتمام المشروع الى المهندسين المصريين مصطفى بهجت ومحمد مظهر بك ، واستؤنف العمل بالمشروع ولكن واجهته بعض الصعوبات ولم يتم بناء القناطر وانشاء رياح المنوفية الا فى عهد سعيد باشا (٧) .

وفى اعقاب ذلك لحق باساسات المشروع خلل هدده من اساسه . ولما تولى اسماعيل باشا الحكم ووجه عنايته الى اصلاح الخلل فى المشروع (٨) عهد الى كبار مهندسيه من الأجانب والمصريين باتخاذ اللازم ولكن مقترحاتهم لم تخرج الى حيز التنفيذ .

وبعد ان تولى الخديو توفيق عرش مصر فى عام ١٨٧٩ تطورت الأمور فى البلاد لدرجة انتهت بها الى الاحتلال الانجليزى ، ومع ذلك فقد تم خلال عهده القيام بمجموعة من الأعمال والانشاءات لاصلاح هذا الخلل (٩) .

وفى عهد عباس الثانى استكملت بعض الاصلاحات بحيث اصبحت القناطر من المتانة ما سمح لها بتادية عملها بشكل واضح وفى أعقاب

ذلك وجهت الحكومة المصرية جهـودها لاصلاح معظم الترع التى تسـتقى من القنـاطر ، كما عملت على تحسـين الملاحة فى الترع ، وتسهيل سبل وصـول السفن من الترع الى النيـل ومد خليج القاهرة بمقـادير كافية من المياه طوال ايام السـنة .

وهكذا كان مشروع القناطر الخيرية من أهم أعمال الرى التى شيدت فى العالم فى ذلك الوقت .

الفوائد التى حققتها القناطر الخيرية لمصر :

١ ـ زيادة مسـاحة الأراضى الزراعية من ٢ مليون فى عام ١٨٢١ الى ثلاثة ملايين وثمانمائة وستة وخمسين الف فدان فى عام ١٨٤٠ .

٢ ـ زيـادة وتنوع الحاصلات الزراعية واتساع حركة النشـاط التجـارى .

٣ ـ تحويل نظـام الرى فى الوجه البحرى ومصر الوسطى من رى الحياض الى الرى الدائم .

٤ ـ زيادة محصول القطن بالوجه البحرى بما يقـرب من مليـون وسـتمائة الف قنطـار .

٥ ـ تخزين المياه فى وقت الفيضـان للانتفاع بها فى رى الأراضى الزراعية وقت انخفاض منسوب النيل وزمن الجفاف .

٦ ـ رى معظم أراضى الوجه البحرى عن طريق ما تخزنه القناطر خلفهـا من ميـاه .

٢ ـ نشأة وتطور فكرة قناة السويس

فكرة ربط البحرين الأحمر والمتوسط لها تاريخ طويل ، مرتبط بتاريخ مصر على مر العصـور ويرجع السبب فى ذلك الى وجـود منطقة تفصل البحر الأحمر عن البحر المتوسط ، وتعرف ببرزخ السويس .

وقد دفعت فكرة ايصـــال البحر المتوسط بالأحمر العـــديد من ملوك مصر فى عهد الفراعنة الى البحث عن الطرق الموصـــلة الى ذلك وانحصر جـــل اهتمامهم ان يكون ذلك الاتصـــال عن طريق وادى النيل (١٠) ومن أشـــهر هذه المحاولات قيام سنوسرت الثالث ، احد ملوك الأسرة الثانية عشر بربط البحرين بطـــريق غير مباشر عن طريق وادى النيل وفروعه فأصبحت الســـفن القـــادمة من البحر المتوسط تلزم الســـير فى الفـــرع البيلوزى من النيـــل حتى تصل يوباستس (الزقازيق الحالية) ومنهـــا تتجه شرقا الى تيخاو (ابو صير الحالية) ثم تعبر البحيرات المرة الى البحر الأحمـــر (١١) ولم تلبث هـــذه القنـــاة أن ردمت الى أن أعـــاد فتحهـــا الفرعون « نخاو الثانى » فى عام ٦١٠ ق.م ولكنها اهملت .

وبعد أن حـــكم الفرس مصر اهتم دارا الأول ملك الفرس فى عـــام ٥١٠ ق.م ببرزخ الســـويس حيث كان الطريق الموصل الى بلاد فـــارس فأعاد حفر القنـــاة وادخل عليها بعض التحسينات ، ثم أهمل شأنها بعد ذلك . وعندما اســـتولى الاغريق على مصر قـــام الملك الاغريقى بطليموس الثـــانى فى عام ٢٨٥ ق.م ثم بطليموس الثالث فى عام ٢٤٦ ق.م باصلاح مجـــرى القنـــاة واعادة الملاحة اليها ، ولكنها اهملت على مر الأيام (١٢) وبعد أن وصـــل الرومان الى مصر اهتم الامبراطور الرومانى تراجـــان (٩٨ — ١١٧م) بحفر قنـــاة جديدة عرفت بقناة تراجان (١٣) ولكنهـــا اهملت فى العهد البيزنطى وطمرتها الرمال الأمر الذى جعلهـــا غير صالحة للمـــلاحة (١٤) .

ولما وصـــل الفتح الاسلامى الى مصر أمر الخليفة عمر بن الخطاب قائده عمرو بن العـــاص بضرورة اعادة اصـــلاح القناة بعد اندثارها فى العصر البيزنطى (١٥) وظلت القنـــاة مفتوحة للملاحة بعـــد أن أعـــاد « عمر بن العاص » شـــقها فى عام ٢٢هـ ٦٤٢م وسميت بقناة أمير المؤمنين، واســـتمر الحال على ذلك ، حوالى مائة وخمسين سنة حتى اغلقت بأمر من الخليفة العباسى ابى جعفر المنصـــور ، حتى لا تستخدم فى التمـــرد على ســـلطته .

ونتيجـــة لذلك قلت اهمية هذا الطريق خصوصا بعد قيـــام حـــركة الكشوف الجغرافية واكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح .

هذا عن فكرة شق القناة فى العصور القديمة والوسطى اما فى العصر الحديث فقد بذلت اربع محاولات لانشاء قناة تصل بين البحرين كانت اولها فى عهد السلطان العثمانى مصطفى الثالث الذى طلب من المهندس الفرنسى البارون دى توت القيام بدراسة هذا المشروع ، ولكن وفاة هذا السلطان قد ادى الى عدم اتمام هذه المحاولة (١٦) وقد حدثت المحاولة الثانية عندما وصلت الحملة الفرنسية الى مصر حيث اهتم بونابرت بفكرة حفر القناة ، واوكل هذه المهمة الى المهندسين الذين رافقوه فى حملته (١٧) ولكن نتيجة لمعلومات خاطئة اعتقد المهندس الفرنسى ليبير وبعض زملائه بأن منسوب مياه البحر الأحمر تزيد بحوالى تسعة امتار (١٨) عن مستوى سطح البحر المتوسط مما ادى الى توقف المشروع (١٩) .

وفى عصر محمد على نبتت المحاولة الثالثة لانشاء المشروع حيث قامت جماعة السان سيمونيين المشهورة بانشاء جمعية الدراسات الخاصة بقناة السويس ، وارسلت هذه الجمعية بعثة لاقناع محمد على بالمشروع ، ولكن محمد على لم يستجب لطلبهم ، بحجة انه يريد أن يقوم بهذا العمل بنفسه ،وبغير تدخل من أية شركة اجنبية ، ولكن بمعاونة مهندسين اوربيين مهرة يلحقهم بخدمته ، مؤكدا ان القناة يجب ان تنشئها مصر ، وان تكون ملكا مطلقا لها ، وان تظل بعد حفرها على الحياد المطلق تنتفع بها جميع الدول على قدم المساواة دون ان يكون لأية دولة منها امتياز على دولة اخرى ، وانه فى حالة موافقة الدول الكبرى على ذلك فانه سيبدأ بتنفيذ المشروع (٢٠) .

وظل محمد على متمسكا بآرائه حول تنفيذ هذا المشروع حتى وفاته .

أما عن المحاولة الرابعة فقد حدثت فى عهد سعيد باشا رابع أولاد محمد على الذى وافق المهندس الفرنسى فرديناند دى ليسبس على أهمية القيام بشق قناة السويس مما اغضب الحكومة الانجليزية التى كانت تخشى من امتداد النفوذ الفرنسى ، الا أن وزير الخارجية الفرنسى نفى صلة دى ليسبس بالحكومة الفرنسية واعلن ان حكومته لا تهدف الى

تحقيق مصلحة خاصـــة من وراء هذا المشروع [٣١] ومع ذلك فقد بذلت بريطـــانيا جل جهودها لمنع الفرنســـيين من الانفراد بهذا المشروع التى كانت تعده خطرا على سياستها فيما وراء البحار [٣٢] .

ولكنها لم تفلح فى مســـعاها حيث نجح دى ليسبس [٣٣] فى الحصول على امتيـــاز حفر قناة السويس فى ٣٠ نوفمبر ١٨٥٤ وكان سعيد باشـــا سخيـــا مع صديقه الفرنسى فمنح شركته امتيازا لاستغلال منطقة القنـــاة لمدة ٩٩ عاما تبتدىء من يوم فتحه للمـــلاحه ، وصحب ذلك منحه تسهيلات واســـعة النطـــاق [٣٤] مما جعل هذه الشركة دولة داخل الدولة ثم اعقب ذلك الامتيـــاز امتياز آخر فى عام ١٨٥٦م كانت شروطه كما يلى :

١ — انشـــاء ترعة للمياه العذبة تأخذ مياهها من النيل وتتفرع الى فرعين احدهما يصـــل الى السويس والآخر الى بور سعيد .

٢ — تتنازل الحكومة عن جميع الأراضى المطلوبة لانشـــاء القنـــاة للشـــركة مجـــانا .

٣ — تتنازل الحكومة عن جميع الأراضى القـــابلة للزراعة لتقـــوم الشركة باستصلاحها وزراعتهـــا .

٤ — انتزاع بعض الأراضى المملوكة للأفراد لمصلحة الشركة .

٥ — يحصل الأفراد الذين يريدون الانتفـــاع بمياه الترعة العذبة على ترخيص من الشـــركة ، ويدفعون تعويضا مقـــابل ذلك .

٦ — تعفى الشركة من دفع الرســـوم والضرائب والتعويضات عن استغلال المنـــاجم والمحاجر ، وكذلك الرسوم الجمركية والعـــوائد مـــن الآلات والمواد المستوردة من الخارج طول مدة الامتياز .

٧ — حدد أجل الامتيـــاز بمدة ٩٩ عاما من افتتاح القناة ثم تؤول بعد ذلك الى الحكومة المصرية .

٨ — يحق للشركة ان تفرض ما تـــراه من الرسوم على الســـــفن

المارة بالقناة او الترع والمبـــانى التابعة لها على الا تزيد عن عشرة فرنكات عن كل طن وكل شخص من المســـافرين .

٩ — فى مقابل الأراضى والامتيازات تحصـــل الحكومة المصـــرية على ما نسبته ١٥٪ من صافى الأرباح السنوية .

١٠ — تعهدت الحكومة المصرية بمد الشركة بأربعة اخمـــاس العمال اللازمين للحفر ، كما كلفت الحكومة موظفيها وعمالها بمساعدة الشركة[٢٥] .

وبنظرة فاحصـــة نستطيع أن نذكر أن شروط امتياز القنـــاة كان ضررها فـــادحا بالنسبة لمصر خصـــوصا وان آلاف الرجـــال الذين كانوا يعملون فى الحقـــول سحبوا للعمل بهذا المشروع وفتكت بهم الحمى ورداءة الجـــو والجوع ، على كل حـــال فقد تأسست الشركة برأسمال قـــدره ٢٠٠ مليون فرنك ، اى ما يوازى ٧٫٧١٥٫٠٠٠ جنيه مصرى وقسم هـــذا المبلغ على ٤٠٠٫٠٠٠ سهم ، وكانت القيمـــة الأسمية للسهم ٥٠٠ فـــرنك وقد خصصت الشركة لكل دولة من الدول عددا معينـــا من هذه الاسهم وكانت حصـــة مصر منها ٩١٠٩٦ سهما ، ولما لم تســـتطع خزينتها الوفاء بهذه الالتزامات استدانت ٢٨ مليون فرنك بفوائد باهظة .

ومع كل ذلك فاذا كانت مصر قد انفقت أمـــوالا طائلة لانجاح المشروع فمن المعلوم أن هـــذا المشروع ادى الى فقدانها ما هـــو أعز من المـــال الا وهو الاستقلال والحرية [٣٦] .

وفى الخامس والعشرين من ابريل ١٨٥٩ م ومن موضع مدينة فـــرما الأثرية (بور سعيد حاليا) كانت ضربة الفـــأس الأولى لحفـــر القنـــاة الحـــالية الذى استمر حـــوالى عشر سنوات .

وبعد وفـــاة سعيد وتولية اسماعيل اريكة الحـــكم حاول ان يعدل من شروط الامتيـــاز المجحفة التى وافق عليها ~~اخوه~~ سلفه مما جعـــل المهنـــدس « دى ليسبس » يرغى ويزبد ويطلب نجـــدة حكومته ، ونتيجة لـــذلك تدخلت فرنســـا فى الأمر لدى الحكومة المصرية . واسترضاء لفرنسا قبل الخديو اســـماعيل تحكيم الامبراطور الفرنسى نابليون الثـــالث فى هـــذا الموضـــوع .

وبدلا من مقــابلة روح الود بمثلها استغــل الامبراطور الفــرنسى هذه الفرصـــة لتعويض الشركة بمبـــالغ طائلة من المال على حســــاب الخزانة المصرية فنص قرار التحكيم الصـــادر فى السادس من يوليو على دفع تعويض مقداره ٣٫٣٦٠٫٠٠٠ جنيه مصرى للشركة فى مقابل تخليها عن الأراضى الزراعية الواقعة على جــانبى القناة ، واعـــادة ملكية ترعة المياه العذبة الى الحكومة المصرية (٢٧) .

وعلى كل حال فقد استمر العمل فى حفر القنـــاة فى ظــل ظــروف قاســية ، واجور منخفضة للعمال المصريين بشــكل كاد يجعل هذا العمل أقرب ما يكون الى الســخرة فحدد أجر العامل المصرى ما بين قرش وثلاثة قــروش (٢٨) .

وبعد جهــود وتضحيات من جانب العمـــال المصريين انتهى العمل فى القنـــاة ، واتصلت مياه البحرين وبلغ طول القناة ١٦٤ كيلومترا وانشئت على شـــاطئها مدينتى بور سعيد والاســماعيلية وسميت القناة « قنـــاة السويس » ، وافتتحت للملاحة العالمية فى ١٧ نوفمبر ١٨٦٩م .

وقد استعدت مصر للاحتفال بهذا الافتتاح بكل امكاناتها (٢٩) فسافر اسماعيل الى أوربا فى يوليو ١٨٦٩ لدعـــوة ملوك أوربا وملكاتها لحضور حفـــل الافتتاح (٣٠) دون أن يخطر الســلطان العثمانى بذلك الأمر أو حتى يدعــوه للحضور . كمـــا أمر باقـــامة ثمـــانية قصـــور للمـــدعويين . منها قصر الجزيرة (فندق ماريوت الآن) ونـــادى الجـــزيرة كان جـــزءا منه وقد اعـــده لاقامة اوجينى امبراطورة فرنســـا وزوجـــة الامبراطـــور نابليـــون الثـــالث .

وقد أمر اســـماعيل بوضع ٧٥ نوعا من الحيوانات ، ١٥٠ نوعا من الطيـــور وزرع النباتات الاسبانية لتكون تحت نافذة حجرة نوم الامبراطورة « اوجينى » الذى كانت أهم ضيوف حفـــل الافتتاح وموضع اهتمام خديو مصر بهـــا (٣١) كمـــا رأى اسماعيل أن ينشىء دارا للاوبرا بمناسبة الافتتاح فتولى تصميمها مهندسان ايطاليان ثم عهد الى ماريبت باشا مدير الآثار المصرية باختيـــار قصة موضوعها مصرى تدور حولها الالحان فكانت أوبرا

عايدة التى لحنهـــا الموسيقـــار الايطالى المشهور « فيردى » فى نظير مبلغ ١٥٠ الف ليرة ايطالية ذهبية (٣٢) . وقد احتفل بافتتاح القناة فى ١٧ نوفمبر ١٨٦٩ بتلاوة من القرآن الكريم ، وبعدها اقام الخديو حفلا ساهرا فـــى مدينة الاســـماعيلية حضره اكثر من ثمانية آلاف مدعو فى قصور وخيـــام وســـط الصحراء (٣٣) كل ذلك زاد الخزانة المصرية ارهاقا حيث بلـــغ مجموع ما انفق على هذه الحفلات ما يزيد عن المليون والنصف من الجنيهات، وهـــو مبلغ يوازى حوالى ســـدس ايراد مصر فى سنة كاملة (٣٤) .

ونتيجة لاسراف الخديـــو اسماعيل وعدم قدرته على سداد ديـــونه قام ببيـــع أسهم مصر فى القنـــاة الى انجلترا وعددها ١٧٦٦٤٢ بمبلـــغ اربعـــة ملايين جنيه استرلينى وكان بنك روتشيلد هو الذى مول الصفقة، وكان هـــو فى نفس الوقت صـــاحب القسـط الأكبر من ديون اسماعيل. وعندما شحنت اســـهم مصر فى قناة السويس فى عـــدد من الصـــناديق الحديدية على ظهر البـــاخرة البريطانية « ملابار » فى شهر نوفمبر ١٨٧٥ أصبح واضحـــا أن مصر لم تعد تملك شيئـــا فى شركة القناة ، بـــل ان الشركة هى التى أصبحت بوســـعها ان تحدد مصير مصر (٣٥) وتواصل دور الدولة داخل الدولة ، مما جـــر على مصر الويلات ، وادى الى زيادة الأطمـــاع الاوربية فيها ، وعلى الرغم من ذلك فقد ادى حفر القنـــاة الى انتعـــاش الحركة العمرانية على جانبيها ، كمـــا ادى الى زيادة الحركة الملاحية والنقل البحرى العـــالمى خصوصا بعـــد استخـــدام البخـــار ، وظهور الثورة الصناعية فى أوربا (٣٦) .

كمـــا أن قناة السويس قد اختصرت المســـافة التى كانت تقطعهـــا السفن التجـــارية بين الشرق والغرب عن طريق راس الرجاء الصالح ، وافقدت البلدان المطلة على البحر المتوسط كالبندقية وجنـــوة اهميتهـــا التجـــارية (٣٧) .

وازدادت اهمية القناة بعد ظهور البترول لقربها من مناطق الانتاج .

واذا كانت القناة قد فقدت اهميتها السياسية والاستراتيجية بعد الحرب العالمية الثانية نتيجـــة للاستراتيجية النووية التى اختصرت المسافة وقصرت من بعد المكان ، وقللت من أهمية القنـــاة فى الاستراتيجية العـــالمية فان

قيمة القنـــاة الاقتصادية والتجارية قد بقيت ثابتة خصـــوصا بعد تزايـــد احتياج دول اوربا وامريكا الى البترول التى ينقل معظمه من الشرق الأوسط عبر القنـــاة [٣٨] . هذا الى جـــانب ان عمليات التطـــوير المستمرة فـــى القناة ، وزيادة عمقها واتســـاعها قد جعل من الممكن مرور ناقلات البترول الضخمـــة والتى تزيد حمولتها عن ٤٥ مليون طن فى القناة [٣٩] .

تاميم القناة والعدوان الثـــلاثى على مصـــر

بعد ان أجرت مصر مبـــاحثات مع البنك الدولى للانشـــاء والتعمير بخصوص عقد قرض بمبلغ ٢٠٠ مليون دولار لانشـــاء السد العالى وابدت كل من الولايات المتحدة وبريطانيا استعدادهما للمســـاهمة فى تنفيذ المرحلة الأولى من المشروع اعلنت الحكومة الأمريكية فجـــأة تراجعها عن تمـــويل المشروع فى ١٩ يوليو ١٩٥٦ م وتبعتهـــا بريطانيا فى اليوم التالى ، وتذرعت الدولتـــان أن السبب فى ذلك هو التشـــكيك فى مركز مصر المالى وعـــدم مقدرتها على الوفاء بالتزاماتها . وكان رد مصر على ذلك هو اعلان جمـــال عبد الناصر فى خطـــابه التاريخى فى ميدان المنشية بمدينة الاســـكندرية فى الســـادس والعشرين من يوليو ١٩٥٦ قرار تأميم شركة قنـــاة السويس من أجل الافـــادة من دخلها فى تنفيذ مشروع الســـد العالى مما احـــدث ضجـــة عالمية شـــديدة وكان بمثابة ادارة الزر لمجموعة متلاحقـــة مـــن الأحـــداث تدافعت وكانما كانت حبيســـة فى قمقم ، فلم تكد تحس انه قد اذن لهـــا فى الانطـــلاق حتى خرجت مندفعة الى الامام . فنتيجة لهـــذا القرار سحبت الدول الأوربية مرشـــديها من القنـــاة ، مما اعطى دفعة كبيرة للادارة المصرية للقنـــاة للقيام بدورها التـــاريخى حتى لا تعطى لدول الغرب فرصـــة التدخل فى شؤون مصر بحجـــة عدم قـــدرتها على ادارة الشركة ، واستعانت فى ذلك باستقطـــاب بعض المرشـــدين من الهنـــد ويوجوســـلافيا والاتحـــاد السوفيتى والولايات المتحدة بالاضـــافة الى المرشدين المصريين وتم ادارة الشركة باقتدار .

وقد ايدت معظم الدول العربية مصر وخاصة السعودية ، وسوريا، والأردن ، ولبنـــان ، والعراق .

ونتيجة لفشـــل المؤتمرات التى عقدتها بريطانيا وفرنسا بهدف بحث موضـــوع تأميم القناة اجتمع مجلس الأمن لبحث اعمـــال انجلترا وفرنســـا المهددة للســـلام العالمى بالاضـــافة الى مناقشة طلب انجلترا وفرنســـا النظر فى موقف مصر بالنسبة للقناة وبعد المناقشـــات السرية والعلنيـــة تقـــرر ما يلى :

٢ — أن تحترم سيادة مصر على القناة .

١ — ان تكون الملاحة فى القناة حرة ومفتوحة للجميع دون تمييز .

٣ — ان تكون ادارة القناة منفصلة عن سياسات كل الدول .

٤ — أن تحدد رسوم القناة بالاتفاق مع المنتفعين .

٥ — أن تخصص نسبة عادلة للتحسينات والتطوير .

٦ — فى حالة النزاع يسوى الأمر بالتحكيم (٤٠) .

وعلى الرغم من موافقة مصر على هذه القرارات فان بريطانيا وفرنسا رفضتهـــا ، وبدأت استعداداتها العسكرية ، كما اتفق قادة كل من فرنسا وبريطانيا واسرائيل على القيـــام بعدوان ثلاثى على مصـــر بهدف القضاء على حـــكم عبد النـــاصر .

وكانت خطـــة الهجوم أن تشن اسرائيل عدوانها على سينـــاء حتى تشـــغل القوات المصرية بمواجهتها على أن تقـــوم بريطانيا وفرنســـا بتوجيه انذار الى كل من مصر واسرائيل بوقف الاعمال الحربية والانسحاب عشـــرة أميـــال من ضفتى القنـــاة كما أعلنتا عن رغبتهما فى احتـــلال بور سعيد والاسمـــاعيلية اذا لم تلبى مصر الانـــذار خـــلال اثنى عشرة ســـاعة (٤١) .

ومن هنـــا انكشفت المؤامرة ، وقد رفضت مصر الانـــذار واعتبرته اعتـــداء على حقوقها وكرامتها وطالبت بانعقـــاد مجلس الأمن للنظر فـــى هذا العـــدوان الغاشم كما أعلنت التعبئة العامة وصممت على القتال (٤٢) .

وقد عمدت القـــوات المصرية الى ســـد مداخل القناة للدفاع عنها ،

فى حين اخذت انجلترا وفرنسا تضرب مدينة بورسعيد بقنابل الطائرات وبطاريات البوارج الحربية كمـا انزلت كتائب من المظليين الى المدينة(٤٣).

ونتيجـة لذلك وقفت دول العـالم الحر بجـانب مصر كما تدخـل مجلس الأمن لوقف العـدوان والدعوة لوقف اطـلاق النار فورا وسحب القـوات الأجنبية من الاراضى المصرية فورا ، كما أرسـل مجلس الأمن قـوة من البوليس الدولى لمراقبة تنفيذ القـرار والوقوف بين قـوات مصر واسرائيل درءا لتجدد الاشتباكات (٤٤) .

وهكذا انتهى التآمر الثلاثى دون أن يحقق أهـدافه فخرجت قـوات المعتدين تجر اذيـال الخيبة والفشـل بينما خرجت مصر منتصرة ، فألغت كافة الاتفاقات المعقودة بينها وبين بريطانيا وفرنسا .

وفى أعقـاب ذلك بدأت مصر فى تطهير قناة السـويس ، واشرفت الأمم المتحدة على عمليات التطهير التى تمت بسرعة فائقة وكفاءة ممتازة ، وعادت الملاحة فى قنـاة السـويس فى التاسع من ابريل ١٩٥٧م واصبحت تحت اشراف الهيئة المصرية لقناة السويس .

ومنذ أن عـادت قناة السـويس الى اصحابها الحقيقيين بقـرار التأميم وهم يديرونها بقـوة وبكل جهد لتطويرها وتحسينها ، ونظرا لتطور حـركة الملاحة العالمية والتطـور الكبـير فى بنـاء ناقلات السفن كان لزاما دراسـة تطـوير القنـاة لتساير هذا التطـور فى بنـاء السـفن ففى عام ١٩٥٨ بدأت هيئة قنـاة السويس بتنفيذ مشروع توسيع وتعميق القنـاة للوصـول بمساحة القطاع المائى الى ١٨٠٠ مترا مربعا والغاطس المسـموح به ٣٨ قـدما .

وفى منتصف عام ١٩٦٦ قامت هيئة قنـاة السويس بعمل دراسـات لتطوير القنـاة للوصول بمسـاحة القطاع المائى الى ٣٦٠٠ مترا مربعـا والغاطس المسـموح به ٦٠ قدما وذلك لاستيعاب الناقلات الضخمة .

ومع بداية عام ١٩٦٧ بـدأت الهيئة تنفيذ المشروع ، ولكن توقـف العمل فيه ، كمـا توقفت الملاحة بالقنـاة بسبب العدوان الاسرائيلى فى يونيـو ١٩٦٧ .

وكان للعدوان الاسرائيلى على مصر فى عام ١٩٦٧ اكبر الاثـــر على تعطيل حـــركة الملاحة بقنـــاة السويس لمدة اســـتمرت ثمانى ســـنوات كانت القنـــاة خلالها تمثل مانعـــا طبيعيا يفصـــل بين الجيش المصـــرى والاسرائيلى على الضفـــة الشرقية للقناة خطـــا دفاعيا سمى بخط بارليف ليخفى وراءه تحـــركاته ، ومن هنـــا تأثرت القناة تأثرا مباشرا ، ونتيجة لذلك قامت هيئتهـــا بنقل غالبيـــة معداتها وورشها ومخازنها الى مناطق بعيدة عن مدافـــع الاسرائيليين ، ومع ذلك فقد بلغت جمـــلة خسائر قناة الســـويس من ايرادات وتلفيـــات حوالى ١٥٠٠ مليون جنيه ، كمـــا كان لتوقف المـــلاحة أثره الواضـــح على التجارة والاقتصاد العالميين خصوصا وان وضعهـــا الجغرافى يجعلها أقصر الطرق التى تربط بين الشرق والغرب ولقد قرر مؤتمر الامم المتحدة المنعقـــد فى جنيف فى اكتوبر ١٩٧٣ الخسائر التى أصـــابت الاقتصاد العالمى نتيجة لتوقف الملاحة بالقنـــاة بحـــوالى ١٧٠٠ مليون دولار أمريكى سنويا تتمثل معظمها فى زيادة تكلفة النقل .

ومع كل هذه المعوقات والخسائر فان هيئة القناة لم تفقد الأمـــل فى عـــودة الملاحة الى وضعها الطبيعى فى القنـــاة حتى تؤدى رسالتها فى خـــدمة الملاحة العـــالمية .

وبعد حرب اكتوبر ١٩٧٣ وما حققتـــه الجيش المصرى من عبـــور ناجـــح للقناة بدأ التمهيد لتطهير القنـــاة واعدادها لاعـــادة الملاحة فيها وقد تم ذلك فى ٥ يونيو ١٩٧٥ وكان لذلك أثره الكبير على المنطقة بصفة عـــامة .

ونتيجة لما تحملته مصر من نفقـــات باهظة فى تطهير القناة وزيـــادة صلاحيتها لخدمة حركة الملاحة ، واعتزام الهيئة المضى قـــدما فى توســـيعها وتعميقهـــا بما ييسر حركة المرور فيها ، وبالنظر الى التغييرات الجـــذرية التى تعرض لهـــا الاقتصاد العالمى فى السنوات الأخـــيرة رأت الحكـــومة المصرية ضرورة اعـــادة النظر فى رسوم استخدام مرفق القنـــاة التى كانت سارية قبل اغلاقها ، وتجديد فئات رسوم جديدة تتفق وتلك المتغيرات[٤٥] وعن نظـــام المرور فى القناة فان السفن تمر بنظـــام القوافل ، وتدخـــل القنـــاة ثلاث قوافل يوميـــا ، قافلتان من الشـــمال ، وقافلة من الجنوب،

وتخضع كل قافلة لنظــام محدد من حيث موعد دخول القناة والسرعات والمســافات بين السفن فى القافلة الواحــدة وتسمح القناة بالمرور فــى اتجــاه واحد ، وتزدوج فى ثلاث منــاطق الاولى عند بور سعيد بطــول اربعة كيلومترات ، والثــانية عند البلاح بطول عشرة كيلومترات ، والثالثة فى البحيرات المرة الكبرى عند كبريت بطــول سبعة كيلومترات ، وذلك لربط قــافلتى الشــمال فيها للسماح لقــافلة الجنوب بالعبور دون توقف حيث انهــا تضم سـفن البترول المحملة .

ويتم ارشــاد السفن من منطقة الانتظــار حتى خروجها ، ويقــدر الزمن فى المتوسط الذى تســتغرقه السفينة عــادة منذ وصولها الى منطقة الانتظــار حتى خروجها للبحر المفتــوح بحوالى ٢٤ ساعة الى ٢٦ ساعة منها حــوالى ١٤ ساعة عبورفعلى (٤٦) .

ولم يقتصر نشــاط هيئة قنــاة الســويس على الملاحة عبر القناة فقط بل تقــوم ايضا بتقديم الخدمات اللازمة للســفن العــابرة للقنــاة وذلك عن طريق ترسانتى (بور سعيد البحرية وبور فؤاد البحرية) فــى صــورة اصلاحات خفيفة أو عمرات كاملة .

وعن أثر قنــاة السويس فى الاقتصــاد العالمى فانها تختصر المسافة بين الشرق والغرب بين ١٧٪ و٥٩٪ وتــوفر الوقود بين ٥٠٪ و٧٠٪ تبعا لحمولة الســفن وسرعتها ووجهتها ، ولا شــك أن أى وفر فى المسافة ينعكس كوفر فى وقت الرحــلة وفى تكاليف النقل عــلاوة على زيادة عدد الرحــلات السنوية التى تعملها الســفينة ، ومن كل هذا تعتبر قنــاة السويس خير مقياس للتطور الاقتصــادى العالمى اذ ان البضائع التى تعبر القنــاة تمثل نســبة كبيرة من التجــارة بين الشرق والغرب ، ومهمــا حاول بعض المغرضين التقليل من أهمية قناة السويس على انها لم تتمكن من اداء مهمتها بعد بنــاء الناقلات العملاقة ، فان هذه القناة اثبتت انهــا قادرة على استيعاب الناقلات العملاقة بعد تنفيذ مشروع تطويرها .

٣ — بنــك مصر

كانت فــكرة بنك مصر حلمــا راود الوطنيين المصريين منذ استبــد الأجــانب باقتصــاديات البلاد فى عهد الخديو اســماعيل فاجتمع كبــار التجــار فى شــهر ابريل ١٨٧٩ لتقرير « أمر يحاولون به تخليص الوطن من أســر الديون » التى أثقلته وهو الشروع فى فتح بنك وطنى يكــون راســماله اربعة عشر مليونا من الجنيهــات تجمع من ســائر أبنـــاء الأمة على اقســاط . وتقدم هؤلاء الى الحكومة بمذكرة تفسيرية عن هذا البنــك ذكروا فيها ان ادارة البنك ســتكون وطنية ونتيجة لاحتـــلال انجلترا لمصر خمدت فــكرة انشــاء مثل هذا البنك الى ان دعــا طلعت حرب الى انشـــاء بنك مصر ، وكان من نتيجة المقــالات التى كتبها حول هذا الموضـــوع أن عرض المؤتمر المصرى الذى انعقد فى عام ١٩١١ لفكرة بنــك مصر وقررت لجنة المؤتمــر حاجـــة البلاد الى انشاء بنــك مصرى وبانتهـــاء الحرب العالمية الأولى شمر طلعت حرب عن ساعديه يدعـــو الى انشـــاء البنك بكل همة ونشـــاط حتى أعلن فى ٧ مايو ١٩٢٠ تأسيس بنــك مصر وخطب فى المحتفلين قــائلا (بجــانب البنوك الأجنبية أراد المصريون أن يكون لهم بنــك يعمل عمل هذه البنوك ، ويخدم مصر كمــا يخدم كل منهــا بلدا آخــر ، ويضـــع يده فى يــد كل ناهض بمصر الى الامام ، وكل مريد الخير لها) .

والواقع ان تأسيس بنك مصر ونجــاح رســالته كان امتحانا تاسيا لكفاءة المصريين ومقدرتهم ومدى تمسكهم بحقوقهم وغيرتهم على واجبهم . وكان المصريون جميعــا أمام امتحــان عســير يمثل الدفاع عن كــرامتهم وسمعتهم كشـــعب يأبى الاستغلال الاقتصادى ولم يكن الموقف مقصورا على أولئك الـــ ١٢٦ مصريا الذين اشـــتروا أسهم بنك مصر ودفعـــوا لطلعت حرب ثمــانين الف جنيه راسمال البنك فى عام ١٩٢٠ .

وتقدم طلعت حــرب بقلب ثابت وارادة قــوية دفعت بالبنــك الى الامام فبعد أن كان راس مال البنــك ثمانين الف جنيــه فى عــام ١٩٢٠ أصبح نصف مليون جنيه فى ٢٦ يناير ١٩٢٥ ثم ارتفـــع الى مليون جنيه فى ٢٦ ديسمبر ١٩٢٧ .

وهكذا نجحت فكرة طلعت حرب فازدادت ثقة المصريين بأنفسهم لقد أوجد طلعت حرب طائفة من المصريين تحسن أعمال البنوك واستطاع ان ينشىء بنك مصر بعشرين موظفا فتح بهم البنك ابوابه وبدأ معاملاته فاذا العشرون يصبحون مائة ضعف ويزيد يديرون اعمال البنك صغيرها وكبيرها .

ولم يقف الأمر عند بنك مصر فى القاهرة ، فقد اصبحت له فروع ومكاتب فى العاصمة ثم فى سائر المدن المصرية ثم جاوز حدود مصر الى العواصم العربية مشيرا الى قوة العزيمة المصرية فى مواجهة التحديات [٤٧] .

٤ — مديرية التحرير

انشئت هذه المديرية لزيادة الثروة القومية بزراعة مساحات كبيرة من الصحراء ، ولكى تصبح مصدرا جديدا للانتاج ، ولقد اصبح هذا المشروع حقلا للتجارب الخاصة بزراعة الصحراء ، وبمثابة نقطة ارتكاز فى استصلاح واستزراع وتعمير الصحراء .

وقد بدأ استصلاح الصحراء بتسوية الأرض حيث تام اسطول ميكانيكى ضخم حتى لا تتجمع مياه الرى فى الاجزاء المنخفضة دون غيرها واستخدمت فى ذلك جرارات قوية ، وبعدها تم حرث الأرض وتخطيطها بالوسائل الميكانيكية الحديثة وامدادها بالسماد العضوى ثم زرعها .

وتم حفر الترع بواسطة كراكات ، ويبلغ طول ترعة التحرير الرئيسية والتى تستمد مياهها من الرياح البحيرى حوالى ٢٠ كيلومترا، وهذا خلاف الترع الفرعية المبطنة التى يقدر طولها بحوالى عشرين كيلومترا كما أنه تم انشاء ١٩ محطة للرفع بها ٥٢ ماكينة من أنواع مختلفة ، ولقد تم انشاء ٣٣٥ بئرا ، كما تم اقامة محطات للكهرباء بهدف الاستفادة من القوى الكهربائية فى ادارة محطات الرى كما تم انشاء اربعة كبارى على ترعة التحرير الرئيسية ، وكذا تم اقامة ٢٢ قنطرة على فروع ترعة التحرير .

وكان الهدف الاول عند وضع السياسة الزراعية لمديرية التحرير هو بناء تربتها والمحافظة عليها وحمايتها من عوامل الارتداد ، وتمكين السكان من الحصـــول على دخل مناسب لهم ، وكذا توجيه الزراعة نحو الاكتفاء الذاتى مع التخصص فى الوقت نفســـه ، ولذلك انشىء بالمديرية قســـم لابحاث الأرض واقيم معمل كبير فى قرية أم صابر لتحليل التربة ، كـــما زرعت مصـــدات الرياح من الأشجـــار الخشبية على جـــوانب الطرق ، وحول الأرض المزروعة لحمـــايتها من العواصف الرملية . كمـــا أنه تمت زراعة الفـــواكه والموالح على اختلاف أنواعها ، ويزرع بالمديرية محاصيل صيفيـــة وهى الفول الســـودانى والبرسيم والبطيخ والطماطم والـــذرة الهجين والخضروات ، ومحـــاصيل شـــتوية وهى القمح والشعير والفول البـــلدى والرومى والعدس والكتـــان والحلبة والبســـلة كما تزرع أنواع من الشـــمام وكوز العســـل والفراولة وغيرها واهتمت المديرية بالتوسع فى الانتاج الحيوانى ، ويضم قسم الانتاج الحيوانى بها سلالات ممتازة ، وانـــواعا نادرة من الأبقـــار ، وتدر الواحدة منها حوالى ستة آلاف رطل لبن طـــول الموســـم كما توجد بالمديرية قطعـــان كبيرة من الأغنام وأكبر حظـــائر للدواجن والأرانب من أنواع مختلفة .

وتتكون القرية من مبـــانى سكنية اعدت للموظفين والفلاحين وروعى فيها تـــوافر الشروط الصحية ، وبنيت هذه المســـاكن من الطوب الاسمنت المفرغ لعزله عن العوامل الجوية من حر وبرد .

وقد اقيم بالمديرية مركز لتحقيق اغراض التصنيع الزراعى بالمديرية ولســـد حاجتها بما يلزمها من صناعات مختلفة فاقيمت مصانع الأغـــذية المحفوظة والطـــازجة لتصنيع منتجـــات المديرية الصناعية ، كما زودت بمبنى للثلاجات وغرف التبريد ، واقيم مصنع للطـــوب والمواســـير الاسمنتية ومصنع للصفيح وآخر للميـــاه الغـــازية والعـــديد من المصـــانع اللازمة للحياة الكاملة حتى بلغت المساحة الكلية المقـــام عليها هذه المصانع حوالى ١٢٠ فدانا(٤٨) .

٥ ـ الـوادى الجـديد

فى الواحات الخـارجة والداخلة وسـيوة والفرافرة توجد مساحات واسـعة صالحة للزراعة وتبلغ مسـاحتها ملايين الأفدنة ، ومجموع هذه الأراضى اطلق عليه الوادى الجديد ، وقد اثبتت التقـارير الفنيـة التى أجريت صـلاحية ٣٠ الف فدان حول قرية بـاريس للـزراعة وكـذلك ١٧٫٥٠٠ فدان موزعة فى منطقة المحـاريق وعـين الملك فى الواحـات الخارجة ، وقد بدأ الخبراء فى زراعة الف وثلثمائة فـدان بصفة مبدئية، وتبين ان الميـاه متوافرة فى باطن الأرض بكميـات كبيرة ودرجة الملوحـة بالمياه معتدلة بل اقـل من ملوحة المياه الجوفية بوادى النيل نفسه .

ويزرع فى منطقة الوادى حـاليا القمح والذرة والارز والشـعير والبطـاطس والملوخية والخبيزة والباميـة والسبانخ والطماطم والبصل وغيره ، ويبلغ الدخل الأهلى من الانتـاج الزراعى والحيوانى ٣٥٠ الف جنيـه سـنويا .

وقد نجحت زراعة القطن فى الـوادى وانتج الفدان أربعة قناطير من القطن الأشـمونى ، وبدأ تنفيـذ مشروعات تحسـين المـراعى .

وتوجد فى منطقة الوادى حـاليا من المعادن الشبه والملح الانجليزى، وعلى يمين الطريق التى تربط الواحات الداخلة بالخارجة توجـد تلال من الفوسفات طولها ستون كيلو مترا تقـريبا ، ويـؤكد الخبراء ان هـذا الفوسفات يحتوى على خامات اليورانيوم ، ويوجد الحديد فى الواحـات الداخلة ، كمـا أن منطقة باريس غنية بالذهب ويوجد الفحم فى الواحات الخارجة على عمق ستمائة متر تقريبا .

وقد تم تخطيط الوادى الجـديد ، فخططت المنطقـة الشرقية مـن الواحات الخارجة ، وانشئت المبانى الحـديثة ، وتم تـركيب ماكينـات الاضـاءة لانارة المسـاكن ، كما تم رصف ما يزيد عن مائة كيلو متر لربط الوادى الجديد بوادى النيل[٤٩] .

٦ — السد العالى

ترجع فكرة انشاء السد العالى الى عام ١٩٠٢ عندما تقدم بعض المهندسين الايطاليين بمشروع لانشاء سد قرب اسوان(٥٠) يمكن عن طريقه السيطرة على مياه النيل ووقف خطر الفيضان ، ثم تجددت الفكرة فى عام ١٩٣٤ بعد أن تعذر تعلية خزان اسوان للمرة الثالثة ورؤى انشاء خزان آخر يمكن عن طريقه حجز المياه ويقع امام الخزان الحالى ، وقد قدرت تكاليفه وقتئذ بحوالى ستة ملايين جنيه .

وعلى الرغم من أن اللجان التى قامت بدراسة فكرة هذا المشروع دراسة علمية أوضحت أن النتائج المرجوة من انشائه ستكون عظيمة الأهمية وستؤدى الى زيادة الدخل فان انشاء السد العالى بجنوب أسوان لم يتم تنفيذه الا بعد قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ .

ونظرا لضخامة المشروع وتكاليفه الكبيرة كان من الطبيعى أن تسعى مصر لطلب مساعدة من البنك الدولى للانشاء والتعمير ، ومن بعض الدول الغربية الكبرى وقد عرضت الولايات المتحدة وبريطانيا تقديم مبلغ ٧٠ مليون دولار مساهمة فى المشروع ، كما وافق البنك الدولى من حيث المبدأ على اقراض مصر ٢٠٠ مليون دولار لاستكمال الخطوات النهائية للمشروع وفجأة وبدون سابق انذار اعلنت الولايات المتحدة وبريطانيا سحب عروضهما لتمويل المشروع ، وفسرا هذا التراجع بأنه ناجم عن التطورات السياسية الأخيرة وخاصة اقتراب مصر من بلدان الكتلة الشرقية واعترافها بالصين الشيوعية وشرائها للسلاح من دول الكتلة الشرقية بجزء كبير من محصول القطن المصرى مما يشكك فى مقدرة مصر الاقتصادية على اتمام المشروع بعد البدء فيه ، كما اعلن البنك الدولى سحب عرضه لتمويل المشروع لعدم ثقته فى قدرة الاقتصاد المصرى علي اتمامه (٥١) ولما وجدت مصر فى ذلك تدخلا فى شئونها الداخلية ورغبة فى تعويق تقدمها اعلن الرئيس عبد الناصر تأميم شركة قناة السويس فى ٢٦ يوليو ١٩٥٦ حتى تتمكن مصر من الاستغناء عن القروض والهبات الأجنبية وتقوم بتنفيذ المشروع عن طريق وضع

مواردها الوطنية فى خدمته ونشـــبت الحرب بحجة حماية القناة ، وبعـــد فشـــل العدوان الثلاثى على مصر بدات القيـــادة المصرية فى الاعـــداد للمشروع خصوصا بعد اعـــلان الاتحاد السوفيتى عن استعداده لتمويل المشروع بقـــروض طويلة الأجل ، وعلى أســـاس ما تم من دراســـات مشتركة بين البلدين .

وفى السابع والعشرين من ديسمبر ١٩٥٨ تم الاتفاق بين الجمهورية العربية المتحدة والاتحاد السوفيتى على بنـــاء المرحلة الأولى من مشروع الســـد العالى وقعه عبد الحكيم عـــامر عن الجـــانب الأول وبيترنيكتين والســـفير السوفيتى فى القاهرة كيسيليف عن الجانب الثانى وفيه تعهد الاتحاد السوفيتى بتقديم المعونة الاقتصادية والفنية لمصر .

وتنص الاتفـــاقية عن أن حكومة الجمهورية العربية المتحدة وحكومة اتحـــاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية بدافع من العلاقات الودية بين البلدين ورغبـــة فى زيادة توطيد التعاون الاقتصادى والفنى بينهمـــا على أســـاس من المساواة وعدم التدخل فى الشئون الداخلية والاحترام الكامل للكرامة والســـيادة القومية فى كل من البلدين ونظرا لما لانشـــاء الســـد العالى بأســـوان من عظيم الأهمية الاقتصادية القومية لحكومة الجمهورية العربية المتحدة فقد تم الاتفاق على البدء فى المرحلة الأولى .

وفيما يلى نعرض لأهم شروط الاتفاق .

مادة (١) : تلبية لرغبة حكومة الجمهورية العربية المتحدة فى تنمية اقتصادها القومى فان حكومة اتحـــاد الجمهوريات السوفيتية الاشـــتراكية تبدى موافقتها على التعـــاون مع حكومة الجمهورية العربية المتحدة فـــى انشـــاء المرحلة الأولى من السد العالى بأسوان .

وتتضمن هذه المرحلة انشاء الجزء الأمامى من قطاع السد الرئيسى، والسد الخلفى ، وانشـــاء تحويل المياه والبوابات والمعـــدات اللازمة لهذه المشروعات كمـــا تتضمن مشروعات تحويل رى الحياض واصلاح الاراضى وسيحدد مقدار المعـــونة التى سيقدمها الاتحاد السوفيتى بالتنســـيق بين الطرفين لتنفيذ المشروعات .

مادة (٢) : تحقيقا للاتفاق المنصوص عليه فى المادة الأولى من هذا الاتفاق تقوم حكومة اتحاد الجمهوريات السوفيتية بما يلى :

أ — اعداد برامج تنفيذ الأعمال وكذلك الأبحاث والدراسات اللازمة التى يتفق عليها بين الجـانبين طبقا للشروط والبيانات الموضوعة بمعرفة الجمهورية العربية المتحدة .

ب — تقوم وفقا لما يتفق عليه الطرفان بتوريد البـوابات والآلات والمعدات مع قطع الغيار اللازمة لها .

ج — تقديم المعونة الفنية اللازمة للتشييد والانشاء .

مادة (٣) : تقوم جمهورية مصر العربية بتكوين هيئة خاصة لادارة المشروع يعهد اليها بالشـئون الادارية والفنية والمالية وبتنفيذ الأعمـال التى تطلبها حكومة الجمهورية العربية المتحدة للمرحلة الأولى من السـد العـالى الى مقاولين يتم اختيـارهم بموافقة الطرفين وذلك على أساس استخدام المعدات السوفيتية والاستعانة بالخبراء والفنيين السـوفيت .

مادة (٤) تكون الهيئات السوفيتية مسـئولة عن الادارة الفنيـة لانشاء اعمال المرحلة الأولى من السـد العـالى على اتم وجه وصيانتها، ولهذا الغرض توفد الهيئـات السوفيتية خبيرا فنيـا على مستوى عـال مع المجموعة اللازمة من المهندسـين والفنيين والعمـال السوفيت ، ويتم الاتفـاق فى تنسـيق العمل بين الاخصائيين السوفيت والمصريين فـى الاشراف الفنى على الاعمال المشار اليها .

مادة (٥) تقدم حكومة الاتحاد السوفيتى الى حكومة الجمهـورية العربية المتحدة قرضا مقداره ٤٠٠ مليون روبل وذلك لتغطية نفقـات ما تقوم به الهيئـات السوفيتية فيما يختص بوضع برامج تنفيذ المشروع واعمـال البحث والدراسات وتسليم المعدات والآلات والمـواد اللازمـة وأيضا نفقات سفر الخبراء السوفييت عند سفرهم .

مادة (٦) : تسدد الجمهورية العربية المتحدة المبـالغ المستحقـة

عليها من هذا القرض على اثنى عشر قسطا متساوية تبدأ بعد عام من اتمام المرحلة الأولى للسد العالى بحيث لا يتأخر ذلك عن أول يناير ١٩٦٤ وان تكون سعر فائدة القرض ٥ر٢٪ سنويا .

مادة (٧) : تسدد حكومة الجمهورية العربية المتحدة القرض وفوائده بالجنيه المصرى عن طريق حساب خاص يفتح فى البنك المركزى بالجمهورية العربية المتحدة لصالح بنك الدولة لاتحاد الجمهوريات السوفيتية ، ويحسب سعر الروبل بالنسبة للجنيه على أساس سعر التعادل الذهبى بين العملتين فى يوم الدفع وتستخدم الهيئات السوفيتية جميع المبالغ المدفوعة فى هذا الحساب فى شراء سلع من الجمهورية العربية المتحدة .

وقد افتتح العمل رسميا فى المشروع فى التاسع من يناير ١٩٦٠. عندما ضغط الرئيس عبد الناصر على زر أحمر فجر به أول شحنة من الديناميت بمجرى قناة التحويل فكان ذلك بدء العمل فى انشاء المرحلة الأولى للسد العالى وفى اعقاب ذلك تم حشد العدد الوفير من المهندسين والعمال والفنيين من جميع الحرف المختلفة وسار العمل قدما الى الأمام بمعدلات عالية خصوصا وأن ظمأ البنائين المصريين الى سرعة الانجاز كان واضحا .

ونتيجة لرغبة الحكومة المصرية فى أن تستمر مساندة الحكومة السوفيتية لتمويل بناء المرحلة الثانية من السد فقد اعلنت الحكومة السوفيتية انها ستنظر بعين الود الى هذا الطلب ، وبعد دراسات ومشاورات تم فى السابع والعشرين من أغسطس ١٩٦٠ توقيع الاتفاقية الخاصة بتمويل المرحلة الثانية والتى تقضى بأن تقدم الحكومة السوفيتية قرضا فى حدود تسعمائة مليون روبل أى ما يوازى ٧٨ مليون جنيه مصرى يسدد على نفس الأسس الاقتصادية التى انطوت عليها الاتفاقية الأولى .

وقد انتهت المرحلة الأولى من السد بغلق مجرى النيل وتحويل المياه الى قناة جانبية فى ١٥ مايو ١٩٦٤ وقد بلغ جملة ما صرف عليها حوالى مائة مليون جنيه وفى أعقاب ذلك بدأ العمل فى المرحلة الثانية

وفى التاسع من يناير ١٩٦٨ احتفل بتشـــغيل التوربينات الثـــلاثة الأولى من محطة توليد الكهرباء ، وفى الثالث والعشرين من يوليو ١٩٧٠ تم تشغيل التوربين الثانى عشر وتمت اعمـــال السد ، وفى الخامس عشر من يناير ١٩٧١ احتفل رسميا بانتهـــاء العمل فى المشروع الذى تكلف حوالى ٤٢٠ مليون جنيه شملت انشاء الســـد والقناة ومبنى المحطـــة والتوربينـــات والخطوط الكهربائية هذا بخلاف الأعمال المترتبة على انشاء السد كالتوسع الزراعى ، وتحـــويل رى الحياض الى رى دائم وانشاء الطرق والسكك الحديدية والاســـكان وخلافه وتبلغ تكاليفها ٥٠٠ مليون جنيه(٥٢) .

والسد العالى عبارة عن سد ركامى على شكل هرمى يتكون مـــن ركام الجرانيت والرمـــال والطمى وهو مقـــام عبر نهر النيل جنوبى اسوان بحوالى سبعة كيلو مترات .

ويبلغ طول السد ٣٦٠٠ مترا عند القمة منها ٥٢٠ مترا بين ضفتى النهر ، ويبلغ عرضـــه ٩٨٠ مترا عند القـــاع ، ٤٠ مترا عند القمـــة أما ارتفاعه من قاع النهر فيصـــل الى ١١١ مترا ويصل اكبر ضـــــاغط للمياه عليه الى ٧٨ مترا .

ويتكون الســـد من ثلاثة اجزاء رئيسية ، السد الجزئى الامـــامى ويبلغ طوله ٦٠٠ مترا وارتفاعه ٥٠ مترا فـــوق قاع النهر ، والســـد الجزئى الخلفى بطول ٥٠٠ مترا وارتفاع ٣٠ مترا ينحصر بينهما الســـد الرئيسى بارتفاع ١١١ مترا .

والغرض من الســـدين الامامى والخلفى هو تحويل مجرى النهر الى قنـــاة صناعية انشئت بالبر الشرقى ويعمل السد الأمامى والخلفى على حصر منطقة العمل فى السد الرئيسى حتى ينشأ فى منطقة ساكنة لا حركة للميـــاه فيها .

وقد اشتمل السد العالى على عمليتين رئيسيتين :

الأولى : حفر قناة بعمق ٨٠ مترا فى الجبـــال الجرانيتية الواقعـــة على الضفـــة الشرقية للنهر لتحـــويل مجرى النهر اليها بعـــد أن اقفـــل

مجراه الأصلى ، وقد تخلل الجزء الاوسط من هذه القناة ستة انفاق محفورة فى الصخـــور الجرانيتية ومزودة ببوابات ضخمة للتحـــكم فى مياه النهـــر وتصريفها بالقـــدر المطلوب ، ويبلغ طول قناة التحويل ١٩٥٠ مترا [٥٣] .

الثانية : انشـــاء محطة لتوليد القوى الكهربائية فوق القناة عنـــد مخـــارج الانفاق وتعتبر هذه المحطة من اكبر المحطـــات الكهربائية فـــى العـــالم اذ تبلغ قدرتها الاجمـــالية ١ر٢ مليون كيلو مترات وتعادل طاقتها الكهربائية عشرة امثـــال الطاقة الكهربائية التى كانت متوفرة لمصر عـــام ١٩٥٢ .

الآثار الاقتصادية لمشروع السد العالى :

يعد مشروع السد العالى من اضخم المشروعات الهندسية التى عادت على مصر بفوائد عديدة اهمها :

١ — ضمـــان المياه الكافية لمواجهة احتيـــاجات الـــرى وتحـــويل ٧٠٠ الف فدان من أراضى الحيـــاض الى الرى الدائم وزيـــادة الأراضى المنزرعة أرزا .

٢ — تأمين طـــاقة كهربائية رخيصة لخدمة الاغـــراض الصنـــاعية مقدارها عشرة مليارات كيلو وات ساعة سنويا .

٣ — توسيع رقعة الأرض الزراعية بمساحة جديدة تـــدرها ٣ر١ مليون فدان اى حـــوالى ٢٠٪ من مســـاحة الأراضى المصرية الصـــالحة للزراعة .

٤ — وقـــاية البلاد من أخطار الفيضان العالية التى تكلف الـــدولة أموالا طائلة كل عام فى انشاء الجسور وتقويتها .

٥ — تحسين الملاحة النيلية وجعلهـــا ميسورة على مدار السنة .

٦ — زيادة الثروة السمكية فى بحيرة ناصر التى تعد من اكبر البحيرات الصنـــاعية فى العالم .

الآثار الجانبية للمشروع :

ادى انشــاء السد العالى الى عدة آثار جانبية من اهمها ازديــاد ملوحة التربة فى مصر ، وازدياد النحر فى مجرى نهر النيــل وفــروعه ، وانخفاض نســبة الطمى المخصبة للارض ، وتآكل شــواطىء الدلتــا ، وهجر السردين لشواطىء دمياط ورشيد وبورسعيد .

ومما سبق يتضح أن السد العــالى يعد مفتاح استراتيجية الــرى فى مصر ، ومن أهم المنجزات الاقتصــادية فى تاريخ مصر الحــديث التى تحكى مدى مثــابرة وكفاح الشعب المصرى من أجل التقدم والبناء وقهــر التخلف .

وعلى الرغم من ان السد العالى قد وفر لمصر المــاء اللازم للزراعة والطــاقة الكهربائية اللازمة للصناعة ، فانه قد ترك بعض الآثار الجانبية منها انه حــرم الأراضى الزراعية من الطمى القــادم مع ماء النيل ليزيدها خصــوبة مما اثر على تركيبها وقوامها ، وغير من بعض خصائصها .

ومع كل ذلك فمما يذكر للســد العالى بالخير انه انقذ مصر وشعبها من كارثة الجفــاف التى حدثت لافريقية فى السنوات القليلة الماضية ممــا يجعلنا نجــزم ان آثاره الايجابية تجاوزت آثاره الجانبية وسلبياتها .

ثانيا — الانجازات العلمية والثقافية

٧ — انشاء المطبعة الاميرية

يعود تاريخ انشــاء المطبعة الأميرية فى بولاق الى عــام ١٢٣٥ هـ ١٨٢٠ م اى فى عصر محمد على ، وقد تم استيراد آلات هذه المطبعــة وحروفها العربية وكذلك الورق من ايطاليا .

وكانت مهمتها قــاصرة على طبع الكتب الحربية والمؤلفات العسكرية اللازمة للجيش ، ثم اتســع اختصاصها وتنوعت اعمالها فأصبحت تقوم فوق ذلك بطبع الكتب الأدبية والعلمية والمدرســية التى تحتاج اليهــا المدارس ، فســاهمت بذلك مساهمة فعالة فى الحركة الفكرية فى البلاد .

وتعد المطبعة الأميرية أساسا للبعث الفكرى الذى قامت عليه نهضة مصر فى العصر الحديث ففيها صدرت الكتب الخاصة بالطب والهندسة والزراعة وفن الحرب والعلوم الطبيعية والرياضية والأدبية ، فاستطاعت بذلك أن توجه تفكير المصريين نحو حاضر امتهم وثقافتها .

واخذت المطبعة الأميرية تضىء الطريق أمام العلم والمعرفة وانفردت بقاعدة الحروف العربية التى تستخدمها منذ عام ١٩٠٦ فى صف الحروف اليدوية ، التى تمتاز بجمال خطها ، وحسن تركيبها .

ومنذ عام ١٩٢٥ والمطبعة تقوم بطبع المصحف الشريف مستخدمة فى ذلك الحروف المصفوفة يدويا والتى تفوق فى اتقانها وسهولة قراءتها ودقتها كل ما يطبع بطرق الطباعة الأخرى .

وبتوالى السنين ازداد حجم المطبوعات الحكومية ، فبدأ التفكير فى عام ١٩٢٦ بتوسيع مبانى المطبعة فى بولاق ، واعدت لهذا الغرض عدة مشروعات لاقامة مبنى حديث لها فى السنوات ١٩٣٤ ، ١٩٣٩ ، الا انه لم ينفذ اى مشروع منها بالرغم من ضيق مكانها القديم ، وازدياد عدد العمال الذى ارتفع من ٣٥٠ عاملا الى ما يقرب من ٣٨٠٠ عامل .

وظلت كذلك الى ان قامت ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ فكان لها النصيب الأوفى من رعاية الدولة فهيئت لها المبنى الضخم الذى تقطنه حاليا بامبابة ووفرت للعمال اسباب الأمن والاستقرار وفى ١٣ اغسطس ١٩٥٦ صدر القرار رقم ٣١٢ لسنة ١٩٥٦ بانشاء الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية والحاقها بوزارة الصناعة ، ومنذ ذلك التاريخ شهدت الهيئة تحولا كبيرا نحو التقدم فى كافة المجالات فاستوردت العديد من الماكينات الحديثة واوفدت الهيئة بعض مهندسيها وعمالها الى مصانع الطباعة بأوربا لمتابعة فنون الطباعة هناك (٥٤) .

مجمــع اللغة العربية

منذ أوائل القرن التاسع عشر ، ومع بداية ظهور فجر النهضة المصرية أحس رجال الفــكر فى مصر ان اللغة العربية التى عــايشت القــرن الثامن عشر أصبحت لا تفى بأغراض هذه النهضة خصوصا بعد أن بــدا التغلغل الثقافى الأدبى يطفو على سطح الحياة المصرية .

ولما عــاد طلاب البعثات التى أرسلها محمد على الى اوربا لتنهــل من علمها وتنقل عن الغرب والغربيين كل جديد قاموا بنقل مادرســوه من علــوم الى اللغتين العربيــة والتركيــة ليســهل تدريسها فى المــدارس الحديثة التى اسسها محمد على ، وكان من ابرز هؤلاء رفاعة الطهطاوى الذى قام بجهــود هائلة فى نقل المعارف الأوربية الى اللغة العربيــة ، وعمل على تعريب الأســماء الأجنبية مع الاحتفاظ باسمها الأصلى ، كمــا قام بوضع مصطلحات عربية تتقابل فى معنــاها مع المصطلحات الفرنسية، ووازن بين اللغتين كمــا دعا الى تبســيط علم النحو العربى ، وتيسيره على طــلاب العلم .

وجــاء بعد رفاعة الشيخ محمد عبده ، فحــاول الاسهام فى تطوير اللغة العربية فجدد فى اسلوب التاليف ، وطالب بانشاء مدرسة دار العلوم لاعــداد المعلم الصالح والمساهمة فى تطوير اللغة .

ورغم كل ما بذل من جهــود لتحديث العلوم والثقافة العربيــة ، فان اللغة العربية لم تستطع مواكبة التقدم العلمى الهــائل فى كافة مجالاته فاختلطت العامية بالكلمات العربية ، واستبدلت العامية بالفصحى ونتيجة لذلك احس بعض العلمــاء ، وكبــار الادباء فى مصر بالخطر الداهم على اللغة العربية ، وخشــوا أن يزعزع ما يحدث من أركانها ويسلبها بنيانها ، وفكروا فى انشــاء هيئة تحفظ لهذه اللغة حيــاتها ، وســلامة النطق بها والتعبير عن معانيها ، وتجعلها وافية بمطــالب العلــوم والفنــون .

وقد تعددت المحاولات والجهود الأهلية والحكومية فى ذلك فانشئت عدة نوادى وجمعيات من أجل هذا الغــرض ، استمرت هذه المحــاولات حتى صدر المرسوم الملكى بانشاء المجمــع اللغوى عــام ١٩٣٢[٥٥] .

وقد ظل المجمع ولا يزال هيئة نابضة بالحياة ، تحرس اللغة العربية وتحـافظ على سلامتها ، وقد امتد نشـاطه الى نواحى اهمها تشـجيع الانتاج الأدبى والعلمى ، وتحرى السلامة فى اللغة وتيسيرها يضـاف الى ذلك جهوده فى الترجمة والتأليف والنشر العلمى .

ورغم كل ما قدمه المجمع للغة العربية من خدمات فلا تزال أمـامه مهـام صعبة خصوصا وأن الحياة فى تطور سريع ، وحـاجة النـاس الى مرونة اللغة تشتد كلما ازداد هذا التطور ، وعلى المجمع ان يطـور اللغة طبقا واحتياجات كل عصر بحيث يحقق للناطقين بالضـاد ما يحتاجون اليه من اليسر فى التعبير من غير مشقة فى الأداء وصعوبة فى التفكير .

مراجع الفصـــل التاسع

(١) جرجى زيدان : تاريخ مصر الحديث جـ ٢ القاهرة ، مطبعـــة الهلال ، ١٩٢٥ ص ١٨١ .

(٢) أمين سامى : ملحـــق تقويم النيـــل عن الجســـور والكبـــارى والخزانات على النيل وفروعه ، القاهرة ، مطبعة دار الكتب ١٩٣٦ ص ١ .

(٣) دار الوثائق : محفظة رقم (٤) أوامر مالية ، ترجمة الارادة رقم ٢٨٨ أصلى بتاريخ ١١ شعبان ١٢٦٣ هـ وأيضا القرار الصادر من المجلس العمومى رقم ١٧٩ .

(٤) محمد فؤاد شكرى وآخران : بنـــاء دولة مصر محمـــد على ، القاهرة دار الفكر العربى ١٣٦٧ هـ/١٩٤٨ م ص ٤٩٢ .

(٥) دار الوثائق : دفتر ٣٧٩ معية تركى ، ترجمة المكاتبة رقم ٨٨٣ رقم أصلى ٧١ بتاريخ ١٤ ذى الحجة ١٢٦٠هـ .

(٦) أمين سامى : مرجع سابق ص ٨ .

(٧) عبد الرحمن الرافعى : عصر محمد على ، القاهرة ، النهضـــة المصرية ، الطبعة الثالثة ١٩٥١ ص ٥٨١ .

(٨) للتفاصيل انظر أمين سامى : مرجع سابق ص ٧٦ — ٧٨ .

(٩) نفسه ص ٨٥ .

(١٠) جرجى زيدان : تاريخ مصر الحديث جـ ١ القاهرة ، مطبعـــة الهلال الطبعة الثانية ١٩١١ ص ٢٠٦ .

(١١) وزارة الدفاع المصرية : حرب العدوان الثلاثى على مصـــر ، القاهرة ، مطابع الأهرام ص ١٣ .

(١٢) فاروق عز الدين : جغرافية النقل ، القاهرة ، الأنجلو المصرية ١٩٨١ ص ٣٣٦ .

(١٣) جورج كيرلس : قناة السويس . القاهرة — دار المعـــارف د.ت ص ٨١ — ٨٢ .

(١٤) وزارة الدفاع : المرجع السابق ص ١٣ .

(١٥) محمد فيصل عبد المنعم : قناة السويس ، القاهرة ، مطـابع الأهرام التجارية ١٩٨٠م ص ١٢ .

(١٦) محمد فريد : تاريخ الـدولة العـلية العثمـانية ، بيروت ، دار الجيل ، ١٣٩٧ هـ — ١٩٧٧ م ص ٣١٤ .

(١٧) وزارة الدفاع : المرجع السابق ص ١٤ .

(١٨) عبد الرحمن الرافعى : عصر اسماعيل جـ ١ القاهرة ، الطبعة الأولى ص ٥٢ .

(١٩) اسقط هذا القول البحث الذى اجرى فى عام ١٨٤٠م بواسطة بعض ضباط من الانجليز ، والدراســة التى قامت بها لجنة من المهندسين الفرنسيين فى عام ١٨٤٧ حيث تحقق أن مسطح البحرين متساو .

أنظر . محمد فريد : المرجع السابق ص ٣١٤ — ٣١٥ .

(٢٠) للتفاصيل انظر . انجلو ساماركو : الحقيقة فى مسألة قناة السويس — ترجمة طه فوزى — القاهرة ١٩٤٠ ص ٢٧ — ٢٩ .

(٢١) محمود صالح منسى : مشروع قناة السويس بين اتباع ســان سيمون وفرديناند دى ليسبس ، القاهرة ، دار الاتحاد العربى للطباعة ، ١٩٧١ ص ٢٦٧ .

(٢٢) زاهية قدورة : تاريخ العرب الحديث ، بيروت ، النهضـــة العربية الطبعة الثانية ١٩٧٥ ص ٣٥٥ .

(٢٣) فاروق عز الدين : المرجع السابق ص ٣٣٨ .

(٢٤) محمد فريد : المرجع السابق ص ٣١٥ .

(٢٥) جورج كيرلس : المرجع السابق ص ٩٢ .

(٢٦) عبد الرحمن الرافعى : عصر اسماعيل جـ ١ ، ص ٥٧ .

(٢٧) محمد فريد : المرجع السابق ص ٣١٦ .

(٢٨) زاهية قدورة : المرجع السابق ص ٣٥٦ .

(٢٩) جورج كيرلس : المرجع السابق ص ٩٤ .

(٣٠) محمد فريد : المرجع السابق ص ٣١٧ .

(٣١) رآها الخديو اسماعيل لأول مرة فى باريس وفتن بها ، وأراد أن يضمها الى حريمه .

للتفاصيل انظر : اخبار اليوم فى ٢ — ١٢ — ١٩٨٩ مقال للاستاذ محسن محمد بعنوان : المشى فوق الاشواك ٠

(٣٢) مثلت فى القاهرة فى عام ١٨٧١ ٠

(٣٣) اخبار اليوم فى ٢ — ١٢ — ١٩٨٩ ٠

(٣٤) محمد فريد : المرجع السابق ص ٣١٩ ٠

(٣٥) محمد حسنين هيكل : ملفات السويس ، القاهرة ، مركز الأهرام للترجمة والنشر الطبعة الأولى ١٩٨٦ ص ١٠٦ ٠

(٣٦) محمد عبد الرحمن برج : قناة السويس ، اهميتها السياسية والاستراتيجية ، القاهرة ، دار الكتاب العربى ١٩٦٨ ص ٥ — ٦ ٠

(٣٧) محمود صالح منسى : مشروع قناة السويس ، القاهرة ، دار الاتحاد العربى ١٩٧١ ص ٢٦ ٠

(٣٨) جمال حمدان : قناة السويس نبض مصر ، القاهرة ، عالم الكتب ص ٣٢ — ٣٤ ٠

(٣٩) من المعروف ان طول قناة السويس يبلغ ١٦١ كيلو مترا وكان عرضها يتراوح ما بين ٦٠ الى ٧٥ مترا وبعد التوسعة وصل ما بين ١٦٠ الى ٢٠٠ مترا أما عمقها فيصل الى ١٥ر٥٠ مترا ٠

(٤٠) جورج كيرلس : المرجع السابق ص ١٢٦ ٠

(٤١) ابراهيم علوان : مشكلات الشرق الأوسط والوطن العربى بيروت ، المكتبة العصرية ١٩٧٠ ص ٥٩ — ٦٠ ٠

(٤٢) حمدى حافظ : العدوان الثلاثى على مصر ، القاهرة الانجلو المصرية د.ت ص ٦٣ ٠

(٤٣) ابراهيم علوان : المرجع السابق ص ٦١ ٠

(٤٤) احمد عبد الرحيم مصطفى : المرجع السابق ص ١٤٨ ٠

(٤٥) جمهورية مصر العربية : نشرة قناة السويس ١٩٧٥ ٠

(٤٦) جمهورية مصر العربية : نشرة قناة السويس ١٩٧٦ ٠

(٤٧) سجل العرب للعلاقات الثقافية والاقتصادية ص ٥٩ — ٦٢ ٠

(٤٨) سجل العرب للعلاقات الثقافية ص ٨٢ — ٨٣ ٠

(٤٩) سجل العرب للعلاقات الثقافية والاقتصـــادية من المحيط الى الخليج ص ٣٨ .

(٥٠) كان أول خزان حقيقى يقام على النيل ، وقد بدأ العمل فيه فى عام ١٨٩٨. وانتهى فى عام ١٩٠٢ ، وكانت سعة تخزينه للمياه مليار متر مكعب .

(٥١) الجدير بالذكر أن الدكتور القيسونى وزير مالية مصر فى ذلك الوقت كان قد تلقى خطـــابا من المســـتر بـــلاك مدير البنك الدولى يؤكد عزم البنـــك على تمويل المشروع ، مما يوضـــح اعترافه بقدرة مصر على ســـداد القروض ، ولكنه تراجع عن موقفه بعد انسحاب امريكا وبريطانيا من تمـــويل المشروع مما يثبت خضـــوع البنك الدولى لســـيطرة ورغبات الدول الراسمالية والى جانب ذلك يذكر الســـناتور فولبرايت عضو مجلس الشـــيوخ الأمريكى انه لم يكن هناك اى دليل على ســـوء حالة الاقتصاد المصرى عندما قررت الولايات المتحدة سحب عرضها .

فليب جلاب : هل نهدم السد العالى ص ٤٧ .

(٥٢) عثمان احمد عثمان : السد العالى من النـــواحى التـــاريخية والهندسية والاقتصادية ص ٣٧ .

(٥٣) الهيئة العامة للاستعلامات : السد العالى ص ١٦ وما بعدها .

(٥٤) وزارة الصناعة : الهيئة العامة لشـــئون المطابع الأمـــيرية . يوليو ١٩٧٣ .

(٥٥) د. عبد المنعم الجميعى : مجمع اللغة العربية — دراســـــة تاريخية ص ٧ — ٨ .

الفصل العاشر

دراسات في تاريخ مصر قبيل ١٩٥٢

١ — الأحزاب والممارسة الديمقراطية .

٢ — المرأة المصرية والتعليم الجامعى .

٣ — مجتمع القاهرة من خلال ثلاثية نجيب محفوظ .

٤ — الفيوم بين ثورتى عرابى وسعد زغلول .

٥ — سيناء فى التاريخ الحديث والمعاصر .



(*)
١ — الاحزاب والممارسة الديمقراطية فى مصر
١٩٢٣ — ١٩٥٢

بصـــدور دستور ١٩٢٣ انتقلت مصر الى مرحلة جديدة من حيـــاتها تقوم على قـــاعدة النظام الدستورى الذى هو أســـاس الدولة القانونية مع توزيع الســـلطات العامة بين الملك والوزارة والبرلمان . وعلى هـــذا الأســـاس انتهى التوكيل الشعبى الذى كان الوفد يتحـــدث بمقتضـــــاه عن الأمة المصرية بما يلائم عهد الديمقراطية ليصبح حـــزبا برلمانيا يمثل اغلبيـــة الأمة بعد أن كان وكيلا لهـــا ، فدخل الانتخابات ، ونال الأغلبية الساحقة وعلى اثـــر ذلك شـــكل سعد زغلول الوزارة وفيما يلى نعرض لمواقف بعض الأحزاب المصرية من الممـــارسة الديمقراطية ، وعلاقة ذلك بمواقفهم من الملك والانجليز ونخص بذلك الـــوفد ، وحـــزب الاحـــرار الدستوريين ، وحزب الاتحاد ، وحزب الشعب .

اولا : الوفــــد

خرج الوفـــد من الانتخابات بتأييد شـــبه جماعى من الأمة ، ورأى نـــوابه ضرورة تنفيذ مبـــادىء الدســـتور وتطبيق أحكامه بـــروح تامة من الحرية والديمقراطية [1] ومع ذلك فقد أثبتت الأحداث أن دفـــاع الوفد عن الديمقراطية لم يســـتمر خلال تربعه على أريكة الحـــكم ، بـــل تـــم اســـتغلال الوفد للديمقراطية فى الحـــاق الهزيمة باعدائه ومنافسيه فـــى بعض الأحيـــان والدليل على ذلك انه بمجرد وصـــول الوفد الى الحكم كان يســـتبدل دكتاتورية خصـــومه بدكتاتوريته مع أنه خـــلال ســـنوات المعارضة كان يخوض معركته ضـــد الملكية باسم الديمقراطية والحريات النيابيـــة ، وينشط فى تقديم الالتماسات والعرائض الى الملك يطلب فيها عودة البرلمان واعـــادة الحياة النيابية [2] وفيما يلى نعرض لبعض هـــذه المـــواقف .

(*) قدمت هذه الدراسة لمركز الدراسات السياسية بالاهرام فى عام ١٩٨٣ .

(أ) موقف الوفد من أحزاب المعارضـــة :

اذا كان فقهـــاء القـــانون يقولون ان اساس الحياة النيابية هو أن تحيا البـــلاد فى جو من الحرية يظهر فيه اختـــلاف الآراء ، ويتمســـك فيه النـــاس بما يتفق مع اهـــدافهم وميولهم ، وان يدرك ابنـــاء الأمة انهـــم ابنـــاء وطن واحد فيحق لنـــا أن نتساءل هل سار حزب الوفد على هذا المفهوم ، وتعامل مع احزاب المعارضة بطريقة ديمقراطية ؟

الواقع أن ســـعد زغلول لم ينس خصومته مع الاحرار الدستوريين ، فبعد أن الف وزارته الدســـتورية الأولى رأى فى وصـــوله الى السلطـــة فرصـــة للتنكيل بهم وابعـــادهم عن المراكز الهـــامة فمثلا لم يتردد سعد فى أن تكون حكومته وفـــدية لحما ودما ، فبعد اســـبوعين فقط من توليه الوزارة اقـــال بعض المديرين والعمـــد من انصـــار الأحرار الدســـتوريين وقدمهم للمحـــاكمة [٣] وولى مكانهم انصـــاره بحجة انه لم يبـــق على موظف لا يثق فيه تمـــام الثقـــة وقد ادى ذلك الى تذمر بعض الأهـــالى فى القرى لعزل عمدتهم ، واظهروا عدم ثقتهم فى العمد الجدد [٤] .

ولما حـــددت الحكومة يوم ١٥ مارس ١٩٢٤ موعـــدا لافتتاح الدورة البرلمانية الأولى ، وحلف اليمين الدســـتورية دعيت جميع الصحف المصرية والأجنبيـــة الى هذا الافتتاح عدا جريدة الســـياسة التى كانت تمثـــل الأحرار الدستوريين [٥] مما يعد انتهـــاكا لحقوق المعارضـــة التى كان يتجاهلها سعد ويعتبرها طائفة هزيلة تكونت من رجـــال خـــوارج على النضال الوطنى [٦] .

والى جـــانب ذلك اخذت المظـــاهرات المدبرة بمعرفة الوفـــد تسير فى مختلف الاقـــاليم تنادى بسقـــوط المعارضة ، وتقذف منـــازل اعضـــاء حزب الأحرار الدســـتوريين بالحجـــارة ، كما عمل سعد زغلـــول على اسقاط عضـــوية مجلس النواب عن محمد محمود احد قـــادة حزب الأحرار الدستوريين [٧] ولما نجح فى ذلك وتقدم محمد محمود لاعـــادة ترشـــيح نفســـه فى دائرته باســـيوط عمل الوفد على اســـقاطه فلجأ وكيل المديرية بايعـــاز من الوفد الى تهـــديد العمد واعضـــاء لجان الانتخابات المؤيدين

لمحمد محمود ، ولما احس محمد محمود بذلك تنازل عن ترشيح نفسه محافظة على مصالح اهله وانصاره ففاز فى انتخابات الدائرة رجل لم يكن معروفا لدى اهلها .

وعندما أثيرت قضية « فى الشعر الجاهلى » امام مجلس النواب وكان المتهم هو الدكتور طه حسين المحرر الادبى لجريدة السياسة الناطقة باسم حزب الأحرار الدستوريين خصم الوفد العنيد أثار أعضاء الوفد وعلى راسهم سعد زغلول زوبعة فى البرلمان ضده كما وصل الأمر بسعد زغلول ان خطب فى احدى المظاهرات التى قامت تطالب براس الدكتور طه قائلا « هبوا أن رجلا مجنونا يهذى فى الطريق فهل يضر العقلاء شىء من ذلك »[٨] .

ولم تتوقف تجاوزات الوفد للديمقراطية بعد وفاة سعد فعندما تولى النحاس رئاسة الحكومة لم تنج الجامعة من تدخل حزب الوفد فى شئونها فبعد ان اعلنت كلية الآداب ارادتها فى عام ١٩٢٨ بتعيين الدكتور طه حسين عميدا لها حدثت أزمة سياسية لأن حكومة النحاس لم تكن راضية عن ذلك التعيين لصلة الدكتور طه حسين الوثيقة بحزب الأحرار الدستوريين فطلب وزير المعارف من الدكتور طه ان يستقيل وحسما للامر قبل الدكتور طه أن يستقيل بشرط اعتماد تعيينه أولا تنفيذا لارادة الجامعة فعين ووقع بعض الأوراق ، وفى المساء قدم استقالته [٩] .

يضاف الى ذلك أن الاتهامات التى أثارها خصوم الوفد ضده تضمنت ميله الى الاستبداد والتسلط والتدخل فى حرية الانتخابات لصالح مرشحيه وتهديد منافسيه [١٠] والطموح الى الحكم الدكتاتورى عن طريق تنظيم حركات الشباب الوفدى فى منظمات شبه عسكرية مثل القمصان الزرقاء وان الوفديين كانوا وهم فى الحكم يقفون ضد الانجليز موقفا يفضى الى أزمات متوالية تنتهى دائما باستقالة الوزارة قبل الأوان ، فاذا ما اعتزلوا الوزارة وقفوا انفسهم على اقامة العراقيل فى وجه الحكومات التى تليهم فيمنعونها من البقاء فى الحكم اكثر من أشهر معدودة [١١] أما فى البرلمان فان الخوف من الأغلبية الوفدية كان

الســـمة البارزة فى جميع المناقشات ، وكان بعض الوفديين يؤلفون اللجان السرية لارهاب كل من يجرؤ على انتقاد الوفد .

هذا عن الجانب غير الديمقراطى للوفد أما عن الجـــانب الديمقراطى فنذكر ان ســـعد زغلول لم يكن فى مقـــدوره ان يتناسى أنه زعيم حـــزب ســـياسى كرس جهده للحصـــول على استقلال مصر والسهر على حراسة الدســـتور ولذلك فانه لم يشـــأ أن يخرس الانتقـــادات التى كان بعضها يمس الوجـــود البريطانى فى مصر بينمـــا مس بعضها الآخر نفوذ القصر كمـــا يصعب على احد أن ينـــكر ان النحاس حاول تثبيت قواعد الدستور والحـــد من سيطرة القصر على الحـــكم بانشاء وزارة للقصر وادخال نظام وكـــلاء الوزارات البرلمانيين وذلك لتوطيد اواصر الثقـــة بين العـــرش والأمة ، وتوطيد النظـــام البرلمانى على الأسس الديمقراطية [١٢] . كما ان وزارة النحـــاس أصدرت قانونا بالعفـــو الشـــامل عن الجـــرائم السياسية التى ارتكبت منذ يونيو ١٩٣٠ الى مايو ١٩٣٦ عدا القتل العمد ، كمـــا الغت قانون حمـــاية الموظفين الذى كان يمنع رفع الدعوى عليهم مباشرة امام محكمة الجنح .

ثانيا : مواقف الوفد من الملك :

على الرغم أن الملك فؤاد قد أعلن عن ســـعادته لتأسيس البرلمان على المبـــادىء العصرية ودخـــول البـــلاد فى دور التنظيمات النيابية التى قررها الدستور [١٣] فانه اعتبر الدســـتور مصدر ازعاج له ، ولم يكن على اســـتعداد لقبول دور الملك الدســـتورى دون سلطات لذلك صمم على أن يملك ويحـــكم [١٤] وكان شـــغله الشاغل طوال عهده أن يبعد الوفد عن الحـــكم ، ولم يترك وســـيلة من أجل ذلك الا ولجأ اليها ووصل الأمر أن اتفق القصر مع احـــزاب الأقليات على مناوءة حزب الوفد وعرقلة حكمه ، ولما لم يســـتطع هؤلاء مواجهة التيـــار الشعبى الجـــارف الذى يمثله الوفـــد لجأوا الى تعطيل البرلمان لمدة شهر ثم باصدار قرار بحـــل مجلس النواب فور انتهـــاء مدة التعطيل ، فاذا جـــرت انتخابات جديدة تمخض عليها وصـــول الوفد الى الحـــكم اضطر القصر الى تعطيل الحياة النيـــابية .

وقد شـــهد شهر نوفمبر ١٩٢٤ مولد أول صراع بين الملك ومجلس الوزراء الوفــدى فقد تصـــور سعد زغلول رئيس الوزراء ان فى مقدوره باسم الدستور أن يفرض على القصر ســلطة الاشراف على تعيين كبـــار موظفى الدولة وعنــدما رفض الملك ذلك قــدم سعد زغلول استقــالته ولكن البرلمان جــدد ثقته به ، واجتــاحت المظاهرات شـــوارع القــاهرة متجهة الى قصر عـــابدين وهى تهتف سعد أو الثورة كذلك توجه وفــد من أعضـــاء مجلس الشـــيوخ لمقابلة الملك الذى اضطر فى النهاية الى أن يرضـــخ لمطالب الوفد ، وان يقبل تقليص نفــوذه الاوتوقراطى ليصبــح مجرد حـــاكم دستورى تكون قرارته خاضعة للتصـــديق عليهـــا من رئيس الوزراء والوزراء المختصين .

وعلى الرغم من ذلك فقد اســـتمر الملك فؤاد فى محـــاولاته للاطاحة بالوفد لدرجـــة انه من تـــاريخ النظـــام النيابى فى مصر فى يونيو ١٩٢٤ حتى وفاة الملك فــؤاد فى ابريل ١٩٣٦ لم يصـــل الوفد الى منصة الحــكم ســوى مدة تقـــل عن عامين مرة برئاســـة سعد زغلول من مارس الى ديسمبر ١٩٢٤ ومرة ثانية وعلى فترتين برئاســـة مصطفى النحاس أولهما من مارس الى يونيو ١٩٢٨ والثانية من ينـــاير الى يونيو ١٩٣٠ كما يلاحظ أن أى مجلس نيابى لم يستطع أن يكمـــل دورته ومدتها خمس سنوات كما حددها الدســـتور كما أنه كان من النـــادر أن تنتهى دورة برلمانية دون حـــدوث ازمة دستورية تفضها فجـــأة قبل موعدها .

وعندما فشل الوفد فى تدعيم الدستور وصيانته رأى وضع مشروع يقضى بمحـــاكمة الوزراء الذين يحاولون الاعتداء على الدستور بخرق احد مـــواده أو تعطايها بعقوبات قاســـية تصل الى حد الأشغال الشـــاقة ولكن القصر انتقـــد هذا المشروع عن طريق جريدته البلاغ وحـــذر وزارة النحـــاس من المضى فيه لأن وضـــع مثل هذا القانون يعنى بأن هنـــاك جهات معينة تتآمر على الدستور (١٥) .

وبعد وفاة الملك فؤاد ســـلمت مقاليد ســـلطات الملك الدستـــورية الى مجلس وصـــاية حتى يبلغ ابنه فـــاروق سن الرشد ، وكانت البلاد تســـير فى ظل ائتـــلاف يمثل كافة الأحزاب . ولمـــا اجـــريت الانتخابات

لم تتدخل فيها الحكومة ، وكانت نتيجتها فوز الوفد بالأغلبية فشكل النحاس الوزارة .

وخلال تولى النحاس الوزارة راى الوفد ان الخطر على الديمقراطية ينبع من مصدرين هما الشعبية الكبيرة التى كان يكتسبها الملك فاروق بين الجماهير والديوان الملكى الذى كان مركزا للوشاية والدسيسة ضد وزارة الأغلبية ، وازاء ذلك كان خطة النحاس تنطوى على استغلال صغر سن الملك لوضعه تحت وصايته ، ثم ادخال الديوان الملكى فى المسئولية الوزارية عن طريق تحويله الى وزارة باسم وزارة القصر ، وتعيين وزير باسم القصر يعين مع الوزارة ويستقيل باستقالتها من الحكم وبذلك يبقى تحت رقابة الأمة [١٦] .

ثالثا : مواقف الوفد من الانجليز :

لقد كان الوفد باعتباره بطل التطلعات القومية للمصريين هو عدو الانجليز فثورة ١٩١٩ من صنعه كما أن زعماءه انكروا كل قيمة لتصريح ١٩٢٢ وظلوا يطالبون بالجلاء ، واستقلال وادى النيل من الاسكندرية الى الخرطوم ومع ذلك فقد قبل سعد زغلول مبدأ المفاوضات وكانت العلاقة بينه وبين حكومة العمال فى انجلترا تسير سيرا حسنا ولكن فشل المفاوضات التى أجراها سعد فى لندن فى عام ١٩٢٤ والانذار البريطانى الذى اعقب اغتيال السردار قد أوضحا له مدى اتساع الخلافات فى وجهات النظر بينه وبين الانجليز لدرجة أن سعد بتأييد ومساندة مجلس النواب اشتد فى معاملة سلطات الاحتلال فقد انتهز سعد فرصة مناقشة الميزانية فصوت على قرار بالغاء مساهمة مصر فى نفقات جيش الاحتلال مع مطالبة انجلترا بالجلاء عن مصر وظلت علاقات الوفد بالانجليز يسودها التوتر حتى وصل الامر بانجلترا الى اتهام حزب الوفد بأنه يريد « تحويل الجيش الى سلاح فى يده » [١٧] كما انتقد الوفد ما تردد من أن ممثل انجلترا فى مصر يعامل معاملة رسمية قبل أن يقدم أوراق اعتماده [١٨] كما طالب بجلاء القوات الانجليزية من أرض مصر والسودان خصوصا بعد أن أصبحت دولة ذات سيادة على أرضها بعد أن تنازلت تركيا عن هذه السيادة .

ونتيجـــة لذلك فـــكرت انجلترا فى ابعاد سعد زغلول عن الحـــكم فقد ادركت أن استمراره فى رياسة الوزارة مع ما يتمتع به حزبه من اغلبيـــة ساحقة فى البرلمان يسبب مشاكل لها ولرجالها فى مصر [١٩] .

ولما تولى النحـــاس رئاسة حزب الوفد جعل نصب عينيه ضرورة تحقيق استقـــلال البلاد بابرام معـــاهدة تحالف مع بريطانيا وكان نتيجة ذلك توقيع معـــاهدة ١٩٣٦ ولكن هل ظل موقف الوفد من الانجليز على هذا المنـــوال ؟

الواقع أن الوفد توهم ان معـــاهدة ١٩٣٦ ستتيح له فترة التقـــاط انفـــاس طويلة ، كمـــا أن الانجليز رأوا أن حكومة الوفد على الـــرغم مما تسببه لهم من متـــاعب الا أنها كانت تقف موقفا صريحا ضـــد الفاشـــية بعكس القصر وعلى راسه الملك [٢٠] .

ومع بداية الحرب العالمية الثانية اتبع الوفـــد سياسة معتدلة مع انجلترا فلم يتردد فى اعـــلان ارتباطه بقضية الديمقراطيات واكد أن مصر تمد يدها الى انجلترا ، وان الشرف يقتضى من كل مصرى أن يساعد الدولة الحليفة مما دفع أنجلترا الى ارغـــام الملك فاروق على اعادة النحـــــاس الى الحـــكم [٢١] .

وقد استمر موقف الوفد من الانجليز بين متشـــدد ومعتدل حتى اعلن مصطفى النحاس فى البرلمان فى الثامن من أكتوبر قطع المحادثات السياسية بين مصر وبريطـــانيا بعد أن تبين بجـــلاء عدم جدواها والغـــاء معـــاهدة ١٩٣٦ وبذلك دخلت مصر مرحلة جـــديدة من مراحل الكفاح الوطنى ضد الانجليز .

وهكذا يتضـــح ان الوفد لعب دورا هـــاما فى الحيـــاة الســـياسية المصرية فقد حـــاول أن يجعل من الملك ملكا دستوريا يملك ولا يحـــكم كما هو الحـــال فى دول أوربا الغربية ، وقام بدور بارز فى مواجهة أوتقراطية الملك وتســـلط الانجليز على مقدرات البلاد ، ومع ذلك فان مواقفه وهو فى داخـــل السلطة لا تخلو فى بعض الأحيان من الدكتاتورية .

ثانيا : حزب الاحرار الدستوريين :

من المعروف أن هذا الحزب قد تم تكوينه فى أكتوبر عام ١٩٢٢ من صفـوة المصريين المعتدلين ذات الكيان الاجتمـاعى المتميز وكانت الرغبة فى الوصول الى السـلطة وراء نشـاط هذا الحزب ونتيجة لذلك تعامل مع القضية الوطنية باعتدال واعتبر المفاوضـات بمثابة الأمـل الوحيـد لتحقيق مطالب مصر[٣٢] وفيما يلى نعرض لمواقف هذا الحزب من الاحزاب الآخرى ومن الملك والانجليز .

(١) موقفه من الأحــزاب :

نتيجة لمقتل السير لى ستاك فى التـاسع عشر من نـوفمبر ١٩٢٤ توترت العلاقات بين مصر وبريطانيا الأمر الذى حمـل الانجليز على املاء شروطا اضطرت امامها وزارة سـعد زغلول الى التخلى عن الحكم فانتهز الملك فؤاد الفرصـة وعهد بتشـكيل الوزارة الى احد مؤيديه وهـو « احمد زيور » واشـترك فيها حزب الأحرار الدستوريين . وقد استهلت وزارة زيور حياتها بانتهـاك الديمقراطية فقبضت على عدد من النـواب الوفديين على الرغم من حصـانتهم البرلمانية ووجهت اليهم تهمة التواطؤ فى حادث السردار[٣٣] كما استصدرت مرسوما من الملك بضرورة تأجيل البرلمان شـهرا ، ولما رفع الوفديون الالتماسات الى الملك بضرورة عقـد البرلمان كان الـرد هو حـل مجلس النواب فى السادس والعشرين من ديسمبر ١٩٢٤ وتأجيل موعد الانتخـابات . واستمر زيور لمدة تزيد عن عام كامل يحكم البلاد فى غيبة عن البرلمـان ، وعلى هامش الدستور .

والواقع أن الاعتداء على الحيـاة البرلمانية من جـانب الملك يرجع لدافعين هما كراهية القصر امتلاك الوفد للاغلبية السـاحقة فى البرلمان، واجتمـاع الزعامة الشـعبية ورياسة الحكومة فى يد سعد زغلول ، ثـم ضيق أصحـاب المناصب الحكومية والسياسيين الذين تربوا فى مدرسـة الوظائف بالحياة النيابية . ومما يؤخذ عن خصوم البرلمان الوفدى هـو الوسـائل التى اتخذوها لبلوغ أهدافهم فقد عطلـوا الحيـاة النيـابية بالتأجيل تارة ، وبالحل تارة أخرى ، ثم تعرضوا للحقـوق والحـريات

بطريقة لا ترضى العدالة ، وعلى وجه تقشعر له الأبدان أحيانا ، واغروا الناس بالوعد والوعيد على ان يتخذوا من مبادئهم سلما تباع وتشترى [(٢٤)] .

وقد لجأت وزارة زيور الى اتخاذ اجراءات استبدادية ضد الوفد وزعيمه [(٢٥)] حتى تسوقه الى هزيمة ساحقة فى الانتخابات التى تقرر اجراؤها فى عام ١٩٢٥ فحتمت عليه الحصول على اذن سابق قبل عقد اى اجتماع عام ، وكان هذا الاذن يرفض فى أغلب الأحيان كما حرم على الزعماء الوفديين استقبال انصارهم فى منازلهم ، واتخذت اجراءات غير شرعية للتأثير على الناخبين فوجهت التهديدات للفلاحين ، وتعرض الأغنياء للاغراء والمساومة ، ووضع اتباع الوفد تحت المراقبة، واسيئت معاملتهم ، وفتش البوليس منازلهم كما أعادت حكومة زيور العمد المطرودين وعزلت بعض العمد من انصار حزب الاتحاد والوفد . ونتيجة لذلك ازدادت شكاوى الأهالى الى الملك يوضحون فيها سوء الأحوال [(٢٦)] .

ولقد استفاد القصر من حادث مقتل السردار ، واعلنها حربا على الوفد ، ولكن الأمة وقفت بجانب سعد فى انتخابات رئيس مجلس النواب ولم يظفر مرشح الحكومة عبد الخالق ثروت بأكثر من خمسة وثمانين صوتا بينما بلغت اصوات المؤيدين لسعد مائة وثلاثة وعشرين .

وعلى الرغم من ذلك فقد اضطر الاحرار الدستوريون أحيانا الى الانضمام مع الوفد ضد القصر فى محاولة لاعادة الحياة النيابية ، فاشترك الحزبان فى وزارة ائتلاف برئاسة عدلى فى مايو ١٩٢٦ ، قبل سعد خلالها منصب رئيس البرلمان . ولم يستمر ذلك الوفاق طويلا فقد تجدد الخلاف بين الحزبين نتيجة لمحاولات الوفد الاستئثار بالأمر ، وعلى اثر ذلك حل مجلس النواب والشيوخ وتم تأجيل الانتخابات[(٢٧)] والى جانب ذلك فان حزب الاحرار الدستوريين كان يقبل الحكم احيانا بوسائل غير دستورية ، وكانوا يبررون ذلك أمام أنفسهم بأنهم يمثلون قسما هاما من الرأى العام المصرى من حقه أن يستأثر بالحكم لأنه القسم الذى يضم أصحاب المصالح الرئيسية [(٢٨)] ووصل بهم

الأمر الى قبـول الوزارة على شـرط تعطيل الحياة الدستورية فبعد ان اقال الملك وزارة النحـاس فى عام ١٩٢٨ قبل محمد محمود تاليف الوزارة الجديدة من الاحرار الدستوريين والاتحـاديين وهكذا عاد الحـزبان الى التآمر على الدسـتور . ومع أن محمد محمود قال فى كتـابه الى الملك بعد قبول الوزارة « وسيكون رائدنا ان يظل الدستور فى حمى جلالتكم ركن الحـكم الركين وعمـاده المتين » فانه لم يكن صـادق الوعد فـى قوله اذا كان أول عمل هـام له هو تأجيل البرلمان شـهرا ثم اعقب التأجيل حل البرلمان بمجلسـيه وايقاف الحياة الدستورية ثلاث سنوات .

وقد قوبل تعطيل الدسـتور بالسخط والاستنكار فى ارجاء البـلاد خاصـة وانه كان حرمانا للامة من حقوقها التى اكتسبتها خـلال جهـاد طويل [٢٩] ولما قابل الوفد تعطيل البرلمان بالاحتجـاج اعتقلت الحكـومة الكثير من معارضيها مستعينة فى ذلك بقوات من الجيش والبوليس للقضاء على الديمقراطية ومع أن الرغبة فى الحفاظ على كرسى الحـكم كان ينسى حزب الاحرار الدستوريين الممارسة الديمقراطية ، فان وجوده خارج الحكم كان يعيده الى صـوابه . فعندما امتهن صـدقى ارادة الأمة بالغاء دستور ١٩٢٣ قرر حـزب الأحرار الدستوريين عدم الاشتراك فى الانتخـابات التى تقع خـلال حكم صدقى [٣٠] كما اتفق مع حزب الوفد على مقـاطعة الانتخابات ، واصـدر قرارا بهذا المعنى ، واشتركا معا فى تاليف لجنـة اتصـال بينهما لتنفيذ قرار المقاطعة .

وبعـودة الأحرار الدستوريين الى الحـكم بعد اقالة وزارة النحاس عام ١٩٣٨ استصـدر محمد محمود مرسـوما بتأجيل انعقـاد البرلمان شهرا ثم أصـدر مرسوما آخر بحل البرلمان وادخلت وزارته تعـديلات كثيرة فى الدوائر الانتخـابية حتى أصبحت نتيجتها فى صـالح انصـار الحكومة ، وبذلك لم يتحقق شىء من الوعود التى قالها محمد محمود بانه سيجيىء بنـواب يحاسبون الحكومة ويراقبونها ، فاذا به قد جاء بمجموعة من المؤيدين لحكومته [٣١] .

وعلى الرغم مما أخذ على الأحـرار الدستوريين من مآخـذ غـير ديمقراطية فان وزارة محمد محمود استصدرت مرسـوما بقانون فى العاشر

من فبراير ١٩٣٨ بالعفو الشـــامل عن بعض الجرائم التى وقعت فى الفترة من مايو ١٩٣٦ الى ديسمبر ١٩٣٧ اى فى عهد وزارة النحاس ، ومرسوما آخر بقـــانون بتاريخ الثامن من مارس ١٩٣٨ بحظر الجمعيات أو الجماعات التى يكـــون لها صورة التشكيلات شبه العســـكرية وقد طبق هذا على فرق القمصـــان الزرقاء الوفدية ، وفرق القمصـــان الخضراء التى انشأتها جماعة مصر الفتاة مما يعد فى حد ذاته انتصارا للديمقراطية والحـــد من الارهـــاب .

ب — موقفه من الملك :

سار الحزب مؤيداً من القصر ضـــد الوفد ، ونجـــح فى انتخـــابات ١٩٢٥ ، وشكلت الوزارة بينه وبين حزب الاتحاد ، ولكن الملك فؤاد كان يعتبر هذا الحزب الوريث الشرعى لحزب الأمة الذى ورث فيمـــا ورث، عنه عـــداء رجالاته للقصر ولطغيانه ، كمـــا اعتبر أن تأليف هذا الحزب كان من اجـــل مقاومة نزعة القصر الاوتوقراطية واندفاع عن مشروع الدستور، لذلك فان الملك فؤاد لم يحبذ الاستعـــانة بهذا الحزب كثيرا (٣٢) .

وســـارت الأمور على هذا المنوال حتى أصـــدر على عبد الرازق كتابه « الاسلام واصول الحكم » الذى ادحض فيه الراى القائل بوجـــوب الخـــلافة فى الاسلام ، فغضب الملك عليه وتحرش به وبحزب الاحـــرار الدستوريين الذى ينتمى اليه كما اهتم الاتحاديون بتجـــريد الشيـــخ على عبد الرازق من صفة العـــالمية ارضاء القصر مما ادى الى انفصام الروابط بين حزبى الاتحـــاد والأحرار ، واعادة العلاقات بين الأحرار والوفد من أجل انديمقراطية ولخوض صراع ضـــد حكومة ليس لهـــا من نفوذ داخل البـــلاد ، بل يتوقف استمرارها على تأييد الملك . واستعد الاتحـــاديون لخوض معركة الانتخـــابات منفردين وانتهى هذا الصراع بعودة الحيـــاة النيـــابية الى البلاد واستقـــالة زيور . ومع أن سعد زغلول كان له الحق فى رئاســـة مجلس الوزراء بصفته رئيســـا للحزب الذى حاز على اكثـــر المقـــاعد فى مجلسى النـــواب والشيوخ فانه ترك هذا المنصب لعدلى يكن تشـــكل عدلى الوزارة من الوفديين والأحرار الدستوريين وفى العـــاشر من يونيو ١٩٢٦ عقد البرلمان جلســـته الافتتاحية ، وانتخب سعد زغلول

رئيســا لمجلس النــواب الذى قرر الغــاء كافة المراسيم التى أصدرتها الحكومة السابقة فى غيبة الربلمان(٣٣) .

والواضــح ان القصر كان فى ذلك الحين قد ورط الأحرار الدستوريين فى كثير من المخــالفات الدستورية التى كشفت زيف ماكانوا يدعونه مــن الحرص على الدســتور والدفاع عنه والتظــاهر بانهم من غلاة المحافظين مما اضعف مركزهم السياسى فى البلاد(٣٤) .

جـ — موقفه من الانجليز :

مما يؤخذ على حزب الأحرار الدستوريين انه وضع قاعدة التساهل مع الانجليز للوصــول الى حل للقضية المصرية ، وكان أعضاؤه يفاخرون بهذه السياسة ويسمونها كياسة .

وقد حرص الحزب منذ تأسيسه على هذه السياسة حتى انه لم يذكر فى برامجــه كلمة الجلاء ، وكان وجــود هذا الحزب موضــع رضــاء السياسة البريطانية فكانت تقوم على مساندته وتعضيده(٣٥) .

ومما ســبق يتضح أن هذا الحزب لم يستند على مؤازرة الشعب نه بل ارتكن الى القصر بمعنى انه لم يكن حزبا شعبيــا بل كان جل اعتماده يرتكن على قــوة الحكم ، ومن هناجاء تغليبه لسلطة الحكومة على سلطة الشعب ، وميله الى اهــدار ســلطة الأمــة كى يصــل الى منــاصب الحكم لذلك يمكن القول ان اسم هذا الحزب لا يتفق مع افعاله ، فلا هو ممن نادوا بالجلاء حتى يتضمن اسمه الأحرار ، ولا هو حافظ على الممارسة الديمقراطية ليسمى بالدستورى .

حــزب الاتحــاد :

قام القصر بتأليف هذا الحزب من بعض المنفصلين عن الوفد بقصد ايجــاد نوع من التوازن بين الوفد والأحــرار الدستوريين داخل مجلس النواب ، وكان لحسن نشــأت وكيل الديوان الملكى القسط الاكبر فــى تأسيس هذا الحزب وتوجيهه الى الخطط التى تتطلبها السراى بحيث يكون القصر مرجع الحــكم ومصــدره ، وان يحكم الشعب بواســطة حكومة

تفرض عليه فرضـــا وفيما يلى نعرض لموقف هذا الحزب من الاحـزاب الأخرى وموقفه من الملك .

أ — موقف الحزب من الأحزاب الأخرى :

ضـــاق الوفد وقيـــاداته وضاق حزب الأحرار الدستوريين وقياداته أيضـــا من قيـــام حزب الاتحاد ، ونظروا الى مؤسســـيه نظـــرة ازدراء وســـخرية وبدأ ائتلاف بين الحزبين لمناهضـــة هذا الحزب والتصـــدى له مما جعـــل قيادات هذا الحزب تواجه هذه المواقف بزيادة الارتماء فـــى احضان القصر وتحـــاول فرض نفسها ولكن يبدو من الظروف التى نشأ فيها هذا الحـــزب ومن اعضائه المؤسسين له ، ومن موقف الشعب منه أن هذا الحـــزب ولد ميتا وان كان القصر قـــد استطـــاع أن يستخـــدمه بنجـــاح فى دفع الاحزاب الأخرى الى التسابق فى اعلان ولائها للملك .

ب — موقف الحزب من القصر :

لم يكن لحزب الاتحـــاد مهمة غير مســـاندة القصر على حكم مصر بقوانين ملكية بـــدلا من حكمه عن طريق دســـتور وبرلمان خصوصا وانه حزب قام على أســـاس الولاء للعرش وان تكون السراى مرجع الحـــكم ومصـــدره . ونرى أن تأليف هذا الحزب على الصـــورة التى تم بهـــا وولاءه التـــام للعرش لم يكن من الحكمة السياســـية ولا من الاخـــلاص للقضية الوطنيـــة فى شىء . فالملك كان يجب أن يكون بعيدا عن الأحزاب خصـــوصا وان نزوله الى هذه الحلبة كان مخاطرة جسيمة من جـــانبه عرض نفسه فيها لنقمة وغضب الأحزاب الأخرى .

رابعا : حزب الشـــعب

فى محاولة لتعديل الدســـتور وتكوين وزارة برضى عنها القصر عهد الملك فـــؤاد الى اسماعيل صدقى فى التاسع عشر من يونيو ١٩٣٠ برئاسة الوزارة .

وفى اعقـــاب ذلك قامت وزارة صـــدقى بالغـــاء دســـتور ١٩٢٣ وقانون الانتخاب ، وخـــرج صدقى على البـــلاد بدستور جـــديد عـــرف

بدستور ١٩٣٠ ذكر ان الغرض منه هو أن يمكن العناصر الرشيدة من خدمة الامة ، وان يكفل صحة التمثيل مع ضمان الحريات العامة [٣٧] كما انه خير علاج للحالة الحاضرة[٣٨] .

وكانت النتيجة الطبيعية لصدور الدستور الجديد تأليف حزب يستند اليه فى فرض النظام الذى وضعه حتى يدخل به الانتخابات فألف حزب الشعب .

ونتيجة لذلك اتفق الوفد وحزب الاحرار الدستوريين على مقاطعة الانتخابات التى اعتزم صدقى اجراءها على اساس دستوره الذى وضع السلطة التشريعية فى يد الملك بالاشتراك مع مجلسى النواب والشيوخ [٣٩] بينما قرر الحزب الوطنى وحزب الشعب ، وحزب الاتحاد خوض معركة الانتخابات [٤٠] .

وفى ٦ نوفمبر ١٩٣٠ اصدر الوفد قرارا بعدم الاعتراف بالدستور وقانون الانتخاب الجديد ، ومقاطعة الانتخابات العامة من اساسها ، كما اصدر حزب الاحرار الدستوريين قرارا بهذا المعنى ، واشتركا معا فى تاليف لجنة اتصال بينهما لتنفيذ قرار مقاطعة الانتخابات التى اعتزم صدقى اجراءها ، وتعاهدا على الكفاح من اجل اعادة دستور ١٩٢٣ كما اوعز كل من الحزبين الى انصاره من العمد والمشايخ بالاعراض عن الاشتراك فى انتخابات صدقى وتقديم استقالاتهم احتجاجا عليها[٤١] كما طلب مصطفى النحاس من اعضاء الهيئة البرلمانية الوفدية السابقة ان يقوموا فى دوائرهم بالحض على مقاطعة الانتخابات ثم قام انصار الحزبين برفع الشكاوى الى الملك فؤاد يطلبون فيها اقالة وزارة صدقى واعادة دستور ١٩٢٣ [٤٢] .

ولم تسكت حكومة صدقى على احزاب المعارضة وجرائدها فقد اتهمت حزب الوفد بأنه يتخذ من الرعب الذى ينشره بين الناخبين والنواب سببا للحكم وانتحكم [٤٣] كما استخدم اسماعيل صدقى القوة فى قهر الراى العام . وقد حدث ان قرر الوفد أن يخرج النحاس على رأس اعضاء مجلس النواب المنحل فى مظاهرة كبيرة تقتحم ابواب البرلمان ،

ولما علم صـــدقى بذلك هدد باطلاق النار على المظاهرة وقتل النحـــاس فعدل الوفد عن قـــراره ولما خرج النحـــاس على راس رجال الاحـــزاب الى طنطـــا أمر صدقى بمنعهم من الســـفر ، وعندما اقتحمـــوا المحطـــة وركبوا القطار أمر صدقى بفصل العربة التى يركبها النحـــاس عن سائر العربات وتحـــرك بها قطـــار خاص الى منطقة نائية فى الصحراء تركتهم هنـــاك(٤٤) يضـــاف الى ذلك أن حكومة صـــدقى فصـــلت واضطهـــدت الموظفين الذين ينتمون الى احزاب المعارضة (٤٥) .

أما عن موقف حكـــومة صدقى من جرائد المعـــارضة فكان التعطيل والاغلاق ففى الخامس عشر من يوليو ١٩٣٠ أمرت بتعطيل جرائد البلاغ وكوكب الشرق واليـــوم تعطيلا نهائيا كما أنذرت جرائد الضياء ، والفلاح المصرى ، والمســـاء ، والريفى والجورنال دى كير بسبب نشرهم خطبـــا منســـوبة لرئيس الوفد (٤٦) كما فصلت العمد والمشايخ الذين انحـــازوا للمعـــارضة ، واضطهدت الأهـــالى الذين اعلنوا عن ولائهم للوفـــد أو للاحرار الدستوريين .

وقد أجريت الانتخابات الصورية فى مايو ويونيو ١٩٣١ فى جـــو خـــانق من الاكراه والتزوير وســـفك الدماء ، وكانت على درجتين الأولى الانتخـــابات الخمسونية اى ان ينتخب كل خمســـين ناخبا مندوبا عنهم ، ثم الانتخـــابات البرلمانية وفيها ينتخب المندوبون اعضاء مجلس النواب ثم اعضـــاء مجلس الشـــيوخ .

وعلى الرغم من اعلان الكثيرين من النـــاخبين رفضهم لعملية الانتخابات فقد اعلن اســـماعيل صدقى أن نسبة عدد النـــاخبين الذين اشتركوا فيهـــا كانت تفوق كل نســـبة سبقتها (٤٧) .

والواضـــح أن الحكومة قد عمدت الى تـــزوير عمليـــة الانتخـــابات فاوعزت الى لجـــان الانتخابات أن تزور محـــاضرها بحيث تثبت فيهـــا حضور الناخبين كذبا وزورا (٤٨) وبذلك تمت المأساة الانتخابية ، وكانت ســـابقة خطـــيرة اتبعتهـــا الادارة فى العمليـــات الانتخـــابية كلما ارادت الحكومات التـــالية اصطنـــاع برلمان صورى .

يضـــاف الى ذلك ان الجـــامعة لم تنج من بطش حكومة صدقى فبعد انتخاب الدكتور طه حسين الذى كان ينتمى الى حزب الأحرار الدستوريين عميدا لكليـــة الآداب بيـــومين طلبت منه الحكومة أن يستقيل من الجامعة ليصبـــح رئيسا لتحرير جريدة الشعب لسان حـــال حزب صدقى فرفض وآثـــر البقاء فى الجـــامعة فأسرها صدقى فى نفســـه وزاد من غضـــب صدقى على طه حســـين أنه كان متمســـكا بضرورة استقلال الجـــامعة فعـــارض منح القـــاب الشرف العلمية للسياسيين حتى لا يورط الجامعة فى السياسة ، فتحينت الحكومة الفرصة لابعاده عن الجامعة (٤٩) .

والغريب أن تلك الوزارة التى ظفرت بأكبر قســـط من سخط الناس كانت أطـــول الوزارات عمـــرا فى التاريخ البرلمانى فى ذلك الوقت ، ولكن عندما ســـقط صدقى تخلى عنه الجميع ، تخلى عنه حزبه ، وتخلت عنـــه جريدته ، وتلك نتيجـــة طبيعية فالبنـــاء الذى يقام على السلطـــان يذهب بذهاب الســـلطان .

موقف الحزب من القصر :

كانت دعـــوة الملك لاســـماعيل صدقى لتشـــكيل الوزارة انما هى دعـــوة ليتولاها لحســـاب القصر وليس لحساب الأمة أو حساب طبقـــة بعينهـــا لذلك فليس من المستغرب أن ترتمى هذه الوزارة فى احضان الملك وتقوم بتنفيذ كل رغبـــاته واوامره .

موقف الحزب من الانجليز :

كان صدقى يرى بعد ارســـاء نظامه الجديد الاتفـــاق مع بريطـــانيا حـــول القضية المصرية ، ولكن الحكومة البريطانية رأت ضرورة الاتفـــاق مع حكومة مصرية تتمتع بثقة الأغلبية فى برلمان منتخب انتخـــابا حـــرا وهو ما لا ينطبق على حزب الشـــعب كمـــا أن السير لامبسون المندوب السامى البريطانى بعد أن درس عشـــرات الآلاف من الشكاوى التى وصلته من مختلف طبقـــات الأمة من اضطهـــاد حكومة صدقى رأى خطورة أن يتم الاتفـــاق مع حكومة على هذه الحـــال لأن ذلك يهدد ســـلامة الامبراطورية البريطانية فى مصر مما دفعه الى التقـــارب ناحية الوفد (٥٠) .

ومما سبق يتضح فشل حكومة صدقى فى ارغام الأمة على دستور من صنع السراى ، وعلى الرغم من تزوير الانتخابات والمواقف العدائية العنيفة التى استخدمها حزب الشعب ضد الأحزاب المعارضة فان الشعب اظهر صلابته فى مواجهة هذه الأحداث حتى اضطر الملك فى نهاية الأمر الى اعادة دستور ١٩٢٣ .

وخلاصة القول فان مصر وان كان لها دستور ولها نظام يسمى بالديمقراطى فى معظم الفترة من ١٩٢٣ الى ١٩٥٢ فانها لم تحكم بمقتضى الأساليب الدستورية بالمعنى الوارد فى الدستور ، ولا بمقتضى المبادىء الديمقراطية الغربية المتمثلة فى حرية الراى ويرجع السبب فى ذلك الى المسلك الذى سلكته الأحزاب فى سعيها الى تحقيق استقلال مصر فالبرلمان الأول الذى شكل برئاسة سعد زغلول كان يخضع لكلمة ذلك الزعيم الذى اكسبته معارضته الطويلة وتضحياته الكثيرة سلطة عظيمة فكانت الحكومة فى واقع أمرها مطلقة وتحت تصرف سعد زغلول ، ثم تلت ذلك حكومة ادارية برئاسة احمد زيور باشا تكونت بعد مقتل السردار واثناءها تعطل الدستور ، وكان المنتظر بعد اعادة البرلمان أن يتم تحقيق الأغراض التى رمى اليها بناة الدستور ، ولكن وفاة سعد زغلول اعقبه فترة انتظار ، ووجدت البلاد نفسها مضطرة الى الاصلاح الداخلى ثم تكونت حكومة الائتلاف ، ولكن اتضح أن زعماء الاكثرية فى الائتلاف من النواب والشيوخ لم يدركوا تماما الفرق بين التهييج السياسى والعمل الوطنى بمعنى ان البلاد لم تتمتع بحكومة برلمانية بل كانت تتحكم فيها لجنة دكتاتورية ، وهى اللجنة التنفيذية البرلمانية للحزب الوفدى ، وكان النواب لا هم لهم سوى مضايقة الوزراء والتدخل فى أعمالهم حتى لو كان هذا العمل فى دور التنفيذ والتوسط لدى الوزراء ومرءوسيهم يضاف الى ذلك أن آثار الانقسام بين الأحزاب انتقلت الى دوائر الحكومة مما ادى الى افساد نظام العمل وتعريض مصالح الجمهور للعسف والعبث ، ومن نشر القلق والاضطراب بين الموظفين لدرجة أنه بوصول حزب المعارضة الى الحكم يتم تشتيت الموظفين من انصار الحكم السابق وتشريدهم وانتهى الأمر بأن اصبحت الحياة النيابية مصدر طغيان فئة على اخرى[٥١] واصبح النظام الحزبى فى مصر

نظــام ضار لا يقــوم على أسس سليمة خاصة وان الهدف الأول لــكل حزب من هذه الأحزاب ان يصل الى كراسى الحــكم وان يكيد لأحــزاب المعارضة دون اعتبار للمصلحة الوطنية ولا مراجعة لضمير . يضاف الى ذلك ان معظم هذه الأحزاب كانت تعتمد على زعيم اكثر من اعتمادها على مبدأ كما كانت تعتمد على الشعارات اكثــر من اعتمادها عــلى البرامج المدروســة .

٥ — المرأة المصرية والتعليم الجامعى (٥٢)

بعد أن افتتحت الجــامعة المصرية رسميا فى ٢١ ديسمبر ١٩٠٨ رأى بعض القــائمين على أمرها ضرورة الأخذ بيد المرأة المصرية والارتقاء بهــا ادبيــا وعلميا ، ومن اجل ذلك خصصت الجــامعة ابتداء من العام الثانى من افتتاحها محــاضرات خاصة بالسيدات تشــمل تاريخ المرأة على مــر العصــور ، وبالرغم من الحذر الشــديد فى اتخاذ هذه الخطوة خشــية غضب المحــافظين على التقــاليد ، ومفاجأة الــرأى العــام بشىء لم يســتعد له فان بعض الصحف المصرية بــاركت ذلك الاتجاه وهللت لــه وشجعت على دراســة العلوم النســائية للنساء موضحة أن النســـاء المصريات فى حاجة كبيرة الى من يصقل أفكارهن ويقوم اعوجاجهن ويرفع عنهن غشــاوة الجهل فطالبت جريدة « الظاهر » بانشــاء جامعة للنساء حتى يتعلمن ما لهن وما عليهن فقالــت « نريدهن متعلمــات عارفات بكل ما يجب لهن وعليهن بارعات فى تدبير المنزل والنظر فى شئون اطفــالهن ، فمن شــاء اصلاح مصر وترقيتها حقيقــة فليجهر معنا بضرورة لــزوم جــامعة للنساء يتعلمن فيها علم تــدبير المنزل وتربية الاولاد [٥٣] وقــد ايدت اللواء ذلك فطــالبت بانشــاء جامعة للنساء موضحة ان اصــلاح البــلاد لا يتم بدون انشــاء مثل هذه الجامعة [٥٤] .

ولا يعنى هذا أن اللواء فى مناداتها بانشاء جامعة للنساء قد تراجعت عما نادى به مصطفى كامل بضرورة فرض الحجاب على المرأة ورفضــه لفــكرة التحرر من قيــودها فقد حددت فى مناداتها بانشــاء هذه الجامعة أن يقتصر التعليم على ما يســاعد المرأة فى تدبير شــئون منزلها وتربيــة أولادها وتهذيب اخلاقها ليتكون منها امهــات المستقبل .

ونتيجة لتشجيع بعض الصحف للجامعة الوليدة على السير فى خطاها نحو تعليم المرأة قررت الجامعة انشاء قسم نسائى بها اقتصر التدريس فيه أول الأمر على محاضرات فى علم نفس المرأة والفلسفة والتربية والتاريخ وبعض الموضوعات العصرية هذا بالاضافة الى تدريس بعض الموضوعات الاساسية فى علم الصحة والطب (٥٥) .

ولما كانت الدراسة بالجامعة للرجال فى المساء فقد رأت الجامعة أن تكون الدراسة بها للنساء فى الصباح حرصا على تجنب التلاقى بين الجنسين داخل أروقتها .

وعلى الرغم من تعنت التقاليد وشدتها فى ذلك الوقت فانه يتضح من وثائق الجامعة الاهلية أن عدد النساء اللاتى خاطرن بدخول الجامعة فى عام ١٩١٠ كان ستة وثمانين قيد جميعهن كطالبات مستمعات وكان عدد المصريات منهن خمسا وثلاثين أما الباقى فكان من جنسيات مختلفة ، واذا قسنا ذلك العدد بعدد الرجال فاننا نجد أن عدد الرجال المقيدين بالجامعة فى نفس هذه السنة كان ثلثمائة وسبعة عشر طالبا أى أن عدد الطالبات بالنسبة لعدد الطلبة كانت تزيد نسبته عن الربع وهذه نسبة ليست بالقليلة اذا نظرنا اليها فى ضوء تقاليد ذلك العصر . وقد يدفعنا ذلك الى أن نتساءل عن نوعية النساء المصريات اللاتى حضرن الى الجامعة فى ذلك الوقت للاستماع الى محاضراتها الواقع أن المواظبات منهن على حضور تلك المحاضرات كن من عقائل البيوتات المصرية ومنهن هدى شعراوى وصفية زغلول وفاطمة عمر شقيقة عبد العزيز باشا فهمى ، هذا بالاضافة الى عقيلات وكريمات بعض الباشوات أمثال ارتين وقطاوى ورشدى وذو الفقار ولم تكن هؤلاء كل من التحقن بالجامعة مستمعات من بنات مصر بل كانت هناك معهن اميرات من الأسرة المالكة أمثال فاطمة فاضل وعين الحياة(٥٦) .

وقد وصفت احدى النساء حضور المستمعات الى مبنى الجامعة ، فقالت « تقاطرت العربات والسيارات مقلة كرائم السيدات وعقائل البيوتات، وكانت وجهة هذا الجمع الرقيق من الجنس اللطيف سراى الجامعة المصرية فدخلن زرافات ووحدانا الى البهو العظيم المعد لمحاضرة السيدات (٥٧) .

هذا عن المستمعات من الطالبات أما عن المحاضرين فقد كان معظمهم من السيدات وذلك حتى لا تضطر المستمعات الى وضع الحجاب داخل قاعة الدرس وقد حاضر فى هذا القسم النسائى نبوية موسى ناظرة المعلمات بالمنصورة وتركزت محاضراتها فى مجال تاريخ مصر الحديث وما يسود العالم من علوم عصرية ولبيبة هاشم صاحبة مجلة فتاة الشرق وقد تحدثت عن التربية والأخلاق واثرهما فى حياة الأمم وطالبت بايجاد الوسائل اللازمة لتحسين التربية فى المدارس وتعليم الفتيات قوانين الصحة وقواعد الآداب الصحيحة حتى اذا أصبحن أمهات ادركن ما عليهن من خطر الواجبات [٥٨] .

وحاضرت رحمة صروف فى شئون التدبير المنزلى ، وحاضرت ملك حفنى ناصف (باحثة البادية) فى حقوق المرأة وواجباتها وموقف الاسلام من ذلك ، كما حاضرت فى موضوعات تدور حول « المقارنة بين المرأتين المصرية والغربية وعاداتهما » وكانت تلقى على مستمعيها النصائح وتبين للحاضرات سوء العادات ومضار الخرافات ومن ذلك ما ذكرته من ان المرأة الغربية تقوم بتغذية طفلها غذاء حقيقيا سريع الهضم . وتتحفظ عليه من موجات البرد والحر نجد المصرية تطعمه أثقل الغذاء وتبادر باعطائه اللحم وما يتعذر هضمه فيصاب بالاسهال والنزلات المعوية ، ولا تكترث لنظافة جسده لئلا يحسده أحد ، واذا مرض تم علاجه بالتعاويذ والتمائم ، كما تحدثت عن الزار فقالت أنه ابو الخرافات ومفسد البيوت ، وأنها لا تدرى لماذا اختارتنا العفاريت مسكنا لها ، وتساءلت لماذا لم نلجأ الى ارسطو وابن رشد وفيثاغورث وغيرهم بدلا من أن نلجأ الى الشيخة رمانة وسعيدة ويوسف مرتع وغيرهم ممن لا يطلبون الا الخلاخيل والمصوغات وأوضحت كذلك أن كثيرات من المصريات ادعين ركوب العفاريت اياهن ، ولما ضربهن رجالهن بسبب ذلك لم تعد اليهن العفاريت ولم يطلبن الزار [٥٩] .

واشترك فى القاء هذه المحاضرات أيضا بعض الاجنبيات مثل الآنسة كوفرور المدرسة بمدرسة راسين بباريس واقتصرت فى محاضراتها على علم النفس والاخلاق [٦٠] كما كان يلقى بعض الاطباء من المصريين والأوربيين محاضرات فى حفظ الصحة والعناية بالأطفال[٦١] .

ولم يقتصر نظـــام الدراسة بالقســم النســـائى على ذلك بل اخذ يتطـــور بتطـــور نظام الجامعة وبرامج التدريس فيها ففى عـــام ١٩١٣ اصبحت الدراســـة بهذا القســـم تشتمـــل على محـــاضرات فى التـــربية وعـــادات المصريين وتأثير الاســـلام فيها ودولة المماليك ، وحروب فرنسا، واشهر النساء فى التاريخ ، وعلم التدبير المنزلى والتـــدابير الصـــحية واختيـــار المنزل واثاثه والحيـــاة الزوجية وسعادة الاسرة والآداب المنزلية والاخـــلاق (٦٢) .

وعند مقارنتنا لهذا البرنامج ببرنامج التدريس الذى سبقه يتضـــح أن كلا من البرنامجين ركز على الاهتمام بمـــواد تهم حيـــاة المراة الزوجية والمنزلية والأسرية أكثر من غيرها ، وربما كان يرجع هذا الى انه لم يكن يتطرق الى ذهن احـــد فى ذلك الوقت قيام المـــراة المصرية بالعمـــل بالمصالح كالرجـــال بل يقتصر دورها على تدبير شئون المنزل ، وتهـــذيب الأولاد .

وعلى الرغم من اقبـــال بعض السيدات والآنســـات عن حضور هـــذه الدراسات فى الجامعة فان الرجال المتمسكين بالتقاليد منعـــوا زوجاتهم واقـــاربهم من حضور هذه المحـــاضرات ويتضح ذلك من منـــاشدة بعض النســـاء على صفحـــات الجـــرائد دون أن يذكـــرن اسمـــاءهن الرجـــال الا يمنعوا زوجاتهم واخواتهم وبناتهم من حضور المحاضرات بالجامعة(٦٣) .

والجـــدير بالذكر أن انشـــاء القســـم النســـائى بالجامعة قد اثـــار ثائرة بعض المحـــافظين فبالرغم من أن معظم المحـــاضرات كانت تلقيهـــا نســـاء ، وكانت تتركز على التربية المنزلية والحياة الأسرية فقد تجمـــع بعض الرجال أمام الجـــامعة للتعرض للنســـاء ومنعهن من الدخول لأن ذلك ســيـــؤدى من وجهة نظرهم الى خروجهن على الآداب ، ويرفع عنهن صفـــة العفاف التى تتحلى بها كل قابعة بالمنزل ، وعندما أرسل عبد العزيز فهمى ســـكرتير الجامعة خطـــابات الى نســـاء الطبقة الواعية يدعوهن للحضـــور أعتبر بعض الغيورين على الاخلاق العـــامة وجـــود اســـماء نسائية على اظرف الخطـــابات ، فيراها رجل البريد بمثـــابة عار يلحق بسمعتهن ومن الفضـــائح الكبرى التى لا يمحـــوها الا الدم ، فارســـلوا

خطـــابات تهديد بالقتـــل الى عبد العـــزيز فهمى اذا لم يكف عـــن هـــذا العمـــل (٦٤) .

وعلى كل حال فانه نتيجـــة لحضور بعض النســـاء المحاضرات فى الجـــامعة حدثت مناظرات فـــكرية على صفحات الجـــرائد بين معـــارض تعليم المرأة ومؤيديه وتصارعت الافكار بينهمـــا فذكر المعارضون أن البلاد فى حـــاجة الى امرأة تحمل ولدها على كتفهـــا لا أن تصدر الأوامر بقلمهـــا وتدير الشـــئون العامة فى الدواوين (٦٥) .

وانهـــا من يوم أن تولد الى يوم أن تمـــوت تنتقل من رعـــاية رجل الى رعـــاية آخر لان الرجال قوامون على النســـاء شرعا كمـــا صـــور بعض هؤلاء للمرأة جمال خدرها وضرورة الاستقرار فيه (٦٦) ورأى بعضهم الآخر أن سبب شقاء الجنس البشرى حواء التى اغوت آدم (٦٧) ، ولم تقتصر معارضة تعليم المرأة على الكتاب بل عـــارضه ايضا أمير الشعراء فقد شبه احمد شوقى المرأة المصرية بالطير من حيث ضعفها وتقيـــدها بمشـــيئة الرجل ، وانه يجب على النســـاء التمسك بالحجـــاب صونا لعفافهن وذلك فى قصيدته الموسومة بين الحجاب والسفور فأوضح لهن فى شخص عصفور الكنـــاريا انهن محجـــوبات منحبســـات لنفاســـتهن والخـــوف عليهن من عاديات الخارج وضرب لهن الأمثال للتحريض على الخضوع للرجل فقال (٦٨)

صـــداح يـــا مـــلك الكنـــار	ويـــا امـــــير البـــلبـــــل
حـــرصى عليـــك هـــوى	ومـــن يحرز ثمينـــا يبخـــل
شهـــد الحيـــاة مشـــــوبة	بالـــرق مثـــــل الحنظـــــل
ان طـــــرت عـــن كنفـــى	وقعت على النسور مثل الجهل (٦٩)

وقد ردت احدى النســـاء على هذه القصيدة معاتبة امير الشـــعراء فقالت حكمت على ايهـــا الشاعر بالأسر ونصحتنى بالصبر ولم تـــدر أنى فقدت كل صبر فى حبسك اياى بـــدون داع فلم يعد لى شعور ولا ادراك بعد أن اغتصب منى حقى الطبيعى الذى دونه قتل النفس وازهاق الارواح ايها الشاعر نسبت حـــالى هذه الى الطبيعـــة ، وما هى الا نتـــائج حبك لاسرى . أسرتنى لأحرك ، احزنتنى لافرحـــك . اناشدك الحق هل

سمعت نحيبى داخــل القفص وهل راقــك منظرى مكبلا بتلك السلاسل الحــديدية [٧٠] .

وعلى كل حــال فان امر مهاجمة ســفور المــراة لم يقتصر على الرجال بل أيد ذلك بعض النســاء حتى اللائى أصبح لهن بعد ذلك شأن فى مجال التعليم الجامعى ومن هؤلاء الدكتورة عائشة عبد الرحمن فقـد ذكرت فى بــداية عهدها بالكتابة عن انطباعاتها عن نســاء القاهرة عندما رأتهن لأول مرة فى مقــال تخيلت فيه انهــا تخاطب صديقة لها فتقــول « ستذهبين الى القــاهرة وتدخلين فى دنيا جديدة وتشعرين بحــال غريبة فتثــور فى نفســك ثورات كامنة لا عهد لك بها اذ تجدين الفتيات عاريات الا ما يســتر عوراتهن وستريهن فى حــالة مهيجة قبيحة يمشين كاسيــات عاريات ضاحكات ســاخرات ، كأنهن بين جدران مخادعهن أو من وراء ســتار » [٧١] .

اما مؤيدو تعليم المراة فقد ذكروا ان انحطاط المراة المصرية يعتبر دليلا على انحطــاط الرجل ، وان المراة خلقت مســاوية للرجل فى كل شىء وانه يجب ان تنال من الحقوق ما يناله الرجال تماما[٧٢] .

وعلى كل حــال فقد أدى احتجاج المعارضين لحركة التجديد وكانوا فى ذلك الوقت قوة لا يستهــان بها ، الى ايقــاف التدريس بالفرع النسائى بالجــامعة خلال العــام الدراسى ١٩١٢ — ١٩١٣[٧٣] ظــل الحــال على هذا المنوال فترة طالت الى ما بعد أن أصبحت الجامعة المصرية تابعة للحكومة فعلى الرغم من حصول بعض الفتيات على البكالوريا التى تؤهلهن للالتحاق بالجامعة فان الطريق كان شــائكا وابواب الجامعة كانت مغلقة فى وجوههن ولولا مســاندة بعض قادة الفكر من الرجال فى ذلك الوقت أمثال احمد لطفى السيد وطه حســين لمــا تحققت للمراة فرصة التعليم الجامعى وتفــاصيل ذلك ان بعض الفتيــات لجأن الى لطفى السيد مدير الجامعة يطلبن مســاواتهن بالرجال فى التعليم الجامعى ، وان بعض عمداء الكليات واساتذتها طلبــوا أن تقبل الفتيــات الحائزات على البكالوريا فى كلياتهم، وكان طه حســين هو أول من عرض على لطفى السيد قبول الطــالبات فى الجــامعة ، وحين ســأله لطفى السيد هل قانون الجامعة يمنع دخول البنــات اجابه بأن القــانون يقول ان الجامعة للمصريين ولم يحــدد

النـــوع (٧٤) يضـــاف الى ذلك ان بعض الصحف طـــالبت بضرورة ان يشـــمل التعليم الجـــامعى الفتيات ولكن الموقف لم يكن ســـهلا فقد كانت هذه المســـالة شائكة خصـــوصا وان انصـــار هذا الراى بالنسبة للراى العـــام ككل كانوا قلة وكان الأمر يستلزم التريث والتزام التكتم وعـــدم مناقشته او عرضـــه على الراى العـــام حتى لا يثور المتزمتون ويتعقـــد الموقف ، وفى غفـــلة من هؤلاء وضعت الجـــامعة الراى العام والحكومة أمام الأمر الواقع عندما فتحت كلية الآداب أبوابها للطـــالبات ودخلتهـــا اربعـــة هن سهير القلماوى وفـــاطمة سالم سيف ، وفاطمة فهمى خليل ، وزهيره عبد العزيز .

ويتضـــح ذلك فيما كتبه لطفى الســـيد فى مذكراته اذ يقول لا أخفى اننـــا قبلنا الطـــالبات اعضـــاء فى الأسرة الجـــامعية فى غفلة من الذين من شـــأنهم ان ينكروا علينـــا اختلاط الشباب باخواتهن فى الدرس (٧٥)

وعلى كل حـــال فان هذا الاجـــراء كان بمثابة ثورة فكرية وتعليمية احدثت ضجـــة شديدة فى اوســـاط المحـــافظين ولكن ســـنة التطـــور الاجتماعى كانت فـــوق هذه الضجة التى كانت سحابة صيف لم تلبث أن ذهب بهـــا الزمان واصبحت فى خبر كان .

فسارت كليات الحقوق والعلوم والطب — وكانت هى الكليات التى تضمهـــا الجامعة فى ذلك الوقت — على منـــوال كلية الآداب فوافقت كل منها على قبـــول الطالبات فدخلت الحقـــوق الطالبة نعيمة الايوبى امـــا كلية العـــلوم فقد التحقت بها ثمـــانية طالبات منهن نفيسة سماحة وعايدة انطـــون والتحقت بكلية الطب اربـــع طالبات هن نفيســـة محمد ، وفاطمة حسن ، وزينب ابراهيم ، وحكمت البـــدرى ومع أن التحـــاق الطـــالبات بهذه الكليات كان امرا طبيعيـــا الا انه اثـــار الكثير من النقاش والجـــدل داخل الجـــامعة وخارجها وقد فقدت المراة معضديها داخل الجامعة نتيجة لاقـــالة الدكتور طه حسين من عمادة كلية الآداب فى عهد وزارة صدقى (٧٦) ثم تقـــديم لطفى الســـيد استقالته من منصبه كمدير للجامعة عام ١٩٣٢ احتجـــاجا على تـــدخل الســـلطات فى شئون الجامعة بنقلها طه حسين الى وظيفـــة خارج الجـــامعة على غير ارادتها وقد يعزى الى ذلك تأخر

دخــول الفتيات للكليات الاخرى بعض الوقت فقد ظلت كلية الهندســة والزراعة ممتنعين عن قبـول الفتيات فترة وسارت على هذا المنــوال كلية التجــارة ولكن لم تلبث اليقظة الزاحفة ان طغت على الأفكار القديمة فغزت المراة تلك الحصــون التى كان يحتكرها الرجل ففتحت ابواب هذه الكليات للطالبــات ، فدخلنهــا واستطعن أن يحصلن على نتائج تبعث على التفــاؤل وتدريجيــا ضمت كليــات الجامعة الفتيات ، ولم يتأخر فــى ذلك ســوى كلية دار العلوم التى لم تفتح ابوابها للفتيات الا فى العــام الدراسى ١٩٥٤/١٩٥٣ اى بعد ضمها الى جامعة القاهرة .

والى جــانب اتاحة التعليم العالى للفتاة بجميع صوره وتخصصاته رؤى ضرورة توافر نوعية معينة من التعليم الجامعى تفى باحتيــاجات الأسر المحــافظة التى لا ترغب فى اختــلاط بناتها مع الشبان ومن هذا انشئت كلية البنــات عام ١٩٥٠ واصبحت احــدى كليــات جــامعة عين شمس عام ١٩٥٦ وكانت قبــلا معهد التربية للمعلمات وفى العــام الدراسى ١٩٦٣/٦٢ انشــئت كلية البنــات الاسلامية جامعة الأزهر وبذلك دخلت المراة مجالا جديدا من التعليم العالى والتعليم الدينى[٧٧] .

واخــذ عدد الطــالبات اللائى يلتحقن بالجامعة فى التزايد فبعد ان كان عددهن فى عام ١٩٢٩ وهى الســنة التى قدر لهن فيها الســـماح بدخول الجامعة سبعة عشر طالبة تجاوز الآن ١٣٨ الف طالبة .

وبعد أن كان عــدد الملتحقات بالجامعة فى عام ١٩٢٩ ثمانية بكلية العــلوم واربعة بكلية الآداب ، واربعة بكلية الطب وطالبة واحدة بكليــة الحقوق اصبح عددهن فى كليــات الآداب فقط حتى عــام ١٩٧٩ ٢٤ الف طالبة [٧٨] .

وعن اختلاط الطالبات بالطلبة داخل الجامعة فقد تحاشت الطالبات فى أول دخولهن الجامعة أى صــلة تربطهن بالطلبة ، ودخلن قــاعات المحاضرات مغطيــات الرءوس وامتنعن عن الاقتراب من الأمــاكن التى يتواجد فيها الطلاب وتجــاهلن التحيات الموجهة اليهن ، ورفضن الاشتراك فى مناقشــة الاساتذة خــلال الدرس ، وقد حــاول الدكتور طه حسين

أثناء عمادته لكلية الآداب تشجيع الاختلاط بين الطالبات والطلبة ففى الحفل الذى اقامته الكلية فى نادى الجامعة بمناسبة النجاح الذى احرزه مشروع القرش فى فبراير ١٩٣٢ نشرت جريدة الأهرام صورة تظهر طلبة الكلية حول عميدهم طه حسين وقد جلست كل طالبة بجانب طالب[٧٩] مما اثار الرأى العام وتوتر موقفه من الجامعة أكثر مما كان فحمل أحد اعضاء مجلس النواب حملة شديدة فى البرلمان ضد د. طه حسين وموقفه من هذا الاختلاط وعلى كل حال فان رهبة الطالبات من الاختلاط بزملائهم الطلاب لم تستمر طويلا ففى أول محنة تعرض لها استقلال الجامعة بفصل الدكتور طه حسين على غير ارادته من الجامعة خرجت الطالبات من عزلتهن وثرن مع الثائرين ، وارتفعت أصواتهن لأول مرة تخطب وتحمس وتدعو الى النضال انقاذا لاستقلال الجامعة من تلاعب الأهواء [٨٠] وكان اشتراكهن فى المظاهرات داعما لزيادة حماس الطلاب ، كما ظهرت لدى بعض الطالبات القدرة على اقناع زملائهن الطلبة للعدول عن بعض المواقف ويكفى للتدليل على ذلك أنه فى أثناء الاضراب نادى عميد الحقوق الطالبة نعيمة الايوبى ودعاها الى اقناع زملائها بوقف الاضراب والعمل على اعادة النظام فعادت الأمور الى نصابها .

وبدأت طالبات الجامعة يتطلعن الى المزيد من الحرية فمارسن الألعاب الرياضية خصوصا لعبة التنس وبدأ ذلك فى كلية الآداب عندما ظهرت طالبة فى ملعب التنس .

ورغم ثورة الرأى العام على هذه الحرية التى اتيحت لفتاة الجامعة ، ورغم الاحتجاجات الشديدة التى وصل مداها الى القصر الملكى [٨١] بخصوص ممارسة الطالبات للالعاب الرياضية فى الجامعة فقد استمرت المسيرة النسائية نحو المزيد من الحرية فاخذت ملاعب الجامعة تكتظ بالطالبات من مختلف الكليات ، ولم يقتصر ذلك على التنس بل تطرق الى كرة السلة وغيرها من الالعاب .

ورغم كل ذلك فقد كانت بعض الطالبات يحسبن الف حساب لمعارضى تحررهن داخل الجامعة ويتضح ذلك فى تأخر دخولهن اتحاد

الطــلاب بالجامعة ، فبالرغم من أن هذا الاتحــاد منح حق العضــوية للطالبات الا أنهن لم يرشحن انفســـهن فى عام ١٩٣١ رغم تشجيع البعض لهن ، وقد اعربت احــدى الطالبات عن سبب ذلك بقولها « انى أجد فى ذلك مجازفة كبرى لما تكنه قلوب العــارضين من تهكم وسخرية (٨٢) .

ولكن هذه الرهبـــة لم تستمر طويلا فقد شــاركت الطالبات الطلاب فى انشــطتهم الاجتماعية فعندما أنشئت جمــاعة النهضة الاجتماعية فى كلية العــلوم عام ١٩٣٧ بهــدف جمع التبرعات من الطــلاب الاغنيــاء وتوزيعها على زملائهم الفقــراء واقيمت ســوق خيرية فى الجامعة من اجل هذا الغرض قــامت الطــالبات بعرض اشـــغال من صنعهن فى هــذه السوق وساهمن فى جمع التبرعات من الآخرين .

يضـــاف الى ذلك قيام الفتيات بالاشتراك فى المناظرات والمحاضرات التى اقيمت داخل وخارج الجامعة .

وعلى كل حال فقد ادى دخــول الفتاة المصرية الجامعة الى اثبات وجــودها ، وبانها لا تقــل قدرة وكفاءة عن الفتاة الأوربية ، كما أنهــا لا تقل ذكاء ومقدرة عن الرجل .

وفى عــام ١٩٣٣ تخرجت أول دفعـــة من طالبات الجامعة المصرية وكانت مكــونة من نعيمة الايوبى من كلية الحقــوق وسهير القلمــاوى ، وفاطمة ســـالم ، وفاطمة خليل من كلية الآداب ولم يقتصر الأمر على ذلك بـــل ان كلية الآداب ضمت ثلاثة منهن نـــواة لاعضاء هيئة التدريس بها وهن ســـهير القلماوى فى اللغة العربية ودرية فهمى للانجليزية وفـــاطمة ســـالم للدراسات القديمة (٨٣) .

وقد اثبتت خريجـــات الجامعة من الفتيات القدرة على منافســـــة الرجـــال فى الحصول على الدرجات العـــالية وتولى المنـــاصب الاكاديمية فى الجـــامعة نفسها ، واذا نظرنا الى المكانة التى تحتلها المرأة فى الجامعة حـــاليا يتضح أنها تشـــغل جميع المناصب الاكاديمية فيها على اختـــلاف أنواعها ابتداء من وظيفة معيد الى رئيس قســـم وعميد .

ولم يقتصر الأمر على ذلك بل واكبه ايفاد الفتيات المصريات فى بعثات الى الخارج للتأهيل فى التخصصات غير المتوافرة فى الجامعات ، وكـذلك التخصصات العالية التى تؤهلهن للتدريس فى الجامعات الى جانب التأهيل اللغوى فى اللغات الانجليزية والفرنسية لاعداد مدرسات وطنيات يحـللن محل الاجنبيـات[٨٤] .

وبعد أن اثبتت الفتـاة الجامعية مقدرتها على المساواة بالرجل كان عليهـا أن تواجه معركة اخـرى وهى الحصـول على وظيفة والخروج الى معترك الحيـاة العملية ولكن بعض العـائلات استنكرت ذلك ورأت انه من الخير للفتـاة الجـامعية الا تزج بنفسـها فى ميدان العمل من غير تسـلح ولا استعداد وانه من الأفضـل بعد تخـرجها الاستفادة بهـا بتزويجها لتكون نـواة صالحة للبيت المصرى الحديث [٨٥] خصوصا وان مشـكلة المتعلمين المتعطلين ستزداد سوءا اذا ما شاركت الفتاة الرجل فى الحياة العـامة [٨٦] .

يضـاف الى ذلك أن المعارضين لسـفور المراة وخروجها الى مجال العمل قاموا بحمـلة شديدة لوقف تيـار حصول المراة على وظيفة واتبع بعضهم فى ذلك الأسـلوب اللاذع الذى يستنهض همم الرجال ويدفعهم الى معـارضة تشـغيل النساء ونقتطف فى هذا المقـام بعض ما جاء فى مجلة كل شىء والدنيـا فى يوليو ١٩٣٢ فاعلا توقيع فضـولى ذكرت هذه الابيات

حـلقت رجـالكم اللحـى ... لمـا عـلا أمـر النسـا
والآن ترتـزق النسـاء ... وتاكـلون بـلا عنـاء
فليحـلق الموسى الشـوارب ... انهـا منـكم بـراء [٨٧]

وبالرغم من كل ذلك فقـد كان هناك راى آخر يرى أنه لا مانع من اشتغال الفتاة بعد تخرجها لتجـاهد بجانب الرجل فيستفيد منها المجتمع أكثر من ركونها الى الحيـاة المنزلية لأنه لا معنى أن تعد الفتاة للحيـاة ، ثم تحرم من العمل بعد هذا الاعداد [٨٩] .

وتحفظ البعض نحـو هذا الموضوع فراى توجيـه الفتيـات بعـد تخرجهن الى الأعمـال التى تتناسب مع قدراتهن والتى يختلفن فيهـا عن

الرجـــال [٩٠] واخيرا رجحت كفة المؤيدين لدخـــول المراة مجال العمـــل فعندما رغبت نعيمـــة الايوبى أولى خريجات كلية الحقوق فى العمل بالمحاماة ترددت لجنـــة قبول المحـــامين فى الموافقة على قيد اسمها فى أول الأمر ، ثم انتهى الخـــلاف بين اعضائها بانتصـــار جبهة المؤيدين لقبولها وعلى كل حـــال فالملاحظ أن الذى دافع عن المـــراة المصرية وتعليمها الجامعى ثـــم خروجها الى مجـــال العمل ومساواتها بالرجل كان الرجال لا النســـــاء أصحاب الشـــأن فى هذا الموضـــوع ويبدو ذلك واضحا من الالتماسات التى قدمت الى القصر الملكى والتى يعرب فيها أصحـــابها عن استيـــائهم مـــن المحاضرات التى يلقيها بعض الرجـــال مثل محمود عزمى افندى والدكتور ميخائيل فرج ومحمد توفيق دياب ، داخل الحرم الجامعى ، ودعوتهم فيها للمســـاواة بين المراة والرجل وعلى كل حـــال فانه بمضى الوقت دخـــلت المراة مجـــال العمل ، وعملت فى جميع الوظائف العامة واصبحنـــا نســـمع عن اســـماء مصريات برزن فى كافة ميادين الحياة حتى وصلن الى منصـــب الـــوزارة .

والســـؤال الذى يطرح نفسه هو هل خروج المراة الى مجال العمـــل يحكم حركة التطـــور والانتقـــال التى يمر بها المجتمع قد اثر على شخصيتها الاجتماعية ايجابا ام سلبا ؟

لقد اظهرت دراسة نفســـية اجتماعية حديثة ان خروج المراة الى مجال العمل برغم ما قد يترتب عليه من آثـــار سلبية على ادائها كزوجـــة وكأم اى على ادوارها التقليدية كانثى فانه قد اضـــاف ادوارا جديدة الى ادوارها الســـابقة فأدى الى انضـــاج شخصيتها ، وزاد من ثقتها فى نفسها واكسبهـــا قدرا من المرونة وحسن التصرف فى المـــواقف الاجتمـــاعية التى تتعرض لهـــا يضـــاف الى ذلك انه كلما زاد مستوى التعليم عند المراة زادت قدرتها على التخلص من الآثار الســـلبية لخروجها الى العمـــل ومكنهـــا من التخلص من آثـــار الصراع الذى ينشـــأ لديها نتيجة لادوارهـــا المتعـــددة خاصة فى ظل ظروف مجتمع يمر بمرحلة انتقالية كمجتمعنا [٩٢] .

وهكذا اسهم التعليم الجـــامعى فى اعداد المراة المصرية اعدادا اتاح لها الخوض فى كافة مناحى الحيـــاة السياسية والاجتماعية والاقتصادية فى

مصر والتجـــاوب مع حركة تجديد المجتمع والتفاعل معهـــا ، ولكن يجب أن يعترف النســـاء بأن وراء ذلك كانت جهود بذلها بعض الرجال الذين وقفوا بجـــانب المرأة ودافعوا عن حقوقها .

وكذلك استطاعت الجامعة تحويل النصف الآخر من المجتمع الى قـــوة مثقفـــة عاملة ومنتجة فى كافة ميـــادين الحياة ، تســـاهم فيما يصبو أليه الوطن من مراقى التقدم بين الأمم الناهضة .

٦ — بين الأدب والتـــاريخ

مجتمع القاهرة من خلال ثلاثية نجيب محفوظ (*)

تعدد الجـــوانب فى كتـــابات نجيب محفـــوظ دفعت بالعـــديد مـــن المتخصصين خصوصا الأدبـــاء والفنانين والصحفيين الى الانكباب على هذه الكتابات ودراستها ، وابداء الراى وجهات النظر حولها أما عن المـــؤرخين وباحثى التـــاريخ فانهم لم يطرقوا بـــاب هذه الكتابات بالدراسة وان كان معظمهم قـــد قراها وربمـــا كان ذلك لتشككهم فى أن المادة الروائية تصـــلح أساسا لكتابة التـــاريخ .

والهدف من هذه الدراسة هو تلمس الخيوط التى حاكها نجيب محفوظ فى وصفه لمجتمع القاهرة فى فترة ما بين الحـــربين وتســـجيله لواقـــع البيئة المصرية بشقيهـــا الاجتماعى والســـياسى ثم محـــاولة الاجـــابة على التساؤلات الآتية :

هل الأدب الروائى يمكن أن يصلـــح مادة يعتمد عليها فى كتابة التاريخ؟ وما هى الخيـــوط التى يمكن أن يتلمســـها المؤرخ فى وصف أديب للمجتمـــع الذى يكتب عنه ، وهل اعتمد نجيب محفوظ فى كتابه رواياته على الدراسات التـــاريخية الجـــادة ؟ وهل كان نجيب محفوظ أديبـــا لطبقة بعينها أم كان أديبـــا لكل طبقات المجتمع ، وهل قدم نجيب محفوظ فى ثلاثيتـــه حلولا للمشـــكلات التى طرحها أم تعرض لهـــا دون أن يقدم لها حلولا .

وقبل أن نتعرض لاطـــار الثلاثية الاجتماعى والسياسى ينبغى لنـــا أن نتعرف على كاتبها .

(*) القى هذا البحث فى سمنار كلية البنات جامعة عين شـــمس فى الثلاثاء ١١ ديسمبر ١٩٨٤ .

ولد نجيب محفــوظ فى حى الحســين أكثر احياء القاهرة شعبية فى عام ١٩١٢ من أسرة متوســطة لا تتمتع بشىء من الثراء ، ولم يكن لها سوى الدخــل المحدود الذى يعــود على ربهـــا من عمله وعايش هذه البيئة ، وعــاصر مشــاكلها ، واهتم بقراءة الروايات البوليسية فى مراحــل حيــاته الأولى ، ودرس الفلســفة فى المرحلة الجــامعية بكلية الآداب حتى تخرج منهــا فى عام ١٩٣٤ ثم أخــذ يحتطب بنفســه ثقافته الحرة فــأكثر مــن الاطلاع على انتــاج رواد الأدب فى مصر ، وتأثر بشكل خاص بكتــابات سلامة موسى ، ثم واصــل قراءاته للاداب الأجنبية واطلع من خلالها على مناهج كتابة الرواية المختلفة (٩٤) مما كان له أكبر الأثر فى ثقافته الفنيــة التى اعــانته على كتابة الرواية بالمســتوى الرفيع الذى بلغته وشــهد له به معظم نقــاد الأدب العربى الحديث وغيرهم يضــاف الى ذلك أنه ظــل مغرما بقراءة التاريخ المصرى والاستعــانة به فى كتابة رواياته ، وقد يرجع ذلك الى تأثره بالتيــار القــومى الذى اتجه المثقفون المصريون الى احيائه كــرد فعل لتغلغل الثقــافة الأوربية والاحتلال البريطانى ، وربما يرجــع أيضا الى أنه عــاصر فى فترة شبــابه الاكتشافات الهــامة للعــديد مــن الآثــار الفرعونية . والثلاثية باجزائها انتهى نجيب محفوظ من كتــابتها قبل قيــام ثورة ٢٣ يوليو بثلاثة شــهور ، وكانت حين دفع بها الى المطبعــة فى المرة الأولى عبــارة عن رواية واحدة فى مجلد واحد غــير أن اعتراض الناشر على ضخامتها واقتراحه بتقسيمها جعل نجيب محفوظ يقسمها الى ثــلاثة أجــزاء .

وهكذا ظهرت الرواية ثلاثية مكونة من بين القصرين ، وقصر الشوق ، والسكرية(٩٥) .

وعن الفترة الزمنيــة التى شملتها اجــزاء الثلاثية يتضح انها شملت ثــلاث فترات منفصلة فرواية بين القصرين جرت حوادثها بين أكتوبر ١٩١٧ الى ابريــل ١٩١٩ ، ورواية قصر الشــوق وقعت أحداثها من يوليو ١٩٢٤ الى ٢٣ اغسطس ١٩٢٧ أما عن رواية الســكرية فقد جرت حوادثها ما بين ينــاير ١٩٣٥ الى صيف ١٩٤٤ .

وقد اعتمد نجيب محفوظ فى كتــابة ثلاثيته على ذاكرته التى اختزنت

تلك الاحــداث ابان طفولته ، وعلى اقــوال شــهود عيان هذه الفتــرات ، هذا بالاضـــافة الى رجوعه الى بعض الصحف .

والثـــلاثية فى مجموعها تنتمى الى ادب القضـــايا الفكرية الذى يبلور قضية او ازمة معينـــة ، يقوم بتجسيدها اكثر مما يستهـــدف تحليلهـــا[٩٦] وتستند عبر الســـياق على ادلة اجتماعية وبراهين تاريخية تأتى فى ثنـــايا الرواية وتؤدى وظيفتها ، وتقتحم نفســـها على اهتمام القـــارىء دون أن تمنعه من مواصـــلة قراءته الأدبية .

ومحور الثــلاثية يدور حـــول اسرة مصرية من طبقـــة محـــدودة تتكون من ستة افراد عـــاشت فى احد احيـــاء القاهرة القـــديمة المتاخمـــة لمسجد ســـيدنا الحسين فى شارعى بين القصرين ، وقصر الشوق وحـــارة الســـكرية عبر ثـــلاثة اجيال من الآباء والأبناء والاحفـــاد لكل منهم فـــكره الخـــاص ورؤيته للمستقبل .

وللثلاثية وجهـــان احدهما يحمل طـــابعا اجتماعيا تمثل فى تصـــوير الواقع الاجتماعى للقـــاهرة فى فترة ما بين الحربين من خـــلال شـــريحة معينة من طبقات المجتمع المصرى ممثلة فى أسرة احد التجـــار التى يتـــوزع صراعها فى الحياة بين التمسك بالتقاليد من ناحية التمـــرد الخفى عليهـــا والتطلع الى الحرية فى مختلف اشكالها من ناحية أخرى .

اما الوجه الآخر فيتمثل فى تصوير نجيب محفوظ للاحداث الســـياسة الكبرى فى مصر من جهـــة ، ولمسار الحركة الوطنية المتمثلة فى ثورة ١٩١٩ واهدافها من جهـــة أخرى .

وليس معنى ذلك أن وجهى الثـــلاثية الاجتماعى والسياسى منفصلان بـــل كثيرا ما تكون المشـــكلة السياسية متفرعة من مشـــكلة اجتمـــاعية وبالعكس .

وعن القضـــايا الاجتماعية التى صـــورها نجيب محفوظ فى ثـــلاثيته فقد هـــدف منها الى رصـــد حركة المجتمع المصرى من خلال تتبعه لحيـــاة اسرة التاجر احمد عبد الجـــواد اليومية ، وتفاعلها مع مجتمعهـــا الصغير

من ناحيــة ، ومع الأحداث الســياسية التى مرت بهــا مصر بين الحربين من ناحيــة اخرى كما صور القضــايا التى كانت تشغل اهتمــام الطبقــة الوســطى ، وتتبع تطور مفاهيمها وقيمها .

فقد تتبع نجيب محفوظ هــذه الأسرة من خلال واقع المجتمع المصرى الملىء بالمتناقضات ، ومن خلال التقاليد المتوارثة بمثالبها ومشــاربها ، ومحاولات الكبــار والصغار التمرد عليها ، ولكن بطريق خفى فقدم القاهرة المعزية ، وكأنها عــالم تراكمت فيه عادات وتقاليد تحــاول فرض نفسها على ساكنيها وتحدد ســلوكهم كما صور لنا نماذج من التفكير رســمت صورا للقديم والجــديد ، والتقليد والتجــديد ، والجمــود والتحــرر ، والتخلف والتقــدم وكان الصراع بين هذه الأطراف هو احدى سمات الحياة والحركة فى الثلاثية .

وعن شخصيــات الثلاثية فقد ربطهــا الكاتب بمحيطها الاجتمــاعى وبمنظور صــور فيه الانسان المصرى تصويرا بارعا حمل فى ثناياه ما يدور فى اعمــاق النفس البشرية من خير وشر ، ومــن احــاسيس ومشــاعر متضاربة ، كما صــور ما يدور فى واقع مجتمع القاهرة فى النصف الأول من القرن العشرين من عادات وتقاليد تتجاذبها عوامل التجديد من جهــة ، وعوامل المحافظــة على القديم من جهــة أخرى ، فرب الأسرة سى السيد كان مثــالا للرجل الشرقى الذى يــدير بيته بطريقة استبدادية بينما فى خارج منزله يحيــا حيــاة مختلفة ســواء فى دكانه من خــلال عالم التجارة أو فى مجالس الأنس والســهر والخليلات والعــوالم التى يحياها ليلا ، ورغم ذلك فهو يحرص على ان يمسك بزمام اسرته يحركها كما يشاء ويلقى الاحترام الكامل من زوجتــه واولاده ، ويحــاول ان يظهر امامهم بمظهر الجــد والصرامة والاستقامة بالرغم من أنه كان صورة للعبث والمجون خــارج بيته لدرجة أن ابناءه لم يتعرفوا على وجهه الباســم الا بعد أن دخل احدهم عليه دكانه فجأة فرآه يمــازح احد اصدقائه ، ويستمر الأمر على ذلك حتى يكشف احد الأبنــاء النقــاب عن الجانب الخفى من حياة أبيه حــين رآه صدفة من ثقب البــاب فى بيت زبيــدة العالمة ، وهو يهرج ويضرب بالدف بين الخليلات والأصدقاء ، فتتغير نظرته الى والده .

وامينة الزوجة كانت مثـــالا للمرأة المحجبة المطيعــة لزوجهــا والتى تحبه ، وتعتبر نفســـها خادمة له ، وتخشى غضبه ، وتحـــاول تجنب اى مخـــالفة لرايه ، ومع ذلك يتغلب عليهـــا الجانب الدينى ، وتدفعها نوازع الايمـــان والشوق لرؤية مسجد الحسين الى القيام بمغامرة خطرة وخيمة العـــواقب بزيارتها الحذرة له دون أوامر من زوجها مما كلفهـــا الكثير(٩٧) حيث خرجت من بيت زوجها مطرودة وذهبت الى بيت أمها بالخرنفش .

وهكذا صـــور نجيب محفوظ الصراع بين النوازع الدينية داخل نفس أمينـــة وبين تمسكها بالتقـــاليد التى تقضى باطاعة اوامر زوجها ، وتغلب النزعة الدينيـــة على التمســـك بالتقاليد .

وعن بنـــات الأسرة فقد صورهن نجيب محفوظ بالمحجبات المحافظات على التقـــاليد المتوارثة التى تقضى بألا تخرج الابنـــة من بيت ابيها الا الى بيت زوجهـــا ، ولا من بيت زوجها الا الى القبر ، ومع ذلك كن يحـــاولن اختلاس النظر من حين الى آخر من المشربية لمشاهدة ما يحدث فى الشارع ومن يمر به من الشبان .

كما تعرض نجيب محفـــوظ من خلال هذه الأسرة الى احد التقـــاليد المتوارثة فى الأسرة المصرية وهى زواج البنت الكبرى قبل الصغرى مصور البنت الكبرى فى غير جمـــال اختها الصغرى الشـــقراء ، وكانت النتيجـــة الطبيعية لذلك ان تقدم الخطـــاب لخطبة الصغرى ، بينمـــا لم يتقدم للكبرى احد منهم مما ادى الى تعطيـــل امر زواج الصغرى وخيبة املهـــا رغم حبها لضـــابط البوليس الذى كانت تـــراه ويراها من المشربية ، كمـــا ادى ايضا الى اصـــابة البنت الكبرى باضطراب فى ســـلوكها وتعـــاملها مع افـــراد اسرتها مما اثـــر فى مجـــرى حياتها لعدم تقدم احد لخطبتها ولاحســـاسها بابتعاد راغبى الزواج عنها .

أما عن ابنـــاء أسرة عبد الجـــواد فقد صورهم نجيب محفوظ شأنهم فى ذلك شـــأن أبناء معظم الأسر المصرية من حيث اختلاف التكوين والمشارب رغم ان الأرضيـــة الاجتماعية التى انبتتهم واحدة ، فكان منهم الكســـول الخـــامل المحب للهو الذى يقنـــع بعمل كتابى فى احدى المدارس الابتدائية

يذهب اليه مكرها ، وفى طريق عودته يعبث ويتفكه اثناء وقوفه عند بائع البسبوسة ، ويشارك فى كل شىء مشاركة سلبية بالقلب واللسان دون العمل ، ومنهم الجاد الذى درس الحقوق بشغف ، وتمنى أن يبلغ من التعليم احسنه ، واتخذ من السياسة والوطنية قبلة له تختفى امامها كل مغريات الحياة ومع ذلك تلتهب عاطفته فى حبه الشديد لمريم بنت الجيران فيقابلها فوق السطوح ، ويغازلها خلال اللقاء الليلى بينهما ، ومنهم الصبى الصغير الذى يذهب الى المدرسة مكرها وتتناقض أفكاره بين الأحاديث التى يسمعها فى المدرسة وتلك التى تطرق اذنه من أمه فى المنزل ، ومنهم اليمينى الذى يتمثل فيه فكر الاخوان المسلمين ، ويجد فيه الطريق للاصلاح ، ومنهم اليسارى الذى يرى فى الحل الماركسى السبيل الى الحياة الأفضل .

ومن خلال ذلك يبرز نجيب محفوظ تأثير الوراثة على ابناء الأسرة ، فيصور ياسين وقد ورث عن أبيه ازدواجيته فى الحياة ، وان كانت بصورة مختلفة فازدواجية الأب كانت مقسمة بين حياته الجادة فى البيت ، وحياة اللهو خارجه ، أما ازدواجية ياسين فبرزت فى حرصه على مظهره واناقته رغم اهماله لثيابه الداخلية اهمالا ملحوظا[٩٨] بمعنى أن كل منهما كان يختلف فى ظاهره عن باطنه كما صوره وقد ورث من أمه هنية تلك المرأة اللعوب حبها للملذات ، وسرعة الملل من الزواج ، فبعد أن زوجه والده من زينب ابنة صديقه محمد رفعت سئمها قبلما ينتهى شهر العسل ، ورجع الى خليلاته مثل نور الجارية وغيرها ، وكانت الفضيحة الكبرى حين ضبطته زوجته متلبسا ، ورغم فداحة هذه الخيبة التى منى بها ياسين فى حياته الزوجية ، ورغم نفوره من رتابة هذه الحياة فقد وضعه نجيب محفوظ داخل غلاف الرجل الشرقى الذى يجد فى الزواج المستقر والملاذ والرعاية ومن هنا فانه لم يفكر لحظة فى قطع حياته بزوجته نهائيا .

ومن خلال هذه الأسرة أيضا يتطرق نجيب محفوظ الى عادة الحسد السائدة بين المصريين ، وبخاصة اذا كان الحاسد ليس له ولد والمحسود كثير الأولاد فصور اصطحاب احمد عبد الجواد لأبنائه

الى مسـجد الحسين لتادية صلاة الجمعـة لالتماس البركة ، وخشـية الأم من أن تصيب عين الحسـود احدا من ابنائها عند زيـارتهم لمسجـد الحسين بصحبة والدهم وحيرتها بين استحسان زيـارة ابنائها للمسجـد من ناحيـة ، وخشيتها من أن يحسدهم حاسد ، وتدعو الله أن يقيهم شر عين الحسود من ناحيةأخرى .

وعن الحب بين الرجل والمراة ، وعـدم تاثيره القـوى فى هز الفوارق الطبقيـة بين ابنـاء المجتمع اشـارت السكرية الى وقـوع أحد أفراد أسرة سى السيد فى حب فتاة ارستقراطية تفوقه مالا وجاها ، ولكنها رفضت الزواج منـه لأن مرتبه يقل عن خمسـين جنيها ، رغم علاقة الحب الملتهبة من جـانبه تجاهها ، وفضلت عليه ابن المستشـار الذى يتفق وطبقتهـا مما جعله يعترف « بأن القلب فى اهـوائه لا يعرف المبادىء ، وهيهات أن تتعـارض المبـادىء الشعبية مع الحب الارستقراطى » يضـاف الى ذلك ان هذا الفـارق كان له اثر بصورة معاكسة فى علاقته بسوسن ابنة عامل المطبعـة فرغم حبه الشـديد لها فان أسرته لم توافق على زواجـه منهـا بسهولة ، كمـا أنها رفضت زواج اخيه من ابنة زنوبة العوادة لعدم اهلية هـذا الـزواج .

ورغم هذا التصـوير فى تأثير الفوارق بين الطبقـات بحيث يكـون لكل طبقـة مكانتها فى الزواج فانه من غير المنطقى اطـلاق هذا القول على عـلاتة ففوارق الطبقة وفوارق السـن أيضا لم تكن وحدها هـى التى تجعل من الزواج غـاية مستحيلة خصـوصا اذا تواجد حب متبادل بين رجل وامراة .

فقد كانت التجـربة العـاطفية بين كمال وعايدة قائمة على طـرفين متناقضين تمـاما ، فالجانب العـاطفى عند كمال تمثل فى الوفاء والعطاء والعشـق الروحى [٩٩] أما عايدة فقد كان المطلب الأول عندها هو شغفها بأن تكـون فتاة احـلام كل ما يتصل بها من الشباب ، وشتان ما بين فكر كل منهما [١٠٠] .

بهذا التنـاقض بين ما ترغبه النفس البشرية وما ترهبه صور نجيب محفـوظ الانسـان المصرى تصـويرا قال الدكتور طه حسين عن صاحبه

أن نجيب محفـــوظ « أصبح فقيها بالنفس الانسانية بارعا فى تعمقها وتحليلها قـــادرا على أن يطلع قارئه على اسرارها ودقائقها [١٠١] .

وحين نرجـــع الى ما كتبه نجيب محفوظ عن الأسرة المصرية من حيث سيطرة الأب على اسرته ، وخضـــوع المرأة لزوجها خضوعا كاملا وخشيتها لمخـــالفة أمره ، وارتدائها الحجـــاب يتضح أنه بالرغم مما نادى به قاسم أمين فى كتـــابه « تحرير المرأة » و « المرأة الجديدة » حول ضرورة تغيير وضـــع المرأة المصرية ، ودعوته الى الســـفور ، وبالرغم من الأفكار التى وردت الى مصر حـــول أن الحرية الشخصيـــة أصبحت حقا لكل انســـان ذكرا كان أو أنثى فان الطبقـــة المصرية الوسطى كانت بصفة خـــاصة هى المحـــافظة على التقـــاليد ، وهى التى ظلت فى معظمها متمسكة بتلابيب المـــاضى وتخشى الخروج عليه ، ولكن ذلك لم يســـتمر طويلا من خـــلال المعركة بين القديم والجديد ، والصراع بين التراث والموروث ، والنقـــلة الحضـــارية التى حدثت فى مصر نجد ان اسرة احمد عبد الجواد فى السكرية تختلف عنهـــا فى بين القصرين ، ففى بين القصرين كانت الشمس والاجرام الســـماوية ، وليست الســـاعة هى التى تمثل المواقيت بالنســـبة لهـــذه الأسرة فالفجر يعنى استمرار دقـــات العجين المرتفعة معلنة يوما جديدا ، كما يعنى استعداد الزوجة لاعـــداد فطور للاسرة ، والصـــــباح يعنى استعداد الأسرة لاستقبال يوم جديد ، ومغيب الشمس يعنى الخلـــود الى الراحة وجلوس الأسرة فى مجلس القهوة [١٠٢] .

اما فى السكرية فقد خطت هذه الأسرة خطوات واسعة نحو المدنية الحديثـــة فدخلت الكهرباء منزلها ، وســـمع المذياع من داخل جدرانها [١٠٣] وانشئت الجـــامعة ، والتحق بها احفـــاد اسرة عبد الجواد يضـــاف الى ذلك ان السيد نفسه أفاد من أثر هذه المدنية أثنـــاء مرضه رغم معارضته لها قبل ذلك .

هذا عن بعض ملامح الجـــانب الاجتماعى فى ثلاثية نجيب محفـــوظ التى رصـــدها بوعى وبنضـــج وحساسية شـــديدة عكست واقع مجتمعنا المتنـــاقض ، وكانت احيـــاء لدينا كاملة من النـــاس بافكارها وآرائهـــا واحساساتها وتميزاتها ومغامراتها [١٠٤] .

وقد ظهر من ثنايا هذا كله مدى التغيير العميق الذى طرأ على حياة الأسرة المصرية منذ أن صورها نجيب محفوظ فى بين القصرين الى أن انتهى بها فى السكرية ، كما ظهر مدى الصراع بين الأجيال من ناحية الحفاظ على القيم والتقاليد الموروثة من جهة ، وبين تيار التجديد وعدم الانغلاق من جهة أخرى ، ولكن هل يعنى هذا أن أدب الثلاثية يمكن اعتباره صورة لتاريخ مصر الاجتماعى فى النصف الأول من القرن العشرين .

الواقع أن الأديب أو الروائى ليس مطالبا بعمق الدرس ولا بدقة التحليل العلمى شأنه فى ذلك شأن المؤرخ الاجتماعى بقدر ما هو مطالب بأن يكون أصيلا فى تعبيره عن العاطفة الاجتماعية ، فنجيب محفوظ اتخذ من الاحداث الاجتماعية مادة وصل عن طريقها الى عيوب ومشاكل المصريين الاجتماعية التى لم ترتهن بفترة روايته بل مازلنا نعانى من بعضها حتى الآن . كما يلاحظ أن نجيب محفوظ فى ثلاثيته لم يقدم حلولا لعلاج ما يحيط بواقعنا الاجتماعى من مشاكل ، ولم يرسم طريقا للخلاص منها وانما اشار باسلوبه الروائى الى مواطن الضعف ، ومكمن المفاسد وأبان العلة وشخص الداء دون أن يوضح ما هو الدواء بل كان هدفه هو ايقاظ الرأى والتفكير والحفز على تحريك الدوافع الانسانية لدى الافراد والهاب شعورهم واذكاء حماسهم نحو ايجاد الطرق الموصلة للاصلاح ، خصوصا وان التنبيه الى الأحوال الاجتماعية غير المتوازنة يهدف الى واد الشلل الفكرى فى الأمة ، وقد يكون سببا لاستفزاز الشعور والعمل من اجل اعادة التوازن بعد فهم الناس لأخطائهم .

وعن الجانب السياسى فى الثلاثية فيتضح انه سار جنبا الى جنب مع الجانب الاجتماعى ، وان تعارض معه احيانا وتشابك معه أحيانا أخرى فمن خلال أسرة أحمد عبد الجواد يتتبع نجيب محفوظ الأحداث السياسية التى مرت بمصر ويربطها بحوادث تاريخية معروفة مثل اعلان الحماية ، ووفاة السلطان حسن كامل ، ونفى سعد زغلول، وقيام الثورة ، ووفاة سعد ، وعيد الدستور ... الخ . فعن الأغلال الثقيلة التى كبلت الشعب المصرى باعلان الحماية على مصر ١٩١٤ وما آل اليه أمر الناس من ضيق ومعاناة خلال سنوات الحرب وبادار

فى خلدهم صور نجيب محفوظ التــاجر احمد عبد الجواد فى صــورة رب الأسرة المستيــاء من اختفاء الســلع ، وارتفاع اسعارها خلال سنوات الحرب ، والذى يلعن جنــود الاحتلال الذين يسلبون الأهـــالى مــوارد رزقهم ، وفى نفس الوقت يذكرنا بمــا تردد من رغبة الأهالى على لسان امينة فى عــودة الخديو عبـــاس الى عرش مصر مؤيدا بجيوش عثمـــانية بعد أن عزله الانجليز حيث تقــول ربنا قــادر على أن يعيد الينا افندينا عباس ، كمـــا يذكرنا بعاطفة الولاء الدينى نحو الدولة العثمانية والتمسك بالخـــلافة على لســـان الشيخ متولى عبد الصمد الذى يسأل الله أن يعيد الى البـــلاد افندينا عباس مؤيدا بجيش من جيوش الخليفة .

وعن رغبة بعض المصريين فى انتصـــار الألمان على الانجليز يصور نجيب محفوظ هذا الموقف فيما يســـوقه على لسان ياسين من أن ينتصـــر الألمان وحلفاؤهم الاتـــراك حتى تســـترد الخلافة ما سلبه الانجليز منها ، ويعود الخديو عباس والزعيم محمد فريد الى مصر . وعن ثورة ١٩١٩ ونفى ســـعد زغلول واصحابه الى مالطـــة ، واستيـــاء طبقـــات الشعب المصرى لذلك النفى ربط نجيب محفوظ بين هذا الحـــدث وبين نفى عرابى الى ســـيلان فأوضح ما أصاب النـــاس من جزع وتساؤلهم « أيجـــرى نفس المصـــير على سعد وصحبه وينقطع ما بينهم وبين الوطن الى الأبد فتموت هذه الآمـــال الكبار وهى لا تزال فى مهد الأزهار » ونتيجـــة لهـــذا الاستياء تقوم الثـــورة ويشترك فيها فهمى مما آثـــار ردود فعل متباينة فى محيط الاسرة وتتطـــور المظاهرات الى معـــارك بين الشعب والانجليز لتشـــترك فيها جميع طبقات وطوائف الأمة هاتفة « يحيا الاستقـــلال ، ونموت ويحيا الوطن ، ويحيا سعد » .

ونتيجة لذلك يتصـــدى الانجليز لهذه المظـــاهرات بعنف ، ويسقط العديد من الشـــهداء ، ولم يقتصر الأمر على ذلك بل يتعرض الانجليز للمصريين بالمضايقات فى شـــوارع القاهرة وحاراتها فيشير نجيب محفوظ الى تعرض الانجليز لأحمد عبد الجواد بالقرب من بيته[١٠٥] والى ماأصاب ابنـــه ياسين فى المسجد ، ويفرج عن ســـعد ويتصافح الجميع ، ويتبادلون التهـــانى ، وتقوم المظـــاهرات التى عمت البـــلاد ابتهاجا بعودة ســـعد ثم يموت فهمى خـــلال هذه المظـــاهرات برصاصة طـــائشة بما يشـــير

به الكاتب الى تطـور الاحداث والايحـاء بانتكاسـة الثورة والنهـاية المنتظرة لها والملاحظ على موقف الطبقـة البرجوازية المصرية من هـذه الثورة انه بالرغم من أن هـذه الطبقة قد باركت الثـورة فانها فى نفس الوقت كانت تخشى أن يكون افرادها وقـودا لها فـالثورة عند احمـد عبد الجواد التـاجر من الاشياء الجديرة بالاحترام مادامت بعيدة عـن أولاده وعن بيته ، اما اذا اشترك فيها أبناؤه انقلبت فى نظره الى هوس ، وخـروج على المألوف مما نتج عنه انضمـام ابنه فهمى طالب الحقوق الى حركة الجهـاد الوطنى دون علم ابيه حتى لا يتعرض لثورته وغضبه .

كما يلاحظ أنه فى وصف نجيب محفـوظ لموقف الشعب المصرى من ثـورة ١٩١٩ نجده يلتقط الحـدث من كل زواياه فليس ابطـاله كلهم متحمسين للقضية الوطنية ، كمـا انهم ليسـوا بمنصرفين عنهـا ، ففهمى ثائر على الانجليـز يشارك فى الثـورة بفكره ودمه ، وزينب فى الجـانب الآخر تظهر غضبتهـا على سعد زغلول ، وبين الطرفين توجد درجات من الحمـاس .

وهكذا صـور نجيب محفـوظ البيئة المصرية خـلال ثـورة ١٩١٩ تصويرا قال عنه الدكتور طه حسـين « لست اعرف قاصا صور الثورة المصرية فى اعقـاب الحرب الأولى كمـا صـورها نجيب محفـوظ ، صورها حية كأقوى ما تكون الحياة ، وصورها متغلغلة فى اعماق الشعب على اختـلاف طبقـاته مؤثرة فى حياة العابثين والجادين معا ، وفـى حيـاة الشيوخ والشباب والصبيـة جميعا مغيرة وجه الحياة المصـرية تغييرا تاما ، وصـورها بكل ما فيها من جـود الشباب بنفوسهم ودمائهم، وجـود الشـيوخ بأموالهم ، وجود الامهات والاخوات بأمانيهم ودعائهم، وصـورها بما فيها من قسـوة الانجليز وبطشهم ، وغدرهم واستخفافهم بكل شيء ، وبكل انسـان وبكل مكانة ، وانتهاكهم للحرمات وخـروجهم عن طور المتحضرين »(١٠٦) وتستكمل قصر الشـوق ما توقفت عنـده بين القصرين فتسرد تـاريخ مصر منذ تولية سعد الوزارة حتى وفـاته فتظهر خـديجة معبرة عن راى غالبية الشعب المصرى فى التمسك بزعامة سعد زغلول والكراهية لعـدلى وثروت فعندما ذكرها ياسين بعدلى وثروت استعاذت بالله ولقبتهما بالخونة الذين يهتف الناس بسقوطهم ليل نهار .

وبعد الضربة التى أصـــابت وزارة سعد زغلول بعد اغتيال السردار صـــور نجيب محفوظ خيبة الأمل التى اعقبت استقـــالة سعد ، فرمـــز الى أن هذه الاستقالة قد أدت الى أزمة دستورية ، والى ضياع السودان، كمـــا اشـــار الى أن قتل السردار كان ضربة موجهة الى وزارة ســــعد بهدف التخلص منهـــا .

وعن فجيعة الأمة المصرية فى مـــوت سعد زغلول ، عـــكس نجيب محفوظ صـــورة الشعب المصرى يوم الوفاة بتصـــوير كمال ، وهـــــو يهتف من الأعماق لرجال الثورة والنفى والحرية .

وعن الروح الرجعيـــة التى تمثلت فى السلطة الحاكمة التى حاولت أن تعصف بمكاســـب الشعب فى جهـــاده بالغاء دستور ١٩٢٣ واستبداله بدستور ١٩٣٠ فى عهـــد وزارة صدقى ، وتصريح وزير خارجية بريطانيا صموبل هـــور بعدم رغبته فى عودة دستور ١٩٢٣ ولا دستور ١٩٣٠ لعدم صـــلاحية أولهما للعمل ، ورفض الأمة للثانى عبـــر نجيب محفـــوظ فى السكرية عن أحاديث ومشـــاعر الناس حول هذا التصريح بقول أحدهم « يجب أن يرد على هور وتصريحه المشئوم » وقول آخر « ابن الكلب قال نصحت بأن لا يعاد دستور ١٩٢٣ ولا دستور ١٩٣٠ ما شأنه ودستورنا» .

ويقف نجيب محفوظ الى جانب حرية الشعب ، وتطلعه الى استكمال مقـــومات المجتمع الأمثل ، واحساسه بكيانه ، ويشـــاركه فى قضـــاياه فينتقد الحكـــام الذين عبثوا بذلك الجيل الحائر المعذب فى صورة كمـــال الذى وعى حـــاجة الأمة الى الثورة ضـــد طغيان هؤلاء الحكام واصفـــا محمد محمود ، واسماعيل صدقى وتوفيق نســـيم بأنهم سلسلة مشئومة من الطغاة والخونة غرتهم قوتهم فزعمـــوا أنهم أوصيـــاء على شـــعب قـــاصر (١٠٧) .

وعن دور الأحزاب الســـياسية فى مصر يقيم نجيب محفوظ دورهم على لســـان عدلى كريم رئيس تحرير مجـــلة الانسان الجديد فيقول « الوفد حزب الشعب ، وهو خطوة تطـــورية خطيرة وطبيعية فى آن واحـــد . كان الحزب الوطنى حزبا تركيا دينيـــا رجعيا أما الوفد فهو مبلور القومية

المصرية ، ومطهرها من الشوائب والخبائث الى انه مدرسة الوطنية والديمقراطية ، ولكن المسألة ان الوطن لا يقنع وما ينبغى له أن يقنع بهذه المدرسة الا اننا نريد مرحلة جديدة من التطور ، نريد مدرسة اجتماعية لأن الاستقلال ليس بالغاية الأخيرة ، ولكنه وسيلة لنيل حقوق الشعب الدستورية والاقتصادية والانسانية .. ولكن ينبغى أن يكون الوفد نقطة البدء ، أما مصر الفتاة فهى حركة فاشستية رجعية مجرمة ، ليست دون الرجعية الدينية خطرا وهى ليست الا صدى للعسكرية الالمانية والايطالية اللتين تعبدان القوة ، وتقومان على الاستبداد ، وتزريان بالقيم الانسانية والكرامة البشرية . ان الرجعية داء مستوطن فى الشرق كالكوليرا والتيفويد فينبغى استئصاله » (١٠٨) .

وفى تقديرنا ان نجيب محفوظ رمز باسم عدلى كريم الى الكاتب التقدمى سلامة موسى خصوصا وانه يمكننا أن نعثر على مثل هذه الآراء فى كتابات سلامة موسى المتبعثرة ، كما رمز بالانسان الجديد الى المجلة التى أسسها سلامة موسى فى منزله بالفجالة عام ١٩٢٩ والموسومة « المجلة الجديدة » .

أما عن تقييم الأحزاب الذى طرحه نجيب محفوظ فاننا نرى أنه كان لكل حزب دوره فى الحياة السياسية المصرية سواء اكان هذا الدور ايجابيا أم سلبيا ، وانه اذا كان قد انحاز الى حزب الوفد فانه انحاز الى المبادىء التى نادى بها الوفد اثناء الثورة كالاستقلال والديمقراطية والقومية التى تجعل من مصر وطنا حرا للمصريين على اختلاف عناصرهم واديانهم (١٠٩) وبالرغم من اتهاماته للحزب الوطنى بانه كان حزبا تركيا رجعيا ، فمن الصعب أن ننكر أن هذا الحزب نجح فى توجيه جماهير الشعب المصرى فكريا ونفسيا فى فترة من احلك الفترات التى مرت بها مصر قبيل الحرب العالمية الأولى ، وانه هو الذى اضاء الطريق لقيادة ثورة ١٩١٩ .

وعن تزوير الانتخابات فى مصر وسقوط النحاس ومكرم يعبر نجيب محفوظ عما يجيش فى صدر الشعب فى صورة كمال الذى يقف عند

الديمقراطية والدستور فيقول « انتخابات مزورة ، وكل شخص فى البلد يعلم انهــا مزورة ، ومع ذلك يعترف بها رسميا ، وتحــكم بها البلاد ، ويعنى هذا أن يستقر فى ضمير الشعب ان نوابه لصــوص سرقوا كراسيهم ووزراءه لصــوص سرقوا بالتــالى مناصبهم وان ســلطاته وحكــومته مزيفة مزورة ، وأن السرقة والتزييف والتضليل مشروعة رسميا ، افلا يعذر الرجل العــادى الذى كفــر بالمبــادىء والخــلق ، وآمــن بالــزيف والانتهازية (١١٠) .

وفى نهاية الثلاثية يبرز نجيب محفــوظ دور اليســاريين وأفكارهم حــول الثورة الأبدية ، ودخولهم السجن مما يعنى أن اليسار المصرى قد دخل مرحلة جديدة من مراحل ازمة الحرية .

وهكذا يتضح تطــور المفهوم السياسى لدى شخصيات الثلاثية فبين القصرين مثلت حــركة الانتماء الى الحزب الوطنى ، وارهاصات تكــوين الوفد وموقف فهمى البطــولى ابان ثورة ١٩١٩ ، .

وقصر الشوق مثلت المرحلة بين الانتمــاء الوفدى والانتماء اليسارى بينمــا الســكرية مثلت الانتماء نحو اليسار بعد ان عجز حزب الوفــد على أن يقدم حلولا للمشــكلات الاجتماعية ، وللطبقات الشعبيــة التى آزرته فى كفــاحه الوطنى .

وهكذا رصــدت ثلاثية نجيب محفوظ تاريخ مصر فيما بين الحربين فى صــورة روائية أقرب الى الحقيقة منها الى الخيــال ، ومما يلاحــظ على هذه الكتابات ان الثوريين كانوا على هامش الحيــاة السياسية لا فى قلبهــا ، وانهم جميعا كانوا من صغــار البرجوازيين الذين لم يتلقــوا المبــادىء الثورية عن طريق المعــاناة الطبقية ، ولكن عن طريق قراءتهم وثقافتهم العقلية ، كمــا يلاحظ انه بالــرغم من الاحــداث التــاريخية المعروفة التى ذخرت بها الثلاثية فانها أولا وقبل كل شىء كانت عملا روائيا لا تاريخيــا ، واذا اعتمدنا عليها فى دراساتنا للمجتمع القــاهرى فــى فترة ما بين الحربين فينبغى أن نتقبل ما بها بحرص وحــذر شــديدين خصوصا وأن العمل الروائى يعتمــد على الخيــال بجانب الواقع ، وقــد

يستلزم ذلك كما يذكر نجيب محفوظ استخدام عمليات المكر والحيل[١١١] ومن هنا فان من المغامرة غير العملية الاعتماد عليها ، وان كان يمكن الاستئناس بها فى التعبير عن الجو النفسى السائد خلال هذه الفترة فنجيب محفوظ حين كتب الثلاثية لم يؤرخ لمصر ، وانما كان دافعه الرغبة الفنية الخالصة التى يظللها احيانا الفنان ، وليست علاقة المفكر السياسى أو المؤرخ .

وبعد ان تعرضنا للثلاثية يطرح علينا سؤال نفسه وهو ما هى الطبقة التى يمكن أن تنسب اليها كتابات نجيب محفوظ الواقع ان الآراء اختلفت حول هذا الموضوع ، وخرج النقاد بمقالات تحلل أدب نجيب محفوظ تحليلا طبقيا ، وانتهى بعضهم الى انه اديب البرجوازية الصغيرة او المتوسطة الصغيرة [١١٢] ومن أبرز هؤلاء النقاد كان الدكتور عبد العظيم انيس الذى راى أن تعبير نجيب محفوظ عن البرجوازية الصغيرة كان صادقا ورائعا ، ومن هنا لقبه بروائى البرجوازية الصغيرة المصرية والمعبر بصورة رائعة عن مشاكلها [١١٣] .

وسماه البعض الآخر بأنه الكاتب التقدمى، واديب الطبقة العاملة مشيرين فى ذلك الى أن تصويره لواقع المجتمع المصرى من خلال الثلاثية كاد يقترب من الواقعية الاشتراكية حيث أن واقعية الثلاثية قد حملت فى ثناياها بصيصا خافتا من الضوء لبشائر فجر جديد من التغيير الذى يتكفل بمعالجة الفساد القائم وهذا من اسس الايديولوجية الاشتراكية التى ترى ضرورة فهم المستقبل والادراك الواعى بتطور المجتمع وبنائه ، والايمان بامكانيات الانسان فى صنع مستقبله ، والوصول بنفسه وبمجتمعه الى واقع افضل يكفل للانسان حريته وكرامته[١١٤] يضاف الى ذلك أن رؤية نجيب محفوظ لمشكلات المجتمع المصرى كانت رؤية يسارية اتضحت من تفهمه للبناء التركيبى للاحداث ودلل أصحاب هذا الرأى على صحة تسميتهم بما أدلى به نجيب محفوظ فى المحاكمة الأدبية التى اعدها له ضياء الدين الريس بأنه يؤمن بتحرير الانسان من الطبقية والاستغلال بكافة أنواعه ، وان يتمتع الفرد بحرية الفكر والعقيدة وبتحقيق الديمقراطية باشمل معانيها كما دللوا بما اشار اليه نجيب محفوظ من تعاطفه الشديد مع الماركسيين حيث قال « لا أستطيع أن

اعتبر نفسى ماركســيا رغم التعاطف الشديد » [١١٥] يضاف الى ذلك انهم تمســكوا بما ذكرته احد شخصيات الثلاثية عن الثورة الابدية والاضطهاد والآلام والعــذاب وما شابه ذلك .

والواقع ان نجيب محفوظ لم ينغلق ضمن دائرة فكرية معينة بل كان حيــاديا فى كتاباته ، ورافضا لفكرة التقوقع داخل رؤية معينة ، ودليلنــا على ذلك أن فكره فى الثلاثية لم يصــدر عن واقعية اشتراكية حين قــدم الحــل الدينى متمثلا فى الفــكر اليمينى الذى يمثله الاخوان المســلمون والمتجســد فى شخصية عبد المنعم ابراهيم شوكت كعلاج لتردى الاوضاع الاجتمــاعية والاخلاقية حيث يرفض لقــاء الظلام على بسطة السلم او فوق الســطوح مع بنت الجيران ويطلب أن يكون جزاء ذلك الرجم[١١٦] كما يعتبر الالحــاد هروبا من واجبــات الانسان حيــال ربه ونفســه والناس [١١٧] .

وفى نفس الوقت يعطى للحل المــاركسى متمثــلا فى احمد ابــراهيم الســبيل لحــل مشكلات المجتمــع عن طريق الايمــان بالعلم وبالانسانية وبالغد « وبما التــزمه من واجبات ترمى فى النهاية الى تمهيد الارض لبناء جــديد » هذا بالاضــافة الى أن شخصيــاته من الاشتراكيين تكاد تكون باهتة وغير واضحة ، وتبلغ هذه الحيادية روعتها حين يجعل المؤلــف من ممثلى الفكرين الاســلامى والماركسى شقيقين مع اعطائهما خلافا فى العمر اشــارة الى التتابع المرحلى للفكر الانســانى ، وهذا ما يــرغب فيه نجيب محفوظ من أن يشير الى أن لكل عصر فكره الخاص بــه وان لم يميز أحد هذين الفكرين على الآخر [١١٨] .

واذا كان البعض قد سمى نجيب محفوظ بــأنه اديب البرجــوازية المتوسطة والصغيرة ، وســماه البعض الآخر بأنه الكاتب التقدمى واديب الطبقــة العاملة فلا ندرى هل الاديب لابد أن يكون كاتبا لطبقــة معينة بذاتها أم أن أدبــه ينبثق من كافة الطبقــات ويعود اليها ، وهل مــن الضرورى وجــود طبقة معينة يعبر عنها الكاتب أم أن الأفضل هو وجود طبقــة يعبر الكاتب من خــلالها لقد رفض نجيب محفــوظ فكرة انــه يوجه انتــاجه لطبقة معينة بالذات عند كتابته ، وأوضح انه يصــور

النمـــاذج التى تعيش معـــه اكثر [١١٩] وانه اذا كانت له ايديولوجية فهى ليست فى عقله ، ولكنهـــا فى قلبه لا يكتب عنها وانما تعمل فى داخله [١٢٠] ومع كل ذلك فاننـــا نرى أن نجيب محفوظ بالرغم من حيـــادية كتاباته ، فانه كان اقـــرب الى التعبير عن الطبقـــة الوسطى واقرب تفهما لقضايا هذه الطبقـــة من غيره من الكتاب لدرجة انه استطاع أن يعبر بصـــورة واقعية صـــادقة عن ادق ما تعرضت له هذه الطبقة من مشاكل ، وكانه قد عايش هـــذه المشاكل وتعـــايش معها ، ويؤكد ذلك نفيه للحيدة التامة فى تصـــويره للثلاثية حيث يقول « وبالنسبة للثلاثية اعتقد أن فيهـــا وجهة نظر مؤكدة »[١٢١] .

وهكذا ارتبطت الثـــلاثية بالانسان المصرى ، وعبرت عما يعن له من مشـــاعر واحاسيس ، كمـــا انها ســـايرت تاريخ مصر وتطوره فى شكل يتنـــاسب مع مستوى القـــارىء المصرى حتى اصبحنا نرى فيها حياتنا ، وقصص كفـــاحنا وازماتنا بطريقة شملت الحياة المصرية بمثالبها ومشاربها لدرجـــة أن ادبه أصبح ظاهرة قومية نعتز بها .

٧ — الفيوم بين ثورتى عرابى وسعد زغلول

تفخـــر البـــلاد دائما بأبنائها البررة ، وتتبـــارى المـــدن والقـــرى والنجوع فى الاعتزاز بالاســـماء التى نبتت على ارضها ثم ســـطعت على مسرح الأحداث ، وكافحت من اجـــل وطنها ودافعت عن حريته واستقلاله وطـــالبت بحقوقه وعملت على رفعته ونيـــل آماله .

وفى الفيوم اســـماء لامعة برزت فى تاريخ مصر الحديث واشتركت فى احـــداثه ، واهم هـــذه الأســـماء اللواء على الروبى ابن قرية دفنـــو بمركز اطسا محـــافظة الفيوم والذى لم يشـارك فقط فى الثورة العرابية بل كان صـــاحب اليد الطـــولى فى تشكيل جمعية الضبـــاط السرية ١٨٧٩ التى كانت النـــواة ومركز التجمع للقـــادة الذين قاموا بهذه الثورة ، ومن هـــذه الأسماء اللامعة أيضا حمد باشـــا الباسل ابن الفيوم الذى شارك ســـعد زغلول فى كفاحه ونفى الى مالطة وتعرض للاضـــطهاد والتشريد كما سافر الى باريس لحضور مؤتمر الصلح والدفاع عن القضية المصرية.

ولم يقتصر دور الفيــوم على تفريخ الزعامات القادرة على المشاركة فى الاحــداث بل تقــدم ابناءها الصفــوف ، وشاركوا الوطن فى كل محنة المت به ، وكان ابناؤها دائمــا على مســتوى الاحداث ففى اثناء الثورة العــرابية وبعد أن سرق المستر كولفن Colvin الانجليزى خزينــة الحكومة المصرية ووضعها فى الاسطول الانجليزى (١٢٢) قام اهالى الفيوم بجمــع التبرعات للجيش من غــلال وعتاد ومئونة وميرة وخيول ومواشى، وجــاءوا بكل ما فى وســعهم من اجل الوطن كما تطــوع الكثيرون منهم فى الجيش جنودا مقــاتلين يجودون بأرواحهم فى سبيل مصر ويؤكد ذلك الوثائق الرســمية ، ففى محــافظ الثورة العرابية نرى أن حسان فراج احد عربــان الفيوم قام بمســاعدة العرابيين بالمال والعتاد والرجال فقد توجه هــو وجماعة من العربان يقــدرون بمائتى فرد ومعهم خيــولهم وعتادهم الى معســكر عرابى يطلب منه الاشتراك فى القتال من اجــل نصرة الوطن والدين (١٢٣) .

وتؤكد محفوظات الداخليــة ووثائق الثورة العــرابية أن خليفــة طنطاوى عمدة سنورس واخــاه أبا زيد قد « تبرعا بسبعين فحل جاموس وسبعين رأس غنم » (١٢٤) كمــا قاموا بجمع التبرعات من الأهــالى وارســالها الى عرابى من أجل الدفاع عن الــوطن (١٢٥) ومن الوثــائق ايضا يتضح أن شيخ العرب السعداوى الجبــالى وشيخ العرب عبد القوى الجبــالى عمدة قبيلة الحرابى بمديرية الفيوم حضرا طرف أحمد عــرابى واعربا عن رغبتهما فى التطــوع هما واتباعهما مع الجيش المحــارب وتسليمهما اســلحة من الجهــادية ، وقد وافق عرابى على طلبهم ، وتــم بمعرفة مــديرية الفيــوم ارســالهم بخيلهم الى معســكرات العــرابيين بكفر الدوار فى وابور مخصوص ، وهناك تم ترتيبهم داخل التشــكيلات العســكرية (١٢٦) .

هذه نماذج عن دور أبناء الفيوم فى الكفاح من أجل الوطن اثنــاء الثورة العرابية أما عن دور على الروبى ابن الفيوم فى هذه الثورة فقد كان دورا هاما وخطيرا ومع ذلك لا ندرى لماذا لم يعطه المؤرخون حقه ؟

الواقع أن على الــروبى هو المؤسس الأول للجمعية السرية لضباط

الجيش المصرى الـوطنيين عام ١٨٧٩ أى فى أواخر عهد الخديو اسماعيل والتى كانت تهـدف الى فتح باب الترقى أمام المصريين وانقضـاء على الخديو اسماعيل (١٣٧) ، وان احمد عرابى انضـم الى هـذه الجمعيـة بعد ان اسسها على الروبى (١٣٨) وان العـلاقة بين على الروبى وعـرابى توطدت أثنـاء حرب الحبشـة وخاصة عندما عين على الروبـى رئيسا لفـرع المهمات ، وقد سـاعد على توطيد العلاقة بينهما الاتجاه الوطـنى المشترك لكل منهما (١٣٩) .

وتذكر الوثائق البريطـانية ان الخـديو اسـماعيل بعد ان عـلم بالجمعية السرية التى اسسها على الروبى اعتمد عليه وعلى عـرابى فى العمل على اسـقاط الوزارة الأوربية (١٣٠) التى كانت تحد من نفـوذ الخديو .

وعند قيـام الثورة العرابية كانت ثقـة عـرابى فى على الـروبى قوية لدرجـة أنه وضعه فى المنـاصب الحساسة والمؤثرة فى مسـيرة الثورة ، فعندما عين عـرابى وزيرا للحربية رقى على الروبى الى رتبـة اللواء ، وعندما تآمر الضبـاط الجراكسة على الثورة العرابية شـكل عرابى مجلسـا عسكريا لمحاكمتهم من خمسـة عشر عضوا كان من بينهم على الروبى (١٣١) . وعندما اسس عرابى المجلس العرفى للتشاور فى أمور البـلاد اختار على الروبى ضمن اعضائه ، وعندما تأزمت علاقة العرابيين بالخديو حتى وصـل الأمر الى ان أمر الخديو بعزل عرابى ، قام على الروبى بين أعضاء المجلس العرفى يوضح دور عرابى فى الدفاع عن الوطن وشرف الدين منددا بالخديو الذى يـريد تسـليم البـلاد للانجليز (١٣٢) وموضحا ضرورة الاستمرار فى الحرب(١٣٣) حتى لا يدخل الانجليز البلاد ويهتكوا الأعـراض ويعتدوا على المقدسات (١٣٤) وبعـد ان انتهى على الروبى من كلمته تعـالت اصوات الحاضرين بحيـاة عـرابى وبضرورة تواجده على رأس الجيش .

وعندما قامت الحرب بين العرابيين والانجليز عين عرابى اللواء على الروبى قـائدا لمنطقة مريوط العسـكرية ، ونتيجة لاصابة راشد باشـا حسنى وعلى باشـا فهمى فى معركة القصـاصين استدعى عرابى اللواء

على الروبى لقيـــادة منطقة للتل الكبير لثقته فيه وفى قدرته على ادارة الحرب لانه كما يذكر « كان حائزا لاعظم الصفـــات الممدوحة التى لا يمكن القيام بحصرها » (١٣٥) .

وفى التل الكبير كانت المعـــركة الفاصـــلة بين العرابيين والانجليز ، وقد حضر على الروبى عصر يوم ١٢ سبتمبر ١٨٨٢ الى التل الكبير وكانت المعـــركة فى فجر ١٣ سبتمبر ، وهنا نقرر انه ليس فى امكان اى قائـــد عســـكرى أن ينظم قـــواته خـــلال ساعات معـــدودة ويترتب عـــلى ذلك أنه لا يمكننـــا أن نرجع عدم القـــدرة على الصمود أمام الانجليز الى اللواء على الروبى بقـــدر ما يمكننا ارجـــاعه الى عنصر المفاجأة والتغيير السريع فى القيـــادة ، كما يمكن ارجـــاعه الى انضمام بعض الخونة من اعـــوان الخديو الى الضباط الانجليز مثل على يوسف خنفس الذى ابلـــغ خـــطط وتحركات الجيش المصرى الى الأعداء .

وبعد الهزيمة اتجـــه كل من عرابى وعلى الروبى الى القـــاهرة فى قطـــار(١٣٦) وذهبا الى مقر وزارة الحربية لمشـــاورة اهل الـــراى فى البـــلاد فيما حدث وانتهى الأمر بالتســـليم ، وقدم اللواء على الـــروبى الى المحـــاكمة(١٣٧) ، وحـــكم عليه بالنفى الى جهـــة مصـــوع بالسودان لمـــدة عشرين سنة ، وتجريده من رتبه ونياشـــينه (١٣٨) كما صـــدرت احكام اخرى ، منها احكام صـــدرت على ابناء الفيوم الذين ســـاعدوا الثورة ومن هؤلاء سعداوى الجبـــالى عمدة قبيـــلة الحـــرابى بالفيـــوم فقد حـــكم عليه بأن يقيم فى بلده تحت الملاحظة مع دفـــع تأمين مـــالى وتجريده من الرتب والامتيازات (١٣٩) ، وحســـان فراج ومحمد المسيرى من اعيـــان الفيوم وقد حكم عليهمـــا بأن يقيم كل منها فى بلده تحت الملاحظة وتجريدهما من الرتب والمناصب (١٤٠) كما قضى بتجريد يعقوب بك صبرى مدير الفيـــوم وعبد النبى عبد الله البيـــاضى عمدة عـــربان البراعصـــة بمديرية الفيوم من علامات الشرف والامتيازات والرتب (١٤١) .

أما عن ضبـــاط الجيش من أهالى الفيوم الذين اتهموا بالاشتراك فى الثورة وجردوا من رتبهم وامتيازاتهم وحرموا من مرتب الاستيداع ومعاش التقـــاعد فهم (١٤٢) :

اليوزباشى بياده احمد سيد احمد	من سنورس
واليوزباشى بياده السيد عبد الرحمن	بندر الفيوم
واليوزباشى بياده منجــود محمود	ترسـا فيوم
والملازم اول سوارى احمد حمــدى	بندر الفيوم
والملازم اول بياده ابراهيم حسنين	ابجيـــج
والملازم اول بياده محمد رمضان	من هواره عدلان
والملازم اول بياده محمد على	الفيـــــوم

هذا عن دور الفيوم وابنائها فى الثورة العرابية التى قامت من اجل الدفاع عن حقوق الشعب المصرى وكرامته .

أما عن دور ابنـــاء الفيوم فى ثورة ١٩١٩ فانه ما ان تأكد نبأ القبض على سعد زغلول ، وصحبه حتى اخذت سـمات الغضب ترتسم على النفوس ، كمــا ازدادت روح الســخط ضد الانجليز فانــدفعت الأمــة الى الثـورة .

وفى الفيــوم بدات المظاهرات يوم ١٥ مارس ١٩١٩ احتجاجا على اعتقــال زعمـاء الثورة ومنهم حمد باشــا الباسل صــاحب النفـــوذ الســاحق واليد الطولى على بدو الفيوم واستمرت المظاهرات فى الايــام التــالية ، وفى ١٩ منه بينمــا كانت مظاهرة تطــوف فى المدينة اطــلق بعض المتظــاهرين عيارات نارية فى الهواء ، فانتهزت القوات البريطانية ذلك وتصــدت لجمــوع المتظاهرين ، واطلقت النــار عليهم من البنادق والمدافع الرشــاشة فقتل كثيرون ذكر الرافعى منهم :

١ — محمد وهبه ترزى	٢ — محمد عبد الدايم
٣ — توفيق عبد الباسط	٤ — درويش ابراهيم
٥ — ريــاض على	٦ — عبد العــال رزق
٧ — احمد احمد حسين	٨ — بدوى عبد النبى

٩ — سـيد محمـود
١٠— احمد روبى
١١— محمـود محمد
١٢— نعمـان ابراهيم
١٣— محمد مسـعود
١٤— عبد الباقى حسن
١٥— غـريب محمد
١٦— عثمان عطيـه
١٧— احمـد حنفى
١٨— السيد فتح الباب
١٩— محمد عبد الله
٢٠— خميس بـدوى
٢١— احمد رمضـان
٢٢— عبد الجواد احمد
٢٣— حميـدة سليمان
٢٤— محمـد عزازى
٢٥— محمـد فرحـات
٢٦— عبد العليم حـافظ
٢٧— عبد النبى على
٢٨— محمـد عطا الله
٢٩— عبد الباسط عبد التواب
٣٠— نظـير على
٣١— محمـد جبره
٣٢— منصور أبو بـكر
٣٣— على محمـد
٣٤— حسن حسـين
٣٥— محمـود محمـد
٣٦— فاطمـة محمـد
٣٧— سـيد على
٣٨— نعمات محمد[١٤٣]

ونتيجة لذلك قام بعض البدو بمهـاجمة القوات البريطانية فقتلـوا بعضهم كمـا سقط من البدو أكثر من ٤٠٠ شهيد وجريح ، وقد اعترفت قيـادة القوات البريطانية بقتلاها فذكر فى بيـان لها فى صيغة انـذار لأهالى الفيوم قالت فيه « فى الايـام الأخيرة اطـلق البدو النـار على الجنود البريطانية وقتلوا بعضهم فاذا أطـلق البدو النيران على الجنـود البريطانية مرة أخرى ، اتخذت فى الحـال وسائل شديدة وقاهـرة لابد أن تفضى الى ضياع أرواح كثيرة من الأبرياء ، وهذا آخر انذار » [١٤٤] .

وعلى الرغم من هذا الانذار فقد قام البدو بمهاجمة القوات البريطانية

واحــداث اضرار للســلطات البريطانية ، كما هاجم بعض اهالى الفيوم الجنود البريطانيين واستولوا على اسلحتهم .

وفى مدينة الفيوم طــالب زعماء البدو بالاستقلال وعزل المــدير ، ولكن تنــازل بعضهم عن هذا الطلب بعد مناقشــات طويلة وبوســائل الاقنــاع ، اما من اصروا على مطلبهم فقد فــرقتهم الســلطة بالمــدافع الرشــاشة [١٤٥] .

وفى مركز اطسا حــاصر الأهالى مركز البوليس وحــدثت معــركة استولى البدو فى أثرها على مبنى مركز اطســا وحاصروا المدينــة[١٤٦] ونتيجة لذلك التــوتر لم يجد موظفو جميــع مــراكز الفيــوم بدا من ان ينسحبوا الى عاصمة المــديرية ليكون افرادها بمأمن من هجمــات البدو وكانت انبــاء هذه المعــارك تصل الى القاهرة عن طريق الهجــانة لأن جميع المواصلات فى انحــاء مديرية الفيــوم كانت قد دمرت [١٤٧] ونتيجة للتلاحم القتالى بين ابناء الفيوم من البدو والفلاحين وبين القوات البريطانية وصــل عدد الشهداء من ابناء الفيوم اربعمائة شخص ، والواقــع ان دور الفــلاحين فى المعارك كان بســيطا اذ كان المهاجمون كلهم من البدو تقريبا [١٤٨] وقد تزايدت اعمال العنف فى الفيوم ، وانتشرت الى المــراكز والقرى المجــاورة لها .

ونتيجة لتطــور المعــارك قام شقيق حمد باشا الباسل بارســال بعض رجاله الى السنوسيين فى ليبيــا لحثهم على الحضور الىالفيوم ، كماقامتالقوات البريطانية بالقــاء منشورات عن طريق احدى الطــائرات تقول ان جنــودا بريطانيين قد قتلوا ، وتحذر الســكان من أن تكــرار ذلك ســوف يؤدى الى الانتقام الجمــاعى من أهالى الفيوم [١٤٩] .

هذه نبذه عن كفــاح ابناء الفيوم ضد القوات البريطانية فى ثورة ١٩١٩ أما عن دور حمــد باشا الباسل ابن الفيــوم فى هذه الثورة فقد كان ضمن المعتقلين الذين نفتهم الســلطات البريطانية الى مالطــة نظــرا لدوره فى تحريك الثورة ضد الانجليز ذلك لأنه جعل منزله منتديا للوفــد يعقــد فيه الاجتمــاعات العــامة التى يحضرها ذو الــراى من مختــلف

الطبقــات [١٥٠] ، وتلقى فيــه الخطب التى تثير النفــوس ، وتنشر فى الصحف [١٥١] .

ونتيجة للضغط الشعبى فى مصر أعلن الفيلد مارشـــال اللنبى قراره بالافراج عن المعتقلين فى مالطـــة فى ٧ ابريل ١٩١٩ ، وقد جاء فى اعـــلانه هذا ما نصــه « بالاتفــاق مع حضرة صاحب العظمة الســلطان اعــلن أنه لم يبق حجر على الســفر ، وان جميع المصريين الذين يريدون مبارحة البــلاد تكون لهم هذه الحرية ، وقد قررت علاوة على ذلك أن كلا مــن سعد زغلول واسماعيل صدقى باشا ومحمد محمود باشا وحمد الباســل باشا يطلقون من الاعتقــال ويكون لهم كذلك حق السفر » [١٥٢] .

وبعد اطــلاق سراح حمد الباسل ســافر مع الوفد المصرى الــى باريس فى ١٩ ابريل ١٩١٩ لحضــور مؤتمر الصلح والدفاع عن القضيــة المصرية والمطــالبة بالجلاء ، وقد مكث الوفد بباريس دون التوصل الى نتــائج ايجابية أو اعتراف من بريطــانيا بالغــاء الحماية على مصر ومنحها استقلالها ، وهنــاك بدأت بــوادر الانشقاق تظهر على زعمــاء حــزب الوفد ، واختلف حمد الباســل مع سعد زغلول واحتدم النقاش بينهما ، ورغم أن حمد الباســل كان من المقربين الى سعد زغلول فكريا ووجدانيا ، ويؤيــده فى كل رأى يــدلى به فقد اختلف معه ، ففى حين رأى ســـعد مقــاطعة لجنة ملنر ، رأى حمد البــاسل بأن من الأفضل لمصر تشكيــل جبهــة من الوفد تقبــل التفاوض مع لجنة ملنر عسى أن تخرج بفــائدة لصــالح البلاد ، وعندما تصلب ســعد زغلول فى رأيه ولم يتمكن حمــد الباســل من اقناعه بوجهة نظره انفصل حمد البــاسل عن سعد زغلول واستقال من الوفــد ، وعلى الرغم من ذلك فان حمد الباسل لم يبتعد عن مزاولة الحياة الســياسية أو يعتزل العمل السياسى ، وعندما ناشده ســعد زغلول العودة الى صفــوف الوفد ، وأن ينسى الخلاف بينهمــا وافق حمد البــاسل على ذلك وقابل ســعد زغلول قائلا له انت زعيــم الأمة وأنــا أضع نفسى تحت تصرفك ، وعــاد حمد الباسل الى صفــوف الوفد بصفته وكيلا له ، وبجــانب ذلك اختير وكيلا للبرلمان فى سنة ١٩٢٤ فاصبح يجمع بين وكالة الوفد ووكالة مجلس النــواب وقد ذكر حمــد

الباسل فى حـديث له نشر فى مجـلة الهلال اننى كوطنى ووكيل الوفـد « ليس لى مطمع فى الحيـاة غير استقلال مصر التام » فاذا حصلت على هذا المطمع فاننى أقول بعده كما قال القائل :

«لأن تأتنى الدنيا بيومى فانها تجدنى وقد قضيت منها مآربى» (١٥٣)

وهكذا كان دور الفيـوم فى ثورة احمد عرابى وثـورة ١٩١٩ التى قادها سعد زغلول فقد اتضـح من ثنايا هذا البحث أن الفيوم لم تشتـرك فى هاتين الثورتين بالنفس والنفيس فحسب بل ان بعض الزعامات والعقول المؤثرة فى هاتين الثورتين كانت من ابناء الفيوم .

٨ — سيناء فى تاريخ مصر الحديث والمعاصر

ان كلمة سـيناء لو جردناها من الذكريات لبقى لها التذكير بانهـا حـامية مصر والمدافعة عن كرامتها على مـر العصـور فهى المفتـاح الشرقى لمصر الذى تحطمت امامه كل الغزوات وانصهرت ، وكانت منـذ القدم مسـار للجيوش فيمـا بين وادى النيل والشرق ، والتاريخ يحدثنا عن حمـلات عديدة لجنود مصر عبر سينـاء منها على سبيل المثـال اخضـاع الحيثيين ، وطرد الهكسوس يضـاف الى ذلك أن طرد التتـار تم عبر سـيناء كذلك حمـلات صلاح الدين ضد الصليبيين تم بعضها عبر سـيناء وتنقسم شبه جزيرة سـينـاء بحسب طبيعة ارضهـا الى ثـلاثة اقسـام بلاد الطور فى الجنـوب ، وبلاد التيه فى الوسط ، والعريش فى الشمال والطـور هو الجبل الموجود فى سـيناء والذى ورد اسـمه فى القرآن الكريم مرات متعـددة منها ما ذكر فى سـورة التين « والتين والزيتون وطـور سينين ، (١٥٤) ، وهذا البلد الأمين لقد خلقنا الانسان فى احسن تقـويم » .

وفى سفـح جبل موسى بمنطقة الطـور يوجد أقدم الأديرة فـى العـالم وهو ديـر طور سيناء (دير القديسة كاترين) وسينـاء فيهـا الوادى المقدس الذى ذكر فى القرآن فى سـورة طه عندما خـاطب الله سبحانه وتعـالى سيدنا موسى « انى أنا ربـك فاخلع نعليك انك بالوادى

المقــدس طوى » وهذا أمر لموسى بأن يخلع نعليه تعظيما للمكان لأنه الوادي المقــدس « طوى » والذى نزل فيه الوحى على موسى فى سيناء .

كما وصف القرآن الكريم شجرة الزيتون التى نبتت فى ســيناء بعد الطــوفان بأنها شــجرة مباركة فقال تعالى « الله نور السموات والارض مثل نــوره كمشكاة فيها مصباح ، المصبــاح فى زجاجة ، الزجاجة كانها كوكب درى يوقد من شــجرة مباركة زيتونه لا شرقية ولا غربية يكــاد زيتهــا يضىء ، ولو لم تمسســه نار ، نور على نور يهدى الله بنــوره من يشــاء » .

وعندما تم الفتح الاســلامى لمصر فى عهد عمر بن الخطاب ، دخل عمرو بن العــاص البلاد مارا برفح والعريش .

وعنــدما جاء العثمانيــون الى مصر دخلــوها عن طــريق غــزة والعريش ولما تولى محمد على حــكم مصر كانت سينــاء فى جملة ما دخل فى حــوزته من امــلاك مصر ، وكان عرب ســيناء فى جملة عــاداتهم يحكمهم قضــاة منهم بحســب عرفهم وعاداتهم ، وكانت مدينة الطــور تابعة فى الادارة لمحافظــة السويس ، ومنطقة العريش تابعة راســـــا للداخلية ، وقد شــهدت سيناء مسيرات حربية خلال حملة ابراهيم باشا على سوريا حيث اتخذ من اقليم العريش مســارا .

وبعد محمد على وتولى عبــاس الأول حــكم مصر اهتم بســيناء فزارها وشرع فى بنــاء مصيف له هنــــاك ، كما مهــد الطــريق من ديــر ســانت كاترين الى قمــة جبل موسى ، وشرع فى بناء قصر فخم له على قمة هذا الجبــل لكن الحياة لم تمهله طــويلا فعاجلته المنية قبل أن يتــم اعمــاله وخلفه سعيد باشــا ، وفى عهده تم البــدء فى حفر قناة السويس ١٨٥٦م وتأسيس محجر للحجــاج بسيناء عام ١٨٥٨م .

أما فى عهد اســماعيل فقد ازداد النفــوذ الأجنبى فى مصر ، وارسل الانجليز لجنــة علمية برئاســة « هنرى بالمر » للتنقيب فى بــلاد الطور فاقامت فيها حــوالى ستة شــهور ، وفى أثنائها رســمت خــرائط

لسيناء ، وبدأت فى التنقيب عن ثرواتها ، كمــا تم انشــاء مدينة القنطرة شرق على الســاحل الشرقى لقناة السويس .

ولما قامت الثورة العرابيــة ، وتطاير خبر معاداة الانجليز للعرابيين انقض اهــالى سينــاء على لجنة بالمر وفتكوا باعضائها .

وقد اهتم الانجليز بســيناء ، وعزلوها عن بــاقى اجــزاء مصــر مســتغلين فى ذلك قناة الســويس كمانع مائى يفصــــل بين الــوادى وسينــاء ، ومنعوا دخولها على اى مصرى الا بتصريح خــاص واستمرت سينــاء تابعة لمصر حتى تولى الخــديو عباس الثانى اريكة الحكم وفــى عهــده حــاول السلطان العثمانى عبد الحميد اخــراج سيناء من حــدود مصر خــاصة بعد شق قناة السويس ، وظهور اهميتها الاستراتيجية لذلك فحين صــدر فرمان تولية عبــاس الثانى خديويا على مصر عام ١٨٩٢ اخرج الســلطان ســيناء من مصر الا أن رد الفعل المصرى والبريطانى

كان شــديدا ، فقد اعترض العــديد من المصريين على ذلك ، كما احتــج المعتمد البريطانى فى مصر كرومر ، وأوقف قراءة الفــرمان رسميا حتى جــاء التصحيح من الاستــانة بترك ســيناء الى مصر ، وبناء على ذلك أصبحت سيناء كما يحدها الخط الممتد من شرقى العريش الى راس خليج العقبــة تحت ادارة مصر [(١٥٥)] وقد أعقب هذه الازمة زيارة الخديو عباس الثــانى لبعض المواقع فى سينــاء تأكيدا للسيادة المصرية عليها فــزار الطــور عام ١٨٩٦ والعــريش عام ١٨٩٨ ، ووصــل الى الحـــدود الغربية عند رفــح ، ونظرا للظروف الدولية التى تهيأت للدولة العثمانية فى عام ١٩٠٥ لكى تحــاول استرداد نفوذها فى مصر خصــوصا بعد أن اتخذ مصطفى كامل من فــكرة الالتفاف حــول الخلافة الاسلامية اساسا لجهــاده حــاولت الدولة العثمانية أن تقتطع ســيناء من مصر فاعتزمت فى مــايو ١٩٠٦ مد ســكة حديدية من معان الى العقبة ، ولما كان ذلك يعنى وجــود قوة جــديدة لتركيا على حدود مصر بما يهدد مركز بريطانيا فى مصر فقد اهتم الانجليز بالأمــر وأرسلوا ضــابطا كبيرا عهدوا اليــه بوضــع نقط عســكرية على طول الخط من العريش الى العقبة باعتبار انهــا من املاك مصر ، ولكن الجنود التركية احتلت موقع طــابة ، وهو

على بعد ثمانية اميال غربى العقبة (١٥٦) ونتيجة لذلك حدث خلاف شديد بين الدولة العثمانية وانجلترا ظهرت فيه انجلترا بمظهر الدولة الحامية لمصر اذ طالبت تركيا باسم مصر أن تجلو عن طابة ، وارسلت لها انذارا تطالبها بالجلاء عن طابة فى ظرف عشرة أيام والا ستكون النتائج وخيمة ، ونتيجة لذلك ابرق السلطان الى الخديو يطلب منه التفاهم مع مختار باشا فى المسألة ، وكان رد عباس بانه شديد التمسك بحدود رفح — العقبة ، وبعد أسبوع من الانذار اخذت قوات بريطانيا البحرية تستعد للتحرك الى طابة مما جعل الدولة العثمانية تسلم بمطالب الانجليز فقررت الجلاء عن طابة ، ولم يمض وقت طويل حتى تشكلت لجنة تركية مصرية اخذت فى تخطيط الحدود بين البلدين (١٥٧) وفيها تراجع الاتراك عن موقفهم .

وعلى كل حال فان الانجليز اثناء احتلالهم لمصر أوجدوا اطارا من العزلة بين سيناء وباقى مصر فتحكموا فى انتقال سكان مناطق سيناء الى داخل مصر ، وكذلك انتقال المصريين من غير مواليد سيناء الى تلك المناطق حتى استقر فى الاذهان أن سكان سيناء يمكن اعتبارهم مصريين من الدرجة الثانية او حتى غير مصريين ، وكادت غالبية الناس تفهم ان مناطق الحدود يسكنها قوم غرباء لا يربطهم بأهل مصر نسب او وشيجة منذ اقدم العصور .

وقد دعم اللورد كرومر سياسته هذه عمليا بانشاء ما سمى فى وقته « مصلحة الحدود » ووضع على راسها ضباط انجليز استطاعوا أن يحققوا ما ترمى اليه سياسة اللورد حتى اصبحت سيناء جزءا غريبا عن مصر فلا يدخلها المصرى الا بتصريح خاص ، ولا ينقل ساكنها تجارته منها واليها الا بقيود ونظم لا مثيل لها ، ومن يقرأ الحكايات او التقارير الانجليزية حول هذا الموضوع يلاحظ عبارات غريبة مثل « من سيناء الى مصر » أو « من داخل القطر الى سيناء » كما لو كانت سيناء شيئا آخر تماما عن مصر ، كما عمل الانجليز على الا يقوم فى سيناء اى نوع من العمران الاستقرارى الذى يؤهل هذه الرقعة من مصر والتى تبلغ مساحتها اكثر من واحد وستين ألف كيلو متر مربع لكى تستوعب اى زيادات من السكان الذين تزدحم بهم بقية المحافظات

المصرية حتى لا يلتصق المصرى بهذه الأرض التصاقا عميقا ، كما عملوا على أن يتم النفور بين سكان شبه الجزيرة من البدو والحضر ، فكان الحاكم البريطانى يشجع البدو على عدم التعلم ولا يساعدهم على الاستقرار وينشر بينهم فكرة ان البداوة شيء وسكنى المدن شيء آخر ، وانه من العار أن يتزوج البدوى امراة من الحضر او يزوج ابنته لساكن المدينة .

ولعل أهم ما يحرص الاستعمار عليه كثيرة لعزلة سيناء هو ثروتها المعدنية والبترولية .

وقد اخذت المطامع الاستعمارية فى سيناء تتحرك بجانب المطامع الصهيونية حيث وضع اليهود فى خططهم اهمية سيناء بالنسبة لهم ، فبعد أن لوحوا للسلطان العثمانى ببريق الذهب اذا منحهم امتيازا فى فلسطين ورفض السلطان طلبهم ، استقر رايهم على توطين اليهود اما فى قبرص او شبه جزيرة سيناء او اوغندا ، ونتيجة لرفض اليهودى هرتزل اوغندا وصعوبة استغناء الانجليز عن قبرص لليهود اثير موضوع سيناء كوطن لليهود ، وارسلت لجنة فنية لدراسة صلاحية منطقة سيناء لانشاء مستعمرات سكانية لليهود ، ولكن هذا الموضوع كان مصيره الاهمال نتيجة لرفض الحكومةالمصرية التنازل عن اى جزء يتعلق بسيادتها ، ورفض اللورد كرومر لهذا المشروع .

وظلت سيناء مطمعا لليهود وفى خلال العدوان الثلاثى على مصر حدث الغزو الاسرائيلى لسيناء عام ١٩٥٦ حيث هاجمت قوات اسرئيل حدود مصر ودخلت الكونتله وراس النقب ولم يكد يبدأ الهجوم الاسرائيلى حتى ظهرت نيات بريطانيا وفرنسا الاستعمارية تجاه مصر ففى الساعة السادسة والنصف من مساء الثلاثاء ٣٠ أكتوبر ١٩٥٦ وجهت بريطانيا وفرنسا انذارا الى مصر واسرائيل بايقاف جميع العمليات الحربية على أن تقبل مصر احتلال القوات البريطانية والفرنسية للمواقع الرئيسية فى بور سعيد والاسماعيلية والسويس [١٥٨] وبهذا الانذار انكشفت المؤامرة بين الحكومات الثلاث بريطانيا وفرنسا واسرائيل ، واتفاقها على العدوان على مصر .

وقد رفضت مصر الانـــذار ، وطلبت عقد مجلس الأمن فورا للنظـــر فى هـــذا العـــدوان ، كمـــا استقـــر راى القيـــادة المصرية على ضرورة الانســـحاب السريع من ســـيناء الى منطقة القناة للدفاع عن القناة وعن مصر ، فانســـحب الجيش المصرى من قطـــاع غزة ، ومن ســـيناء وكان هذا الانســـحاب عملية ضخمـــة شـــاقة ، وخـــلال هذا العدوان صمـــدت بور سعيد ، وكســـبت مصر عطف معظم الدول والشعوب فى مشـــارق الأرض ومغـــاربها ، وصـــدر قرار الأمم المتحدة بوقف القتـــال وجـــاء الانذار الروسى ، وامتناع أمريكا عن مشاركة حلفائها فى الحملة .

ونتيجـــة لذلك تم انســـحاب القوات الانجليزية والفرنســـية مـــن بور سعيد وبور فؤاد خـــلال ديسمبر ١٩٥٦ ، كمـــا اضطرت اســـرائيل الى الانسحاب من سيناء وقطاع غزة .

وفى ٥ يونيو ١٩٦٧ قامت اسرائيل بهجومها المفـــاجىء على مصـــر واستولت على سينـــاء باكملها واقامت فيهـــا العـــديد من المستعمـــرات الزراعية والســـكنية بهدف توطين الاسرائيليين فيها مســـتغلة فى ذلك كل الامكانيات المتـــاحة فى شتى المجـــالات ، وكانت الأرض المنزرعة فى هذه المســـتعمرات تروى باســـتخدام مياه الأمطار ، ومياه الآبـــار والاستعانة بميـــاه بحيرة طبرية عن طريق مواســـير ، وكان يتم دفـــع الميـــاه مـــن خـــلال خزانات الميـــاه الى مواسير تنتهى بمواسير بلاستيك مثقـــوبة بثقـــوب صغيرة بعـــدد من الاشجار المزروعة المطلوب ريهـــا لتســـقط المياه قطرة قطرة على جـــذع الشجرة طـــول الليل والنهـــار ، وكانت الآبـــار يتم حفرها خصـــوصا فى المناطق القريبة من شـــاطىء البحـــر لتصـــل اعماقها الى حوالى ٤٠ متر، ويتم السحب منها بواسطة ماكينات لمدة ســـاعتين فقط يـــوميا [١٥٩] كما اهتمت اسرائيل منـــذ عـــام ١٩٦٧ بتنشيط السياحة العالمية فى سيناء خصوصا فى دير ســـانت كاترين الذى له منزلة خاصة لدى السياح فى امريكا واوربا .

وفى الســـادس من اكتوبر ١٩٧٣ عبرت القـــوات المصرية قنـــاة السويس فى اتجـــاه سيناء ، وحررت الســـاحل الشرقى لقناة السويس بأرض سينـــاء كاملا ، وتبع ذلك الحـــاجة الى تسوية سلمية لأزمة الشرق

الأوسط(١٦٠) وبعد محاورات ومشاورات ومناورات عقدت اتفاقية السلام بين مصر واسرائيل فى مارس ١٩٧٩ وقد نصت مادتها الأولى على أن تسحب اسرائيل كافة قواتها المسلحة والمدنيين من سيناء الى ما وراء الحدود الدولية بين مصر وفلسطين تحت الانتداب ، وتستأنف مصر ممارسة سيادتها على سيناء كما نص الملحق العسكرى المرفق بالمعاهدة فى مادته الأولى على أن يتم الانسحاب الاسرائيلى على مرحلتين الأولى الانسحاب المرحلى الى الخط الممتد شرق العريش راس محمد والثانية يتم فيها الانسحاب الاسرائيلى النهائى من سيناء الى ما وراء الحدود الدولية كما نص الملحق العسكرى فى مادته الأولى أيضا على أن يتم تشكيل لجنة مصرية اسرائيلية مشتركة للاشراف على عمليات الانسحاب وعقب معاهدة السلام قرر الجانب الاسرائيلى ان يوسع الاقاليم التى تحيط بميناء ايلات التى ليست لها شواطىء فتقرر بناء فندق سياحى فى وادى طابا ، وقد سمحت اسرائيل للراسمالى الاسرائيلى « رافى نيلسون » باقامة هذا الفندق الكبير ، وفى الوقت ذاته انتهزت الفرصة لاقامة شاطىء خاص قرب الفندق يأتى اليه الاسرائيليون المقيمون فى ايلات ، وقد تم ذلك بعد توقيع الاتفاقية ودون ابلاغ الحكومة المصرية مما يدل على سوء نية الجانب الاسرائيلى.

وفى اكتوبر ١٩٨١ وخلال احدى الاجتماعات المستمرة بين الجانبين المصرى والاسرائيلى لترتيب الانسحاب النهائى ، واستلام وتسليم المناطق والأراضى والمنشئات كانت اللجنة تحاول أن ترسم الخط الفاصل للحدود الدولية من رفح على البحر المتوسط الى خليج العقبة ثم الاتفاق على وضع كل العلامات على الحدود ما عدا العلامة رقم ٩١ الخاصة بطابا فوقع خلاف بين الجانبين .

وفى مارس ١٩٨٢ أعلن اللواء محسن حمدى رئيس الجانب المصرى فى اللجنة العسكرية ان هناك خلافات بين مصر واسرائيل على بعض النقاط وأن هذه الخلافات يتم بحثها ، وان الموقف المصرى محدد وواضح فى مسألة نقاط وعلامات الحدود بحيث أن كل شىء يتم وفقا للخرائط والوثائق التاريخية التى توضح بلا أدنى شك حدود مصر الدولية .

وقد اعترف كمـــال حسن على نائب رئيس الوزراء ووزير الخارجية المصرى فى ذلك الوقت بعد لقـــائه فى ابريل مع ايريل شارون وزير الدفاع الاسرائيلى بأن هنـــاك خـــلافا فى وجهـــات النظر حول طابا وأن مصـــر لن تفرط فى سنتيمتر واحد من اراضيها ، ونظرا لذلك رات مصر ان هـــذا الخـــلاف يجب أن يحل وفقـــا للمادة السابعة من معـــاهدة الســـلام المصرية الاسرائيلية ، والتى تنص على ان تحـــل الخلافات بشأن تطبيق أو تفســـير هذه المعاهدة عن طريق المفـــاوضة ، واذا لم يتيسر حـــل هذه الخلافات عن طريق المفـــاوضة تحل بالتوفيق أو تحال الى التحـــكيم وهكذا تحدد هذه المادة ثلاث وسائل لحل اى خلاف :

١ — مزيد من المفاوضات .

٢ — التوفيق عن طريق وسيط ثالث .

٣ — التحـــكيم الدولى .

وقد أبدت مصر رغبتهـــا فى اللجوء الى التحكيم حيث ان الخلاف لم يتم حـــله عن طريق المفـــاوضات ، ورفض الجـــانب الاسرائيلى رغبـــة مصر فى اللجـــوء الى التحكيم بحجـــة انه لم يتم بعد استنفاذ وســـيلة المفاوضة أو وســـيلة التوفيق التى تنص عليها المادة السابعة ، وحسما للخـــلاف ، وحتى لا تعرقل أزمة طـــابا عمليـــة الانسحـــاب الاسرائيلى النهائى من سيناء عن موعده تقدمت مصر بالمقترحات التالية :

١ — أن تنســـحب اسرائيل عن المناطق المتنازع عليها فى طـــابا الى خط الحدود الذى تراه مصر .

٢ — أن تتقـــدم الســـلطة المصرية الى خط الحـــدود الذى تـــراه اسرائيل فى هذه المنـــاطق .

٣ — أن تجمد الحياة فى طـــابا ، وتدخلها قوات حفظ السلام حتى يتم التوصل الى اتفاق حولها .

ويرجع الاهتمام بطابا انها ليست موقع على الحدود الدولية فقـــط

ولكنها منعطف طبيعى على ساحل خليج العقبة ، ومنها يرى الانسان بوضوح ميناء العقبة الاردنى ، كذلك يمكن منها رؤية اضواء ميناء ايلات الاسرائيلى فى الليل .

وبينما يرى الجانب المصرى ادخال الجانب الامريكى كطرف شريك فى الأزمة سعى الجانب الاسرائيلى الى عدم اشراك الجانب الامريكى حتى لا يأخذ النزاع على طابا طابعا دوليا يبعده عن الطابع الثنائى . وانتهى الأمر بعرض القضية على محكمة العدل الدولية فى لاهاى التى قررت اعادة منطقة طابا الى مصر .

هذا عن تاريخ سيناء السياسى اما عن ثرواتها واهميتها الاقتصادية بالنسبة لمصر ، فهى ارض بكر بها ثروات كثيرة ومتعددة تحتاج الى العديد من المشروعات على سبيل المثال انه يمكن الاستفادة من شواطئها الطويلة التى تبلغ ٧٠٠ كيلو متر بانشاء قرى سياحية على طول هذا الساحل ، كذلك يمكن استغلال سيناء صناعيا لأن بها كميات كبيرة من خام الاسمنت يمكن استخراجه بسهولة ، ويكفى مستلزمات مصر ، ويزيد عن حاجتها وهذا لا يتطلب سوى انشاء ميناء بحرى على شاطىء العريش لاغراض النقل البحرى كما أن خام المنجنيز يتوافر فى سيناء بكثرة وهناك اشجار الخروع التى تغل ربحا كبيرا من زراعتها ، كما يمكن تصنيع بلح سيناء المشهور وتحويل عنبها الذى يزرع فى شمال شرق سيناء الى زبيب ، وفى سيناء النحاس والفيروز والرمال البيضاء والزلط وخام الكبريت كما أن البترول يعتبر أهم معادن سيناء وتتركز حقوله على الساحل الشرقى لخليج السويس فيما بين منطقة سدر شمالا ومنطقة الطور جنوبا أى على امتداد الخليج كله .

وتعتبر سيناء سياحيا ذات وضع ممتاز فى كل فروع السياحة خاصة الدينية منها فعبر طريقها الشمالى دخل الاسلام مصر ، وفى جنوبها سار المسيح عليه السلام ومعه السيدة العذراء قاصدا منها ، وفيها ارض التيه حيث قضى اليهود اربعين عاما ، وفيها عيون موسى وكذلك دير سانت كاترين هذا بالاضافة الى انه يمكن تحقيق

أهـــداف السياحة العلاجية لوجـــود حمـــامات فرعـــون بها والتى ثبت بالفحص الطبى أن مياهها تفـــوق كثيرا مياه حمامات حلوان المعدنية مـــن الناحية العلاجية أما من الناحية الترفيهية فتمتاز سيناء بشواطئها النظيفة، وميـــاهها النقية وشواطىء النخيل وكل هذا حقق لها مركزا ســـــياحيا ممتـــازا [١٦١] .

وهـــكذا يتضـــح أن ســـيناء تعتبـــر جـــزءا من مستقبل مصـــــر الاقتصادى ، ومصدرا من مصادر رفاهيتها المستقبلية اذا وجدت التخطيط الســـليم والعمل النـــابع من الايمان الوطنى نحـــو حيـــاة افضـــل لمصر المســـتقبل .

مراجع الفصل العاشر

(١) مجلس النواب : مجموعة مضابط دور الانعقاد الأول مضبطة الجلسة الافتتاحية للبرلمان فى ١٥ مارس ١٩٢٤ ص ٣ .

(٢) مارسيل كولومب : تطور مصر ١٩٢٤ — ١٩٥٠ — ترجمة زهير الشايب — القاهرة ، الطبعة الاولى ١٩٧٢ ص ٤٤ .

(٣) محمد حسين هيكل : مذكرات فى السياسة المصرية ج ١ من سنة ١٩١٢ الى ١٩١٧ القاهرة ، النهضة المصرية ١٩٥١ ص ١٨٣ — ١٨٤ .

(٤) دار الوثائق : ديوان جلالة الملك ، تلغراف فى ٢٥ يونية ١٩٢٤ يشكو فيه اهالى شنوان منوفية من عزل عمدتهم وتعيين عمدة غير مرغوب فيه .

(٥) هيكل : المرجع السابق ص ١٤٥ .

(٦) عبد الخالق لاشين : سعد زغلول ودوره فى السياسة المصرية ، القاهرة ١٩٧٥ ص ٣٧٣ .

(7) Youssef, A. Independent Egypt London, 1940 p. 291 .

(٨) رجاء النقاش : عباس العقاد ، بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ص ١٠٤ .

(٩) عبد المنعم الجميعى : طه حسين والجامعة المصرية ، القاهرة ، الطبعة الأولى: ١٩٨١ ص ٤٨ .

(١٠) دار الوثائق : ديوان جلالة الملك ، ملف رقم ٦٩٤ التماسات محالة الى الداخلية عام ١٩٤٢ .

(١١) الاحرار الدستوريون : اليد القوية — خطب واحاديث محمد محمود باشا منذ ان اسندت اليه رئاسة مجلس الوزراء بالاسكندرية ص ٣.

(١٢) الرافعى : فى اعقاب الثورة ج ٣ ، القاهرة ، النهضة المصرية ١٩٥١ ص ١٣ .

(١٣) مجلس النواب : مجموعة مضابط دور الانعقاد الأول ١٥ مارس ١٠ يوليو ١٩٢٤ .

(١٤) على شلبى : الانقلابات الدستورية فى مصر ٢٣ — ١٩٣٦ . (مخطوط) .

(١٥) البلاغ فى ٨ ديسمبر ١٩٣٧ .

(١٦) عبد العظيم رمضان : الصراع بين الوفد والعرش ص ٢٣ .

(١٧) مضابط مجلس النواب : مضبطة الجلسة السبعين لمجلس النواب فى ٢ يونية ١٩٢٧ ص ١١٩٢ .

(١٨) مضابط مجلس النواب : مضبطة الجلسة السادسة والأربعين فى ١٤ ابريل ١٩٢٧ ص ٧٦٩ . الاستجواب المقدم من عبد الحميد افندى سعيد لرئيس مجلس الوزراء .

(١٩) على شلبى : مرجع سابق .

(٢٠) عبد العظيم رمضان : مرجع سابق ص ١٧ — ٢١ .

(٢١) كولومب : مرجع سابق ص ١٣٨ .

(٢٢) لتفاصيل ذلك أنظر احمد زكريا : حزب الاحرار الدستوريين ٢٢ — ١٩٥٣ القاهرة ، دار المعارف ١٩٨٣ .

(٢٣) كولومب : المرجع السابق ص ٥٦ .

(٢٤) محمد شفيق غربال : تاريخ المفاوضات المصرية البريطانية ١٨٨٢ — ١٩٣٦ ، جـ ١ ، القاهرة ، النهضة المصرية ١٩٥٢ ، ص ١٦٢ .

(25) Marlowe, J : Anglo Egyptian Relations 1800 - 1953, London 1954 p. 271 .

(٢٦) ديوان جلالة الملك : تلغرافات ، تلغراف بتاريخ ١٦ يوليو ١٩٢٥ .

(٢٧) حزب الأحرار الدستوريين : اليد القوية ، المذكرة الوزارية بشأن حل مجلسى النواب والشيوخ ص ٣٦ .

(٢٨) عبد العظيم رمضان : تطور الحركة الوطنية ص ٧٤٢ .

(٢٩) الرافعى : فى أعقاب الثورة جـ ٢ ، القاهرة ، النهضة المصرية ١٩٤٩ ص ٥٠ — ٥٣ .

(٣٠) احمد شفيق : حوليات مصر السياسية ، الحولية السابعة ص ١٤٢١ .

(٣١) الرافعى : المرجع السابق جـ ٣ ص ٦٠ — ٦١ .

(٣٢) رمضان : المرجع السابق ص ٥٧٦ .

(٣٣) كولومب : المرجع السابق ص ٦٢ .

(٣٤) رمضان : المرجع السابق ص ٥٨٦ .

(٣٥) الرافعي : المرجع السابق جـ ١ ص ٦٩ .

(٣٦) خلت هذه الوزارة من الوفديين ، يضاف الى ذلك انها لم تضم أحدا من اعضاء البرلمان ، لذلك فهى وزارة غير دستورية لأنها الفت ضد ارادة الاغلبيـــة كما أن جميع وزرائها كانوا من غير اعضاء البرلمـــان . أحمد شفيق : حوليات مصر السياسية ، الحولية السابعة ١٩٣٠ ص ٧١ .

(٣٧) الفلاح المصرى : العدد الأول من السنة الرابعة فى ٢٤ ديسمبر ١٩٣٠ .

(٣٨) دار الوثائق : محاضر جلسات لجنة الدستور ، الدستور المصرى وقانون الانتخاب فى ٢٢ أكتوبر ١٩٣٠ .

(٣٩) أمر ملكى رقم ٧٠ لسنة ١٩٣٠ بوضع نظام دستورى للدولة المصرية . المادة ٢٤ ص ٤٩ .

(٤٠) دار الوثائق : محافظ عابدين محفظـــة رقـــم (٢) احـــزاب سياســـية .

(٤١) الاتحاد : العـــدد ١٩٤١ فى ١١ ينايـــر ١٩٣١ تحـــت عنـــوان « مهزلة استقالة » .

(٤٢) ديوان جلالة الملك : التماسات جماعية والواقع ان انضـــمام حزب الأحرار الدستوريين الى جانب الوفد فى معارضة حكومة صدقى رغم الصداقة والصلة التى تربط بينهم وبين صدقى انما يرجع الى رغبتهم فى انتقال الوزارة اليهم .

(٤٣) دار الوثائق : محاضر جلسات لجنة الدستور ، الدستور المصرى وقانون الانتخاب ص ١٢ .

(٤٤) فاطمة اليوسف : ذكريات ص ١٥٥ .

(٤٥) مضابط مجلس النواب : محضر الجلسة الثالثة لدور الانعقاد غير العادى فى ٨ نوفمبر ١٩٣٧ ص ٤٦ .

(٤٦) الوقائع المصرية فى ١٧ يوليو ١٩٣٠ ، ٥ فبراير ١٩٣١ .

(٤٧) الشعب : العدد ٩٩ فى الأول من ابريل ١٩٣١ .

(٤٨) مضابط مجلس النواب : مجموعة مضابط دور الانعقاد غير العادى ١٩٣٧ ص ١٥٧ . الاستجواب الموجه الى وزير الحقانية من النائب السيد سليم بشأن التزويرات التى حدثت فى انتخابات ١٩٣١ .

(٤٩) البلاغ فى ٤ ابريل ١٩٣٢ تحت عنوان الدكتور طه حسين وقضيته ضد الحكومة .

(٥٠) دار الوثائق : محافظ عابدين — أحزاب سياسية ، محفظة رقم (٣) تقارير أمن عن الأحزاب المختلفة — ملف حزب الشعب .

(٥١) اليد القوية ص ٦ — ٧ .

(٥٢) القى هذا البحث فى سمنار كلية البنات جامعة عين شمس عام ١٩٨٣ ونشر بالعدد الثانى من حولية كلية التربية بالفيوم ١٩٨٥ .

(٥٣) الظاهر العدد ١١٤٩ فى ١٠ سبتمبر ١٩٠٧ تحت عنوان « جامعة النساء » .

(٥٤) اللواء : العدد ٣٣٧٤ فى سبتمبر ١٩١٠ تحت عنوان « جامعة النساء الشرقيات » .

(٥٥) الظاهر : العدد ١١٤٩ فى ١٠ سبتمبر ١٩٠٧ تحت عنوان « جامعة النساء » .

(٥٦) للتفاصيل انظر تقويم جامعة القاهرة ١٩٦٩ — ١٩٧٠ .

(٥٧) الجريدة : فى ١٧ ابريل ١٩١٠ تحت عنوان « فى الجامعة المصرية » .

(٥٨) مجلة فتاة الشرق : القاهرة ١٩١٠ — ١٩١١ ص ١٦٩ ، المحاضرة الأولى التى القتها صاحبة المجلة فى الجامعة المصرية فى ٣١ يناير ١٩١١ .

(٥٩) الجريدة : العدد ٩٤٤ فى ١٨ ابريل ١٩١٠ ، مقال : الكاتبة البيبة هاشم تحت عنوان « الجامعة المصرية والمحاضرات النسائية » .

(٦٠) الجامعة المصرية : تقرير مجلس الادارة فى ١٥ مارس ١٩١١ ص ١٢ .

(٦١) تقرير عن المالية والحالة العمومية فى مصر والسودان ١٩١٠ من جورست الى جراى ص ١٠١ .

(٦٢) وزارة التعليم العالى . المراة المصرية فى التعليم العالى ١٩٧٥ ص ١٩ .

(٦٣) الجريدة : العدد ٩٤٨ فى ٢٣ ابريل ١٩١٠ تحت عنـــوان « فى الجامعة المصرية . محاضرات للسيدات » .

(٦٤) د. اجلال خليفة : الحركة النسائية الحديثة قصة المراة العربية على ارض مصر ، القاهرة ١٩٧٣ ص ٨٤ .

(٦٥) الجـــريدة : العـــدد ٩٧٤ فى ٢٤ مايـــو ١٩١٠ تحت عنـــوان « خطاب مفتوح الى باحثة البادية »

(٦٦) صحيفة العفاف . أول ابريل ١٩٢١ .

(٦٧) العفاف : ٢ ديسمبر ١٩٢٢ مقال تحت عنوان « مكانكم يا غربان الســـفور » .

(٦٨) الجـــريدة : العدد ٩٧٥ فى ٢٥ مايـــو ١٩١٠ تحت عنـــوان « باحثة البادية لم تجد منصفا يذكى آراءها » .

(٦٩) احمـــد شوقى : الشوقيات ، الجزء الأول ، القاهرة ١٩٥٠ ص ٢١٤ — ٢١٦ .

(٧٠) الجريدة : العدد ٩٨٥ فى ٦ يونيو ١٩١٠ تحت عنوان حـــديث الكنار الى احمد بك شوقى .

(٧١) د. اجلال خليفة : المرجع السابق ص ٨٨ ، جريدة العفاف : ١٩٣٠ .

(٧٢) الجـــريدة : العدد ٩٨٥ فى ٦ يونية ١٩١٠ مقال للكاتبة لبيبة هاشم تحت عنوان « الى باحث فى الخيال ردا على باحثة البادية » .

(٧٣) الجامعة المصرية : تقرير مجلس الادارة المقدم للجمعية العمومية بجلستها المنعقدة فى ٢٩ ابريل ١٩١٣ ص ١٣ .

(٧٤) د. عبد المنعم الجميعى : طه حسين والجامعة المصرية . القاهرة دار الكتاب الجامعى ١٩٨١ ص ٥٠ .

(٧٥) احمد لطفى السيد : قصة حياتى . القاهرة — كتاب الهـــلال العدد ٣٧٧ مايو ١٩٨٢ ص ١٨٣ .

(٧٦) للتفاصيل انظر كتابنا طه حسين والجامعة المصرية .

(٧٧) وزارة التعليم العالى : المراة المصرية فى التعليم العالى ص ٤٤.

(٧٨) المركز القومى للبحوث التربوية : المراة والتعليم فى جمهـــورية مصر العربية . مايو ١٩٨٠ ص ٤٩ .

(٧٩) الاهرام : العدد ١٦٩٥٩ فى ٢٣ فبراير ١٩٣٢ تحت عنــوان « حفلة الشاى التى اقامتها طالبات وطلبة كلية الآداب وخريجوها فى دار نادى الجامعة برئاسة عميدهم د. طه حسين » .

(٨٠) مضابط مجلس النواب : دور الانعقاد العادى الثانى — الجلسة التاسعة عشرة فى ٧ مارس ١٩٣٢ ص ٢٥٨ .

(٨١) دار الوثائق : ديوان جلالة الملك — تلغراف بتاريخ ١٧ ينايــر ١٩٤٧ ، وفيه يحتج شباب محمد على ادارة الجامعــة لما ســجلته الجرائد والمجلات من صور فاضحة للطالبات فى لعبة الهوكى مما يبرأ منه الاسلام وتنفطر له قلوب المسلمين .

(٨٢) صحيفة الجامعة المصرية . السنة الثانية — العدد الــرابع ابريل ١٩٣١ ص ٥٦ — ٥٨ .

(٨٣) المقتطف : الجزء الأول من المجلد التسعين عدد أول يناير ١٩٣٧ ص ٢٤ تحت عنوان حديث للدكتور طه حسين عميد كلية الآداب .

(٨٤) وزارة التعليم العالى : المراة المصرية فى التعليم العالى القاهرة ١٩٧٥ ص ٤٩ .

(٨٥) الدستور : العدد ٣٨٨ فى ٩ ابريل ١٩٣٩ مقال لهاشم ابراهيم تحت عنوان « الفتاة مكانها البيت » .

(٨٦) الدستور : العدد ٣٩٣ فى ١٦ ابريل ١٩٣٩ مقال لمحمد مصطفى حسن تحت عنوان « الفتاة فى ميدان العمل » .

(٨٧) كل شىء والدنيا عدد ٩ يوليو ١٩٣٢ .

(٨٨) الدستور : العدد ٤٠٥ فى ٣٠ ابريل ١٩٣٩ ، راى للدكتور محمود سامى جنينة أستاذ القانون الدولى تحت عنوان « الفتاة فى ميدان العمــل » .

(٨٩) الدستور : العدد السابق تحت عنوان رأى الدكتور الســيد صبرى أستاذ القانون الادارى .

(٩٠) الدستور : العدد ٣٨٨ فى ٩ ابريل ١٩٣٩ مقال لنظمى بطرس تحت عنوان « الفتاة مكانها فى الجامعة » .

(٩١) دار الوثائق : ديوان جلالة الملك . محفظة رقم ٦ التماسات . ٢٦ فبراير ١٩٣٠ .

(٩٢) د. محمد سلامة آدم : المرأة بين البيت والعمل . القاهرة — دار المعارف . الطبعة الأولى ١٩٨٢ ص ٨٥ ، ١٨٧ .

(*) القى هذا البحث فى سمنار بنات عين شمس فى الثلاثاء ١١ ديسمبر ١٩٨٤ .

(٩٤) محمد صالح الشنطى : الرواية العربية فى مصر من عام ١٩٥٢ الى عام ١٩٧٦ ، رسالة دكتوراه غير منشورة ص ٢٣ ، والشعب فى ٥ مايو ١٩٥٩ مقال للاستاذ احمد عباس صالح تحت عنوان « فى الرواية العربية » .

(٩٥) جهاد عبد الجبار : ثلاثية نجيب محفوظ . رسالة ماجستير غير منشورة ص ٦ — ٨ .

(٩٦) غالى شكرى : المنتمى . دراسة فى آدب نجيب محفوظ . القاهرة — دار المعارف الطبعة الثانية ١٩٦٩ ص ٦٤ .

(٩٧) نجيب محفوظ : بين القصرين . القاهرة — مكتبة مصر .د.ت ص ١٢٨ — ١٢٩ .

(٩٨) نجيب محفوظ : بين القصرين . ص ٤٠ .

(٩٩) نجيب محفوظ : قصر الشوق ص ٢٩٩ .

(١٠٠) نفسه ص ٢٥٥ .

(١٠١) الجمهورية فى ٦ فبراير ١٩٥٧ تحت عنوان « بين القصرين » لطه حسين .

(١٠٢) سيزا أحمد قاسم : الواقعية الفرنسية والرواية العربية فى مصر ١٩٤٥ — ١٩٦٠ دراسة مقارنة تطبيقا على ثلاثية نجيب محفوظ ، رسالة دكتوراه غير منشورة نوقشت بأداب القاهرة عام ١٩٧٨ .

(١٠٣) نجيب محفوظ : السكرية ص ٨٣ .

(١٠٤) على الراعى : دراسات فى الرواية المصرية . القاهرة — المؤسسة المصرية العامة للتأليف ص ٢٥٠ .

(١٠٥) نجيب محفوظ : بين القصرين ، ص ٣٩٨ — ٤٠٠ .

(١٠٦) الجمهورية : العدد ١١٣٤ فى ٦ فبراير ١٩٥٧ تحت عنوان « بين القصرين » لطه حسين .

(١٠٧) نجيب محفوظ : السكرية ص ٧٨ .

(١٠٨) نجيب محفوظ : السكرية ص ٨٧ .

(١٠٩) نجيب محفوظ : السكرية ص ١٤١ .

(١١٠) نفســه : ص ١٤٩ .

(١١١) الآداب . يونيو ١٩٦٠ حديث لنجيب محفوظ مع فاروق شوشة

(١١٢) الكاتب : العدد الثانى والعشرون فى يناير ١٩٦٣ مقال للدكتور غنيمى جلال تحت عنوان « ازمة الوعى السياسى فى قصـة السـمان والخـريف .

(١١٣) الرســالة الجديدة : العدد التاســع والعشرون فى اغسطس ١٩٥٦ ص ٤٤ تحت عنوان حول كتاب فى الثقافة المصرية للدكتور عبد العظيم انيس .

(١١٤) جهاد عبد الجبار : ثلاثية نجيب محفوظ : رسالة ماجستير غير منشورة ص ١٩ .

(١١٥) الهلال : محاكمة نجيب محفوظ ص ٤١ .

(١١٦) نجيب محفوظ : السكرية ص ١٢٦ .

(١١٧) نفســه ص ١٢٩ .

(١١٨) جهاد عبد الجبار : المرجع السابق ص ٢٢ .

(١١٩) روزاليوسف : العدد ١٥٣١ فى ١٤ اكتوبر ١٩٥٧ تحت عنوان « الكاتب والطبقة التى يعبر عنها » .

(١٢٠) نجيب محفوظ : اتحدث اليكم . بيروت .د.ت ص ٣٢ .

(١٢١) الكاتب : فى يناير ١٩٦٣ ص ١٨ لقاء لنجيب محفوظ مع فؤاد دواره تحت عنوان « رحلة الخمسين مع نجيب محفوظ » .

(١٢٢) انظر : احمد عرابى : كشف الستار عن سر الأسرار . مخطوط بدار الكتب المصرية ص ٣٣٤ .

(١٢٣) دار الوثائق : محافظ الثورة العرابية . محفظة رقم ١٠ ب—ح دوسيه ١٠١ الثورة العرابية وقضايا المتهمين . استجواب حسان فراج من عربان الفيوم .

(١٢٤) محافظ الثورة العرابية . محفظة رقم ٧ دوسيه ١٧ .

(١٢٥) دار المحفوظات العمومية : محافظ الداخلية عربى — محفظة رقم ٤٤ عين ٧٩ مخزن ٥٠ ملف ١٠١ سجل رقم ٢ مكاتبة من ناظر الداخلية الى مدير الفيوم .

(١٢٦) محافظ الثورة العرابية . محفظة رقم ٣١ دوسيه رقم ٥ .

(١٢٧) د. محمد فؤاد شكرى : مصر والسودان — تاريخ وحدة وادى النيل السياسية فى القرن التاسع عشر ص ١٨٠ .

(١٢٨) الياس زاخورة : مرآة العصر فى تاريخ ورسوم أكابر الرجال بمصر جـ ١ القاهرة . المطبعة العمومية ١٨٩٧ ص ١٠٣ .

(129) Public Record office. F. O. 407/21 In Closure in No 931 Extract from the « observer » of July 23, 1882 .

(١٣٠) والجدير بالذكر ان الوزارة الأوربية هى التى الفها نوبـــار باشا عام ١٨٧٨ واشترك فيها وزيران اوربيان انجليزى للمالية وفرنسى للاشغال وكان من نتيجة مظاهرة الضباط فى ١٨ فبراير ١٨٧٩ اســـقاط هذه الوزارة .

للتفاصيل انظر : دكتور عبد المنعم الدسوقى الجميعى : عبـــد الله النديم ودوره فى الحركة السياسية والاجتماعية ص ٢٩ .

(١٣١) الرافعى : الثورة العرابية والاحتلال الانجليزى ص ٢٦٧ .

(١٣٢) محافظ الثورة العرابية . محفظة رقم ١٨ ملف ٤٠ تقـــرير اسماعيل باشا أيوب عن الاجتماعات التى كانت تعقد بوزارتى الداخليـــة والجهادية .

(١٣٣) محافظ الثورة العرابية : محفظة رقم ١٠ ملف ١٢٥ محضر استجواب حسين باشا الدرملى وكيل نظارة الداخلية .

(١٣٤) محافظ الثورة العرابية : محفظة رقم ١٩ دوسيه ٨٣ تقرير مقدم من رستم بك وسيم وكيل الدائرة البلدية بمصر .

(١٣٥) محافظ الثورة العرابية : محفظة رقم ٢٠ ملف ٣٤ تلغراف من احمد عرابى الى وكيل الجهادية بتاريخ ١١ اغسطس ١٨٨٢ .

(136) Broadley : How We Defended Arabi and his friends Astory of Egypt and Egyptians. London 1884 p. 137.

(١٣٧) عن استجواب على الروبى انظر : محافظ الثورة العرابية — محفظة رقم ١٣ قضايا المتهمين دوسيه ٢٤٩ .

(١٣٨) محافظ الثورة العرابية : محفظة رقم ١٣ ملف ٢٤٩ .

(١٣٩) الرافعى : المرجع السابق ص ٤٧٥ .

(١٤٠) الوقائع المصرية عدد ٢٦ ديسمبر ١٨٨٢ .

(١٤١) الوقائع المصرية فى أول يناير ١٨٨٣ .

(١٤٢) الوقائع المصرية فى ٣٠ ديسمبر ١٨٨٢ .

(١٤٣) عبد الرحمن الرافعى : ثورة ١٩١٩ ج ١ . القاهرة — النهضة المصرية الطبعة الثانية ١٩٥٥ ص ٢٢٧ .

(١٤٤) محمد صبيح : « اليقظة » مواقف حاسمة فى تاريخ القومية العربية كفاح شعب مصر فى القرنين التاسع عشر والعشرين . القاهرة الطبعة الثانية ١٩٦٦ .

(١٤٥) مؤسسة الأهرام : ٥٠ عاما على ثورة ١٩١٩ ص ٢٢٢ — ٢٢٣ .

(١٤٦) د. عاصم دسوقى : ثورة ١٩١٩ فى الاقاليم من الوثائق البريطانية القاهرة — دار الكتاب الجامعى ١٩٨١ ص ٦٥ .

(١٤٧) محمد صبيح : المرجع السابق ص ٥٩٦ — ٥٩٧ .

(١٤٨) عاصم دسوقى : المرجع السابق ص ٧٠ .

(١٤٩) د. عاصم دسوقى : المرجع السابق ص ٦٩ — ٧٠ .

(١٥٠) الرافعى : المرجع السابق ص ١٤٥ .

(١٥١) دار الوثائق : مذكرات محمد على علوبة ص ٦٩ .

(١٥٢) محمد كامل سليم : ثورة ١٩١٩ كما عشتها وعرفتها . القاهرة كتاب اليوم . العدد ٢٦٥ مايو ١٩٧٥ ص ١٢٣ .

(١٥٣) الهلال : الجزء السابع من السنة الثامنة والثلاثين عدد أول مايو ١٩٣٠ ص ٧٩٠ حديث لحمد باشا الباسل تحت عنوان « اهم حادث أثر فى مجرى حياتى » .

وقد ظل حمد الباسل يحمل لواء الكفاح حتى اختاره الله الى جواره يوم الاثنين ٩ فبراير ١٩٤٠ .

(١٥٤) جبل الطور بسيناء .

(١٥٥) الرافعى : مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية ص ٣٠٦ .

(١٥٦)د. عبد المنعم الجميعى : الخديو عباس الثانى والحزب الوطنى ص ١٩٤ .

(١٥٧) الأهرام فى ١٩٧٩/٧/٢٠ مقال للدكتور يونان لبيب تحت عنوان «قراءة تاريخية فى حادثة تعيين حدود مصر الشرقية » .

(١٥٨) الرافعى : ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ — تاريخنا القومى فى سبع سنوات ١٩٥٢ — ١٩٥٩ ص ٢٤٣ .

(١٥٩) جمهورية مصر العربية . الهيئة العامة للاستعلامات . سيناء فى ظل الاحتلال ٦٧ — ١٩٧٩ ص ٩ — ١٠ .

(١٦٠) جمهورية مصر العربية : المجلس الأعلى للشباب والرياضة .

(١٦١) المجلس الأعلى للشباب والرياضة . مصر سيناء .

الفصل الحادى عشر

من رجالات النهضة المصرية

فــى العصر الحــديث

١ ــ على باشا مبــارك

٢ ــ عبد الله النــديم

٣ ــ الشيخ محمد عبده

٤ ــ مصطفى كامــل

٥ ــ الخديو عباس حلمى الثانى

من رجالات النهضة العلمية والتعليمية فى مصر

١ — على باشـا مبـارك (١)
١٨٢٤ — ١٨٩٣

فى تاريخنا القومى شخصيـات فذة تعتبر أركانا للنهضـة القومية، لما لهـا من الأثر البـالغ فى توجيهها وتطورها .

وعلى مبارك ولد فى برنبال الجديدة مركز دكرنس دقهلية عام ١٨٢٤ وبعـد أن تلقى تعليمه الأولى دخل مدرسـة المهندسخانة وهـو فـى السـادسة عشرة من عمره ومكث بهـا خمس سنوات أظهر فيها تفوقا وبعدها التحق بالبعثـة المصرية التى أرسلت الى فرنسـا فى عام ١٨٤٤ لتلقى الفنون الحربية .

وكان أول مركز شـغله على مبارك بعد عودته الى مصر هو تعيينه مدرسـا بمدرسـة طرة الحربية ثم تدرج بعد ذلك فى وظائف عديدة منها نظـارته لمدرسة المهندسـخانة . وفى عهد سعيد باشا كلف على مبارك بالاشـتراك فى حرب القرم ١٨٥٤ ، وبعد عودته الى مصر عين معـاونا بوزارة الحربية ، ثم عهـدت اليه وكالة المحكمة التجـارية ثم عين مفتشا لهندسـة نصف الوجه القبلى ، ولما تولى اسـماعيل الحكم الحق على مبـارك بمعيته ثم جعـله ناظرا على القنـاطر الخيرية وفى عام ١٨٦٧ عين وكيـلا لديوان المـدارس (وزارة المعارف) ثم اسـند اليـه ادارة مصلحة السـكك الحديدية ، ووزارة المعـارف والاشغال وبعدها ضمت اليه نظـارة ديوان الأوقـاف وهنا يبدأ العصر الذى حفل بالأعمـال الهامة التى مازال صداها يتردد فى النهضـة العلمية بمصر حيث وجه على مبـارك معظم جهـوده لترقية شئون التعليم فى البلاد ، فوجه عنـايته الى اصـلاح التعليم فى المكاتب وتحويل ما يمكن تحويله من الكتاتيب الى مدارس ابتدائية نظـامية فوضع لذلك لائحته المشهورة بلائحة ١٠ رجب

التى نظمت المدارس وانشىء فى عهده كثير من المدارس الابتدائية النظامية فى القاهرة وعواصم الاقاليم

ولما كان وضـــع نظام صالح للتعليم يقتضى توفير العـــدد الكـــافى من الاســـاتذة الاكفاء فقد انشـأ على مبارك دار العـــلوم لتخريج اساتذة اللغة العربيـــة والآداب ، واختـــار تلاميذها من طلبة الأزهر واشتمـــل برنامج التعليم فيهـــا على العلـــوم التى لا تدرس فى الأزهر كالحســـاب والهندسة والجغرافيا والتـــاريخ والطبيعة والخـــط مع اتقـــان العلـــوم الأزهرية . واختـــار على مبارك للتدريس فى دار العلوم جماعة من خيرة الاكفـــاء من العلماء ، وجعل التعليم فيها بالمجـــان وقـــد اثمرت هـــذه المدرسة ، وتخرج منها اساتذة اللغة والآداب العربية الذين سدوا فراغا كبيرا بالمدارس المصرية .

دار الكتب المصريـــة :

اسســـت ١٨٧٠ وترجـــع فـــكرة تأسيس دار الكتب الى الخديـــو اســـماعيل الذى رأى انشـــاء مكتبة عامـــة تجمـــع شمل الكتب المتفرقة فى مخـــازن الحكومة والمساجد ومكاتب الأوقـــاف ، ومن هنـــا طـــلب من على مبـــارك تحقيق فكرته واخراجها الى حيز النور ، فحقق الفكرة، وانشأ دار الكتب فى ســـراى درب الجماميز .

وقد فتحت هذه الدار أبوابها لطـــلاب المعارف والعلوم وسهلت لهم الاطـــلاع على كتب ومؤلفـــات ومخطوطات نادت ولا تزال تؤدى اجـــل الخدمات للعلماء والمثقفين .

مجلة روضـــة المدارس

رأى على مبـــارك الذى كان جـــل مرغوبة تعميم العلوم وتتميـــم المعارف وانتشـــار الفنون ، والذى كان يعتبر التعليم وسيلة من وســـائل التوجيـــه ، وتكوين الرأى العام المستنير ضرورة انشـــاء مجلة تـــربوية تعليمية تتبنـــاها وزارة المعـــارف فأسس مجلة عنونت باسم « روضة المدارس » اسند رئاستها الى رفاعة الطهطاوى ناظر الترجمة بديـــوان المعارف [٢] كما اسند تحريرها الى على بك فهمى رفاعة وكان يعمـــل مدرسا للانشـــاء بمدرسة الادارة والألسن .

وقـد صدر العدد الأول من روضة المدارس فى ١٧ ابـريل ١٨٧٠ كمجلة ادبية علمية تصدر مرتين فى الشهر [٣] . .

ولما كانت المهمة الأساسية لهذه المجلة هى نشر العلم والعرفان فقد جعل شعـارها :

تعـلم العـلم واقـرا   تحـز فخـار النبـوة
فالـله قـال ليحـيى   خـذ الكتـاب بقـوة

وقد توقفت روضـة الدارس بعد أن صدر العدد السادس عشـر من سنتهـا الثامنة دون أن تذكر السبب الذى دفعها الى هذا التوقف .

ومع أن شـهرة على مبارك تقوم فى الغـالب على خدماته الجليلة للتعليم فان له مآثر اخرى فى اعمـال العمران التى تمت فى عهد اسماعيل منها ما يختص بالرى ، ومنها ما يتعلق بتنظيم القاهرة والمدن الأخـرى ولما تولى توفيق باشـا الحكم عهد الى على مبارك وزارة الأشغـال فبذل فيها جهـودا كبيرة ، ولما قامت الثورة العرابية لم يكن على مبارك من انصارها بل كان يميل الى الاعتدال[٤] .

مؤلفات على باشا مبارك

لعلى مبـارك مؤلفات عديدة أهمها « الخطط التوفيقية لمصر القاهرة ومدنها وبـلادها القديمة والشهيرة » وهى دائرة معـارف لخطط مصـر وآثارها وجغرافيتها وتاريخها فى عصورها القديمة والحديثة وتقع الخطط التوفيقية فى عشرين مجـلدا افرد المؤلف الأجزاء الستة الأولى للقاهرة ، والجزء السـابع للاسكندرية والأجزاء الأخرى لبقية القطر المصرى مدنه وقراه ، وخصص الجزء الثامن عشر لقيـاس النيل ، والتـاسع عشـر لترع مصر ومنشئات الرى فيها ، أما عن الجـزء العشرين فقـد خصص للنقود المصرية القديمة والحديثة .

هذه هى اهم أعمال على مبارك ، وهذا هو عطاؤه وفى ١٤ نوفمبر ١٨٩٣ نطفأ المصباح المضيىء الذى انعش الحركة العلمية والثقافية فـى مصر ما يقرب من أربعين عاما .

٢ — عبد الله النـديم

١٨٤٣ — ١٨٩٦

ولد عبد الله النديم — وحقيقة اسمه عبد الله بن مصباح بن ابراهيم الحسنى — فى عام ١٨٤٣ فى احـدى حارات حى الجمرك بالاسكندرية فى أسرة فقيرة ، فكان والده يعمل خبـازا ويحصل من ذلك على الكفاف من العيش . وتعلم النديم فى كتاب الحى مبادىء القراءة والكتابة ، وحفـظ القرآن الكريم قبـل أن يبلغ التاسعة من عمره ، كمـا درس الفقـــه والأصول والتوحيد والمنطـق والعلوم اللسانية والنحو الصرف فى الجامع الأنور فى الاسكندرية ، ولكنه لم يصبر طويلا عـلى هذه الدراسة اذ وجد فى نفســه ميلا واستعدادا للادب فارتاد المقـاهى والمنتديات والمجالس الأدبية وســمع الحكايات والأمثال من شـعراء الربابة ونوادر الظرفاء، وقد سـاعد ذلك على تكوين النديم الأدبى ، فبرزت قدراتــه الخطابيــة والكتابية حتى ســار معروفا بين أدباء الاسكندرية أما لقب النديم فيرجع الى منادمته للامراء والكبراء .

وفى بدء حيـاة النديم تعلم صنـاعة التلغراف لكى يكتسب رزقه، وعمل بمكتب التلغراف بينها ، ولما ظهرت كفـايته فى عمله نقل الى مكتب القصر العـالى بالقـاهرة الذى كانت تقيم فيه الأميرة « خوشيار خانم » والدة الخديو اسـماعيل ، فعرف هنـاك حياة القصـور وما بها مـن بذخ وقارن بينها وبين حيـاة الشعب الفقير مما أثر على تكوينه السياسى فوقف نصيرا للطبقات الكادحة فيما بعد .

أخـذ النديم يتردد على المجـالس وحلقات العلم بالأزهر ولما سمع عن جمال الدين الافغـانى حضر مجـالسه ، واستهوت النديم افكـار جمال الدين الجريئـة ، فانخرط فى سـلك تلامذته ، الا أن ذلك أدى الى فصـل النديم من عمله بالقصر العـالى فأخذ يجوب القرى والمدن مبتغيا كسـب عيشـه حتى تعرف على شـاهين باشا كنج مفتش الوجــه البحرى الذى قـربه اليه ، ومن خلاله تعرف النديم على أحد رجـال الحاشـية الخديوية وهو تتونجى بك الذى عينـه وكيلا لدائرته مما أتاح للنديم فرصـة التردد على القاهرة ، فعـاود مجالس استاذه جمال الدين

لكن النـديم وجـد أن لهجته فى الحديث قد تغيرت ، فأصبح يتحـدث عن ضرورة التخلص من الظـلم الاجتماعى والحـكم الفـردى والتدخـل الأجنبى ، والاستبداد الواقـع على اعتاق المصريين ، وقد مسـت هذه الكلمـات قلب النـديم وساهمت فى اكتمـال نضجه السياسى ، ومن هنا بـدات حياته السياسية . وبدات أولى الخطوات العملية فى حياة النديم السـياسية بانضمـامه الى الجمعيات ذات الصفـة السرية ، فدخـل الحركة الماسونية ، كما دخـل جمعية مصر الفتـاة السرية ، ولمـا أحس أن هذا العمـل لا يتفق مع طبيعته الشـعبية لجأ الى العمل الوطنى العلنى ، واستخدم فى ذلك وسائل ثـلاث : الصحافة حيث كتب فى صحف مصر والتجـارة والمحروسة والعصر الجديد ثم اسس صحيفـة التنكيت والتبكيت الذى صدر العدد الأول منها فى السادس من يونيو ١٨٨١ ثم استبدل اسـمها بالطائف بعد انضمـامه الى العرابيين فى محاولة منه لتكوين رأى عام ونجـح فى ذلك الى حد كبير لدرجة ان لقبه البعض بصحفى القرن التاسع عشر بلا منـازع ولقبه البعض الآخر بانه أذكى ناقد لأوربـا فى مصر وقد نـالت مقـالاته اعجـاب الناس لأنها كانت جـديدة عليهم من ناحيـة الأفكار والجرأة فى التعبير كمـا كانت جديدة عليهم من ناحيـة الأسـلوب الذى تنـاول فيه النديم الاحوال السيـاسية التى مرت بهـا مصر بأسـلوب رمزى اتخذ فيه من بعض الكـائنات غـير الانسـانية ستـارا لبث أفكاره ومبادئه حيث لم تتح له ظروف مصر السياسية ما يريد أن يقوله بطريق مباشر .

واستخدم النديم المسرح فى توعية مواطنيـه فكتب روايتين مثلهمـا مع تلاميذه وهما « الوطن وطالع التوفيق » و « النعمان » كما استخـدم الخطـابة فى توصيل أفكاره الى مواطنيه . وبينمـا كان النديم يقـوم بدوره فى تعبئة الشـعور الوطنى اتصـل به الزعماء العسكريين ودارت بينهم وبينه مشـاورات سرية من أجل أن ينضم اليهم ، ويكون لسـان حالهم ، وقد تردد النديم فى ذلك أول الأمر ولكنـه بعد أن أحس ان هدفهم هو العمل من أجـل حرية الوطن وقف بجـانبهم فانتعشت حركة الضباط بانضمـامه اليهـا ، واختاره عرابى مستشـارا له ، وفى اعقاب حادث قصر النيل اشـار النديم على عرابى بطبـع منشـور يطلب فيـه مـن

الشعب أن يفوضه فى المطالبة بحقوقه ، وقد وافق عرابى وكلف النديم بتوزيع المنشور ، فقام بتوزيعه ثم اخذ فى جمع التوقيعات من الاهالى مما كان له اكبر الأثر فى تقوية العزائم ، كما جاءت الوفود لمبايعة عرابى ، وبهذا تحولت الحركة العرابية من ثورة عسكرية الى ثورة شعبية بفضل ارشادات وتوجيهات النديم .

وفى اثناء مظاهرة عابدين (٩ سبتمبر ١٨٨١) طلب عرابى من النديم رفع معنويات مؤخرة قواته حتى لا يصيبها الضعف والخذلان ، فأخذ النديم يلهب مشاعر الجند بخطاباته الوطنية والحماسية ، وبعد استجابة الخديو توفيق لمطالب العرابيين قام النديم بتأسيس جمعية الشبان بالاسكندرية حتى تكون ركيزة شعبية للثورة .

ولقد وقف النديم بجانب الثورة ، وهاجم الخديو توفيق واتهمه بالخيانة والخداع ، وعندما ارسلت انجلترا وفرنسا المذكرة المشتركة الى الخديو وجاء الوفد العثمانى لتقصى الحقائق فى مصر سافر النديم الى الاسكندرية لكى يهيىء الناس لاستقبال الوفد العثمانى والاحتجاج على المذكرة المشتركة .

وفى اثناء المعارك بين العرابيين والانجليز نظم النديم اسلوب الدعاية للمعركة فكان له تاثير كبير على عقول المواطنين ، وبعد الهزيمة اعد النديم خطته للاختفاء عن اعين السلطة ، وقد نجح فى ذلك واستمر مختفيا حوالى تسع سنوات حتى قبض عليه فى الثالث من اكتوبر ١٨٩١ ، فنفى الى يافا وعندما اعتلى عباس الثانى اريكة الخديوية اصدر عفوه عن النديم واباح له العودة الى مصر ، فوصلها فى التاسع من مايو ١٨٩٢ واستانف جهاده الوطنى باصدار مجلة الاستاذ فى ٢٣ من اغسطس ١٨٩٢ وكانت مقالاته على صفحاتها تحدد المعارضة القوية ضد الاحتلال ، كما تحمل النديم مهمة ايقاظ الشعور الوطنى فوضع امله فى الجيل الجديد وخصوصا مصطفى كامل الذى تتلمذ عليه ونشا فى مدرسته ، واقتبس بعض اساليبه ، فكان النديم استاذا مباشرا له فى مجال الصحافة والخطابة وفى ميادين السياسة ، كما كانت نصائحه وتوجيهاته خير هاد له ، فأصبح

النديم بذلك حركة الوصل بين جيل الثورة العرابية وجيل الشباب الجديد بزعامة مصطفى كامل .

ولما احس كرومر بخطورة النديم طلب من الخديو نفيه خارج مصر ، وتحت الحاح كرومر نفى النديم الى يافا للمرة الثانية ، ولكنه لم يستقر بها طويلا فرحل الى الاستانة ، وهناك التقى باستاذه جمال الدين الأفغانى ، كما حدث بينه وبين ابى الهدى الصيادى مبارزة فكرية ، فهجاه النديم فى كتابه المسامير ، ورد عليه الصيادى بكتاب « صوت الهزار وزيق العذار » ومرة أثناء تواجد النديم فى الاستانة ايضا طلب منه الخديو عباس الثانى الوساطة فى امر مصاهرته من احدى بنات الخلافة ، غير ان وساطته لم تنجح .

— اما عن أثر النديم السياسى ، فان افكاره سبقت افكار ابناء وطنه ، فكانت جديدة عليهم ، اذ نبه عقولهم الى موضوعات جديدة ، فتحدث عن مفهوم القومية ومبدأ مصر للمصريين واهمية الوحدة الوطنية وفكرة الجامعة الشرقية واهمية الديمقراطية كاساس للحكم فى مصر والدستور كنظام له وتكلم عن الاحزاب والاهتمام بالرأى العام وفكرة الجمهورية ، كما أن دعوة النديم للاصلاح الاجتماعى قد سبقت انشغاله باحداث البلاد السياسية ، ثم مزج بينهما وسارا جنبا الى جنب فانشغل بما اصاب قومه من جهل وانحلال وانكباب على الرزائل والموبقات وحاول أن ينبههم الى مضارها ، ويزيل الخرافات والجهل المطبق عليهم وتحدث عن اهمية العدالة الاجتماعية ، وعن ضرورة انشاء الجمعيات الخيرية كوسيلة لتعليم ابناء الشعب فقيره وغنيه ، كما طالب باصلاح المهن والحرف المصرية .

وفى مجال الثقافة والتعليم طالب النديم باصلاح نظم التعليم فى الأزهر وحث الاغنياء على انشاء مدارس اهلية ليتعلم فيها ابناء الشعب كما دافع عن اللغة العربية ، وجدد الدعوة الى انشاء مجمع اللغة العربية حتى يحولّ دون ضياع اللغة الفصحى .

أما عن مؤلفات النديم التى تفتقت عنها قريحته فقد الف « كان ويكون » اثناء الاختفاء داخل قرى مصر ونجوعها حوالى عشر سنوات والف

« تاريخ مصر فى هذا العصر » كما الف المسامير فى هجاء « ابو الهدى الصيادى » اثناء وجوده فى منفاه بالاستانة هذا بالاضافة الى ما قام شقيقه عبد الفتاح نديم بجمعه تحت عنوان « سلافة النديم فى منتخبات السيد عبد الله النديم » .

وقد توفى النديم بالآستانة فى الثالث عشر من اكتوبر ١٨٩٦ دون ان يترك أولادا حيث ماتوا جميعا فى طفولتهم .

٣ — الشيخ محمد عبده من واقع ملف خدمته(٥)

تعتبرملفات وربط المعاش الموجودة فى دار المحفوظات العمومية بالقلعة ، من المصادر الأصلية والهامة فى دراسة تاريخ مصر الحديث والمعاصر ، فبعضها يعرض للرواد الذين لعبوا ادوارا بارزة فى التاريخ المصرى ، وتبرز اهمية هذه الملفات فى معرفة التسلسل الوظيفى للشخصيات التاريخية ، اذ تصور حياة كل منهم الوظيفية كما تعرفنا بمؤهلاتهم العلمية وظروفهم الاجتماعية التى مروا بها قبل الوصول الى منصب الزعامة أو الريادة .

والملف الذى نعرض له فى هذا الصدد هو ملف خدمة وربط معاش الشيخ محمد عبده ، أحد أعلام الثورة العرابية الذى تدرج فى عدة وظائف هامة أبرزها وظيفة مفتى الديار المصرية .

* ولد الشيخ محمد عبده فى أواخر عام ١٢٦٦ هـ (١٨٤٩ م) فى قرية محلة نصر بمركز شبراخيت بحيرة طبقا لاقراره الشخصى بذلك(٦) .

* وكانت أول وظيفة التحق بها فى أواخر عام ١٢٩٥ هـ (١٨٧٨م) هى وظيفة مدرس بمدرسة الألسن ومدرسة دار العلوم ، واستمر بها حوالى ثمانية شهور ثم رفت بالاستغناء عنه فى رمضان ١٢٩٦ هـ .

* وفى جمادى الأولى ١٢٩٧ هـ (١٨٨٠ م) عين (محررا ثالثا فى الجريدة الرسمية بمرتب الف وثلثمائة قرش شهريا ، وفى ذى القعدة ١٢٩٧ هـ رقى رئيسا بقلم ادارة المطبوعات العربية والتركية بمرتب

الفين قرش) ثم زيد الى ثلاثة آلاف قرش فى ربيع الثانى من الســـنة المـــذكورة [٧] .

* ونتيجـــة لانضمـــام الشيخ محمد عبده الى رجال الثورة العرابية وتزويده جـــريدة الوقائع المصرية بالافكار الثورية حتى أصبح كاتبا ومنشئا ومقـــرئا للعرابيين فى المحـــافل والمجامع ومحررا للمحـــاضر المتفقة مـــع اغراض الثـــوار ، نتيجة لذلك كله فصل من وظيفته وقـــدم للمحـــاكمة وحكم عليه بالتجـــريد من « الرتب والنيـــاشين والعنوانات وعـــلامات الشرف والامتيازات »[٨] وتقرر نفـــيه الى خارج القطر المصرى وملحقاته لمـــدة ثلاث ســـنوات قضـــاها فى بيروت . ارتحل بعدها الى بـــاريس حيث دعـــاه استاذه جمال الدين الافغـــانى واصدرا سويا جريدة العروة الوثقى من هنـــاك ، ثم عـــاد الى بيروت حيث تزوج للمرة الثانية رحل بعدها الى مصر .

* وعين الشيخ محمد عبـــده عقب عـــودته الى مصر فى وظيفة نائب قـــاضى بمحكمة بنها حسب الأمـــر العالى الصـــادر فى ٢٨ يوليو ١٨٨٩م ، ثم نقـــل الى محكمة المنصـــورة الابتدائية الأهلية فى أول يناير ١٨٩١م فى وظيفـــة قاضى ومنها نقل الى محكمة مصر الابتدائية الأهلية [٩] .

* ظل الشـــيخ محمد عبده يعمل فى القضاء حتى سنة ١٨٩٩م ثـــم صـــدر أمر عـــالى فى ٣ يونية بتعيينه مفتيـــا للديـــار المصرية بمـــرتب سبعين جنيها فى الشـــهر وضمنت له الحكومـــة « الرجوع الى وظيفـــة قاض بمحكمة الاستئناف الأهلية فى حالة استقالته أو اقالته من وظيفـــة افتـــاء الديار المصرية » [١٠] .

* والتمس الشـــيخ محمد عبده من الخديو ضم المدة التى قضـــاها بالمنفى الى مدة خدمته حتى تحتسب له فى المعاش ، وقـــد أجابه الخديو الى طلبه ففى ١٨ يونيه ١٩٠٥ صـــدر أمر عالى رقم ٣ باحتســـاب فترة النفى التى قضـــاها الشيخ محمد عبده ضمن مدة خدمته [١١] .

* واشتدت وطـــأة المرض على الشيخ محمد عبده منذ اكتوبر ١٩٠٥

فعــزم على السفر الى خــارج البلاد للعلاج [١٢] بعد أن اختلف الاطباء المصريون فى تشخيص مرضــه ، ولكن حالته الصحية حالت دون ذلك .

* وتوفى الشــيخ محمد عبده بالاسكندرية فى ١١ يولية ١٩٠٥ عن عمر يناهز السادسة والخمسين ودفن بالقاهرة تاركا وراءه زوجة ، وأربع بنـــات ، كانت الصغرى من الزوجة الثانية .

* ومع ان الشــيخ محمد عبده قدم اقرارا فى نوفمبر ١٨٩٦م بأنه يمتلك منزلا يقــع بالشـــارع الاسماعيلى بالسيدة زينب ، واربعا وعشرين فدانا وثـلاثة عشر قيراطا بالاضــافة الى سبعة فدادين أخرى بطــريق الرهن وتقــع كلها فى مركز شبراخيت بحيرة [١٣] فان زوجتــه طلبت من وزارة المــالية زيادة معــاشها هى وبناته نظرا لأنه لم يتجــاوز ســبعة جنيهــات لا تكفى لقضــاء حاجات معيشتهم الضرورية ، وان زوجهـــا قد شغل نفسه طيلة حياته بتفضيل منافع الناس العمومية على شئـونه الخاصة مما جعله لا يترك لهم شيئا يعيشون منه [١٤] .

٤ — مصطفى كامل
١٨٧٤م — ١٩٠٨م

ولد مصطفى كامل بحــارة درب المبيضــة بشارع شيخون بالصليبة بحى الخليفــة بمدينة القـــاهرة فى ١٤ — ٨ — ١٨٧٤م وشـــاهدت طفولته السنوات الأخيرة من عصر الخديو اسماعيل حيث كانت الأزمــة المــالية والتدخل الأوربى ثم ســقوط اسمــاعيل وتوليــة توفيــق ودوى صوت جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده وعبد الله النديم ثم ثورة عرابى وانحيــاز الخديو للانجليز والاحتــلال ، ونتيجة لما انتهت اليه الثــورة العرابية من اخفـــاق وهزيمة شب مصطفى كامل بين شعب تملكه اليأس والقنوط والقلق .

حصــل مصطفى كامل على الشهادة الابتدائية عام ١٨٨٧ من مدرسة القربية بالقــاهرة وتلقى دراســته الثانوية فى مدرسة الخديوية ، ونــال الشــهادة الثانوية فى صيف ١٨٩١ ثم تلقى دراسته العــالية فى مدرســة

الحقوق الخديوية ثم التحق بمدرســة الحقوق الفرنسية فى اكتوبر ١٨٩٢م حيث حصــل على شــهادة الحقــوق من تولوز عام ١٨٩٤م .

وقد كان لاتصــال مصطفى كامل بعلى باشا مبارك وعبد الله النديم اكبر الاثــر فى تكوين شخصيته وفى تشــكيل وضعه السياسى ، فقد وجد مصطفى كامل من على باشــا مبارك تشــجيعا اذ انفســح له المجــال فى مجالســه كما شجعه على قراءة الصحف على مسمع من الناس ولـمـا وجد فيه الفصاحــة والشجاعة وقوة العارضة تنبأ له بمســتقبل عظيم ، ولقبه « امرؤ القيس » كمــا وجد مصطفى كامل فى عبد الله النــديم المدرسة الثورية التى تلقن فيها دروس الوطنية ، فكان لاتصاله به اكبــر الاثــر فى تكوينه الثــورى حيث تتلمذ عليه ونشــأ فى مدرسته واقتبس بعض اســاليبه ، واطلع منه على اســباب فشــل الثورة العرابيــة والقواعد التى يتبعهــا حتى يكون وطنيــا ناجحا وكانت نصائح وتوجيهات النديم لمصطفى كامل خير هــاد له فقد شرح له اهمية الصحافــة ودورها فى تنــوير الراى العــام ، وكانت جريدته «الاستاذ» هى الاستاذ الصحفى لمصطفى كامل ، كمــا اختص النــديم مصطفى كامل بالرعاية لما وجـــد فيه من الاستعــداد الثورى ، وتبينت له قــدراته الخطابية ، وامارات الزعامة ، فشــحن عواطفه بما فى نفســه من الافكار المكبوتة فى صــدره والتى لم يســتطع هو الافصاح عنها بعد عــودته من المنفى وقــد ظهــر ذلك واضحا فى خطب مصطفى كامل واسلوبه ، فقد اقتبس من النــديم بعض عبــاراته البلاغية وقلد طرق مخاطبته الجماهير .

وليس من شــك فى أن النديم قد غرس فى مصطفى كامل آراءه وكان همزة الوصــل بين جيل الثورة العرابية والجيل الجديد الذى تسلم الراية بعــده .

وعندما تولى الخــديو عبــاس الثانى واظهــر ميلا الى جــانب المصريين ، توثقت روابط الــود والتعاون بينه وبين مصطفى كامل فــى الســنوات الأولى من حكمه وعلى وجه خاص بعد الأزمة الوزارية ١٨٩٣، فقــاد مصطفى كامل مظــاهرة وطنيــة تأييدا للخديو ضــد الاحتلال كما هــاجم جريدة المقطم لموقفها العدائى منه .

لقد حمـل مصطفى كامل علم الجهـاد منذ ان كان طالبا ، فقـد راسـل الصحف وانشـأ مجلة المدرسة التى ظهر العدد الأول منهـا فى ١٨ — ٢ — ١٨٩٣م .

ولما عـزم مصطفى كـامل على اتمـام دراسة الحقـوق فى أوربـا سـافر الى تولوز بتعضيد من الخـديو ونال درجة الليسانس فى القانون عام ١٨٩٤م ، ومع ذلك لم يتجه للعمل فى المصـالح الحكومية او ممارسة مهنـة المحاماة لكنه نذر نفسه لقضية مصر ، فعاش حياته يدافع عنها .

وقد استلهم مصطفى كامل خطـوط كفاحه من دراسة واقع مصـر السـياسى ، فقد رأى ان الاحتـلال لا يستند على أساس شرعى فطرق كل بـاب يوصله للمطالبة باستقلال مصر ، ورأى ان اليـأس قد استحوذ على نفـوس ابناء وطنه ، فنفخ فى الأمة روحا جديدة ، وبعث فى النـاس امـلا بعد اليأس .

واعتمـد مصطفى كامل فى كفـاحه على كل القـوى الخـارجية والداخليـة المعـارضة للاحتلال وهى الخديو والسلطان وفرنسا ، كمـا اتجه الى الشبـاب المثقف من الشعب المصرى ، ووضـع مصطفى كامل فى اعتبـاره هدفا واحدا وهـو الجلاء ، اذ لم يـر لمصر عدوا واحـدا آنذاك سوى الاحتـلال .

لقد تعـاون مصطفى كامل مع الخديوى طالما وجد فيه تأييدا للحركة الوطنيـة ، وتعـاون مع الدولة العثمانية بهدف توثيق الروابط بينهـا وبين مصر ، حتى يتخذ من ذلك وسـيلة لمقاومة الاحتلال الانجليزى ، فقـد احس مصطفى كامل أن مصر بمفردها لا تستطيع بوسائلها المحدودة أن تجبـر الانجليز على الخروج منها ، فاستغل مصطفى كامل مركز مصر الدولى وحـركة الجـامعة الاسلامية آنذاك فى المطـالبة باستقلال مصر استقلالا ذاتيـا طبقا لما جاء بمعـاهدة لندن ١٨٤٠ — ١٨٤١ ، وكان مصطفى كامل يـدرك أن مصر اذا استطاعت أن تتخلص من الاحتـلال الانجليزى أصبح من السهل عليها التخلص من التبعية للدولة العثمانية .

وعن تقرب مصطفى كامل الى فرنسا ، فيرجع ذلك ، الى تلاقى أهداف سياسة فرنسا فى ذلك الوقت مع أهداف الحركة الوطنية المصرية ، فتعاون فى أثناء وجوده فى فرنسا مع الصحفى الفرنسى « دلونكل » ، ولكنه سرعان ما تبين له ان دلونكل لا يرضى عن وجود شاب مصرى يعمل من أجل قضية بلاده ويسحب منه الاضواء مما دفع مصطفى كامل الى الاتصال بمدام جوليت آدم الصحفية والاديبة الفرنسية ، فتعاطفت معه وفتحت صفحات مجلتها
الفرنسية ، فتعاطفت معه وفتحت صفحات مجلتها La Nouvelle Revue « لا نوفل ريفو » لكى ينشر ما شاء من مقالات . ولم يقتصر نشاط مصطفى كامل فى أوربا على فرنسا فحسب ، بل واصل نشاطه فى ألمانيا والنمسا وفى داخل انجلترا نفسها .

ورأى مصطفى كامل أن يمد جذور نشاطه الى الطبقات الكادحة فى المجتمع المصرى ، فلم يكتف بكتابة المقالات والخطب الحماسية ، بل طالب أيضا بانشاء المدارس ليتعلم فيها أبناء الفقراء والأغنياء على السواء ، وأدار مدرسة باسمه لتثقيف الناشئين ، كما أنشأ جريدة اللواء لتكون مدرسة يتعلم فيها المصريون حقوقهم وواجباتهم ، وبوقا ينادى بجلاء الانجليز ، وقد ظهر العدد الأول منها فى الثانى من يناير ١٩٠٠ ، وظل مصطفى كامل يواصل نشاطه السياسى معتمدا على كافة القوى حتى جاء ابريل سنة ١٩٠٤ فصدمت الحركة الوطنية فى مصر بابرام الاتفاق الودى بين انجلترا وفرنسا ، اذ بمقتضاه أقرت فرنسا الاحتلال الانجليزى على مصر ، ورغم ذلك فقد واصل مصطفى كامل كفاحه ، ولم يفت فى عضده موقف فرنسا وأخذ يعتمد على الرأى العام ، وعندما انحاز الخديو الى الاحتلال علانية بعد الاتفاق الودى قطع مصطفى كامل علاقته به ، واعلن فى اللواء عن عزمه الابتعاد عنه ، ثم ارسل له خطابا عقب عودته من أوربا يعلن فيه تحمله وحده مسئولية مقاومة الاحتلال والمحتلين .

نادى مصطفى كامل بتأسيس نادى للمدارس العليا ، وبتأثير دعوته افتتح هذا النادى فى ٥ ابريل ١٩٠٦ فكان تتمة لجهده فى التنظيم الطلابى ، وكان هذا النادى بمثابة معهد وطنى علمى اخلاقى تكون فيه جيل من خير الشباب المصرى وفيه ظهرت حركة فكرية قومية ،

خالقى اعــلام الفكر والعلم المحاضرات فى مختلف العلوم والفنون ، وبذلك اتصــل الطلبة بالخرجين ، وعن طريق هذا النادى ايضا تكونت الجمعيات السرية المناهضـــة للاحتلال .

وعندما وقــع حــادث دنشواى فى يونية ١٩٠٦ اســتغل مصطفى كامل ذلك الحــادث فى التشهير بالســياسة الانجليزية واثــارة الــرأى العــام الأوربى ضــد كرومر ، فكتب فى جريدة الفيجارو « مقــالا تحت عنوان « الى الأمة الانجليزية والعالم المتمدن » هــاجم فيه المحكمـــة المخصوصة وما اصــدرته من احكام ، كمــا استنكر الطريقة التى نفذت بهــا الأحكام مما اثــار دويا قويا ، وهــز الضمير العالمى ، ونقل مصطفى كامل المعــركة الى قلب لندن ، واستطــاع ان يهز الضمير البريطانى حتى بــدت الأرض تميد من تحت كرومر .

ولكى تظــل قضية مصر فى اذهان اوربــا اسس مصطفى كامل فــى عام ١٩٠٧ جريدتين يوميتين احــداهما بالفرنسية وهى (ليتندار اجبسيان) L'Etendard Egyptien والاخــرى بالانجليزية (ذى اجبشيان استاندارد) The Egyptian Standard (اللواء المصرى) .

وبعد استقــالة كرومر فى ابريل ١٩٠٧ وتوليــة جورســت ازداد انحيــاز الخديو تجــاه الانجليز وظهر موقفــه مكشوفا عندما اعلن فــى حديثــه مع المستر « ديسى » والذى نشــرته جريدة الديلى تلجراف فى مايو ١٩٠٧ انه مســتعد للتعــاون مع المعتمد البريطانى الجديد ، وعندئذ بــادر مصطفى كامل بنقد ذلك الحديث نقــدا حازما اظهر فيه تراجـــع الخديو وتخليه عن القضيــة المصرية وبعد تأسيس حزبى الأمة والاصلاح على المبــادىء الدستورية اضطر مصطفى كامل الى اعــلان تــأسيس الحزب الوطنى فى ٢٢ اكتوبر ١٩٠٧ برغم انه كان لا يود انشاء احــزاب لاعتقاده بأنها تؤدى الى انقسام الأمة .

وعلى الرغم من الأحداث العديدة الضخمــة التى عايشـــها مصطفى كامل واشـــترك فيها لم يــزد عمره عن اربعة وثلاثين عاما عندما توفى فى ١٠ فبراير ١٩٠٨ بعد ان قــدم لمصر من الأعمــال الجليلة التى خــلدته

فى سجل تـــاريخه الطويل وبموته تأثرت الحركة الوطنية فى مصر تأثيرا بالغـــا حتى حمـــل لواءها من جديد محمد فـــريد اما عن أهم مؤلفـــات مصطفى كامل فهى حسب تواريخ ظهورها :

— الجواهر السنية فى نظام الهيئة الاجتماعية (١٨٩٣) .

— اعجب ما كان فى الرق عند الرومان (١٨٩٣) .

— رواية فتح الاندلس (١٨٩٤) .

— اخطار الاحتلال الانجليزى لمصر (١٨٩٤) .

— رسالة الى الجمعية الوطنية الفرنسية (١٨٩٥) .

— المسألة الشرقية (١٨٩٨) .

— الشمس المشرقة)١٩٠٤(.

— المصريون والانجليز (١٩٠٥) .

٥ — الخديو عبـــاس الثانى

١٨٧٤م — ١٩٤٤م

أكبر الأبنـــاء الذكور للخديو توفيق بن اسمـــاعيل بن ابراهيم بـــن محمد على ، وهو ســـابع من تولى حكم مصر من أسرة محمد على .

ولد عام ١٨٧٤ بمدينة الاسكندرية ، ولما شب دخل مدرسة عابدين ثم ســـافر الى النمســـا والتحق بكلية الترزيانوم ، ولما بلغـــه نبـــأ وفاة والده وهو بفينا بادر بالعودة الى مصر فوصل الى الاسكندرية فى ١٦ يناير ١٨٩٢ .

وفى بـــداية حكمه — حـــاولت مختلف القـــوى المؤثرة على الوضع الســـياسى فى مصر الضغط عليه حتى تضمـــه الى صفها ، فاتخـــذت انجلترا من حـــداثة سنه ذريعة لتســـويغ بقـــاء الاحتلال ، كما اتخذت تركيـــا من ذلك فرصة للسيطرة على الخديو الصغير فحـــاول السلطان احتـــواءه وطلب منه زيـــارته ، ولكن عباس تجنبـــا للضغط عليه ســـافر

الى مصر مباشرة مما أغضب السلطان وجعله يلجأ الى تأخير فرمان ولايته واقتطاع شبه جزيرة سيناء من مصر .

وحين بدأت اجراءات تولية عباس حلمى اريكة الخديوية ، ظهرت مشكلة عويصة ، فسن الأمير ينبغى أن يكون ثمانية عشر عاما حتى يمكنه اعتلاء الخديوية ، وبما أن عباس الثانى ولد فى ١٤ يولية ١٨٧٤ فانه لم يبلغ سن الرشد الا فى ١٤ يولية ١٨٩٢ بينما كانت وفاة والده المفاجئة فى السابع من يناير ١٨٩٢ ، وظهر شبح تشكيل مجلس وصاية وتفاديا لذلك اتفق على حساب سن الأمير بالحساب الهجرى الذى يقل عن الحساب الميلادى فاتضح انه بلغ سن الرشد فى ٢٤ ديسمبر ١٨٩١ .

اضطلع عباس الثانى بمهام الخديوية ، وتملكه فى الفترة الأولى من حكمه شعور وطنى ، فاستبدل رجال المعية التى كانت على أيام والده بآخرين كما اتجه الى الأمة فاصدر أوامره بالعفو عن عدد كبير ممن اشتركوا فى احداث الثورة العرابية ومنهم عبد الله النديم ، ثم صار يستقبل طوائف الناس مرتين فى كل شهر ، وساءه أن يرى الانجليز قد وضعوا ايديهم على وزارات الحكومة ومصالحها فاعتزم وضع حد لهذا التدخل غير المشروع ورسم لنفسه فى أول عهده بالحكم سياسة مقاومة التدخل البريطانى ، ولما رأى فى رئيس نظاره مصطفى فهمى خضوعا كاملا للانجليز طلب منه أن يقدم استقالته بحجة مرضه ، ولكن مصطفى فهمى نصحه بأخذ راى اللورد كرومر قبل الاقدام على هذا العمل ، مما ضايق الخديو فاصدر امرا باقالته ، وكلف حسين فخرى بتأليف الوزارة الجديدة فشكلها فى ١٥ يناير ١٨٩٣ وكان لهذا التغيير صدى قويا فى كافة الأوساط المحلية والعالمية ، فذهب اللورد كرومر لمقابلة الخديو وابلاغه بأن الحكومة الانجليزية لها الحق فى اختيار الوزراء وفقا لمنشور جرانفيل فى الثالث من يناير ١٨٨٣ فرد عليه الخديو بأن الفرمانات السلطانية تمنحه حق اختيار وزرائه بنفسه ، فهدده كرومر بأنه اذا قاوم انجلترا فمعنى ذلك الاطاحة بعرشه ، وتعكر الجو وحدثت الأزمة التى يطلق عليها فى التاريخ « بالأزمة الوزارية » وقد سويت هذه الأزمة على اساس الا يصر كرومر على عودة مصطفى

فهمى ولا يتمسك الخديو بوزارة حسين فخرى ، ويعين مصطفى رياض باشا كحل وسط يرضى الطرفين أما عن اثر هذه الأزمة فى نفسية الشعب المصرى فقد التفت الأمة المصرية حول الخديو وشجعته على موقفه ، كما هاجم مصطفى كامل وزملائه جريدة المقطم لموقفها العدائى من الخديو ، واعتلى مصطفى كامل منصة الخطابة فى ٢٠ من يناير ١٨٩٣ بين جموع الطلبة الذين احتشدوا للتعبير عن سخطهم على المحتل ، ووجه مصطفى كامل نداءه الى المصريين بالتكتل والوقوف بجانب الخديو والاستعداد للكفاح .

وقد وجد الخديو عباس الثانى فى مصطفى كامل الشباب الذى يستطيع حمل راية الكفاح برغم حداثة سنه ، فاعجب بشخصيته ووافقت اتجاهاته ميوله فى بداية حكمه فامده الخديو بالمال والتأييد ، وتوثقت اواصر الود والتعاون بينهما .

وشكلت وزارة رياض فى ١٩ يناير ١٨٩٤ ، وفى عهدها حدثت أزمة الحدود سنة ١٨٩٤ فعندما سافر الخديو الى الصعيد لتفقد احوال الجيش المصرى هناك بعد ان اشتكى له الضباط المصريين من سوء معاملة رئيسهم الانجليزى لهم ، فقام الخديو باستعراض قوات الجيش فى وادى حلفا ومعه ماهر باشا وكيل وزارة الحربية وعند مروره على الاورطتين الثانية والحادية عشر ابدى بعض الملاحظات والانتقادات التى تمس كفاية الضباط الانجليز ، كما القى خطبة على مسامع الانجليز انتقد فيها طريقة التعليم التى ينتهجونها فى تدريب الفرق المصرية ، مما كان له وقع سىء على الاوساط الانجليزية فتقدم كتشنر استقالته معلنا ان الكرامة الانجليزية قد امتهنت ولما سمع اللورد كرومر بالحادث هالته خطورته ورأى فيه الفرصة التى يمكنه بها تلقين الخديو درسا قاسيا ، فطلب منه نقل ماهر باشا من نظارة الحربية واصدار امر عسكرى يثنى فيه الخديو على الضباط الانجليز ويعتذر عما بدر منه ، ولما وجد الخديو أن الموقف فى غير صالحه أذعن لمطالب كرومر وبذلك اصيب نفوذه من جراء هذه الأزمة بضربة شديدة وتصدعت هيبته أمام الجيش والشعب .

وقد تميزت الفترة التى تلت حادث الحدود وحتى نهاية فتح السودان ١٨٩٨ بالحــذر الشــديد من جانب الخديو فى تصرفاته تجاه الاحتــلال ، فســلك طريق المقــاومة السرية كما شــجع العناصر المناوئة للاحتلال وازداد تقــربه من الأمة فأخــذ يدعو المثقفين اليه من ابناء البلاد والعلماء امثــال الشيخ محمد عبــده والشيخ حســونة النواوى وادار الخــديو من داخــل قصره اللجنة الفرنسية السرية التى قامت بالدعاية لقضيـــة استقــلال مصر فى أوربــا ثم انضم اليهــا بعد ذلك جمعية احياء الوطن الســرية .

اخــذ الخديو يســاير الحركة الوطنية حينــا ويتراجع عنهــا حينا آخر حينمــا تعارض مصــالحه معها ، وكان شــديد الحذر فى تعامله مع الاحتــلال ، يظهر الوفــاق ويبطن المقــاومة ومع ذلك فان الظــروف اضطرته الى المقــاومة الصريحة للاحتلال وبوجه خــاص فى الفترة التى عــاصرت وزارة مصطفى فهمى والتى تغطى فتح السودان ، فقد اعترض الخــديو على قرار انجلترا اعــادة فتح السودان عام ١٨٩٦ ثم اضطــر الى التزام الصمت نظرا لتهديدات كرومر له .

ومن المعتقــد أن الخديو عبــاس لم يكن على استعداد للســير فى صرامة ضــد المعتمد البريطانى كرومر الى حــد التفكير فى تصفية الاحتلال نهــائيا بل كانت معــارضته المترددة لســياسة كرومر تستهدف المشاركة فى السلطة حتى فى ظل الاحتلال ، كمــا أن موقف الخديو عباس الثــانى من الاحتــلال كان ينصب فى الهجــوم على الســياسة الكرومرية وليس على الاحتــلال من أساسه وكان تعــاطفه نحو الحركة الوطنية اسلوبا من اســاليب الضغط على ســياسة كرومر ، وقد نجحت محاولات كرومر فــى تجريد الخديو من سلطــاته شيئا فشيئا نظرا لأنه كان يعتبره شابا صغير الســن قليل الخبرة عــديم الادراك بشــئون البلاد الســياسية والادارية كمــا اعتبره مســئولا عن كل الحركات المعــادية للانجليز ، ونتيجــة لضغوط كرومر فقد الخــديو الكثير من سلطاتــه مما دفعــه الى البحث عن مصدر يعوضه ما فقده فبدأ فى جمع الأموال من كل مــورد مفتوح بين يديه ، وكان أهم هذه الموارد خزائن الأوقاف والتركات .

ولما حاول الخديو تخفيف وطأة كرومر عليه سافر الى لندن عدة مرات وكانت زيارته موضع الترحيب والحفاوة ، وفيها سعى لدى الحكومة البريطانية للحصول على وعد منها بأن يكون الدون جورست خلفا لكرومر فى مصر .

وعندما وقع حادث دنشواى فى يونية ١٩٠٦ وحدث الاجماع الوطنى الرائع الذى تزعمه مصطفى كامل ضد استبداد الانجليز فى دنشواى عاد الخديو عباس الثانى الى صف الحركة الوطنية وخصوصا وانه لم يتحقق له فى اثناء تقربه من الاحتلال ما كان يوده من المشاركة فى الحكم .

ولما استقال كرومر وخلفه جورست وحدثت سياسة الوفاق والمسالمة مع الخديوى تخلى الخديو عن الحركة الوطنية تماما بل اعتبرها خطرا عليه وشجع على اضطهادها .

وبعد أن حل كتشنر محل جورست واستعمل سياسة الشدة مع الخديو اراد الأخير العودة الى الحركة الوطنية ولكن محمد فريد رفض طلبه .

وفى ١٢ يونية ١٩١٤ سافر الخديو الى الاستانة فلاحقه شاب مصرى يدعى محمود مصطفى باطلاق الرصاص عليه فى ٢٥ يوليه ١٩١٤ فاصابه فى ذراعه وفكه ونقل الخديو الى المستشفى حتى قامت الحرب العالمية الأولى .

وفى ١٩ من ديسمبر ١٩١٤ اعلنت الحكومة البريطانية خلع الخديو عباس الثانى عن منصب الخديوية وارتقاء حسين كامل عرش السلطنة المصرية . وقد ظل عباس الثانى متمسكا بحقوقه الشرعية فى مصر حتى عام ١٩٣١ حتى تنازل عنها للملك فؤاد عام ١٩٣١ مقابل مبلغ من المال وفى عام ١٩٤٤ توفى الخديو عباس الثانى بجنيف عن عمر يناهز الحادية والسبعين شهد خلاله حربين عالميتين ، ونقلت جثته الى مصر ، وقد دون مذكرات مطولة نشرتها جريدة المصرى عام ١٩٥١ وقد تناول فيها حياته وسنوات حكمه كما تناول الحديث عن زعماء الحركة الوطنية وعلاقته بهم .

مراجـــع الفصـــل الحادى عشـــر

(١) اعتدنا فى بيان سيرة على مبارك واعماله على ما استخلصناه من عبد الرحمن الرافعى فى كتاب : عصر اسماعيل .

(٢) د. عبد المنعم الجميعى : على مبارك وروضة المدارس ، دراسة غير منشورة .

(٣) روضة المدارس : العدد الأول من السنة الأولى بتاريخ السـبت ١٥ محرم ١٢٨٧ .

(٤) الرافعى : المرجع السابق ج ١ ص ٢٥٢ .

(٥) دار المحفوظات العمومية : ملف خدمة ومعاش الشيخ محمد عبده ، دولاب ٤٢ عين ٤ محفظة ٨٧٣ دوسيه ٢٢٦٧٩ .

(٦) نفس الملف : مذكرة بقلم المستخدمين ، ويتضح من المذكرة ايضـا ان هذه السنة لم يكن بها دفتر مواليد .

(٧) نفس الملف : تعريفه باسم الشيخ محمد عبده المستخدم بوظيفـة نائب قاضى بمحكمة بنهـا الأهلية وردت من المحكمة الى الحقانية بتـاريخ ١٨ مارس ١٨٩٠ تحت رقم ٤٥ .

(٨) ملف الخدمة السابق الذكر . قضية رقم ٦٣ باسم الشيخ محمـد عبـده .

(٩) نفس الملف : صورة افادة من نظارة الحقانيـة لمحـكمة مصر الابتدائية الأهلية بمقتضى الدكريتو الصادر فى ٢ يناير ١٨٩٢ .

(١٠) نفسه : صورة ما ورد من رياسة مجلس النظار بضمانة الحكومة للشيخ محمد عبده بالعودة الى وظيفة قاض بمحكمة الاستئناف الأهليـة فى حالة استقالته او اقالته .

(١١) نفســه : افادة بخصوص احتساب مدة الشيخ محمد عبده المفتى .

(١٢) نفسه : توكيل الشيخ محمد عبده للشيخ حسن البنا فى القيام بالرأى فى الأحكام الجنائية فى حالة سفره الى أوربا .

(١٣) الملف السابق : اقرار ذمة مالية مقدم من الشيخ محمد عبده .

(١٤) نفس الملف : التماس مقدم من حرم المرحوم الشيخ محمد عبده وابنتاه القاصرة والعاجزة الى نظارة المالية .

الفصل الثاني عشر

أبرز المتاحف في جمهورية مصر العربية

١ ــ المتحف المصرى ٠

٢ ــ متحف الفن الاسلامى ٠

٣ ــ المتحف اليونانى والرومانى ٠

٤ ــ المتحف القبطى ٠

٥ ــ متحف التعليم ٠

٦ ــ المتحف الحــربى ٠

٧ ــ متحف المثال محمود مختار ٠

٨ ــ متحف دار الكتب المصرية ٠

ابرز المتاحف فى جمهورية مصر العربية

ظلت الآثار المصرية مشتتة فى بقاع عدة لم يهتم بها احد من السلاطين او الحكام حتى اواخر عصر محمد على . ونتيجة لمحاولات شمبليون الفرنسى ، وبورنج الأمريكى فى اقناع محمد على بانشاء مصلحة خاصة للمحافظة على الآثار انتهى الأمر بانشاء هذه المصلحة ، ثم تطورت الأمور فى عهد خلفاء محمد على الى انشاء المتحف المصرى ، ودار الآثار العربية ، والمتحف اليونانى والرومانى ، والمتحف القبطى ، والعديد من المتاحف الأخرى فى محافظات مصر وذلك ما سنعرض له فى هذا الفصل .

أولا : المتحف المصرى — ميدان التحرير بالقاهرة انشىء المتحف المصرى فى بداية الامر فى عام ١٨٥٧ [١] بمنطقة بولاق على شاطىء النيل بالقاهرة [٢] بفضل جهود العالم الفرنسى اوجست ماريت Maiette الذى مهد سبل البحث عن الآثار ، ونجح فى منع العبث بها وجمع ما تفرق منها هنا وهناك فى هذه الدار ، حتى كون فى بولاق متحفا لا مثيل له فى العالم ادخر فيه — كما ذكر البعض — من «التماثيل والمكتوبات البردية والنقوش ، ومومياوات كبار الفراعنة ، ما لا يعرف له قيمة ، ولا يمكن لكنوز الدنيا باسرها مشتراه » .

وقد اقدم الخديو اسماعيل على دعوة ذوى المنزلة الرفيعة من زائريه لزيارة هذا المتحف[٣] .

وكان من الطبيعى أن يكون أول مدير للمتحف هو « ماريت » وكان من الطبيعى ايضا أن يكون ضمن رجال هذا المتحف بعض المصريين وقد نبغ من هؤلاء اكثر من واحد فى مقدمتهم احمد كمال باشا .

وفى عام ١٨٩٠ نقلت محتويات هذا المتحف الى سراى الخديوى اسماعيل بالجيزة على الضفة الغربية للنيل فى مواجهة جزيرة الروضة

وكانت هـذه السراى ذات طـابقين أرضى وعلوى ، وكل طـابق مكون من تسـعين صالة تقريبا مما يوضح ان مقتنيات هذا المتحف كانت كثيرة ، يضـاف الى ذلك انه تم تقسـيم مقتنيات المتحف من التحف تقسيما علميا بحسب العصـور من أقدم الأزمنة الى العصر القبطى (٤) .

وقد وصف المويلحى ما شـاهده فى هذا المتحف بقوله « واقمنـا هناك نتنقل بين الأصنـام والتماثيل ، ونتأمل فى التصـاوير والتهاويل . ونتفكر فى هـذه العظـام المنشرة والرفات المنظرة بمـا عليها من الحلى والزينة ، وتلك الأحجار الثمينة . كيف كانت ملوكا للامم ، ثم بقيت على بلى الرمم ، وتوالى القدم ، فى حال الوجود مع العدم » (٥) .

كمـا وصف تهـافت الأوربيين على مشـاهدة هذه التحف بقـوله « كنت أرى تهـافت الغربيين عليها ... لعل شأنها عندهم وعلو قيمتها لديهم هـو لأجل توغلها فى البلى والقـدم ومحلها من التاريخ ، وما تحمله منقوشـا عليها من أسـاطير الأولين .. زد على تلك حبهم للاقتنـاء وولوعهم بالاختصاص بالنـادر ولذلك علت قيمتها عندهم وارتفع قدرها بينهم » (٦) .

ثم قـارن بين اهتمـام الأوربيين بالآثار المصرية ، وعدم اهتمـام المصريين بهـا فقال « ولو أنـك عرضت أهل مصر على هذه الآثار واحدا واحدا لما استفـادوا منها شيئـا ، ولا أفادوك عنها شيئـا ولما وجدوا لهـا قيمة تذكر سوى النذر اليسير من المقلدين للغربيين » (٧) .

وقد ظـل هذا المتحف فى سراى الخديو بالجيزة حتى التاسع مـن مارس ١٩٠٢ ، وفى ١٣ يوليو من نفس العـام نقل المتحف الى مبنـاه الحـالى بميدان التحرير بالقاهرة فى بنـاء فخم وفتح أبوابه للجمهـور فى الخامس عشر من نوفمبر (٨) . وقد حضر الخديو عبـاس حلمى الثـانى حفل الافتتـاح وأعرب عن رغبته فى متابعة آثـار أجداده ، وأثنى على العلمـاء الذين قاموا بتنظيمه وجمع آثاره .

ويضم المتحف آثـار مصر منذ أقـدم عصورها الى نهـاية عصـر الوثنيـة ويحوى أكبر مجموعة للآثار الفرعونية فى العـالم . ويتكون من

طـــابقين : الطـــابق الأرضى يحوى الآثار الثقيلة كالتوابيت والتمـــاثيل واللوحات الحجرية وهو مرتب ترتيبـــا زمنيا حسب العصور [٩] .

أما الطـــابق الثـــانى فيشمل مقبرة توت عنخ آمـــون ، والآثـــار الخفيفة الـــوزن كالآلات والجهـــاز الجنائزى والتمـــاثيل الصغيرة والحلى والتـــوابيت الخفيفـــة هذا بالاضـــافة الى أوراق البردى [١٠] ومن أهـــم أوراق البردى التى يقتنيهـــا المتحف وثيقـــة على جـــانب كبير من الأهمية، مكتوبة بالهيراطيقية من عصر رمسيس الثـــانى من ملوك الأسرة التاسعة عشرة ، والكتـــابة واضحة فى مجموعها باللونين الأســـود والأحمر فـــى صفحـــات تشـــبه أعمدة الجـــرائد يبلغ عـــددها أربع وخمسين صفحة . والبردية تعد من أطـــول البرديات فى العـــالم فطولها حـــوالى سبعـــة أمتـــار وعرضها حوالى عشرين سنتيمترا . وهى تتنـــاول موضـــوعات مختلفة : دنيوية ودينية وفلكيـــة وســـحرية كلها مرتبطة بالطـــالع السعيد أو النحس فى أيـــام الســـنة . وتحتوى البـــردية على تعـــاويذ ســـرية لحمـــاية الفرد وما يعمله من تمائم [١١] .

وقد سجلت هذه البـــردية فى المتحف تحت رقم ٨٦٦٣٧ والى جانب ذلك فقد أضـــاف المتحف الى مقتنياته البردية مجمـــوعة فى بابها وهـــى « أوراق طره البردية » [١٢] .

وممـــا يفخر بـــه المتحف مجموعـــة آثـــار توت عنخ آمون [١٣] آخر ملـــوك الأسرة الثامنة عشرة — وهى المقبرة الفرعونية الوحيدة التى عثر عليها ســـليمة وبالحالة التى وضعها عليها قدماء المصريين [١٤] ويستلفت النظر منهـــا التـــابوت الذهبى الذى كانت بداخله مومياء توت عنخ آمون، ومجموعة الأوانى المرمرية والخزفية ، والعصى والأقـــواس ، وكـــرسى العرش ، وتمـــاثيل الآلهة التى تتولى حراسة الملوك فى العالم السفلى ، وتماثيل الملك .

ويكفى أن يكون هذا المتحف هـــو المكان الوحيد الذى يستطيع الزائر أن يتتبع فيه حضـــارة نبتت وتطورت خـــلال ما يـــزيد على ســـتة آلاف عام [١٥] كمـــا يستطيع أن يقف بين بقـــايا آلاف السنين فيرى أمـــامه

موميـــاء الفراعنة « امنتحتب الأول » و « تحوتمس الرابع » ، و « رمسيس الثـــانى » ، و « مفتـــاح » و « ســيتى » و « رمسيس الثالث » وغيرهم ويقف امـــام التماثيل المملوءة بالأسرار ، ويشـــاهد عـــادات وأعمـــال وفنـــون وصنـــائع هؤلاء المصريين العظـــام مما يشهـــد على أن مصـــر كانت أما للمدنية والحضارة القديمة .

وعلى الرغم من كل ذلك فالســـؤال المطروح ، هـــل تمكن هـــذا المتحف من استيعـــاب عرض كل التحف الأثـــرية الموجودة به والتى تـــرد اليه احيـــانا بعد الحفريات ، وهل هو مجهز بأجهزة التقنية المتقدمة التى يمكن عن طريقهـــا صيـــانة الآثار المحفوظة وحفظها أم لا ؟

الواقع ان المتحف فى مكانه الحالى بميدان التحرير بالقاهرة وبظروفه الحـــالية فى حاجة الى اعادة نظر وذلك للاسباب الآتية :

١ — ان تواجـــد المتحف فى منطقـــة اصبحت مزدحمة بالســـكان وشـــديدة التلوث من عـــادم السيارات وغيره أصبح خطرا على الآثـــار المعـــروضة داخل المتحف ومن هنـــا يجب نقـــله الى منطقة هادئة فـــى احدى ضـــواحى العاصمة ، وفى تصورى أن ذلك هو ما تفكر فيه مصلحة الاثـــار ووزارة الثقـــافة جديا الان .

٢ — ان المتحف لم يعـــد به متســـعا لعرض الاثار المصرية المكدسة فى مخـــازنه والتى لم تـــر النور بعد لضـــيق المكان به ، لذلك فان انشاء متحف جـــديد يكون أكثر اتســـاعا وتجهيزا افضـــل للمحافظة على آثارنا الخـــالدة .

٣ — ان عـــدم تجهيز المتحف بوســـائل التقنية الحديثة والمتقـــدمة يجعلنـــا دائمـــا فى قلق دائم على آثارنا خشية عليها من التلف والتآكل .

ونتيجة لكل ذلك فقد فكرت وزارة الثقافة المصرية فى الآونة الأخيرة فى بنـــاء متحف آخر بالقـــرب من منطقة الأهرام بالجيزة يقام على مساحة ٧٧ فدانا مما يجعـــله أكبر متحف للاثار فى العالم .

وقد عرضت العـديد من الدول وابرزها اليـابان وايطاليا المشاركة فى هـذا المشروع الحضـارى حيث تقوم اليابان ببناء المتحف وتقوم ايطاليا بترميم مجمـوعة اللوحات النـادرة بمتحف الجزيرة ، ٧٤٥ لوحة اخرى ترجع الى القرن التاسع عشر لكبـار فنانى المدرسة التأثيرية (١٦) .

وفى النهـاية يمكن القـول ان المتحف المصرى ذلك المحـراب الفنى الزاخر بمختلف الكنـوز ، لهو امـانة فى اعنـاق احفاد الفراعنة العظام . وانى لارجو أن يهتم المصريون بتراث جدادهم اهتمـام العالم الاجنبى به حتى يصبحوا جديرين بالانتساب اليهم .

ثانيا — متحف الفن الاسلامى

دار الآثـار العربية سابقا

فى عام ١٨٦٩ امر الخديو اسـماعيل بانشاء دار للاثار العربيـة ، وعهد بانفـاذ المشروع الى « المسيو فرانس » كبير مهندسى الأوقاف وكلفه باختيـار بنـاء حكومى لهذا الغرض ليجمع فيه ما كان مبعثرا فى المساجد من الآثـار العربية والاسلامية فاختار الديوان الشرقى فى جامع الحـاكم بالجمـالية بجوار باب الفتوح .

وعلى الرغم مما بذل من اجل اقامة هذا المشروع فى عهد اسماعيل فان دار الآثـار لم تتسـع اتساعا حقيقيا الا فى عهد الخديو توفيـق وخاصة بعد أن استصدر شريف باشا مرسـوما فى الثامن عشر من ديسمبر ١٨٨١ بتأليف لجنة حفظ الآثـار المعنـاية بالآثار العربية وكانت برئاسـة محمد زكى باشـا مدير الأوقـاف العام وقتئذ ، ومن اعضـائها محمـود سـامى باشا ومحمود الفلكى باشـا (١٧) وقد جاء فى مواد الأمر العالى ما يلى :

١ — اجـراء اللازم لجرد وحصر الآثار العربية القديمة التى تكون فيها فائدة صناعيـة .

٢ — ملاحظـة وصيانة تلك الآثـار ، ورعاية حفظها من التلـف واجبـار نظـارة الأوقاف بالتصليحات والترميمات المقتضى اجراؤها فيهـا مع ايضـاح المهم منها .

ولما ضـــاق الديوان الشرقى فى جـــامع الحاكم رات اللجنة ضـــرورة البحث عن مكان آخر اكثر اتســـاعا لحفظ ما كان يـــرد على الدار مـــن آثـــار وتحف [١٨] وانتهى الأمر بتخصيص مبنى آخر فى صحن جـــــامع الحـــاكم فى عام ١٨٨٣ [١٩] .

ولما زادت مجمـــوعات الآثـــار الواردة على الدار زيادة مضطردة راى الخـــديو أن يهيىء لهـــا مكانا يليق بمكانتها فبنيت دار جـــديدة للاثار العربية ، واحتفـــل بافتتاحها فى الثامن والعشرين من ديسمبر ١٩٠٣ فى حفل كبير حضره الخديو عبـــاس الثانى ، واللورد كرومر المعتمد البريطانى فى مصر ونقل اليها التحف الفنية الاسلامية .

ويضم المتحف مجموعة من انفس المجموعات الأثرية الاســـلامية فى العالم والتى يختلف تاريخ صناعتها منذ بداية العصر الاسلامى حتى نهـــاية القرن التاسع عشر الميلادى .

وقد تمت هذه المجموعات بفضل الحفائر التى قام بها المتحـــف فى المناطق الأثرية حتا بلغت محتويات المتحف نحوا من ٧٥ الف تحفة .

وقد عرضت التحف الأثرية بالمتحف فى ٢٤ قاعة بطريقة تمتاز باتصال حلقات الفن والعمارة فيها فبعضها مخصص للطراز الفنى كالطراز الأموى والعباسى والفاطمى والأيوبى والمملوكى والايـــرانى والتركى ، وبعضـــها مخصص لمادة التحف كقاعة الخشب المعادن والخزف وفنون الكتابة التى تنسب الى مختلف العصور الاسلامية ، كما يمتلك هذا المتحف أعظم مجموعة من المنسوجات ، والسجاد الاسلامى التى تثبت براعة الفنانين المصريين فى نسج الاقمشة ، وعمل السجاد [٢٠] .

وقد تغير اسم دار الآثار العربية الى متحف الفن الاسلامى منذ عـــام ١٩٥٢ .

وهكذا كان تأسيس هذه الدار خدمة كبرى للحفـــاظ على التـــراث الاسلامى والحضارة الاسلامية ، ومن الانصاف أن نشيد بجهود العلمـــاء الذين ساهموا بجهودهم فى ابراز التراث الاسلامى فى هذا المتحف ، ومن

هؤلاء العالم الفرنسى « جاستون فيت » فبعد أن عين فيت مديرا للمتحف فى عام ١٩٢٦ انكب حوالى ربع قرن من الزمان على دراســة الكثير من الكنوز النفيسة التى يحتويها المتحف فى كافة المجالات الفنية ، وقد ساعده على ذلك قدرته على قراءة الكتابة العربية التى استخدمت كعنصر من عنــاصر الزخرفة فى الفن الاسلامى ، هذا بالاضافة الى المامه بالتاريخ الاسلامى .

وقد تميز عمله بالتعمق فى دراسة الفنون الاسلامية فى مجالاتها المختلفة ، ودراسة المجموعات الفنية التى يضمها المتحف من منسوجات وحراير وسجاجيد وخزف وتحف معدنية نحاسية وبرونزية وتصاوير وأوانى زجاجية ، مشكاوات مموهة . كان نتاج ذلك عمل دليل فى عام ١٩٣٠ للتعريف بمحتويات المتحف ، واخراج العديد من الدراسات والمقالات عنه ومن أهمها :

١ — المشكاوات والأوانى الزجاجية .

٢ — التحف النحاسية والبرونزية ذات النقوش التاريخية .

٣ — التصاوير الفارسية والهندسية والتركية .

٤ — حراير فارســية .

٥ — النقوش العربية فى مصر ، ج ٢ .

٦ — مجموعة شواهد القبور الموجودة بمتحف الفن الاسلامى .

٧ — النقوش العربية فى مكة والمدينة[٢١] .

والى جانب ذلك فان هذا المتحف يقتنى عددا قيما من أوراق البردى العربية التى جلبت من حفائر الفسطاط .

والحق أن الفن العربى فى عهوده الوضاءة غنى بالأنواع والأشكال ، مترع بالاحساسات والمعانى ولا سبيل الى كشف هذا الا من طريق التصفح والتأمل . ونتيجة لذلك هيأت الدار المعارض المتعددة لعرض نفائســها على الجمهور .

ثالثا : المتحف اليونانى والرومانى بالاسكندرية

انشىء هذا المتحف فى عام ١٨٩٠ — ١٨٩١ ، ويشمل مجموعات أثرية رائعة يرجع تاريخها الى القرن الثالث قبل الميلاد حتى القرن الثالث الميلادى وهى منسقة تنسيقا يتمشى مع تتابع العصور ومعروضة على الوجه التالى :

نقوش يونانية ولاتينية ثم شواهد جنائزية اما محفورة أو ملونة ثم مجموعة من ورق البردى ، ثم بعض الآثار الفرعونية التى عثر عليها بالاسكندرية ثم قلة من المومياء اليونانية والرومانية ، وبعض تماثيل تبين فن النحت اليونانى الرومانى ، كما تعرض بعض نواحى فن المعمار يلى ذلك تماثيل رومانية ، وقطع كاملة من الفسيفساء كما توجد بعض التحف الزجاجية الملونة ، والتحف العاجية كذا هناك مجموعة من التوابيت ، ومجموعة ضخمة من التماثيل الفخارية الصغيرة والمسارج ، ومجموعة من الأوانى الجنزية لحفظ رماد الجثث المحروقة ، ومجموعة من العملة البطلمية والرومانية ، وبعض الحلى ، كما توجد بعض الآثار التى ترجع الى العصر المسيحى هذا بالاضافة الى انه يوجد بحديقة المتحف معبد التمساح المقدس الذى عثر عليه باقليم الفيوم ونقل الى المتحف فى عام ١٩١٣ .

ومما يسترعى الانتباه مجموعة التماثيل الفخارية الصغيرة والملونة التى يرجع تاريخها الى أوائل العصر الهلينستى حوالى عام ٣٥٠ ق . م والتى تعد احدى المجموعات الاثرية النادرة[٣٢] .

رابعا : المتحف القبطى

القاهرة — مصر القديمة

أسس هذا المتحف فى عهد الخديو عباس حلمى الثانى فى عام ١٩٠٨ حيث قام مرقس باشا سميكة بوضع نواته بمساعدة نخبة من محبى الفنون والآثار القبطية من مصريين وأجانب وذلك بتخصيص غرفة بجوار الكنيسة المعلقة[٣٣] بمصر القديمة لعرض الآثار القبطية بها ، ثم شرع فى جمع شتات هذه الآثار التى عثر عليها فى الكنائس والاديرة بالوجهين القبلى والبحرى وذلك بموافقة بطريرك الأقباط الارثوذكس وقتئذ[٣٤] .

وفى عهد الملك فؤاد ، وبعد زيارته للمتحف فى ٣١ ديسمبر ١٩٣١ تقرر ضم هذا المتحف الى أملاك الدولة واعتباره متحفا قوميا .

وفى عهد الملك فاروق تمكن المتحف من زيادة مجموعاته الأثريـــة عن طريق شراء نخبة من الآثار المختلفة مما عرض بمعــرض جمعية الآثـــار القبطية فى ديسمبر ١٩٤٤ وأيضا عن طريق ما نقل اليه من المتحف المصرى .

ويرجع الفضل فى تكوين النواة الأولى لمقتنيات المتحف القبطى الى العالم الأثرى « جاستون ماسبرو » الذى يعد بحق أول من شمل الفن والعاديات القبطية بعناية واهتمام جديرين بالذكر فانه لم يكن يعين فى وظيفة مدير عام الآثار المصرية فى عام ١٨٨١ حتى عقد العزم على أن يضم الى منهاج عمله الأماكن والآثار القبطية .

كما بدأ بتخصيص احدى قاعات المتحف المصرى لآثار العصر القبطى ، وكون بذلك نواة تلك المجموعة النفيسة النادرة التى تزدان بها الآن قاعات كثيرة من قاعات المتحف القبطى مما جعل منه مركزا رئيسيا لدراسة آثار مصر التاريخية فى العصر المسيحى[٢٥] .

ويعد هذا المتحف نسيج وحده بين المتاحف فى فنون العهد القبطى حيث يضم فى قاعاته المختلفة مجموعة تعتبر من أندر واعظم المجموعات العالمية فيحتوى على العديد من المجموعات الأثرية التى تربط بين العصرين اليونانى والرومانى والعصر العربى ومن اهم هذه المجموعات نذكر :

١ — مجموعة من الآثار الحجرية والرخامية والجرانيتية وبقايا توابيت المـوتى .

٢ — مجموعة من الفخار المنقوش والخزف المصقول والزجاج المدهون .

٣ — مجموعة من المصنوعات الخشبية تتألف من مذابح قديمة واحجاب وأبواب للهياكل وصناديق ومقاعد وغيرها يرجع تاريخ بعضها للجيل الرابع للمسيح عليه السلام من الواح منقوشة نقوشا بارزة تمثل حياة الســيد المسيح وصـــور القديسين والحياة المنزلية وصـــور طيـــور وحيـــوانات وبعض هذه النقوش مطعم بالسن ، وبعضها قد أنزل فيه الصدف ، وآيات مقدسة بالقبطية والعربية .

٤ — مجموعة من الأدوات المعدنية كالصناديق الفضية المنقوشة بالنقش البارز لحفظ الكتاب المقدس والمزخرفة بالكتابات الجميلة البارزة ايضا ، وبعضها مرصع بالحجارة الكريمة ، وفى هذه المجموعة عدد من آنية الخدمة الدينية وعكاكيز البطارقة والصلبان الكبيرة والصغيرة ذهبية وفضية ونحاسية .

٥ — مجموعة من الملابس الكهنوتية الحريرية المطرزة بخيوط الذهب والحرير الملون ، وقد وشيت برسوم الشهداء والصلبان نضلا عن أستار الهياكل والاعلام الخاصة بالاحتفالات .

٦ — مجموعة من الايقونات التى تمثل حياة السيد المسيح وصور القديسين ايضا .

٧ — مجموعة من المؤلفات الدينية المكتوبة بخط اليد على ورق قديم جدا وبعضها رسمت عليه بماء الذهب والألوان المختلفة اشكال هندسية وصور الشهداء[٢٦] .

وقد نسقت معروضات المتحف تنسيقا روعى فيه الترتيب الزمنى وفقا لأنواعه المختلفة .

كما يضم المتحف مكتبة تشمل معظم ما كتب عن الأقباط وتاريخهم ولغتهم بسائر اللغات .

والى جانب هذه المتاحف توجد متاحف محلية فى عواصم المحافظات المصرى تحوى آثار مكتشفة بها ، كما تحوى ايضا بعض الآثار المكتشفة فى جهات اخرى والتى تزيد عن حاجة المتحف المصرى .

ولا يخفى ما فى وجود هذه المتاحف من فوائد ، اذ انها توجه انظار سكان كل محافظة الى تاريخها القديم ، وتبعث نشاطا وتنافسا فى الاقبال على الحفائر والمحافظة على الآثار .

هذا بالاضافة الى المتحف الحربى ، والمتحف الزراعى ومتحف النيل وغيره .

وهكذا يتضح أن تأسيس المتاحف فى مصر كان ثمرة من ثمرات الوعى القومى ، ومظهرا من مظاهر الرغبة فى المحافظة على تراث الأجداد ودراسته بطريقة علمية سليمة .

٥ ـ متحـف التعـليم

مقـره : ٢ شارع اسماعيل اباظة . ديوان وزارة التربية والتعليم .

تاريخ الانشـاء : انشيء فى عام ١٩٣٧ بمناسبة مرور مائة عام على انشاء ديوان المدارس ليكون تجسيدا لحركة التعليم فى مصر وتطورها على مر الأيـام .

رسـالته :

(أ) العرض التاريخى لتطور التعليم فى مصر بدءا من العصر الفرعونى وحتى اليـوم .

(ب) ابراز نوعيات التعليم فى مصر ومدى ما حققته من نمو ، وذلك من خلال عرض صور ونماذج ولوحات وبيانات وافية .

(جـ) توثيق تاريخ التعليم فى مصر وانواعه المختلفة بوثائق ومخطوطات نادرة .

اقسـام المتحف :

المدخـل : يعطى صورة شاملة عن رسالة المتحف ويضم لوحـات ملونة ومجسمة تمثل مراحل التعليم المختلفة .

الوزراء وكبار رجال التعليم : يعرض صـورا نادرة لوزراء التعليم طوال تاريخ مصر الحديث منذ عصر محمد على حتى اليوم ولمحة عن أهم منجزات كل منهم .

قدماء المصريين : يبرز حضارة مصر العريقة ، فيعرض لأول جامعة فى تاريخ البشرية « جامعة اونو » كما يعرض لأول مبادىء اللغة المصرية القديمة ، والتطور الذى سجله الفراعنة فى كافة العلوم .

التعليم عند العـرب : يعرض لمصر الاسلامية وما انجزه العـرب من اختراعات وتطوير لجوانب كثيرة من حياة مصر ، مع صور ملونة لاعـلام العرب البارزين الذين اسهموا فى اثراء العلوم والفنون فى مصر والعالم .

القرن التاسع عشر : به احصاء للمدارس التجهيزية العليا وبيـان بالبعثات التعليمية الأولى التى توجهت الى أوربا وصور نادرة لأصحابها .

التعليم العام وتعليم الفتاة : يعرض بالصور والأرقام لمراحل التعليم العام من التحضيري حتى الثانوي ، ويتعرض قسم تعليم الفتـــاة لتـــاريخ وتطور مراحل تعليمها .

الوثائق والبحوث والمكتبة : يعاون الباحثين وأساتذة الجامعات بمـــا يوفره من وثائق ومخطوطات ومراجع نادرة عن التعليم فى مصر .

التعليم الفنى : يضم نماذج من انتاج التعليم الفنى بأنواعه الصـــناعى والتجارى والزراعى كما يعرض مراحل تطوره .

الجامعات والمعاهد العليـــا : تســـجيل لتاريخ الجامعـــات المصرية بالاحصاءات النماذج المجسمة والبيانات الخاصة بكل جامعة .

الخـــط العربى : يعرض نماذج عديدة للخطوط العربية ، والزخرفة ، والتذهيب وتطورها منذ أقدم العصور .

الأزهر الشريف : يضم كثيرا من المعلومات عن نشأته منذ عام ٩٧٢ والقوانين الخاصة بتنظيمه كما يعرض نموذجا مجسما للجامع الأزهـــر ، وصورا لأبرز علمائه .

الوسائل التعليمية : تضم مجموعة نماذج مجسمة ،ومصـــورة لبعض الوسائل التعليمية التى تستخدم فى المدارس المصرية .

الصحافة المدرسية : يعرض نماذج لمقالات كتبت بأقلام شابة من طلاب وطالبات المدارس فى مناسبات مختلفة .

التربية الخاصة : يعرض بعض وسائل تعـــليم الطلاب المعـــاقين (مكفوفين — صم وبكم)[٢٧] .

٦ ـ المتحـف الحــربى

مقـــــره : قلعة صلاح الدين بالقاهرة .

تاريخ الانشـــاء : انشيء فى عام ١٩٣٧ م وتم افتتاحه عـــام ١٩٤٩ واعيد تجديده وافتتاحه فى عام ١٩٨٢ .

رسالته : العرض التاريخى لتطور تاريخ مصر العسكرى ، وارتباط ذلك بالتاريخ السياسى .

اقســـام المتحــف :

١ ــ قاعة المجــد : وهى القاعة الرئيسية للمتحف ، وبها صـــور وتماثيل لعظماء التاريخ المصرى والاسلامى والعربى .

٢ قسم الملابس العسكرية : ويضم تماثيل بالحجم الطبيعى لبعض الجنود وضباط الجيش وطلبة المدارس والكليات الحربية بملابس الميدان والتشريفة .

٣ ــ قاعة ملابس كبار القادة : وتضم نماذج لملابس كبار القـــــادة والملابس العسكرية المختلفة للملك السابق فاروق ورؤساء الجمهورية .

٤ ــ قاعة المدفعية : وتحتوى هذه القاعة على نماذج ولوحات ومدافع مختلفة الأعيرة والصنع فى العصر الحديث .

٥ ــ قاعة المدرعات : وتحكى تطور سلاح المدرعات .

٦ ــ قاعة الذخيرة : وتمثل نماذج للذخائر المتنوعة عبر العصـــــــور المختلفة وتطور هذه الذخائر ونوعياتها .

٧ ــ قاعة محمد على : وهى قاعة نادرة النقوش والرسوم تتوسطها نافورة مياه ، وبها ديوراما بالحجم الطبيعى لمحمد عــلى فى مجلس عمـــل يشمل كبار ضباطه وهيئة العلماء من مستشاريه وحرسه الخاص .

٨ ــ قسم الأسلحة البيضاء : ويشمل مختلف انواع هذه الاسلحة من سيوف وخناجر مختلفة العصور والمناطق والصنع .

٩ — **قسم الأسلحة النارية** : وبه مسدسات وطبنجات وبنادق قصيرة وبنادق من مختلف العصور منها بندقية خاصة للخديو اسماعيل .

١٠ — **الجناح الفرعونى** : وبه نماذج من الحصون المصرية وتشكيلات من الجيش المصرى وتنظيمه ولوحات جصية منقولة عن المعابد عليها كتابات هروغليفية سجلت انتصارات الجيش المصرى كما أن به نماذج للعجلات الحربية المستخدمة آنذاك .

١١ — **الجناح الاسلامى** : ويحتوى على نماذج القلاع والحصون وأبواب القاهرة وأسوارها ، وخريطة توضح اشهر الآثار الاسلامية فى القاهرة .

١٢ — **قاعة الأندلس** : تبرز الحملات العربية على الأندلس ، وانتشار الحضارة العربية هناك .

١٣ — **القاعة الاسلامية** : وتحتوى على خرائط تبين الفتوحات الاسلامية وتوسعاتها عبر القرون من الدولة الأموية حتى نهاية الحكم العثمانى .

١٤ — **صالة اسلامية** : وتبدأ بصلاح الدين الأيوبى ، وايقافه للمد الصليبى كما يوجد بها حجرة تمثل قصة أسر لويس التاسع بدار ابن لقمان بالمنصورة ، وحجرة اخرى بها نماذج لملابس الجيوش الايوبية ونموذج لبئر صلاح الدين وصور زيتية **أخرى** .

١٥ — **القرن التاسع عشر** : ويبدأ بالحملة الفرنسية ، ويوجد بها صور تمثل الاسكندرية والقاهرة وصور وخرائط تبين المعارك التى دارت بين المماليك والفرنسيين .

١٦ — **محمد على وخلفاؤه** : ويبدأ بتمثال محمد على وتماثيل القادة فى عصره ، وحجرة خاصة بالبحرية فى عصره ، وقاعة بها خرائط بالمعارك التى قادها ابراهيم باشا ، كما أن بها تماثيل لسليمان باشا الفرنساوى وغيره ، وصور تمثل حكم مصر من محمد على الى فاروق .

١٧ — **قسم اسماعيل باشا** : ويمثل الامبراطورية المصرية فى عصر اسماعيل وقصة حفر قناة السويس وغيرها .

١٨ — جناح السـودان : ويحتوى على معارك الجيش المصرى بالسودان منذ عهد محمد على ونماذج للاسلحة السودانية وغيرها .

١٩ — جناح الثورة العرابية : ويعرض لتماثيل احمد عرابى وزملائه الذين قاموا بالثورة وصورا زيتية لهم لمظاهرة عابدين وللمعارك الحربية التى خاضها الجيش المصرى ضد الانجليز .

٢٠ — جناح حرب فلسـطين : ويضم صورا فوتوغرافية تمثل سير المعارك الحربية والوثائق التى صدرت من مجلس الوزراء بشأن الحرب ، وتمثال للبطل احمد عبد العزيز وأبطال الفالوجا .

٢١ — جناح ثورة ١٩٥٢ : ويشتمل على تماثيل لرجال الثورة والبيانات التى اذيعت خلال هذه الفترة ، وصور لوثيقة تنازل الملك عن العرش وصور فوتوغرافية تمثل رحيل الملك ، وماكيت حصار لقصر عابدين وديوراما تمثل توقيع اتفاقية الجلاء وغيرها .

٢٢ — قسم حرب ١٩٥٦ : ويمثل صورة العدوان الثلاثى على مصر وبيان تأميم قناة السويس ، والمقاومة الشعبية فى بورسعيد .

٢٣ — قسم اليمن : ويصور تطور ثورة اليمن ، ونماذج للأسلحة وللابس الشيوخ اليمنيين ، ويوضح أعمال القوات المصرية هناك .

٢٤ — جناح ٦ أكتـوبر : ويشمل هذا الجناح تماثيل قادة حرب اكتوبر ، وديوراما تمثل عبور القوات المصرية للقناة وتحطيم خط بارليف ولوحات ونماذج لسيناء وللطائرات المشتركة فى حرب اكتوبر ونماذج للأسلحة المصرية التى شاركت فى المعركة وبعض الأسلحة والمعدات التى غنمها الجيش المصرى(٢٨) .

٧ ـ متحـف المثـال محمود مختـار

مقـره :

تاريخ الانشـاء : ٢٤ يوليو ١٩٦٢ .

رسـالته : ابراز دور الفنان المصرى محمود مختار فى ارساء قواعد فن النحت فى مصر واتخاذه من حضارة بلاده اللمسات الفنية التى واكبت روح العصر واستوعبت الثقافة الحديثة .

— تشجيع حركة فن النحت فى مصر ، فبعد موت المثال مختار فى عام ١٩٣٤ تحركت مشاعر أصدقاء فنه وتكونت جمعية أصدقاء مختار التى نقلت جائزة باسم المثال مختارتمنح سنويا للمثالين من أجـل استمرارية النهضـة التى بدأها ، وقد اهتمت الحكومة بهذا المتحف بعد أن تنازل ورثة مختـار عن آثاره للامة فاقامت له جناح مؤقت بمتحف الفن الحديث عام ١٩٥٢ حيث عرضت فيه أعماله الى أن قامت وزارة الثقافة والارشـاد القومى باعداد متحف مختار فى بقعـة من اجمل بقاع مصر .

اهم مقتنيات المتحـف :

١ — تمثال نهضة مصر :

وهو تعبير عن اليقظة الوطنية ، وتعددت فيه عناصر التعبير عن المعنى .

٢ — تمثال رياح الخماسـين :

وهو تمثال من الحجر يعتمد على عنف المقاومة وعصف الريح .

٨ – متحـف دار الكتب المصرية (الوثائق والمخطوطات)

مقـره : كورنيش النيل بالقاهرة . الدور الأول بمبنى الهيئة العامة للكتاب .

أهم مقتنيـاته : يضم هذا المتحف العديد من المصاحف التى يبدأ تاريخ كتابتها من القرن الأول وحتى القرن الثالث عشر الهجرى ، ويتضـح منها مراحل تطور الخطوط العربية ، ومن أهم هذه المصاحف مصحف شريف مكتوب بالخط الكوفى على ورق غزال وفى آخره كتابات تفيد ان هذا المصحف كتب بخط الامام جعفر الصادق بن الامام محمد الباقر بن على زين العابدين ابن الامام الحسين .

ومصحف شريف آخر مكتوبا على طريقة « أبى الاسود الدؤلى » وقد اهتم كاتبه بوضع حركات النطق خوفا من اللحن ومصحف شريف آخر كتب بقلم مغربى مضبوط الحركات رسم المولى الشريف على نجل أمير المؤمنين ، وجميع أوراق هذا المصحف محلاه بالذهب والياقوت بطريقـة أندلسـية رائعـة .

وفى هذا المتحف أيضا مخطوطات فى الطب والفلك وفى مجالات عديدة .

واللافت للنظر وجود مجموعة من حبوب القمح موضوعة تحت عدسة صغيرة على كل حبة قمح كتابات مختلفة فهناك حبة قمح مكتوب عليهـا سورتان من القرآن الكريم (الاخلاص وقريش) وحبة قمح أخرى مكتوب عليها أسماء من تولوا حكم مصر منذ عهد عمرو بن العاص وحتى الملك فاروق الى جانب ذلك فهناك بيضة مفرغة من الداخل مكتوب عليهـا كل الأعمال التى تمت فى مصر فى عهد الخديو اسماعيل .

مراجـــع الفصــل الثانى عشـــر

(١) تذكر بعض المراجع أن المتحف انشىء فى عام ١٨٥٨ م .
انظر : المنظمة العربية للتربية والعلوم والثقافة — المعالم الأثرية فى البلاد العربية جـ ٣ ص ٢٥١ .

(٢) كانت مبانى هذا المتحف فى حالة سيئة ، فقد كانت مســـجدا مهجورا ، مبانيه نصف عارية وبجانبه بعض حظائر قذرة ومسكنا موبوءا بالحشرات ، وقد تسبب ارتفاع النيل فى عام ١٨٧٨ فى اغراق صالات هذا المتحف .

للتفاصيل انظر جيمس بيكى : الآثار المصرية فى وادى النيل جـ ١ ، ترجمة لبيب حبشى وشفيق فريد — القاهرة ، الألف كتاب ، العدد ٤٩٥ ، ص ٩٠ — ٩١ .

(٣) الياس الأيوبى : المرجع السابق ص ٢٣٥ — ٢٣٦ .

والجدير بالذكر انه كان يسمح للسائحين الاوربيين بشراء بعض الآثار بأثمان باهظة .

ومما يذكر حول ذلك الموضوع ان احمد عرابى باشا بعد أن آلت اليه الأمور فى مصر أثناء ثورته فى عام ١٨٨١ قد رغب فى بيع ذلك المتحف دفعة واحدة ، ليسدد به ديون مصر الرسمية .
انظر الياس الأيوبى : المرجع السابق ص٢٣٥ .

(٤) المقتطف : الجزء الخامس من المجلد الســـابع والثمانين فى أول ديسمبر ١٩٣٥ ، مقال الدكتور حسن كمال السابق الذكر ، ص ٦٠٠ .

(٥) محمد المويلحى : حديث عيسى بن هشام أو فتـــرة من الزمن ، القاهرة ، مطبعة السعادة ١٩٢٣ ، ص ٤٣٦ .

(٦) ، (٧) نفسه ، ص ٤٤٠ .

(٨) انظر مقدمة دليل متحف القاهرة لعام ١٩٠٣ م .

(٩) ينقسم التاريخ المصرى الى الدولة القديمة ، والوسطى ، والحديثة والعصر المتأخر ثم العصر الاغريقى الرومانى وآثار بلاد النوبة .

(١٠) من اهمها أوراق الفيوم والبهنسا .
لتفاصيل ذلك انظر عبد العزيز الدالى : البرديات العربية ، القاهرة ، مكتبة الخانجى ، ١٩٨٣ ص ٧٣ — ٧٤ .

(١١) المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الاول ، مايو واكتوبر ١٩٤٨ ، دراسة للدكتور عبد المحسن بكير تحت عنوان أهم المقتنيات الحديثــة فى المتحف المصرى ، ص ١٩٧ — ١٩٨ .

(١٢) عن تفاصيل ذلك انظــر : المجلة التاريخية المصرية ، المجلــد السابق ، ص ٢٠١ — ٢٠٩ .

(١٣) توت معناها صورة ، وعنخ معناها حية ، وهذا يعنى أن اسم الملك هو « صورة آمون الحية » .

(١٤) اكتشفها عالم الآثار الانجليزى هوارد كارتر فى نوفمبر ١٩٢٢ بمساعدة اللورد كارنارفون .

(١٥) المنظمة العربية للتربية والعلوم والثقافة : المرجع السابق جـ ٣ .

(١٦) الأهرام فى ١٩٩١/٨/١٥ .

(١٧) عبد الرحمن الرافعى : الثورة العرابية والاحتلال الانجليزى ، القاهرة ، النهضة المصرية ، الطبعة الثانية ، ١٩٤٩ ، ص ١٦١ .

(١٨) المقتطف : الجزء الثالث من المجلد الثامن والسبعين فى مارس ١٩٣١ تحت عنوان : « دار الآثار العربية — أنفس ما فيها من الآثار والتحف » ص ٣١٩ .

(١٩) شغلت هذا المكان فيما بعد مدرسة السلحدار الابتدائية .

(٢٠) المعالم الأثرية ، جـ ٣ ، ص ٢٥٤ — ٢٥٦ .

(٢١) للتفاصيل انظر : المجلة التاريخية المصرية ، المجلد التاسع عشر ١٩٧٢ ، دراسة للدكتور احمد دراج تحت عنوان جاستون فيت وأعماله العلمية ، ص ١٠٥ — ١٠٧ .

(٢٢) المعالم الأثرية ، جـ ٣ ، ص ٢٥٧ — ٢٥٨ .

(٢٣) عرفت هذه الكنيسة بالمعلقة لبنائها فوق الحصن الرومانى الشهير الذى شيده الامبراطور تراجان ، ولم يزل جزءا منها وقد بنيت على الأرجح فى أواخر القرن الرابع أو أوائل القرن الخامس الميلادى .

للتفاصيل انظــر : المعالم الأثرية فى البـــلاد العربيـــة ، جـ ٣ ، ص ١٣٣ — ١٣٧ .

(٢٤) دار الوثائق القومية بالقلعة : محافظ ابحاث ، محفظة رقم ١٣٣ ، بحث تحت عنوان مذكرة تاريخية موجزة عن المتحف القبطى منذ نشأته الى الآن .

(٢٥) المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الأول ، مايو واكتوبر ١٩٤٨ ، دراسة للاستاذ طوجو مينا تحت عنوان : « المقتنيات الجديدة بالمتحـف القبـطى » .

(٢٦) مركز الاهرام للترجمة والنشر : شهود العصر ، مقال لمرقس سميكة باشا تحت عنوان متحف الآثار القبطية ، ص٧١ — ٧٢ .

(٢٧) وزارة التربية والتعليم : الادارة العامة للانشطة التربوية . دليل متحف التعليم .

(٢٨) دليل المتحف الحربى بالقلعة . الطبعة الأولى ١٩٨٢ .

الخاتمة

ومما سبق يتضح أن لمصر سحرا خاصا وهو ليس فقط سحر تاريخها وحضارتها العريقة وآثارها الخلابة ، ولكنه أيضا سحر شعبها الطيب الذى أقام مجتمعا متجانسا ومتآلفا وهو مجتمع تسوده المودة والتعاطف ، انصهر عبر تاريخها الطويل فى شخصية واحدة ذات عمق روحى واحد وفلسفة تفاؤلية، وهى شخصية ودودة وسمحاء لا تعرف العنف أو التعصب أو العنصرية ومع ذلك فانها قابلة للانفعال ومع أن الشعب المصرى عاش منذ زمن طويل على مفترق الطرق الدولية ، وكانت بلاده مسرحا لأعظم احداث التاريخ فقد ظل صامدا لا يقبل الاستكانة وان صبر عليها فترة من الزمن ، فقد أثبتت الوطنية المصرية تواجدها على مر العصور التاريخية التى عاشتها مصر ، واستطاعت اثبات حق الانسان المصرى فى الحياة كريما على أرضه واجبار المعتدين على التخلى عن أطماعهم ونواياهم العدوانية .

فهرست

الفصـــل الثـــامن

الفصـــل التاســـع

الفصـــل العـــاشر

الفصـــل الحـــادى عشر

الموضوع | الصفحة

الفصـــل الثـــانى عشر

مطبعة الجبلاوى
٢٩ شارع الترعة البولاقية

رقم الايداع بدار الكتب ٨٥١٣/ ١٩٩٢
I. S. B. N. 977 — 00 — 4214 — 5